



بقلم

الدكتور

أحمد فريد رفاعي

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الثالث

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٦هـ — ١٩٢٧م



فهرس

المجلد الثالث من عصر المأمون

ملحق الكتاب الثالث — عصر الأمين والمأمون

باب المنثور : صفحة

رسائل سهل بن هارون :

رسائل عمرو بن مسعدة :

صفحة

رسائل الجاحظ :

باب الرسائل :

صفحة

التحاميد :

التحاميد فى أواخر الكتب :

مختار ما كتب من باب التهانى فى كل فن :

باب المنظوم :

مُلحَق

الكتاب الثالث

باب المنثـــور

(أ) نصوص كتب الأمين والمأمون

---

١ — نص كتاب الأمين الى المأمون، وهو الكتاب الذى أشرنا اليه فى الجزء الأول.

إذا ورد عليك كتابُ أخيك — أعاذه الله من فقدك — عند حلول ما لا مردّ له ولا مَدْفع، مما قد أخلف وتناسخ الأمم الخالية، والقرون الماضية، بما عزّاكَ اللهُ به. واعلم أن الله جلّ ثناؤه، قد اختار لأمير المؤمنين أفضلَ الدارين، وأجزلَ الحظين، فقبَضه الله طاهرا زاكيا، قد شكَر سعيَه، وغفر ذنبه، إن شاء الله. فقُمْ فى أمرك قيامَ ذى الحزم والعزم، والناظرِ لأخيه ونفسه، وسلطانه وعامة المسلمين. وإيّاك أن يَغلِب عليك الجزَعُ، فإنه يُحبِط الأجر، ويُعقِب الوزر، وصلوات الله على أمير المؤمنين حيًّا وميتًا، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون. وخُذِ البيعة على مَنْ قِبلَك، من قُوّادك وجُنْـدك، وخاصّتك وعامّتك، لأخيك ثم لنفسك، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين، على الشّريطة التى جعلها لك أميرُ المؤمنين: من نسخها له وإثباتها، فإنك مُقلَّد من ذاك، ما قلّدك اللهُ وخليفتُـه.

وأعْلِمْ مَنْ قِبلَك رأيى فى صلاحهم، وسدّ خَلّتهم، والتوسعة عليهم، فمن أنكرتَه عند بيعته، أو اتّهمتَه على طاعته، فابعث الىّ برأسه مع خبره. وإياك وإقالته، فإن النارَ أولى

به . وٱكْتُبْ الى عُمّال ثُغورك، وأُمَراءِ أجنادك، بما طَرَقك من المصيبة بأمير المؤمنين ؛ وأعْلِمهم أنّ الله لم يرضَ الدنيـا له ثوابا ، حتى قبضه الى رُوحه وراحته وجنّته ، مَغْبوطا محمودا، قائدا لجميع خلفائه إلى الجنة إن شاء الله . ومُرْهم أنْ يأخذوا البيعةَ على أجنادهم، وخواصّهم وعوامّهم، على مثـل ما أمرتك به، مِنْ أخذها على مَنْ قِبَلك ؛ وأوعز إليهم فى ضبط ثُغُورهم، والقوّة على عدوّهم، إنّى متفقّدٌ حالاتهم، ولامٌّ شَعَثَهم، ومُوَسِّع عليهم، ولا آنٍ فى تقوية أجنادى وأنصارى . ولتكنْ كُتبُك اليهم كُتُبًا عامةً لتُقْرأ عليهم، فإنّ ذلك ما يسكّنهم، ويبسُط أملَهم . وٱعْمل بما تَأمُرُ به لِمَنْ حضرك، أو نأَى عنك من أجنادك على حسب ما تَرَى وتُشاهد . فإن أخاك يعـرف حسْن ٱختيارك، وصحّة رأيك، وبُعـد نظرك، وهو يستحفظ الله لك، ويسأله أن يَشُدَّ بك عضده، ويجمعَ بك أمرَه، إنّه لطيف لمـا يشاء . وكتب بكر بن المُعتَمِر بين يدىّ وإملائى فى شوّال سنة ١٩٢ هـ

٢ — وهذا كتاب محمد الأمين الى أخيه صالح .

بسم الله الرحمن الرحيم

اذا ورد عليك كتابى هـذا، عند وقوع ما قد سبَق فى علم الله، ونفَذ مِن قضائه، فى خُلفائه وأوليائه، وجرَت به سنّته فى الأنبياء والمرسلين، والملائكة المقربين، فقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. فاحمدوا الله على ماصار اليه أمير المؤمنين، من عظيم ثوابه ومُرافقة أنبيائه، صلوات الله عليهم، إنّا إليه راجعون؛ وإيّاه نسأل أنْ يُحسن الخلافة على أمّة نبيــه محمد صلّى الله عليــه وسلّم . وقد كان لهم عِصْمَةً وكهفا، وبهم رءوفا رحـــيا .

فشـــمرّ فى أمرك ، وإيّاك أنْ تُلْقِي بيديك ، فإن أخاك قد ٱختارك لمـا ٱستنهضك له ، وهو مُتفقّد مواقع فقدانك ، لحقق ظنــه ، ونسأل اللهَ التوفيق . وخذ البيعة على مَنْ قِبَلك ، من ولد أمير المؤمنين ، وأهْل بيته ومواليه وخاصــته وعامته لمحمد أمير المؤمنين ، ثم لعبـد الله ابن أمير المؤمنين ، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين ، على الشَّريطة التى جعلهـا

أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — من فسخها على القاسم أو إثباتها . فإنّ السعادة واليُمْن فى الأخذ بعهده والمُضِىّ على مناهجه .

وأعلم مَنْ قِبَلَك من الخاصة والعامّة رأيى فى آستصلاحهم، وردّ مَظالمهم، وتفقّد حالاتهم، وأداء أرزاقهم، وأُعطياتهم عليهم . فإن شغَب شاغب، أو نَعر ناعر، فاسْطُ به سَطْوةً تجعله نَكَالا لما بين يدَيْها وما خلْفَها ومَوْعظةً للمتقين . وآضْمُم إلى الميمون ابن الميمون الفَضْلِ بن الربيع ولدَ أمير المؤمنين وخدَمه وأهله ؛ ومُرْه بالمسير معهم فيمن معه ، وجنده ورابطته ؛ وصيّر الى عبد الله بن مالك أمرَ العسكر وأحداثه ، فإنّه ثِقةٌ على ما يلى، مقبولٌ عند العامّة ؛ وآضْمُم إليه جميع جند الشُّرَط، من الروابط وغيرهم، الى مَنْ معه من جنده ؛ ومُرْه بالجدّ والتيقّظ، وتقديم الحزْم فى أمره كلّه، ليلَه ونهارَه . فإنّ أهل العداوة والنفاق لهذا السلطان يَغْتنمون مثلَ حلول هذه المصيبة ؛ وأقِرّ حاتم بن هرثمةَ على ما هو عليه ، ومره بحراسة ما يحفظ به قصور امير المؤمنين ، فإنّه ممن لا يُعْرَف إلّا بالطاعة ، ولا يَدين إلا بها ، بمعاقَد من الله ، مما قدّم له من حال أبيه المحمود عند الخلفاء ؛ ومُر الخدم بإحضار روابطهم، مَنْ يُسدُّ بهم وبأجنادهم مواضعُ الخلل من عسكرك ، فإنّهم حدٌّ من حدودك ؛ وصيّر مُقدِّمَتك الى أسَد بن يزيد بن مَزْيد، وساقَتك الى يحيى بن مُعاذ، فيمن معه من الجنود ، ومرهما بمناوبتك فى كل ليلة .

وآلزم الطريقَ الأعظم، ولا تَعْدُوَنّ المراحل، فإنّ ذلك أرفق بك ؛ ومر أسد بن يزيد، أن يتخيّر رجلا من أهل بيته أو قوّاده، فيَصيرَ الى مقدّمته، ثم يصيرَ أمامَه، لتهيئة المنازل، أو بعض الطريق ؛ فإن لم يَحْضُرْك فى عسكرك بعضُ مَنْ سميتُ، فاخترْ لمواضعهم مَنْ تثِق بطاعته، ونصيحته وهيبته، عند العوامّ ؛ فإنّ ذلك لن يُعْوِزَك من قوادك وأنصارك، إن شاء الله .

وإيّاك أن تُنْفِذَ رأيا، أو تُبْرم أمرا ، إلّا برأى شيخك ، وبقية آبائك ، الفضل بن الربيع، وأقرِر جميع الخدم على ما فى ايديهم من الأموال والسلاح والخزائن وغير ذلك ؛

ولا تُخرِجَنّ أحدا منهم، مِن ضمن ما يلِي، الى أن تقدم علىّ . وقد أوصيت بكر بن المُعتَمِر بمـا سيُبلّغكه، وأعْمَلْ فى ذلك بقــدر ما تشاهد وترى . وإن أمرت لأهل العسكر بعطاء أو رزق فليكن الفضــل بن الربيع المتولى لإعطائهم، على دواوينَ يتخذها لنفسه، بمَحْضَرٍ مِن أصحاب الدواوين ؛ فإنّ الفضل بن الربيع لم يزَل مثلَ ذلك لمهمات الأمور . وأنفِذْ إلىّ عند وصول كتابى هــذا إليك إسماعيــلَ بن صَبِيح ، وبكرَ بن المُعْتَمِر، على مَرْكَبَيْهما من البريد، ولا يكون لك عُرْجَة ولا مُهْلة، بموضــعك الذى أنت فيــه، حتى تُوَجّه الىّ بعسكرك بما فيه من الأموال والخزائن إن شاء الله . أخوك يَسْتدفع الله عنك، ويسألُه لك حسن التأييد برحمته . وكتب بكر بن المُعْتَمِر بين يدىّ وإملائى فى شوّال سنة ١٩٢ هـ .

(ب) القول بخلق القرآن

وهاك مثلًا مما كتبه المأمون إلى وُلاته فى الأخذ بمذهبه فى القول بخلق القرآن، وهو ما أرسله إلى عامله إسحاق بن إبراهيم وما يَرويه لنا الطبرى مما حصل .

أما الكتاب فهو :

أما بعد، فإنّ حقّ الله على أئمّة المسلمين وخُلفائهم الاجتهادُ فى إقامة دين الله الذى استحفظهم ، ومواريث النبوّة التى أورثهم، وأثَرِ العلم الذى استودَعَهم ، والعمل بالحق فى رعيتهم، والتشمير لطاعة الله فيهم؛ والله يسأل أميرُ المؤمنين، أنْ يوفّقه لعزيمة الرُّشد وصريمته ، والإقساط فيما ولّاه الله من رعيّته ، برحمته ومنّته؛ وقد عرَف أمير المؤمنين أنّ الجُمهور الأعظم، والسوادَ الأكبر، من حشو الرعيّة، وسِفْلَة العامّة ، ممن لا نظر له ولا روِيّة، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته، ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه، فى جميع الأقطار والآفاق ، أهلُ جهالة بالله وعَمًى عنه ، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به، ونُكوبٍ عن واضحات أعلامه وواجب سبيله، وقصورٍ أن يقدُروا اللهَ حقّ قَدْره، ويعرفوه كُنْهَ معرفته، ويفرّقوا بينه وبين خلقه، لضعف آرائهم، ونقص عقولهم، وجفائهم عن التفكر والتذكّر؛ وذلك أنّهم ساوَوْا بين الله تبارك وتعالى، وبين ما أنزل من القرآن ، فأطبقوا مجتمعين ، واتّفقوا غير متعاجمين ، على أنّه قديمٌ أوّل، لم يخلقه الله ، ويُحدثه ويخترعه، وقد قال الله عز وجل فى مُحكم كتابه، الذى جعله لما فى الصدور شفاءً، وللمؤمنين رحمةً وهدى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ . فكلّ ما جعله الله فقد خلقه، وقال : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ . وقال عز وجل : ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ . فأخبر أنه قصصٌ لأمور أحدثه بعدها ، وتلا به متقدّمها ، وقال : ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ . وكلّ مُحكَم مُفصَّل، فله مُحكِمٌ مُفصِّل، والله مُحكِم كتابه ومفصّله ، فهو خالقه ومُبتدِعه ؛

ثم هم الذين جادلوا بالباطل، فدعوا إلى قولهم، ونسبوا أنفسهم إلى السنّة، وفى كلّ فصل من كتاب الله قصصٌ من تلاوته، مُبطل قولهم، ومكذّب دعواهم، يردّ عليهم قولهم ونِحلتهم، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة، وأنّ مَنْ سواهم أهلُ الباطل والكفر والفُرقة؛ فاستطالوا بذلك على الناس، وغرّوا به الجُهّال، حتى مال قومٌ من أهل السَّمْت الكاذب، والتخشّع لغير الله، والتقشّف لغير الدين الى مُوافقتهم عليه، ومواطأتهم على سيّئ آرائهم، تزيُّناً بذلك عندهم، وتصنُّعاً للرياسة والعدالة فيهم، فتركوا الحقّ إلى باطلهم، واتّخذوا دون الله وليجةً إلى ضلالتهم، فَقُبِلَتْ بتزكيتهم لهم شهادتُهم، ونفذت أحكام الكتّاب بهم، على دَغَل دينهم، ونَغَل أديمهم، وفساد نيّاتهم ويقينهم؛ وكان ذلك غايتهم التى اليها جَرَوْا، وإيّاها طلبوا فى متابعتهم، والكذِب على مولاهم، وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب، ألّا يقولوا على الله إلّا الحقّ، ودرسوا ما فيه، أولئك الذين أصمّهم الله، وأعمَى أبصارَهم، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ، أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾. فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة، ورءوس الضلالة، المَنقوصون من التوحيد حظّا، والمَخْسوسون من الإيمان نصيباً، وأوعية الجَهالة وأعلام الكذب، ولسان إبليسَ الناطق فى أوليائه، والهائل على أعدائه، من أهل دين الله، وأحقّ مَن يُتَّهَمُ فى صدقه، وتُطْرح شهادتُه، ولا يوثَقُ بقوله ولا عمله، فإنّه لا عمَل إلّا بعد يقينٍ، ولا يقينَ إلّا بعد استكمال حقيقة الإسلام، وإخلاص التوحيد؛ ومَنْ عمِي عن رشده وحظّه، من أهل الإيمان بالله وبتوحيده، كان عمّا سوى ذلك من عمله، والقَصْد فى شهادته، أعمَى وأضلّ سبيلا؛ ولعَمْر أمير المؤمنين أنّ أحجَى الناس بالكذب فى قوله، وتَخرّص الباطل فى شهادته مَن كذَب على الله ووحيه، ولم يَعرِف الله حقيقةَ معرفته، وأنّ أولاهم بردّ شهادته، فى حكم الله ودينه مَن ردّ شهادة الله على كتابه، وبهَتَ حق الله بباطله، فاجمَعْ مَن بحضرتك من القضاة، واقرا عليهم كتابَ أمير المؤمنين هذا إليك، فابْدأ بامتحانهم فيما يقولون، وتكشيفهم عما يعتقدون، فى خلق الله القرآن وإحداثِه، وأعلِمْهم أنّ أمير المؤمنين غيرُ مستعين فى عمله، ولا واثِق

فيما قلّده الله، وٱستحفظه من أمور رَعيّتــه بمَن لا يوثق بدينه، وخُلوص توحيده ويقينه، فإذا أقرّوا بذلك، ووافقوا أميرَ المؤمنين فيه، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة، فمُرْهم بنصّ مَن يحضُرهم من الشهود على الناس، ومَسْألتهم عن عِلْمهم فى القرآن، وترك إثبات شهادة من لم يُقِرّ أنّه مخلوق مُحْدَث ولم يره، والأمتناع من توقيعها عنده؛ وٱكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك، عن قُضاة أهل عَملك فى مسألتهم، والأمر لهم بمثل ذلك، ثم أَشرِف عليهـم، وتفقّدْ آثارهم، حتّى لا تُنْفَــذَ أحكامُ الله، إلّا بشهادة أهل البصائر فى الدين، والإخلاص للتوحيد؛ وٱكتب إلى أمير المؤمنيـــن بمـا يكون فى ذلك إن شاء الله . وكتب فى شهر ربيع الأوّل سنة ٢١٨ هـ .

وكتب المأمون، الى إسحاق بن ابراهيم ، فى إشخاص سبعة نفرَ، منهم : محمد بن سعد كاتب الواقدىّ، وأبو مسلم مستملى يزيد بن هارون، ويحيى بن مُعين، وزُهـير بن حَرْب أبو خَيْثَمَةَ ، وإسماعيل بن داود، وإسماعيل بن أبى مسعود، وأحمـد بن الدَّوْرَقِىّ ، فأُشْخِصوا اليــه، فامتحنهم ، وسألهم عن خلق القرآن ، فأجابوا جميعا أنّ القرآن مخـلوق، فأشْخَصهم إلى مدينــة السلام ، وأحضرهم إسحاق بن إبراهيم دارَه ، فشهّر أمرهم وقولَهم بحضرة الفقهاء، والمشايخ من أهل الحديث، فأقرّوا بمثل ما أجابوا به المأمون فخلّى سبيلهم، وكان ما فعَلَ إسحاق بن إبراهيم من ذلك بأمر المأمون .

وكتب المأمون بعد ذلك إلى إسحاق بن ابراهيم :

أما بعد، فإن من حقّ الله على خُلفائه فى أرضه، وأُمنائه على عباده، الذين ٱرتضاهم لإقامة دينه، وحمّلهم رِعاية خلقه، وإمضاءَ حُكْمه وسُنَنه، والأئتمـامَ بعدله فى بريّته، أن يَجْهَدوا لله أنفسَهم، ويَنْصَحوا له فيما ٱستحفظَهم وقلدهم، ويَدُلّوا عليــه — تبارك ٱسمُهُ وتعالى — بفضــل العلم الذى أودعهم، والمعرفةِ التى جعلها فيهـم، ويَهْدوا إليه مَن زاغ عنــه ، ويردوا مَن أدبَر عن أمره ، ويَنْهجوا لرعاياهم سَمْتَ نجاتهم، ويقِفوهم على حدود إيمـانهم، وسبيل فوزهم وعصمتهم، ويَكْشفوا لهم عن مُغَطّيات أمورهم، ومشتبَهاتها

عليهم، بما يدفعون الريب عنهم ، ويعودُ بالضياء والبينة على كافتهم، وأن يؤثروا ذلك من إرشادهم وتبصـيرهم، إذ كان جامعا لفنون مصانعهم، ومنتظما لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم، ويتذكروا أنّ الله مُرْصِدٌ من مساءلتهم عمّا حُمّلوه، ومجازاتهم بمـا أسلفوه، وقدّموا عنده؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين ، إلا بالله وحده ، وحسبه الله وكفى به . وممّـا بيّنه أمير المؤمنين بَرَوِيّته ، وطالعه بفكره، فتبيّن عظيمَ خطره، وجليـلَ مايرجع فى الدين من وَكْفه وضرره ما ينال المسلمون بينهم من القول فى القرآن الذى جعله الله إماما لهم ، وأثرًا من رسول الله صلى الله عليه وسـلم، وصفيه محمد صلى الله عليه وسـلم باقيا لهم، وآشتباهه على كثير منهم، حتّى حسُن عندهم، وتزيّن فى عقولهم، ألّا يكون مخلوقا، فتعرّضوا بذلك لدفع خلق الله، الذى بان به عن خلقه، وتفرد بجلالته من ٱبتداع الأشياء كلّها بحكمته، وإنشائها بقدرته، والتقدّم عليها بأوّليته، التى لا يُبْلَغ أُولاها، ولا يدرك مداها، وكان كلّ شىء دونَه، خلقا من خلقه، وحدَثا هو المُحدِث له، وإن كان القرآن ناطقا به، ودالا عليـه، وقاطعا للٱختلاف فيه، وضاهوْا به قول النصارى، فى آدّعائهم فى عيسى بن مريم أنّه ليس بمخلوق، إذ كان كلمةَ الله، والله عز وجل يقول : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ . وتأويل ذلك : إنا خلقناه، كما قال جل جلاله : ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ . وقال : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ . ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ . فسوى عز وجل، بين القرآن ، وبين هـذه الخلائق ، التى ذكرها فى شِيَة الصنعة ، وأخبر أنّه جاعلُه وحدَه ، فقال : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ . فقـال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ، ولا يُحاط إلّا بمخلوق، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ . وقال : ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ . وقال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾. وأخبر عن قوم ذمّهم بكذبهم، أنهم قالوا : ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ . ثم أكذبهم على لسان رسوله ، فقال لرسوله : ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ . فسمى الله تعالى القرآن قرآنا وذِكرًا، وإيمانًا ونورا وهدًى ومباركا وعربيّا

وقصصا، فقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَص بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القرآن ﴾ . وقال : ﴿قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ . وقال : ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ . وقال : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ . فجعل له أوّلا وآخراً، ودلّ عليه، أنّه محدودٌ مخلوق، وقد عظّم هؤلاء الجهلةُ بقولهم فى القرآن؛ الثّلم فى دينهم، والحَرَجَ فى أمانتهم ، وسهّلوا السبيل لعدو الإسلام، وٱعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم حتى عرّفوا، ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التى هى لله وحدَه وشبّهوه به، والإشباه أولى بخلقه، وليس يرى أميرُ المؤمنين، لمن قال بهذه المقالة حظًّا فى الدين ، ولا نصيبًا من الإيمان واليقين، ولا يرى أنْ يُحِلّ أحدا منهم محلّ الثقة فى أمانة ولا عدالة ولا شَهادة، ولا صِدْق فى قول ولا حكاية، ولا تولية لشىء من أمر الرعية؛ وإن ظهر قصد بعضهم، وعُرِف بالسداد مُسدّدٌ فيهم، فإنّ الفروع مردودة الى أصولها، ومحمولةٌ فى الحمد والذم عليها، ومَن كان جاهلا بأمر دينه، الذى أمره الله به، مِن وحدانيته، فهو بما سواه أعظم جَهلا، وعن الرشد فى غيره أعمى وأضل سبيلا .

فاقرأ على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق القاضى كتابَ أمير المؤمنين، بما كتب به إليك ، وانصصهما عن عِلْمهما فى القرآن، وأعلِمْهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شىء من أمور المسلمين، إلّا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده، وأنّه لا توحيد لمن لم يُقِرّ بأن القرآن مخلوق، فإنْ قالا بقول أمير المؤمنين فى ذلك فتقدم اليهما فى ٱمتحان مَن يحضُر مجالسهما، بالشهادات على الحقوق ، ونَصّهم عن قولهم فى القرآن، فَمن لم يقل منهم إنّه مخلوق، أبطَلا شهادته، ولم يقطعا حكما بقوله، وان ثبت عفافُه بالقصد والسداد فى أمره، وٱفعل ذلك بمن فى سائر عمالك من القضاة، وأشرف عليهم إشرافا يزيد الله به ذا البصيرة فى بصيرته ، ويمنع المرتاب من إغفال دينه، وٱكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك فى ذلك إن شاء الله .

ثم لننظر ما حصل بعد ذلك مما يَرويه لنا الطبرىّ قال :

فأحضر إسحاقُ بن إبراهيم لذلك جماعةً من الفقهاء والحُكّام والمحـدِّثين ، وأحضر أبا حسّان الزِّيادىّ ، و بشر بن الوليد الكندىّ ، وعلىّ بن أبى مُقاتل ، والفضل بن غانم ، والذيّال بن الهَيْثَم ، وسَجّادة ، والقَوَاريرىّ ، وأحمد بن حنبل ، وقُتَيْبة ، وسَعْدويه الواسطىّ ، وعلىّ بن الجَعْـد ، و إسحاق بن أبى إسرائيل ، وٱبن الهَرِش ، وٱبن عُلَيّـةَ الأكبر ، ويحيى ابن عبد الرحمن العُمَرىّ ، وشيخا آخر من ولد عمر بن الخطّاب ، كان قاضى الرقّة وأبا نصر التمّار وأبا مَعْمَر القَطِيعىّ ، ومحمّـد بن حاتم بن ميمون ، ومحمـد بن نوح المَضْروب ، وابن الفَرُّخان ، وجمـاعة منهم النَّضْر بن شُمَيْـل ، وابن علىّ بن عاصم ، وأبو العَوّام البَزّاز ، وابن شُجاع ، وعبدالرحمن بن إسحاق ، فأُدخلوا جميعا على إسحاق ، فقرأ عليهم كتاب المأمون هـذا مرّتين ، حتّى فهموه ، ثم قال لبشر بن الوليـد : ما تقول فى القرآن؟ فقال : قد عرّفت مقالتى لأمير المؤمنين غيرَ مرّة ، قال : فقد تجدّد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى ، فقال : أقول القرآن كلام الله ، قال : لم أسألْكَ عن هذا ، أمخلوقٌ هو؟ قال : الله خالق كلّ شىء ، قال : ما القرآن شىء؟ قال : هو شىء ، قال : فمخلوق؟ قال : ليس بخالق ، قال : ليس أسألُكَ عن هـذا ، أمخلوق هو ؟ قال : ما أُحسن غيرَ ما قلتُ لك ، وقد ٱستعهدت أميرَ المؤمنين ألّا أتكلّم فيه ، وليس عنـدى غير ما قلتُ لك ، فأخذ إسحاق بن ابراهيم رُقْعَةً كانت بين يديه ، فقرأها عليـه ، ووَقّفه عليها ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله أحدا فردا لم يكن قبله شىءٌ ، ولا بعده شىء ، ولا يشبهه شىء من خلقه ، فى معنًى من المعانى ، ولا وجهٍ من الوجوه ، قال : نعم ، وقد كنتُ أضرب الناس على دون هـذا ؛ فقال للكاتب : ٱكتب ما قال .

ثم قال لعلىّ بن أبى مُقاتل : ما تقول يا علىّ ؟ قال : قد سمعتُ كلامى لأمير المؤمنين فى هذا غيرَ مرّة ، وما عندى غيرُ ما سمـع ، فامتحنه بالرقعة ، فأقرّ بما فيها ، ثم قال : القرآن مخلوق ؟ قال : القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هـذا ، قال : هو كلام الله و إن أمرَنا أمير المؤمنين بشىء سمعنا وأطعنا ، فقال للكاتب : ٱكتب مقالته .

ثم قال للذيّال نحوا من مقالته لعليّ بن أبي مُقاتل ، فقال له مثل ذلك . ثم قال لأبي حسّان الزِّيادي : ما عندك ؟ قال : سَلْ عما شئت ، فقرأ عليه الرُّقعة، ووقّفه عليها فأقر بما فيها. ثم قال : من لم يقل هذا القولَ فهو كافر، فقال : القرآن مخلوق هو ؟ قال : القرآن كلام الله والله خالقُ كلّ شيء ، وما دون الله مخلوق ، وأمير المؤمنين إمامُنا وبسببه سمعنا عامةَ العلم، وقد سمع ما لم نسمع، وعلِم ما لم نعلم،وقد قلّده الله أمرنا،فصار يُقيم حجّنا وصلاتنا، ونؤدّي اليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معه، ونرى إمامته إمامة ، وإن أمرنا ائتمرنا ، وإن نهانا انتهينا، وإن دعانا أجبنا، قال : القرآن مخلوق هو ؟ فأعاد عليه أبو حسّان مقالتَه، قال : إن هذه مقالةُ أمير المؤمنين، قال : قد تكون مقالةَ أمير المؤمنين ولا يأمُر بها الناس ، ولا يدعوهم اليها ، وإن أخبرتني أنّ أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلتُ ما أمرْتني به، فإنك الثقة، المأمون عليه، فيما أبلغتَني عنه من شيء ، فإن أبلغتَني عنه بشيء صِرتُ اليه، قال : ما أمرني أن أبلّغك شيئا، قال علي بن أبي مقاتل: قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفرائض والمواريث، ولم يحملوا الناس عليها؛ قال له أبو حسّان: ماعندي إلا السمعُ والطاعة، فمرني آتمِرْ، قال: ما أمرني أن آمرك، وانما أمرني أن أمتحنك .

ثم عاد الى أحمد بن حنبل، فقال له : ما تقول في القرآن؟ قال : هو كلام الله، قال: أمخلوق هو؟ قال : هو كلام الله لا أزيد عليها ، فامتحنه بما في الرقعة، فلما أتى الى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وأمسك عن لا يُشْبِهه شيءٌ من خلقه، في معنى من المعاني ، ولا وجه من الوجوه ؛ فاعترض عليه ابن البَكّاء الأصغر، فقال — أصلحك الله— : إنه يقول: سميع من أذنٍ، بصير من عَيْنٍ، فقال إسحاق لأحمد بن حنبل : ما معنى قوله سميع بصير؟ قال: هو كما وصف نفسه، قال : فما معناه؟ قال: لا أدري هو كما وصف نفسَه ؛ ثم دعا بهم رجلًا رجلًا كلّهم يقول : القرآن كلام الله، إلّا هؤلاء النفر : قتيبةَ، وعبيدَ الله بن محمد بن الحسن ، وابن عُلَيّة الأكبر، وابن البَكّاء ، وعبد المُنعم بن إدريس

ابن بنت وَهْب بن مُنَبِّه ، والمُظَفَّر ابن مُرَجَّا ، ورجلا ضريرا ليس من أهل الفقه ، ولا يُعرَف بشيء منه إلّا أنّه دُسّ فى ذلك الموضع ، ورجلا من ولد عمرَ بن الخطاب قاضى الرقة ، وابنَ الأحمر ، فأما ابن البَكّاء الأكبر فإنه قال : القرآن مجعول لقول الله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ ، والقرآن مُحْدَثٌ لقوله : ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ قال له إسحاق : فالمجعول مخلوق؟ قال : نعم ، قال : فالقرآن مخلوق؟ قال : لا أقول مخلوق ولكنّه مجعول ، فكتب مقالتــه ، فلما فرغ من امتحان القوم وكتب مقالاتهــم اعترض ابن البَكّاء الأصـغر فقال — أصلحك الله — : إن هـذين القاضيين أئمة ، فلو أمرتَهما فأعادا الكلام ! قال له إسحاق : همـا مَن يقوم بحجّة أمير المؤمنين ، قال : فلو أمرتَهما أن يُسمِعانا مقالتهما لنَحْكِي ذلك عنهما ! قال له إسحاق : إن شهدتَ عندهما بشَهادة فستعلم مقالتهما إن شاء الله ، فكتب مقالة القوم رجلا رجلا ووُجِّهت الى المأمون ، فمكث القوم تسعة أيّام ثم دعا بهـم . وقد ورد كتاب المأمون ، جوابُ كتاب إسحاق بن إبراهيم فى أمرهم . وهاك هو مانجعله ختاما لكلمتنا .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فقد بلغ أميرَ المؤمنين كتابُك جوابُ كتابه ، كان اليك فيما ذهب إليـه مُتَصَنِّعة أهل القبلة ، ومُلْتَمِسو الرياسة فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة ، من القول فى القرآن ، وأمرِك به أميرُ المؤمنين ، من امتحانهم ، وتَكْشيف أحوالهم ، وإحلالهم محالَّهم ، تذكر إحضـارَك جعفرَ بنَ عيسى ، وعبدَ الرحمن بن إسحاق ، عند ورود كتاب أمير المؤمنين ، مـع من أَحْضَرْت ممن كان ينسب الى الفِقْه ، ويُعْرَف بالجلوس للحديث ، ويَنْصب نفسَه للفُتْيا بمدينة السلام ، وقراءتَك عليهم جميعا كتابَ أمير المؤمنين ، ومسألتَك إياهم عن اعتقادهم فى القرآن ، والدَلالة لهم على حظهـم ، وإطباقهـم على نفى التشبيه ، واختلافهم فى القرآن ، وأمرَك مَن لم يقل منهم إنه مخلوق بالإمساك عن الحديث والفتوى ، فى السرّ والعلانيـة ، وتقدُّمَك الى السِّـنْدى ، وعباس مولى أمير المؤمنين بمـا

تقـدّمتَ به فيهم الى القاضيَين بمثل ما مثّل لك أميرُ المؤمنين، من آمتحان مَن يحضُرُ مجالسَهما من الشهود ، وبثّ الكتب الى القضاة فى النواحى من عملك بالقدوم عليـك، لتَحمِلَهـم وتَمْتَحِنَهم على ما حده أميرُ المؤمنين، وتثبيتك فى آخر الكتاب أسمـاءَ مَنْ حضر ومقالاتهم ، وفهم أمير المؤمنين ما اقتصصت؛ وأميرُ المؤمنين يحمد الله كثيرا كما هو أهلُه ، ويسأله أن يصلّى على عبـده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ويرغَب الى الله فى التوفيق لطاعته، وحسن المَعُونة، على صالح نيّته برحمته .

وقد تدبّر أمير المؤمنين ما كتبت به من أسمـاء من سألتَ عن القـرآن ، وما رجَع اليك فيه كل آمرئ منهـم ، وما شرحتَ من مقالتهم؛ فأما ما قال المغرور بشر بنُ الوليد فى نفى التشبيه، وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق ، وآدّعى من تركه الكلامَ فى ذلك وآسـتعهاده أميرَ المؤمنين ، فقد كذَب بشرٌ فى ذلك وكفر، وقال الزور والمنكر، ولم يكن جَرَى بين أمير المؤمنين وبينه فى ذلك ، ولا فى غيره، عَهْـدٌ ولا نظر أكثرَ من إخبـاره أميرَ المؤمنين من آعتقاده كَلمَة الإخلاص والقولَ بأنّ القرآن مخلوق ، فادعُ به إليك ، وأعلمـه ما أعلمك به أمير المؤمنين من ذلك، وانصصه عن قوله فى القرآن، واستَتِبْه منه، فإنّ أمير المؤمنين يرى أن تَسْتَتِيبَ مَن قال بمقالته إذ كانت تلك المقالة الكفرَ الصُّراح والشرك المحض عند أمير المؤمنين، فإن تاب منها فأشهر أمره، وأمسك عنه، وإن أصرّ على شركه، ودفع أن يكون القرآن مخلوقا بكفره وإلحاده ، فاضرب عنقَه ، وآبعث الى أمير المؤمنين برأسه، إن شاء الله، وكذلك إبراهيم بن المهدىّ فامتحنه بمثل ما تمتحن به بشرا، فإنّه كان يقول بقوله، وقد بَلَغتْ أميرَ المؤمنين عنـه بوالغُ، فإن قال إن القرآن مخلوق، فأشهر أمره وآكشفه، وإلّا فاضرب عنقه، وآبعث الى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله .

وأما علىّ بن أبى مُقاتل فقـل له : ألستَ القائلَ لأمير المؤمنين إنك تحلّل وتحرّم والمكلّم له بمثـل ما كلّمته به، ممـا لم يذهب عنه ذكرُه؛ وأما الذّيال بن الهيثم، فأعلمه أنّه كان فى الطعام الذى كان يَسْرِقه فى الأنبار، وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين

أبى العباس ما يشغَله ، وأنّه لو كان مقتفيا آثارَ سَلَفه ، وسالكا مناهجَهم ، ومُحْتذيا سبيلَهم ، لمـا خرج إلى الشرك بعد إيمـانه ؛ وأمّا أحمد بن يزيد المعروف بأبى العَـوّام ، وقوله إنّه لا يُحْسِن الجواب فى القرآن ، فأعلمه أنه صبيٌّ فى عقله ، لا فى سنه ، جاهل ، وأنّه إن كان لا يُحْسِن الجواب فى القرآن فسَيُحْسِـنه ، اذا أخذه التأديبُ ، ثم إن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك إن شاء اللهُ .

وأمّا أحمد بن حنبل ، وما تكتب عنه ، فأعلمْه أنّ أمير المؤمنين قد عرَف فَحْوى تلك المقالة ، وسبيلَه فيها ، وآستدلّ على جهله ، وآفته بها ؛ وأما الفضـل بن غانم ، فأعلمْه أنّه لم يَخْفَ على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر ، وما آكتسب من الأموال فى أقلّ من سنة ، وما شَجَر بينه و بين المُطَّلب بن عبد الله فى ذلك ، فإنّه مَن كان شأنُه شأنَه ، وكانت رغبتُه فى الدينار والدرهم رغبتَه ، فليس بمُسْتَنْكَر أنْ يبيع إيمـانَه طمعا فيهما ، و إيثارا لعاجل نفعهما ، و إنّه مع ذلك القائلُ لعلىّ بن هشام ما قال ، والمخالفُ له فيما خالفه فيه ، فما الذى حال به عن ذلك ، ونقـله الى غيره ؛ وأمّا الزِّيادىّ ، فأعلمْـه أنّه كان مُنْتَحِلا لأوّل دعىٍّ كان فى الإسلام خُولِف فيه حكمُ رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وكان جديرا أن يسلُك مسلكه فأنكر أبو حسّان أن يكون مولًى لزياد ، أو يكونَ مولًى لأحد من الناس ، — وذُكر انّه إنّما نُسِب الى زياد لأمر من الأمور — وأمّا المعروف بأبى نصرٍ التّمّار ، فإن أميرَ المؤمنينُ شبّه خساسةَ عقـله بخساسةَ مَتْجَره ؛ وأمّا الفضـل بن الفَرُّخان ، فأعلمْه أنّه حاول بالقول الذى قاله فى القرآن أخذَ الودائع التى أودعها إيّاه عبد الرحمن بن إسحاق وغيره ، تَربّصا بمن آستودعه ، وطمعا فى الاستكثار لمـا صار فى يده ، ولا سبيل عليه عن تقادُم عهده ، وتطاول الأيام به ، فقل لعبد الرحمن بن إسحاق لا جزاك الله خيرا عن تقويتك مثل هذا ، وائتمانك إيّاه ، وهو معتقدٌ للشرك ، منسلخ من التوحيد .

وأمّا محمد بن حاتم ، وابن نوح ، والمعروف بأبى مَعْمَر ، فأعلمهم أنهم مشاغيل بأكل الربا ، عن الوقوف على التوحيد ، وأنّ أمير المؤمنين لو لم يستحلّ محاربتَهم فى الله ومجاهدتَهم ،

إلا لإربائهم، وما نزل به كتاب الله فى أمثالهم، لأستحل ذلك، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركا، وصاروا للنصارى مثلا؛ وأما أحمد بن شجاع، فأعلمه أنك صاحبه بالأمس، والمستخرج منه ما آستخرجته من المال الذى كان آستحله من مال علىّ بن هشام، وأنه ممن الدينار والدرهم دينُه؛ وأما سَعْدَوَيْه الواسطىّ فقل له : قبّح الله رجلا بلغ به التصنّع للحديث، والتزين به، والحرصُ على طلب الرياسة فيه، أنْ يتمنّى وقت المحنة فيقولَ بالتقرب بها : متى يُمتحنُ فيجلسُ للحديث؛ وأما المعروف بسَجَّادة، وإنكارُه أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث، وأهل الفقه، القولَ بأنّ القران مخلوق، فأعلمه أنه فى شغله بإعداد النوى، وحكّه لإصلاح سَجّادته، وبالودائع التى دفعها إليه على بن يحيى وغيرُه ما أذهله عن التوحيد وألهاه، ثم سلْه عما كان يوسف بن أبى يوسف، ومحمد بن الحسن، يقولانه إن كان شاهدهما وجالسهما؛ وأما القواريرىّ ففيما تَكشَّف من أحواله، وقبوله الرُّشا والمصانعات ما أبان عن مذهبه، وسوء طريقته، وسَخافة عقله ودينه، وقد آنتهى إلى أمير المؤمنين أنه يتولّى لجعفر بن عيسى الحَسنىّ مسائله، فتقدّمْ إلى جعفر بن عيسى فى رفضه، وترك الثقة به، والآستنامة إليه .

وأما يحيى بن عبد الرحمن العُمَرىّ، فإن كان من ولد عمرَ بن الخطاب فجوابه معروف؛ وأما محمد بن الحسن بن على بن عاصم فإنه لو كان مقتديا بمن مضى من سلفه لم ينتحل النِّحلة التى حَكَيْتَ عنه، وإنه بعدُ صبىّ يحتاج الى تَعلّم، وقد كان أمير المؤمنين وجه إليك المعروف بأبى مُسْهِر، بعد أن نصّه أميرُ المؤمنين عن مِحْنته فى القرآن، فجَمْجَم عنها، ولَجْلَج فيها، حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف، فأقرّ ذميما، فانصصه عن إقراره، فإن كان مقيما عليه فأشهر ذلك وأظهره إن شاء الله؛ ومَن لم يرجع عن شركه ممن سمّيتَ لأمير المؤمنين فى كتابك، وذكَره أميرُ المؤمنين لك، أو أمسك عن ذكره فى كتابه هذا، ولم يقل إن القرآن مخلوق، بعد بشر بن الوليد، وإبراهيم بن المهدى، فآحملهم أجمعين، مُوثَقين

الى عسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم ، وحراستهـم فى طريقهم ، حتّى يؤدِّيهم الى عسكر أمير المؤمنين ، ويُسلِّمهم الى من يُؤمَر بتسليمهم اليه ، لينُصَّهم أميرُ المؤمنين ، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملَهم جميعا على السيف إن شاء الله ، ولا قوّة إلّا بالله ؛ وقد أنفـذ أمير المؤمنين كتابَه هـذا فى خريطة بُنْدارِيّة ، ولم ينظر به اجتماع الكتب الخرائطية مُعجِّلا به ، تقرّبا الى الله عزّ وجل بما أصدر من الحكم ، ورجاء ما اعتمد ، وإدراك ما أمل ، من جزيل ثواب الله عليه ، فأَنفِذْ لما أتاك من أمر أمير المؤمنين ، وعجِّل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك فى خريطة بُنْدارِيّة مفردةٍ عن سائر الخرائط ، لتعرِّف أميرَ المؤمنين ما يعملونه إن شاء الله . وكتب سنة ٢١٨ هـ .

(ج) عَهْد طاهر بن الحسين

قال ابن طيفور : ولما عَهِد طاهرُ بن الحسين الى عبدالله ٱبنه هذا العهدَ، تنازعه الناسُ وكتبوه وتدارسوه، وشاع أمره حتى بلغ المأمونَ، فدعا به وقرئ عليه، وقال: ما أبقى أبو الطيب شيئا من الدين والدنيا، والتدبير والرأى، وإصلاح المُلك والرعية، وحفظ البَيْعة، وطاعة الخلفاء، وتقويم الخلافة الا وقد أحكمه، وأوصى به، وتقدّم فيه . وأمر أن يُكتبَ بذلك الى جميع العمال فى نواحى الأعمال . ولما كان هذا العهدُ من الوثائق التاريخية التى لها قيمتُها العلميةُ والأدبية والاجتماعية والسياسية آثرنا ذكره على ما فيه من طول رغبة منّا فى ألا يخلو كتابُنا من هذا الأثر العظيم القيمةِ والخطرِ، وهاكه :

« عليك بتقوى الله وحده لا شريك له، وخشيته ومراقبته ومزايلة سَخَطه، وحفظ رعيّتك، وٱلزَم ما ألبسك الله فى العافية بالذكر لمَعادك، وما أنت صائر اليه، وموقوف عليه، ومسئول عنه، والعمل فى ذلك كله بما يَعصمك الله ويُنجيك يوم القيامة من عذابه وأليم عقابه، فإن الله قد أحسن اليك، وأوجب عليك الرأفةَ بمن ٱسترعاك أمرَهم من عباده، وألزمك العدلَ عليهم، والقيامَ بحقه وحدوده فيهم، والذبَّ عنهم، والدفعَ عن حريمهم وبَيْضتهم، والحقنَ لدمائهم، والأمنَ لسبيلهم، وإدخالَ الراحة عليهم فى معايشهم، ومؤاخِذُك بما فرض عليك من ذلك، ومُوقِفُكَ عليه، ومُسَائِلُكَ عنه، ومُثيبك عليه بما قدّمت وأخّرت، ففرِّغ لذلك فكرك وعقلك وبصرك وروّيتك، ولا يُذهلكَ عنه ذهلٌ، ولا يَشغَلُكَ عنه شغل، فإنه رأس أمرك وملاكُ شأنك، وأوّل ما يوفقك الله به لرشدك، وليكن أوّلَ ما تُلزِم به نفسَك وتُنسبَ اليه فعالُكَ، المواظبةُ على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس، والجماعة عليها بالناس قِبَلك فى مواقيتها على سننها فى إسباغ الوضوء لها وٱفتتاح ذكر الله فيها، وترتل فى قراءتك، وتمكّن فى ركوعك وسجودك وتشهدك، وَلْتَصْدُق فيها لربك نيّتك، وٱحضض عليها جماعةَ مَنْ معك وتحت يدك، وٱدأب عليها فإنها كما

قال الله تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ثم أتبع ذلك الأخذَ بسنن رسول الله صــلى الله عليه وســلم، والمثابرة على خلائقه، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده، واذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله وتقواه، ولزوم ما أنزل الله فى كتابه، من أمره ونهيه، وحلاله وحرامه، وائتمام ماجاءت به الآثار عن النبى صلى الله عليه وسلم، ثم قُمْ فيه بما يحق لله عليك، ولا تَمِلْ عن العدل فيما أحببت أو كرِهت، لقريبٍ من الناس أو بعيد، وآثِرِ الفقهَ وأهله، والدين وحَمَلَتــه وكتاب الله والعاملين به، فان أفضلَ ما تزيّنَ به المرء الفقــهُ فى دين الله، والطلب له والحثّ عليــه، والمعرفة بمـا يتقرب به إلى الله، فإنه الدليــلُ على الخير كله، والقائد له، والآمر به، والنــاهى عن المعاصى والموبقات كلها، وبها مع توفيق الله تزداد العبادُ معرفةً بالله، عز وجل، وإجلالا له ودَرْكا للدرجات العلى فى المعاد، مع ما فى ظهوره للناس من التوقير لأمرك والهيبة لسلطانك، والأنَسَة بك والثقة بعدلك. وعليك بالاقتصاد فى الأمور كلّهــا فليس شىء أبينَ نفعا ولا أحضرَ أمنــا ولا أجمعَ فضلا من القصد، والقصــد داعيةٌ الى الرشــد، والرشدُ دليــلٌ على التوفيق، والتوفيق منقــادٌ الى السعادة، وقِوامُ الدين والسنن الهــادية بالاقتصاد، فآثره فى دنياك كلها، ولا تُقصّر فى طلب الآخرة والأجر والأعمــال الصالحة، والسنن المعروفة ومَعَالم الرشد، فلا غاية للاســتكثار من البر والسعى له، اذا كان يُطلَبُ به وجهُ الله ومرضاته، ومرافقة أوليائه، فى دار كرامته.

واعلم أن القصــد فى شأن الدنيا يورث العز، ويحصّن من الذنوب وأنك لن تحوط نفسك ومن يليك، ولا تستصلحُ أمورك، بأفضلَ منه، فأته، واهتدِ به تتم أمورك، وتَزِد مقدرتك، وتصلح خاصّتك وعامتك، وأحسِن الظنَّ بالله عز وجل، تستقم لك رعيّتُك، والتمس الوسيلةَ اليه فى الأمور كلها، تَستدم به النعمةَ عليك، ولا تُنهِضْ أحدا من الناس، فيما تولّيــه من عملك، قبل تَكَشُّف أمره بالتهمة، فإن إيقاع التهم بالبرآء والظنون السيئة بهم مأثمٌ، واجعل من شأنك، حسنَ الظن بأصحابك، واطرد عنك سوءَ الظن بهم، وارفُضه عنهم، يُعِنْكَ ذلك على اصطناعهم ورِياضتهم، ولا يجدنّ عدوُّ الله الشيطانُ فى أمرك مغمزًا،

فإنه انما يكتفى بالقليل من وَهْنكَ فيدخِلُ عليك من الغمّ، فى سوء الظن ، ما يُنغّص عليك لذاذةَ عيشك، وٱعلم أنك تجد بحسن الظن، قوّةً وراحةً، وتَكْفَى به ما أحببتَ كفايته من أمورك، وتدعو به الناسَ الى محبّتك، والٱستقامة فى الأمور كلها لك. ولا يمنعك حسنُ الظن بأصحابك، والرأفة برعيّتك، أن تستعمِلَ المسئلة والبحثَ عن أمورك والمباشرة لأمور الأولياء، والحِياطة للرعية، والنظر فيما يُقيمها و يُصلحها، بل لِتكُنِ المباشرةُ لأمور الأولياء، والحِياطةُ للرعية، والنظرُ فى حوائجهم، وحمل مؤوناتهم، آثَرَ عندك ممـا سوى ذلك، فإنه أقومُ للدين، وأحيا للسنة، وأخلِص نيّتكَ فى جميع هذا، وتفرّد بتقويم نفسك، تفرّدَ من يعلم أنه مسئولٌ عما صنع، ومجزىّ بما أحسن، فإن الله جعل الدينَ حِرزًا وعزًّا، و رفع من ٱتبعه وعزّزه، فاسـلُك بمن تسوسه وترعاه، نهج الدين، وطريقةَ الهدى، وأقِمْ حدودَ الله فى أصحاب الجرائم على قدر مَنَازلهم ، وما ٱستحقوه، ولا تُعطِّل ذلك ولا تَهاون به، ولا تؤخِّر عقوبةَ أهل العقوبة، فإن فى تفريطك فى ذلك ، لمـا يُفسدُ عليـك حسنَ ظنك، واعزم على أمرك فى ذلك بالسنن المعروفة ، وجانب الشُّبَه والبدعات، يسلَمْ لك دينُـك، وتَقُمْ لك مروءتك، و إذا عاهدت عهدا فَفِ به، واذا وعدتَ الخيرَ فأنجِزه، وٱقبل الحسنةَ، وٱدفع بها، وأَغمِضْ عن عيب كل ذى عيب من رعيتك، وٱشدُدْ لسانكَ عن قول الكذب والزور، وأَبغض أهـله ، وأَقص أهلَ النميمة، فإن أوّل فسـاد أمرك فى عاجل الأمور وآجلهـا، تقريبُ الكذوب، والجرأةُ على الكذب، لأن الكذبَ رأسُ المآثم، والزور والنميمةَ خاتمتُها، لأن النميمةَ لا يسلمُ صاحبُها، وقائلُها لا يسلم له صاحبٌ ولا يستقيم لمطيعها أمرٌ ، وأَحبَّ أهلَ الصدق والصلاح، وأعن الأشرافَ بالحقّ، وواصل الضعفاءَ، وصِلِ الرَّحمَ ، وٱبتـغ بذلك وجهَ الله، وعزّة أمره، وٱلتمس فيه ثوابه والدارَ الاخرة ، وٱجتنب سوءَ الأهواء والجورَ ، وٱصرِفْ عنهما رأيكَ ، وأظهِر من ذلك لرعيتك، وأنعِمْ بالعدل سياستَهم، وقم بالحق فيهم، و بالمعرفة التى تنتهى بك الى سبيل الهدى، وٱملِكْ نفسَك عند الغضب، وآثِرِ الوقارَ والحلمَ، وإياك والحِدّةَ والطيش والغرور فيما أنت بسبيله ، وإياك أن

تقول : إنى مُسَلَّطٌ أفعل ما أشاء فان ذلك سريعٌ فيك إلى نقص الرأى، وقلّة اليقين بالله وحده لاشريك له ، وأخلِصْ لله وحده النية فيه ، واليقين به ،واَعلم أن الملكَ لله، يعطيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء ولن تجدَ تغيرَ النعمة ، وحلولَ النِقمة، الى أحدٍ أسرعَ منه،الى حَمَلَة النعمة، من أصحاب السلطان،والمبسوطلهم فى الدولة، اذا كفروا بنعم الله وإحسانه واَستطالوا بما آتاهم الله من فضله ، ودع عنك شرهَ نفسك، ولتكن ذخائرك وكنوزك التى تدّخر وتكنزُ، البرّ والتقوى، والمعدلةَ، واَستصلاحَ الرعية وعمارةَ بلادهم، والتفقّدَ لأمورهم ، والحفظَ لدمائهم، والإغاثة للمهوفهم، واَعلم أن الأموال اذا كثُرت وذُخِرت فى الخزائن، لا تُثمر، وإذا كانت فى إصلاح الرعية، وإعطاء حقوقهم، وكفّ المؤونة عنهم، نَمَت وربَت، وصلَحت به العامّة، وتزيّنت به الولاة، وطاب به الزمان،واَعتُقد فيه العزّ والمنفعة، فليكن كنزُ خزائنك تفريق الأموال فى عمارة الإسلام وأهله، ووفّر منه على أولياء أمير المؤمنين قِبَلك حقوقَهم، وأوفِ رعيّتك من ذلك حِصَصهم ، وتعهّد بما يصلح أمورَهم ومعايشهم، فإنك اذا فعلتَ ذلك قرّت النعمة عليك ، واَستوجبتَ المزيد من الله ، وكنت بذلك على جِباية خَراجك، وجَمْعِ أموال رعيّتك وعملك أقــدر، وكان الجميع لمـا شملهم من عدلك وإحسانك أسلَس لطاعتك ، وأطيب نفسا بكل ما أردتَ، فاجهَد نفسَك، فيما حددتُ لك فى هــذا الباب، وَلْتَعظُمْ حِسْبتُك فيه ، فإنما يبقى من المــال، ما أُنفِق فى سبيل حقّه، واَعرف للشاكرين شكرَهم ، وأثِبهم عليه، وإياك أن تُنسيك الدنيا وغرورُها هَوْلَ الآخرة ، فتتهاوَن بمـا يحقّ عليك ، فان التهاون يوجب التفريط والتفريطَ يورث البَوارَ، وليكن عملُك لله، وفيه تبارك وتعالى ، واَرْجُ الثواب، فإن الله قد أسبغ عليك نعمته فى الدنيا، وأظهر لديك فضلَه، فاعتصِم بالشكر، وعليه فاعتمد، يَزِدْك الله خيرا وإحسانا . فان الله يثيب بقَدْر شكر الشاكرين وسيرة المحسنين، وقضاء الحقّ فيما حمل من النّعم ، واَلبَس من العافية والكرامة، ولا تحتقرنّ ذنبًا، ولا تمــالئنّ حاسدا، ولا ترحمنّ فاجرا، ولا تصلَنّ كفورا، ولا تداهننّ عدوا ، ولا تصدّقنّ نَمّــاما ، ولا تأمَنَنّ غدّارا، ولا توالِيَنّ فاسقا، ولا تتبعنّ غاويًا، ولا تحمدنّ

مُرائيـا ، ولا تحقرن إنسانا، ولا تردّن سـائلا فقيرا، ولا تجيبن باطلا، ولا تلاحظن مضحكا ، ولا تُخلفن وعدا، ولا تذهبن نخرا ، ولا تظهرن غَضَبـا ، ولا تأتين بذَخًا، ولا تمشين مَرَحا، ولا تركبن سفهًا، ولا تُفرطن فى طلب الآخرة، ولا تدفع الأيام عِيانا، ولا تُغمضن عن الظالم رهبة منه، أو مخافةً، ولا تطلبن ثواب الآخرة فى الدنيـا، وأكثِر مشاورة الفقهاء، واستعمل نفسك بالحلم، وخذ عن أهـل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة، ولا تُدْخِلنّ فى مشـورتك أهل الدّقة والبخل، ولا تسمعن لهم قولا ، فإن ضررهم أكثر من منفعتهـم ، وليس شيء أسرع فسادا لمـا استقبلتَ فى أمر رعيّتك من الشُّحّ، واعلم أنك اذا كنت حريصا، كنت كثير الأخْذ، قليلَ العطيّة، واذا كنت كذلك لم يَستقم لك أمرك إلا قليـلا، فان رعيّتك انمـا تعتقد على محبّتك بالكَفّ عن أموالهم، وترك الجور عليهم، ويدوم صفاءُ أوليائك لك، بالإفضال عليهم، وحسن العطيّة لهم، فاجتنب الشـحّ ، واعلم أنه أوّل ما عَصَى به الانسـانُ ربّه ، وان العاصى بمنزلة خِزْى، وهو قول الله عز وجل، ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فسهّل طريقَ الجود بالحق ، واجعل للسلمين كلهم من نيّتك حظا ونصيبا، وأيْقِنْ أن الجود من أفضل أعمال العباد ، فأعِده لنفسك خُلُقا ، وارْضَ به عملا ومذهبا، وتفقّد أمور الجند فى دواوينهم ، ومكاتبهم ، وأدرِر عليهم أرزاقهم ، ووسّع عليهم فى معايشهم، ليُذهِب بذلك اللهُ فاقتهم، ويقوّم لك أمرهم ، ويزيد به قلوبهـم فى طاعتك وأمرك ، خُلُوصا وانشراحا ، وحَسْبُ ذى سلطان من السـعادة، أن يكون على جنده ورعيّته، رحمة فى عدله وحيطته وإنصافه وعنايته، وشفقته وبرّه وتَوْسعَته، فزايل مكروه إحدى البَلِيّتين، باستشعار تكملة الباب الآخر ولزوم العمل به تَلْقَ ان شاء الله نجاحا وصلاحا وفلاحا .

واعلم ان القضاء من الله، بالمكان الذى ليس مثله شيء من الأمور، لأنه ميزان الله الذى تعتدل عليه الأحوال فى الأرض ، وبإقامة العدل فى القضاء والعمل تصلُحُ الرعيّة، وتُؤمّن السبُل، وينتصِف المظلوم، ويأخذ الناس حقوقَهـم ، وتحسُن المعيشـة ، ويُؤدّى حق

الطاعة، ويرزق اللهُ العافية والسلامة، ويقوم الدين، وتجرى السنن والشرائع، وعلى مَجاريها يُنْتَجز الحقّ والعــدل فى القضاء . وآشــتدّ فى أمر الله وتورّع عن النَّطَف وآمض لإقامة الحــدود، وأقْلِل العجلة، وآبعــد من الضجر والقلق، وآقنع بالقِسم، ولْتَسكُن رِيحُك، ويَقِرّ جَدّك،وانتفع بتجربتك، وانتبه فى صمتك، واسْدد فى منطقك،وأنصف الخصم، وقِف عنــد الشبهة، وأبلغ فى الحجّة، ولا يأخذك فى أحد من رعيّتــك مُحاباة ولا مُجاملة، ولا لوم لائم، وتثبّت وتأنّ، وراقِب وآنظر، وتدبّر وتفكّر، وآعتبِر وتواضَع لربك، وارْأف بجميع الرعيّة، وسلِّط الحقّ على نفسك، ولا تسرعنّ الى سفك دم، فان الدماء من الله بمكان عظيم انتهاكًا لها بغير حقها، وآنظر هــذا الخَراج الذى آستقامت عليه الرعيّة، وجعله الله للإسلام عزًا ورِفعة، ولأهله سَــعَة ومَنَعة، ولعدوّه وعدوّهم كَبْتا وغيظا، ولأهل الكفر من معاهدتهم ذلّا وصَــغارا، فوزّعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية، والعُموم فيــه، ولا تَدفعن منــه شيئا عن شريف لشرفه، وعن غنيّ لغناه، ولا عن كاتب لك، ولا أحد من خاصّتك، فلا تأخذن منــه، فوق الاحتمال له، ولا تكلِّفن أمرا فيه شَطَط، وآحمل الناس كلهم على مُرِّ الحق، فان ذلك أجمع لألْفتهم، وألْزَم لِرضى العامة، واعلم أنك جُعلت بولايتك خازنا وحافظا، وراعيا، وانما سمّى أهل عملك رعيّتك، لأنك راعيهم، وقيِّمهم، تأخذ منهم ما أعطوْك، مر عفوهم ومقدرتهم، وتُنفقــه فى قِوام أمرهم وصلاحهم، وتقويم أوَدهم، فاستعمل عليهــم فى كُوَر عملك، ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخــبرة بالعمل، والعــلم بالسياسة والعَفاف، ووسِّع عليهم فى الرزق، فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلّدت، وأُسنِد اليك، ولا يشغلنك عنه شاغل، ولا يصرِفنّك عنه صارف، فإنك متى آثرته، وقمت فيه بالواجب، آستدْعَيتَ به زيادة النّعمة من ربك، وحسن الأُحدوثة فى عملك، وآستجررتَ به المحبة من رعيّتك، وأعنت على الصــلاح، فدرّت الخــيرات ببلدك، وفَشَت العمارة بناحيتــك، وظهر الخصب فى كورك، وكثُر خراجك، وتوفّرت أموالك، وقويتَ بذلك على آرتباط جنــدك، وإرضاء العامة، بإفاضــة العطاء فيهم من

نفسك، وكنتَ محمودَ السياسة ، مَرضيّ العـدل فى ذلك عند عدوّك ، وكنت فى أمورك كلها ، ذا عدل وقوّة ، وآلة وعُدّة ، فنافِس فى هذا ، ولا تقدِّم عليه شيئا ، تُحمَد مَغبّة أمرك ، ان شاء الله ، وٱجعـل فى كل كورة من عملك أمينا ، يخبرك أخبار عُمّالك ، ويكتب اليك بسيرتهم وأعمـالهم ، حتى كأنك مع كل عامل فى عمله ، مُعَايِنٌ لأمره كله ، وإن أردت أن تأمره بأمر ، فانظر فى عواقب ما أردت من ذلك ، فإن رأيت السلامة فيه والعافية ، ورجوت فيـه حسن الدفاع ، والنُّصح والصُّنع فأمْضِه ، وإلا فتوقّف عنـه ، وراجِع أهل البصر والعـلم ، ثم خُذ فيه عُدّته ، فإنه ربمـا نظر الرجل فى أمر من أمره ، قد واتاه على ما يهوى ، فقوّاه على ذلك وأعجبـه ، وان لم ينظر فى عواقبه أهلكه ، ونُقِض عليـه أمره ، فاسـتعمِل الحزم فى كل ما أردت وباشره بعـد عَوْن الله بالقوة ، وأكثِر ٱستخارة ربك ، فى جميع أمورك ، وٱفْرَغ من عمـل يومك ، ولا تؤخّره لغـدك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فإن لغـدٍ أمورا وحوادث تُلهيـك عن عمـل يومك الذى أخّرت ، وٱعلم أن اليوم اذا مضى ذهب بمـا فيه ، واذا أخّرت عملَه ٱجتمع عليك أمر يومين ، فشغَلَك ذلك حتى تُعرِض عنـه ، فاذا أمضيتَ لكل يوم عمـله ، أرَحْتَ نفسـك وبدنك ، وأحكمت أمور سلطانك ، وانظُر أحرَار الناس وذوى الشرف منهم ، ثم ٱسـتيقن صَفاء طويّتهم ، وتهذيب مودّتهم لك ، ومُظَاهرتهم بالنّصح والمحافظـة على أمرك ، فاستخلِصهم ، وأحسن اليهم ، وتعاهد أهـلَ البيوتات ممّن قد دخلتْ عليهم الحاجة ، فاحتمل مؤونتهم وأصـلح حالهم ، حتى لا يجدوا لخلّتهم مَسًّا ، وأفرد نفسك للنظر فى أمور الفقراء والمساكين ، ومن لا يقـدر على رفع مظلمة إليـك ، والمحتَقَر الذى لا علم له بطلب حقـه ، فاسأل عنه أخفى مسألة ، ووكّل بأمثاله أهلَ الصـلاح من رعيّتك ، ومُرْهم برفع حوائجهم وحالاتهم اليك ، لتنظر فيها بما يصلح الله به أمرهم ، وتعاهد ذوى البأساء ويَتَاماهم وأراملهم ، وٱجعل لهم أرزاقا من بيت المـال ٱقتـداءً بأمير المؤمنين أعزه الله فى العطف عليهـم والصِّلة لهم ، ليُصلِح الله بذلك عيشهم ، ويرزقك به بركة وزيادة ، وأجْرِ للأَضراء من بيت المـال ، وقدّم حَمَـلة

القرآن منهم، والحافظين لأكثره، فى الجراية على غيرهم، وآنصب لمرضى المسلمين دُورا تؤويهم، وقُوّاما يرفقون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم، وأسعفهم بشهواتهم، ما لم يُؤدّ ذلك إلى سَرَف فى بيت المـال، وآعلم أن الناس اذا أُعْطُوا حقوقَهم، وأفضلَ أمانيهم لم يُرضهم ذلك، ولم تطب أنفسهم، دون رَفْع حوائجهم إلى وُلاتهم؛ طمعا فى نيل الزيادة، وفضل الرفق منهم، وربما بَرِم المتصفّح لأمور الناس لكثرة مايَرد عليه، ويشغَل فكره وذهنه، ومنها ما يناله به مؤونة ومشـقة، وليس من يرغب فى العدل ويعرف محاسن أموره فى العاجل وفضل ثواب الآجل، كالذى يستقبل ما يقرّبه الى الله، ويلتمس رحمته به، وأكثِر الإذن للناس عليك، وأبرِز لهم وجهك، وسكِّن لهم أحراسك، وآخفِض لهم جناحك، وأظهِر لهم بشرك، ولِنْ لهم فى المسألة والمنطق، وآعطِف عليهم بجودك وفضلك، وإذا أعطيتَ فأعطِ بسماحة وطيب نفس، وآلتمس الصنيعة والأجر، غير مكدّر ولامنّان، فإن العطيّة على ذلك تجارة مُرْبِحة ان شاء الله، وآعتبر بما ترى من أمور الدنيا، ومن مضى من قبلك، من أهل السلطان والرياسة، فى القرون الخالية والأمم البائدة، ثم آعتصِم فى أحوالك كلها بأمر الله، والوقوف عند محبّته، والعمل بشريعته وسنّته وإقامة دينـه وكتابه، وآجتنب مافارق ذلك وخالفه، ودعا الى سَخَط الله، وآعرف ما تجمع عُمّالُك من الأموال، ويُنفقون منهـا، ولا تجمع حَراما، ولا تُنفق إسرافا، وأكثِر مُجالسـة العلماء، ومشاورتهم ومخالطتهم، وليكن هواك آتّباع السنن وإقامتها، وإيثار مكارم الأمور ومعاليها، وليكن أكرمُ دُخَلائك وخاصّتك عليك من اذا رأى عيبا فيك لم تمنعـه هَيبتُك من إنهاء ذلك اليك، فى سِرّ، وإعلامك ما فيه من النقص، فإن أولئك أنصح أوليائك ومُظاهريك، وآنظر عمّالك الذين بحضرتك، وكتّابك فوقّت لكل رجل منهـم فى كل يوم وقتـا يدخل عليك فيـه بكُتبه ومؤامرته وما عنـده من حوائج عمّالك وأمرِ كورك ورعيّتك، ثم فرّغ لمـا يُورده عليـك من ذلك سمعَك وبصَرك، وفهمك وعقلك، وكرِّر النظر اليـه والتدبير له، فمـا كان موافقا للحزم والحق فامضه وآستخر الله فيـه، وما كان مخالفا لذلك فاصرفه الى التثبّت فيـه والمسألة عنه،

ولا تمُنّن على رعيّتك ولا على غيرهم بمعروف تأتيه اليهم، ولا تقبَل من أحد منهم إلا الوفاء والاستقامة والعَوْن فى أمور أمير المؤمنين، ولا تَضَعنّ المعروف إلا على ذلك، وتفهّم كتابى اليك، وأكثر النظر فيه، والعمل به، واستعن بالله على جميع أمورك واستخره، فإن الله مع الصّلاح وأهله، وليكن أعظم سيرتك، وأفضل رغبتك، ما كان لله رضًا، ولدينه نظاما، ولأهله عزّا وتمكينا، وللذمة والملّة عدلا وصلاحا، وأنا أسأل الله أن يحسن عونك وتوفيقك، ورشدك وكلاءك، وأن ينزل عليك فضلَه ورحمته، بتمام فضله عليك، وكرامته لك، حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيبا، وأوفرهم حظا، وأسناهم ذكرا وأمرا، وأن يُهلك عدوّك ومن ناوأك وبَغى عليك، ويرزقك من رعيتك العافيةَ، ويحجُز الشيطان عنك ووساوسه، حتى يستعلى أمرك بالعزّ والقوّة والتوفيق، إنه قريب مجيب .

(د) رسـالةُ الخميس

من عبد الله الإمامِ المأمونِ أميرِ المؤمنين، الى المُبايِعين على الحقّ، والناصرِين للدّين، من أهل خُراسانَ وغيرِهم من أهـل الإسلام : سلام عليكم ، فإن أمير المؤمنين يَحْمَد اليكم اللهَ الذى لا إلٰه إلا هو، ويسأله أن يُصلّى على محمد عبده ورسوله .

أما بعــد، فالحمد لله القادر القاهر، الباعث الوارث، ذى العِـزّ والسلطان، والنور والبرهان، فاطر السموات والأرض وما بينهما، والمُتَقدّم بالمنّ والطَّوْل على أهلهما ، قبل آستحقاقهم لَمثُوبَتِه، بالمحافظة على شرائع طاعته، الذى جعل ما أَوْدَع عبادَه من نعمته، دليلا هادِيا لهم الى معرفته، بما أفادهم من الألباب، التى يَفْهَمون بها فصلَ الخطاب، حتى آقتنَوْا عِلْمَ موارد الآختبار، وثقِفوا مصادر الآعتبار، وحكموا على مابطَن بما ظهَر، وعلى ما غاب بما حضَر،وآستدلّوا بما أراهم من بالغ حكمته،ومُتْقَنِ صَنْعته، وحاجة متزايل خَلْقه ومُتواصلِه، إلى القوم (١) بمـا يَلُمّه ويُصْلِحُه، على أن له بارئًا أنشأه وآبتدأه، ويَسّر بعضه لبعض . فكان من أقــرب وجودهم ، ما يباشرون به من أنفسهم فى تَصَرُّف أحوالهم ، وفُنون آنتقالهم، وما يَظْهرون عليــه من العجز عن التأتى لمـا تكاملتْ به قُواهم، وتمّت به أدواتُهم، مع أثر تدبيرِ الله عز وجل وتقـديره فيهـم ، حتّى صاروا إلى الخلقــة المُحْكَمة، والصورة المُعجِبة، ليس لهم فى شىءٍ منها تَلَطّف يَتّمونه، ولا مقصــدٌ يَعتمدونه من أنفسهم ؛ فإنه قال تعالى ذكره: ﴿يٰأَيُّهَا ٱلْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِى أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ . ثم ما يَتفكّرون فيه من خلق السموات، وما يجرى فيها من الشمس والقمر والنجوم مسخّرات، على مسيرٍ لا يَثْبت العالَمَ إلّا به من تصاريف الأزمنـة التى بها صلاح الحَرث والنسل، وإحياء الأرض، ولِقاح النبات والأشجار، وتعاوُر الليل والنهار، ومر الأيام والشهور والسـنين التى تُحْصى بها الأوقات ؛ ثم ما يوجد من دلائل التركيب فى طَبَقات السقف المرفوع، والمِهاد الموضوع، باختـلاف أجزائه وآلتئامها، وخرق الأنهار، وإرساء

(١) القوم كالقيام مصدر قام .

الجبـال . ومن البيان الشاهد ما أخبرَ الله عز وجل به من إنشـائه الخلقَ ، وحدوثه بعد أنْ لم يكن مترقيًا فى النمـاء، وثباته إلى أجلَه فى البقاء، ثم مَحاره مُنْقضيا الى غاية الفَناء. ولو لم يكن له مُفتَتَـحُ عدد ولا مُنْقطَع أمد ، ما آزداد بِنشوء ، ولا تَحيّفـه نقصان ، ولا تفاوت على الأزمان؛ لأنّ ما لا حدّ له ولا نهـايةَ ، غيرُ ممكن الآحتمال للنقص والزيادة . ثمّ ما يوجد عليه منفعتُه من ثبات بعضه لبعض، وقوامِ كلّ شيء منـه بمـا يَسّر له ، فى بدء آستمداده إلى منتهى نَفاده؛ كما آحتج الله عز وجل على خلقه ، فقال : ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ . وقال عز وجل : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ . وكلّ ما تقـدّم من الأخبـار عن آيات الله عز وجل ودلالاته فى سمـواته التى بَنَى، وأطباقِ الأرض التى دَحا، وآثارِ صُـنعه فيما برَأ وذرأ، ثابتٌ فى فِطَر العقول، حتى يُسَـخِّر أولى الزيغ ما يُدْخِلون على أنفسهـم من الشبهة فيما يجعـلون له من الأضـداد والأنداد . جلّ عمـا يُشْركون . ولولا توحّدُه بالتدبير، عن كلّ مُعين وظهير، لكان الشركاءُ جُدراءَ أنْ تختلف بهم إرادتُهم فيما يَخلُقون،ولم يكن التخلفُ فى إثباته و إزالته ليخلو من أحد وَجهَيْه ، وأيّهما كان فيه فالعجز والنقص ممـا أتاه و برَأه . جل البديع خالق الخلق ومالك الأمر عن ذلك وتعالى علوًا كبيرا؛ كما قال سبحانه : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَـهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَـا خَلَقَ وَلَعَـلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ . ثمّ من عظيم نعمـة الله عز وجل على خَلْقه آفتقادُه إياهم، وأنه يُسدّدهم ويَدُلّهم على منافعهم، ويُجنّبهم مضارَّهم، ويَهديهم لِمـا فيه صلاحُهم، ويُرغّبهم فى المحافظة على التمسك بدين الله عز وجل، الذى جعله عِصْمةً لهم وحاجزًا بينهم .

ولولا ما تقدّم به من تلافيهم وآستدراكهم بفضل رحمته ، لاجتاحهم التلفُ، لقصور معرفتهم عن التأتّى لأقواتهم ومعايشهم، ولم يكونوا ليَقْتصروا على حظوظهم وأقسامهم عما بنَوْا عليه من الجمع والرغبة، ولتَهالكوا ابتغى بعضهم على بعض، وعدوان قويّهم على ضعيفهم، ولكنّه بعد تعريفه إياهم مُلْكَ قـدرته وجلالةَ عزّته، بعث إليهم أنبياءه ورسله مُبشّرين ومُنذرين،

بالآيات التى لا تنالُها أيدى المخلوقين، فرضُوا بما قُسِطَ بينهم، وآرتدعوا عن التباغى والتظالُم، لمـا وُعدوا من الثواب الجسيم وخُوِّفوا من العقاب الأليم، ولم يكونوا لِيُطيعـوا أمرا لآمر ولا نهيا لنـاهٍ، إلّا بحجّةٍ يتبـيّن بها الحقُّ على مَن خالفـه من المُبْطلين، وتخويفٍ يتّقون به مُقارفَةَ ما حُرِّم عليهم، ورجاءٍ يتجشّمون له مَؤونة ما تُعُبِّدوا به . فافتتح الله عز وجل بأبيهم آدمَ عليه السـلام، فعلّمه الأسمـاء كلّها، وأمر الملائكة بالسـجود له — كما آقتص فى وحيه المنزل — وكرّم ولده وفضّلهم، فقال جل وعز : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ . وجعل ما فَطَرهم عليه من العطف على ذَراريهم وأبنائهم سبباً لمـا أراد من بَقائهم وتناسلِهم، وما آختصّهم به من العـلم والفهم حجّـةً عليهم، ليمتحن طاعتهم، ويَبْلُوَهُمْ أيُّهـم أحسنُ عمـلا . ولم تزل رسل الله عز وجل الى خلقـه تَتْرَى بالنـور الساطع، والبرهانِ القاطع، لا يجدون لمـا يُوردون عليهـم من الحق القاهر مَرَدّا ولا مَدْفَعًا، لقول الله عز وجل : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ . فلم يجد المكذّبون مَساغا الى دفع ما أُقيم عليهـم من لازم الحجّة، إلّا المعاندَة والمجاحدَة . وكان أنبيـاء الله صلوات الله عليهم، يُبْعَثـون فى أعصار الحِقَب، نُذُرا للامم، حتى ختمهم الله عز وجل بالنبيّ الأمىّ محمد صلى الله عليـه وسـلم، فبعثه فردا وحيـدا لا عاضـدَ له ولا رافدَ، إلى قوم يعبـدون أصناما بُكْمًا، وحجارة صُمًّا، فكذّب به القومُ الذين بُعث فيهـم أوّلَ ما دعاهم، ورامه ملوكُ أقطار البـلاد بتوجيـه الأجنـاد، ومُرافدة القـوّة والعتاد وبغى الغـوائل، ونصب الحبائلُ، وهـو يدعو إلى سـبيل ربه بمـا أمره به، إذ يقول تعالى : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ﴾ . ثم جاهـد بمن أطاعه مَن عصاه، وبمن آتبعه مَن خالفه، حتّى أعزّ الله كلمتَه، وأظهَر دعوته، وأكمَل لعباده دينهم الذى آرتضى لهم . فلمّا آختار الله له ما لديه، وآختصّه بمـا عنـده : من النعيم المُقيم، والجزاءِ الكريم، بعدَ آسـتقامة الدين

ودخول الناس فيه أفواجا، خلفه، إذ ختم به الأنبياء، بالبررة النجباء من أدانيه ولحمته، لإقامة الشرائع المفترضة، وإنفاذ حكم الله المنزل، واقتفاء السنة المأثورة وحفظا له في قرابته ومجيبي دعوته، وإتماما لما أوجب له من الفضيلة، وقريب الوسيلة، وانجازا لما وعده من إظهار ما بعثه به، من دينه الذي اصطفاه وارتضاه. وكان اختيار أولى الفضل من لحمته وعصبته لإرث خلافته، ومن عظيم الزلف التي رغب الى الله فيها أنبياؤه، وبما اقتص في منزل وحيه، واختص تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بما أمره به من مسألة أمته تصيير مودته في القربى جزاءه ممن تبعه على الرسالة، وهداه من الضلالة؛ فكانت فضيلتهم عزيمة من الله عز وجل، دون طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألزمه تأديته الى خلقه وألزمهم أداءه، فقال عز وجل: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾. ودل بما أخبر به وأظهره من تطهيره إياهم وإذهابه الرجس عنهم، على اصطفائه لهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. وكان مما أوجب لهم به حق الوراثة في محكم تنزيله قوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾. ثم قرن طاعتهم بطاعته، فقال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾. وأحلهم من النباهة والصيت بالمحل الذي أعلى به أمرهم ورفع به ذكرهم، لما أحب من التبيين في الدلالة عليهم، والهداية إليهم، فإنه يقول عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾. ولو كان الائمة المقلدون أمر عباده خاملة أنسابهم، متقطعة أسبابهم، غير مخصوصين بفضيلة يرونهم بها دون غيرهم، لم تعد طلبتهم عقد الخلافة لهم، وأن تكون من المفترضات على كافة الأمة، أو على بعض دون بعض؛ فإن كان لأهل الشرق والغرب من ذوي النقص والكمال أن يختاروا لأنفسهم، فليس في اجتماع آرائهم مع تفرقهم واختلافهم طمع آخر أيام الدهر. وإن كان الى خاصة دون عامة، فستحتاج العامة من طلب معرفة تلك الحال إلى مثل ما احتاجوا اليه في أئمتهم، إذ لم يكن أهل الارتياب والطلب من أعلام الآفاق ليتواطئوا على اتفاق،

لنفاد آجالهم قبـلَ بلوغهم غايةَ الاجتهاد فى الفحص والتكشيف، وحاجتهم الى اختبـار البُلدان، وتمحيص أُولى الفضائل بالامتحان، وما هو حاق عليهم من الشبَه فى اختيارهم، والاختلاف فيمن عَسَوْا أن يجتبوه ويُقدِّموه، حتى تتهالك الرَّعيّة بتظالمها بينها، ويَطْرُق مَن يليهـا من الأمم إيّاها؛ إذ لا ذائد عنهـا ولا مُحامىَ. فإذا ألزمت الأئمـةَ الحاجةُ إلى نَصْب الحكّام لإقامـة الدين، وتقسيط الحقوق من المسلمين، ومُجاهـدةِ عدوّهم من المشركين، لم يكن لهم فى الإمام عليهـم مَجازٌ إلى التخاص من حقّـه إليهم، ولا ريبَ عند المعرفة برأفة الله ورحمته، ولطفه وحكمه، فى دفعه عن عباده ما لم يجعل فى حيلتهم له وُسْعا، ولا فى حيلتهم له دَرْكا، وكفايتـه إيّاهم ما يُعجزهم من البحث والتنقيب عن ولاة أمرهم، بنَصْبه إيّاهم، وما رفعهم إليه من الدرجة التى أعلاها وأسناها، إذ وصَل نسبَهم برسول الله صلى الله عليه وسلم، وافترضَ مودّتهم على خلقه، ولم يَثْنِهم جهلُهم للغرض الذى لزِمهم له، ولم يَجب عليهم فرضٌ فى معرفة مَن سواهم. ولم يزل سياقُ أئمة الهـدى مُطَّردا، ونظامُهم مُتّصـلا، يتلقاه كابرٌ عن كابر، ويؤدّيه أوّل الى آخر، حتّى تنـاهى الى أمير المؤمنين، وهو حالٌّ دار دعوته، وبين أنصاره من أهل خُراسان، فنظر به خيرَهم، وعرَفوا ما تصرّفت به أحوالُهم، وظهر لهم من بيان حُجّته على مَن نازعه فى الأمر، وشاهـدوا من إبلاغه فى العذر، واستظهاره بالتأنّى والصبر، ما أزاح عنهم الشبهَة وكَشَط الحيرة، حتّى استـتزالوا (١) نهوضَه بحقّـه، وخافوا الزيغ على أديانهم فيما أعطَوْه من صَفقة أيمانهـم؛ وهو ماضٍ على عادته، مستديمٌ للوادعة، مُتَلَوِّمٌ على المراجعة، بالغ غايةَ ما فى وُسْعه من الرخصة فى دفع الولاية التى تَهْنَهَ بهـا الرَّعيّة، حتى ضاق عليه فى دينه تركُ القيام بمـا أنهضه الله به من ثِقلهـا وقلّده من حَمْلها، وخاف المخلوعُ فانبعث بالشِّرّة والغِرّة، فتناول أولياءَ الحق باغيا طاغيا، لمـا أراد الله من تأييدهم عليـه بالبيان والحُجّة التى يَجبُ لها قلبُـه، ويُفَتُّ بهـا فى عضـده، ويقبل الله ما شرّفكم به من النصر والغَلَبة فيه التى جعلها الله للتقين. فاجتمع

(١) كذا فى الأصل.

لكم معشرَ أهل خُراسان فى دولة أمير المؤمنين ثلاث خِلال ٱختصّكم الله بفضيلتها، وسنيّ مراتبها، دون ثلاث شَمِلَتْكم وغيركم .

أما الأولى من اللّواتى خصّكم الله بهنّ، فما تقدّم لأسلافكم من نُصْرة أهل بيت النبيّ، والقائمين بميراثه من آباء أمير المؤمنين .

وأما الثانية، فما آثركم الله به من نُصْرته فى دعوته الثانية .

وأما الثالثة ، فما تقدّمتم به من صحة ضمائركم، ومحض مُناصحتكم .

وأمّا الثلاث اللواتى هنّ لكم ولغيركم :

فمنهنّ ما أكّد الله لأمير المؤمنين فى أعناق المسلمين : من العهد الذى أخذ إصْرَه، وألهمهمُ الوفاء به والتمسّكَ بوثائقِ عصمته، عند محاولة المخلوع ماحاول من الإعلان بالردّة، وٱلتمس من تبـديل معـالم الدين وتَعْفية آثاره ، فلم يُلْفِ الرعيّة سُدًى مهمَلين، لا جامع لأمرهم، ولا ضامٌّ لنشرهم .

ومنهنّ ما أفادكم الله وإيّاهم من العبر، عنـدَ حلول الغِيَر بمَنْ غَدَر وخَتَر، تذكرةً لأولى النُّهى، وحجةً بالغـةً على من أدبر وتولّى، ليهتدى متحيّرٌ ويتّعظ مُزْدَجِر، ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ . ومنهنّ ٱجتماع أهل الفضل من المسلمين : ممن لم يكن له نَصْر ولا أَزْر فى الدعوة الأولى على المشايعـة فى الدعوة الثانيـة؛ فأصبح دُعاة أمير المؤمنين من أهـل الحرمين والمِصْرين ومدينـة السلام والمشرق والمغرب ممن غَارَ أو أنجد من المتمسّكين بذممهم المُوفين بنـذورهم، من إخوانكم؛ وإن كان الله قد قدّمكم فى الأمرين جميعـا بتفوّقِ حالكم على غيركم، يَعتدّون من معاضدتكم ومكانفتكم بما جعله الله عز وجل أُلفـةً لكم ومَودّة بينكم ، يبيد بها ما كان الشيطان يَنزغ به بين أهل التباعد فى الأنساب، والتنائى فى الأوطان من إيقاع العداوة والبَغْضاء ، والأنطواء على الأحقاد والدِّمن، وطلبِ تهديم الإحن ، وصار أهـل السموّ الى الدرجة العليا والأعتصام بالعُرْوَة الوُثقى من أوليـاء أمير المؤمنين وشـيعته، منشرحةً صدورُهم بمكانفته، مُنْبسطةً أيديهم بمُعاونته على حقـه ،

منفسحةً آمالهم فى إذكاء ناره على عدوّه والإثخان فى بلاده وٱفتتاح ممتنع حُصونه، بما جمعهم الله عليه من الأُلفة، ورفع عنهم من الحميّة والعصبية، راجين عودتَهم الى أحسن مامضى عليه سلفُهم، فى عهد نبيّه صلى الله عليه وسلم، من سلامة الصدور، وصلاح ذات البين، وٱجتماع القُوَى على مجاهـدة مَن شاقّهم؛ قد أفرد الله عنهم نُفْرة التحارب والتجاذب، وجعل ما كان يسعى به بعضُهم من الإعداد لبعض، زيادة فى ريحهم، وحدّا فى شوكتهم، لائتلافهم فى دولة أمير المؤمنين المجدودة المؤيدة بصدق الضمائر، ونفاذ البصائر. والى الله يرغبَ أميرُ المؤمنين فى إعانته على صالح نيّته، وتبليغه منتهى سُؤْله وغايةِ همّته، فى اعزاز دينه و إذلالِ مَن صدّ عن سبيله؛ إنه سميع قريب.

ومن أقوى الأسباب إلى استدعاء الشكر على النعمة تَذَكّر ما كانتْ عليه الحال قبلها، فاستَديموا الإفاضة فيا رفع الله من خَساستكم وأعلَى من أقداركم، بنُصْرة أهل بيت نبيّكم صلى الله عليه وسلم، وما أبلا كم اللهُ فى الدعوة الأولى ممّا لا يؤدَّى حقُّه إلا بعون الله وتوفيقه، فإنه ارتاح لهم بلطفه وتوفيقه، فأنا لهم رغائب الأقسام وسَنِيَّ الحُظُوات، ورفع درجهم ودرج خلوفهم وأعقابهم من بعدهم، بعدَ إذ هم مُسْتَضْعفون يخافون أن يَتخطّفهم الناس، مُذْعنون بقهر عدوّهم واستئثاره عليهم، ثم لم يَلبَثوا أن صاروا الى الحال التى يرَوْنهم بها من الغبْطة والبَهْجة، إلّا أنّهم أخذوها بحقّها؛ وكانت فى أيدى الظلمة من أهل بيت اللعْنَة وأتباعهم بجِدّه(١) الباطل ومحْنة الابتلاء، ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾. وليس أحد منكم بخارج من المحنة بما أُلْبِس من النعمة، وإن كنتم أهلَها الآخذين لها بحقّها، بل الذى يلزمكم آستدامتُها والقيامُ بحفظها، على حَسَب ما أولا كم الله منها، فربّما كان الذى يُعْقِب أهلَها من الغفلة والآغترار ويُلْهيهم بها من حبورها وسرورها، أعظمَ إثما وحُوباً مما يخاف على أهل البَطالة والصبر من ضعف العزم وقلّة الصبر، لما يَستولِي عليهم من آستكانة الذّلة، والآغترار بالتقصير، والفزع الى ربهم فى تنفيس كُرَبهم، فإنه

(١) كذا فى الأصل.

تبارك وتعالى قد وصف أهل الطبقتين فقال : ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾. فحاجتكم اذا أنجح الله سعيكم وأظفركم بطَلِبتكم، الى حياطة ما أودعكم الله من مننه ورِعاية ما آتاكم من فضله ، بالشكر الممترى للمزيد . فتعهّدوا معشر شيعةِ أمير المؤمنين أنفسكم بتذكّر ما سهّل الله لكم من الحُزونة، وذلّل لكم من الصعوبة، وحكم لكم به من النصر، على مُرّاق الملة ومُخالفى أهل القبلة ، وأباحكم من ديارهم وأموالهم؛ فأصبحتم بمَنّ الله عليكم حُماةَ الدين، وأنصارَ الأئمة الراشدين، وحصونَ كافّة المسلمين، بعد ما اجتثّ الله بكم قُرونَ النِّفاق، وأباد بكم صناديدَ الضلالة، وشرّد من لم تستحمله سيوفُكم، وأضرع اليكم مَن أذعن واستسلم، وقد استشرفكم معشرَ شيعة أمير المؤمنين أهلُ الشنآن، ولاحظوكم بأعين الحسد والمنافسة، فَبين ذلك مُجْهِرٌ مُعالِنٌ، ومُسْتَسِرٌ مداهن، وداخلٌ فى عدادكم ، وواِلجٌ فى سوادكم، يرى أمْنَه بين ظهوركم ، فطعنُه عليكم فى دولتكم بريبة التمويه وخُدَع التشبيه ، أيسرُ عليه كُلفةً وأعظمُ فيكم جرحا ونِكاية ؛ فتوقّوا هذه الطبقةَ أشدّ التوقى، فإنّ أكثر مَن يلجأ الى استباحة الحيلة، مَن عجز عن المباداة والإصحار ، وعند ظهور الحازم وغلبته يَحترز من لطيف الخُدع وخفىّ الاستدراج .

واحذروا معشرَ شيعة أمير المؤمنين من استمراء الطراءة، والركون الى راحة الدَّعة ما قد رأيتم وباله عاد على أهله ، وأورثتهم عواقبُه طول الندم والحَسْرة؛ فإنّكم قد كنتم فى حال المراقبة لعدوّكم، والخوفِ لبائقته مُتيقّظين مُتحفّظين لما كان يرومكم به من خَتْله وحيله ، ثمّ أفضيتم الى الجِدّ وقد جهدكم السعى ومسّكم النصَب، وسُلِّق الشيطان فى أمانيكم أن قد اكتفيتم بسالف ما قاسيتم ، ويجد من ضَعْف العزائم مُعينا داعيا الى اغتنام الخفض، والإخلاد الى الأرض، ما لم تعتصموا بما عاينتم من الاعتبار ، وتَمثّلوا مواضىَ الآثار فيمَنْ سلف من القرون الخالية، وما أفضتْ به اليه العزّةُ من زوال النعم ووقوع الغِيَر، فإنّ جميع ما خوّلكم الله وأفادكم مُرتَهَنٌ بما ألزمكم من حِياطته واستنمائه؛ فقد وجبتْ عليكم الحُجة بما حضّكم الله .

عليه ، وعظمت عليكم المنّة بمـا هداكم اليـه ، وأراكم من آياته ومُثُلاته فيمن خلا قبلكم مافيه أبلغُ الإعْذار والإنذار لكم . ومن اجتمع له اقتناءُ صواب من تقدّمه الى ما ينبعث من نفسه ، فكأنّه قد اختبر بالتجربة ، مع استمداده بما يستفيد ، ويستزيد ما يفتح لُبّه ورأيه ، وأيقنوا أنّكم لن تصلوا الى مَن سواكم ، ممن هو أعسرُ طاعةً عليـكم وأعذرُ بمعصيتكم ، حتّى تبدءوا باستصلاح أنفسكم ، وأنّه لن يرجى لكم القوة على مُجاهدة عدوّكم حتّى تقووْا على مجاهدة أهوائكم ، فإنّ على كل امرئ ريبةً من أمره ، وغِطاء من غيبة ، لايكشفه إلّا صحّة المعرفة ، والإذعان بالنَّصفه ؛ فهناك يُؤمَنُ عليه الجهل والمعاندة ، واذا أُمنت هاتان الخلّتان انسدت بإذن الله ثُلَم الآفات ، وفُتوقُ المكاره ، فإنّه لا يُخاف الضـلالُ على من اهتدى ، ولا اعتماد الجَوْر على مَن انتصف من هوى .

وليكن أوّلُ ما تتعهّـدون به أنفسَكم ، وتُثابرون عليـه من صالح أدبكم تناصُفَ الحقّ بينكم ، بتقـديم أهل الفضائل والآثار المحمودة منكم وتفخيم أمركم ؛ فقـد علمتم أنّ منكم المبرّز الفائت الذى لا يُدرك شأوُه ولا يُوازَى بلاؤُه ، حين كشف الإبلاء ضمائرَ الـقلوب وجلا مُشْتَبَهات الظنون ، فصرّح بالمحاربة بعد التقدّم فى الحُجّة ، وفاءً بمؤكّد العهد وركوبا منـه لهائل الخطَر ، غيرَ هائب مع صحْبَـة الحقّ ما بَرق لديه الناكثُ المخلوع ورَعد ، ولا مُستوحِش فيما تفرّد به الى من تولى وأدبَر ، حتّى أتى الغاية التى أجرى اليها فى الله عز وجل وفى خليفته ، ثم لرؤسائكم من أهل المُشايَعة والمُكانَفة والنُّصرة والحظ الجزيل والأثر المُبين ، ثوابُهـم واجب وحقّهم لازمٌ ؛ ثم منكم من يُحفَظُ لسلفـه وأوّله من الآباء الذين يحفظون ولايتهم ، فإن الله عز وجل يقول فى ذكر اليتيمَين : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَـةِ ﴾ الآية . وقال على لسان يعقوبَ لابنـه يوسفَ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ الآية . وأمير المؤمنين يَرَى توريثَ الحكمة والذمامَ سنّةً عليـه فى أخلاقه التى يرعاها ويحافظ عليهـا ؛ كما أنّه يرى وِراثة التركة فريضةً واجبـة ، فيخلف السلَف الصالحَ عنـده من المزّية والفضل ما يتلون به أهـل الغَناء بأنفسهم ، ثم

يتلوهم من اقتدى [بهم] واهتدى بهَدْيهم . والسابق المتقدّم من اعتد ببلاء نفسه الى بلاء سلفه، ثمّ يتبعه بعدُ المبلي بنفسه، ثم يتلوهما المُتوَسّل بآبائه، ثم الصاعد به هواه ورأيه، طبقةً فطبقة ؛ فليقصر كلُّ امرئ منكم على المرتبة التى أحلّه بها سَعيُه ، وليَسلك الى الأزدياد فيها بالزيادة من نفسه ؛ فإن من الفُتُوق العظيمة على أهل الدوَل ما ينزغ به الشيطان بينهم، ويكثر عندهم ما يكون منه، فيوافق من الحَيف للأنفس ما يجد به مساغا الى ما يروم من إيقاع الشحناء بينهم، وتثبيت الإحَن فى صدورهم، بعد التآزر والتناصر. ومتى يجمع المرءُ لمزيةِ مَن فوقه، واغتباط مَن دونه كُفِيَ ماترك. ولن تخلُص نيّاتكم . وتسلم ضمائركم، حتّى تمْحَضوا شكر ما أُوليه إخوانُكم، وتعتدّوا ما نالهم شاملا لكم، وتُجانبوا طريقة من اقتصر بأُمنيّته على خاصّته، وتعتّب فيما أُوثر به أهلُ الفضل دونه . وكَفَى عِظةً فيما نهاكم الله عنه من ذلك؛ يقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ الآية . ولا يَلتمسنّ أحد مودّته عن سوء نيـة بحسن مداراة فى ظاهر، فإن الله مقلّد كلّ امرئ رِبقَة عمله ومُطوِّقه طوقَ سريرته . ولا يغدرنّ فيما يلزمه لإمامه ؛ فإنه إنما يغدر فى حظّه ويبخَس قِسْمه، ويَبخس نفسه . ثم لا يقتصرنّ على استصلاحها حتّى يتناولَ مَنْ كانتْ مِنّته عليه من أقربيه وحسويه[(١)]، فإن يسير ما هو مُعانٍ من تأديبهم لا ينشَب أن يتجاوز أدنى المراتب الى أقاصيها، وقريبها الى مُتناهيها، حتّى يستفيض شاملا عاما، بعد أن بدا محلّلا خاصا .

واعلموا أنّ أمير المؤمنين متفقد من تثقيفكم وتقويمكم على صالح الأدب ومحمود السيرة، ما لا يتفقّد به مَن سِوَاكم؛ فإنّه إن كان يُوجِب على نفسه استصلاحَ الرعيّة وحملَهم على ما فيه رُشدُهم وقِوامهم ، لِما يلزمه من فضل العناية بالأخصّ والأولى فالأولى ، فإنّ فى أخلائكم من التقديم فى التأديب والتعهد ، وجوها من الضرر : منها : أنكم أوْلى بحسن الطاعة وسرعةِ الإجابة، للطف محلّكم وقرب مكانكم عند أمير المؤمنين .

---

(١) كذا فى الأصل .

ومنهــا : أنكم يأنس بكم المؤتمّون ويَقتــدى بكم التابعــون ، فمتى قصّرتم وأخللتم ، اقتفى أثركم مَن نُصبتم له أعلاما ، ثم لم يكن لكم أن تَزروا عليه ، ولا أنْ تأخذوا فوق يده ، بل كان قَمِينا أن يكون يَسومكم الرضا بمثْل ما سمِعتموه ، ثم تجرى هذه العادةُ فى الطبقات ، حتّى يطّرِد السياق ، الى أن يستفيض الفساد فى حَشو النــاس وعامتهم ، فلا تُغــنِى قوة ولا حزمٌ ولا شدّة ، إلّا العجزَ والاضاعة ، ثم يجد الأعداء مَساغا الى الطعن والعيب ، فلا يَملكون أن يُرهِقوكم ويَســتَوْلِى عليكم الفشلُ ، فإن الأيدى إنّمــا تُبْسَط بنفاذ العزائم ، والعزائم إنّما تَنْفُذ بثبات الحجّة ، والحجّة إنمــا تثبت إذا كانت عن الحــق . وإذا أُضيع أوّل هذه الرسوم ، التى رسم لكم أميرُ المؤمنين ، تَبِعته تواليه وشَفَعته لواحقُه ، ووجد العدوّ الملاحظُ مكان العَوْرة ، مَطْمَعا فى إهمال ما كان يُعدّ له من الغِرّة ، ويَتوقّى به من مناهزة الفُرْصة ، وليكن ماتُفيضون فيه وتعــدّونه ظهيرا على طاعنٍ إن طعَن فى دولتكم ، ما ألهم الله أميرَ المؤمنين : من شُمول رَعيّته بالعدل ، وفرش الأمر فى مضمراتها ومنقلَبِها ، ورفع به عنهم من سير الجود ، وبسَط به يده من إثابة أهل البلاء ، وتغمُّد الجرائم لأُولى الزَّلَل ، والإبلاغ فى دعاء من عانَد وشاقّ الى التوبة والإنابة ، وإقالة العَثْرة بعدَ القدرة ، والحَقْن لمُباح الدماء ، فلم تعلموه صَبَر محملا ، ولا هَتَــك لأحد ممّن أظفره الله به سِترا ، ولا وَقَفَه على عورة . ثم تولّى الله أميرَ المؤمنين ، فى حروبه شرقا وغربا ، التى أغناه الله عن الإطناب فى وصف صــنع الله لكم فيهــا ، لاســتفاضة أخبارها فى دَهْمائكم ، مع ما أحبّ من مطالعتــه إيّاكــم ببالغ أدبه وشافى عَطفه ، أن يتنكّب من الإسهاب ، فى غير ما صَمَد له ورأى من تقريع أسماعكم وأذهانكم ، لوعى ما التمس أن تَعُوه من تبصيركم حظّكم ، وتنبيهكم على رشدكم . وحَسْبُ أمير المؤمنين فى نفسه وفيكم الله ، وكفى به مبينا .

وإنّ أميرَ المؤمنين مع ما تقــدّم به اليكم لعَلَى ثقة من حِياطة الله خلافَتــه التى جعلها عِزًّا لدينــه وقِواما لخلقه ، وأنّه ليس بهــا ممن أدبَر عن حقها اختــلالٌ بل من خلع ربقتَها وأضاع حظّه منها ، جلب الخَلّة والحاجة وخَسرانَ الدنيــا والآخرة . وإنمــا أُتِىَ

المُقَصِّرون فى إعظام حقّها من ضعف الروِية عن بلوغ ما تُفْضى بهم إليه مصادرُ العواقب ، وتُؤديهم إليه رواجعُ ما قدّموا ، فلا يكونون بعملهم غيرَ متجاوزين بهممهم ، وفيهم الذى هم فيه الى ما يمنعه[1] .

وٱستديموا معشرَ المسلمين سابغ النعمة بحمد مُوليها والمُتطوّل بها . وقد ترَوْن ما كنتم فيه قبلها وما آلت اليه حالُ مَن سُلبها ، ثم يُعْقِب الندامةَ حين لا مُسْتعتَبٌ ولا نَظِرةٌ يمكن فيها استقالةُ الفارط بتقصيرٍ ولا هَفْوةِ زَلل . وثقوا من رِعاية أمير المؤمنين محمود آثاركُم ، وما مضى من بلاء كلّ آمرئ منكم ، بما تطمئنون اليه وتتوقّعون عادته ، بأسنَى ما ترتفِع اليه آمالُكم وتسمو اليه هممُكم ، الى ما يَدّخر الله لمن تمسّك بهداه ، واعتصم بتقواه ، وجاهد عن حقه ، وافيا بأمر عهده من جزيل ثوابه وكريم مآبه ، الى الدار التى هى أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلا .

أحبّ أمير المؤمنين أن يتعهّدكم بعظةٍ تنّبهكم على حظّكم ، وتُثبت من بصائركم ، وتقطع من طمع الشيطان وحزبِه فيكم ، لِما يجب عليه من إرشادكم ، ويرجو من تأدية حقّ الله عز وجل فيكم ، ولِما يرى من آتصالكم بحبله ، وما يشملُه من الصنيع فيما ولّاكم الله به ، وتولّاه لكم .

وأمير المؤمنين يسأل الله الذى دلّ على الدعاء تَطوّلا ، وتكفّل بالإجابة حتما ، فقال عز وجل : ﴿ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ، أن يجمع على رضاه أُلفتكم ، وأن يصل على الطاعة حبلَكم ، وأن يُمَتّعكم بأحسن ما أودعكم من مننه ، ويوزِعكم عليها من شكره ، ما يواصل لكم مزيدَه ، وأن يكفيَكم كيد الكافرين ، وحسد الباغين ، ويَحفظ أميرَ المؤمنين فيكم بأفضل ما حُفِظ به أمام هدى فى أوليائه وشيعته ، ويَحمِل عنه ثقَل ما حَمله منكم . وبالله يستعين أميرُ المؤمنين ، على ما ينوى من جزائكم بالحسنى ، وحملِكم على الطريقة المُثلَى ، وبه يرضى ناصرا ووليّا ، وكفى بالله وليّا وكفى بالله نصيرا . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

---

(١) كذا فى الأصل .

وللمأمون — لمّا كتبتْ اليه السيّدة زُبَيدة بعد مَقْتل ولدها الأمين خطابَها الآتى تستعطفه :

كُلّ ذنب يا أميرَ المؤمنين وإن عَظُم صغير فى جَنْب عَفْوك . وكُلّ زَلَل وإن جلّ حَقِير عند صَفْحك. وذلك الذى عوّدك الله؛ فأطال مدّتَك، وتَمّم نعمتَك، وأدام بك الخيرَ، ورَفَع بك الشرّ .

هذه رُقْعة الوَالِه التى ترجوك فى الحياة لنوائب الدهر، وفى الممات لجميل الذكر . فإنْ رأيتَ أن ترحم ضَعْفى ، وآستكانتى، وقلّة حيلتى، وأنْ تَصِلَ رَحِمى ، وتحتسب فيما جعلك الله له طالبا وفيه راغبا فافعل، وتذكّرْ مَنْ لو كان حيًّا لكان شَفِيعى اليك .

فكتب اليها المأمون :

وَصَلَتْ رُقْعتُك يا أمّاه ، أحاطكِ اللهُ وتَوَلّاكِ بالرِّعاية، وَقَفْتُ عليها وساءنى — شهد الله — جميعُ ما أوضحتِ فيها، لكنّ الأقدارَ نافذةٌ، والأحكامَ جاريةٌ، والأمورَ متصرِّفةٌ، والمخلوقون فى قَبْضتها، لايَقْدِرُون على دفاعها، والدنيا كلّها الى شَتَات، وكلّ حىّ الى ممات، والغَدْر والبَغْى حَتْفُ الإنسان ، والمَكْرُ راجعٌ الى صاحبه . وقد أمرتُ بردّ جميع ما أُخِذَ لك ، ولم تفقدى ممّن مضى إلى رحمة الله إلّا وجهه . وأنا بعد ذلك لك على أكثر مما تختارين؛ والسلام .

(ه) أحمد بن يوسف (١)

رسالة ممتعة لأحمد بن يوسف ذكرها ابن طيفور فى آختيار المنظوم والمنثور وهى :

أما بعد فالحمد لله القاهر القادر، الخالق الرازق، فاطر السموات والأرض، الذى أحاط بكل شىء علما، ونطق به خُبْرا، وأتقنـه حكمة وعلما، وألّف بين مُخْتلفـه ومُتَّفَقه، ليدل بقوام بعضـه على بعض، على آتصال تدبير مشيئته ومُبْتَدعه، وانه أَحَد صَمَد، لا ضـدّ له ولا نِدّ ، إذ قدّر له حاجته ثم شدّها ببلاغها الى الغاية التى جعلها، فقال جل وعز ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ وحكى عن نَجِيّه موسى عليه السلام، ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ ، وقال اللهُ تعـالى ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ ثم لم يكلّف العباد من شكره كِفاء نعمته، بل رضى منهم باليسير، وقبـل منهم العفو، وجعل طاعتهم إياه عائدةً عليهم بجزيل الحظّ فى دينهم ودنياهم، لغناه عن عبادتهم، وآتّساع قُدرته بالتطوّل عليهم، مُفْتتحا وخاتما ، وبادئا وعائدا .

والحمـد لله الذى آصطفى محمدا صلى الله عليه وسـلم ، نبيّا لرسالته، وأْتَمَنه على وَحْيه، وأنزل عليـه كتابه العزيز، الذى لا يأتيـه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فأدّى الى خلقه الرسالة ، وآستنقذهم من الضّلالة، وصَدَع بأمر ربه وجاهد فى سبيله ، ونصح لأمته حتى أتاه اليقين من ربّه، بعد آستنارة الحقّ، وظهور الحجّة، فصلّى الله عليه بشيرا ونذيرا، وداعيا الى الله بإذنه وسراجا منيرا قد تلافى من الهَلَكه، وجمع الأُلفة بعـد الفُرقة ، وأوضح الهدى بعـد الدُّروس ، ومعالمَ الرشد بعد الطُّموس ، وكان بالمؤمنين رحيما .

والحمـد لله الذى قَفّى على آثار المرسلين ، والأئمة الراشـدين ، الهادىَ التقىّ، الطاهر الزكىّ، الإمام المأمون أمير المؤمنين، أعزّ الله نصره، فسَدّ ثُلْمتهم، ورأَبَ صَدْعهم وقلّده خلافتهم ، وجعـله لكافّة المسلمين غِياثا ورحمةً، وجعل ما أَلْهَمه من العـدل والإحسان

(١) راجع ما كتبناه عنه فى الفصل العاشر من الكتاب الثالث فى المجلد الأول .

إليهم ، مِنّة عليه ورحمةً ذَخَرها له ، دون الخلفاء قَبْلَه ،فيما أظهر من فضل زمانه على الأزمنة ، وسياسة مَنْ تقدَّمه ، ومنح الرعيّة من عطفه ونَظَره ، ما لا يحمل عنهم أو به ولا يؤدّى عنهم شكره ، الا هو لا شريك له ؛ وأحسن الله جَزاء أمير المؤمنين ومَثُوبتـه ، على صِلَة رَحِم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، التى هى رَحِمه وقرابته ، وٱختياره لولاية عهده الأمير الرّضى علىّ بن موسى ، حفظه الله ، حين أحمد سيرته ، ورضى محبته ، وعرف ٱستقلاله ، بما قلّده فى هَدْيه ، ودينه ووفائه ، بما أكّد الله به عليه ، من عهد أمير المؤمنين أيّده الله ، فى ٱعْتِيامه من ازره وأَسَاه بمـا شَفَع رأيَه ، وأنفذَ تدبيره ، حين همّ لٱستصلاح ما ٱسـترعاه الله ، من أمور عباده ، لمـا ٱنتقى القائمَ بدعوته ، ورئيسَ شريعتــه ، الأميرَ ذا الرِّياستين رحمه الله ، فاتّخذه مُكَانِفا ظهيرا ووزيرا دون من سواه ، فاتّبع مِنهاج أمير المؤمنين أيّده الله ، وسار بسيرته ، شرقا وغربا ، وغَوْرا ونجدا ، مُوفِيا بعهده ، قائما بدعوته ، مقتفيا لأثَره وسُنّته ، فحسَمَ الله به الأدواءَ ، وقمعَ به الأعداء ، من عُتاة الأمم ، وطَواغيت الشِّرك ، وآباد على يده ، أهلَ الشِّقاق والنِّفاق ، فى كل أُفُق وطَرَف ، بجِدّ أمير المؤمنين أعزّه الله ، وبركة سياسته ودولته ، ونُجْح سَعْى من قام بنُصرة من قام بحقّه ، وأنار برهانه ، حتى توفّاه الله عز وجل ، حين بلغَ هِمّته وغايته ، وحُمّ أجلُه ، وٱنقطعت مدّته ، سعيدا حميدا ، شهيدا فقيدا ، عند إمامه أكرمه الله ، وعند الخاصّة والعامّة ، وكان من إجلال أمير المؤمنين ، الحادثُ الذى نزل به ، فأحيا آثاره ، بوصف محاسنه ، فى مَشاهده ومَجامعه ، وترحّمه عليــه عند ذكره ، وحِفْظِه فى لُحْمته ، وأهل حُرمته ، وفيمن كان يحمد الله على طاعته ونصيحته ، ما أتمّ به نعمته ، عندنا وعندكم معشر الشِّيعة ، فقد أصبح أمره بكم متّصلا ، وموْقِعــه من جماعتكم متمكّنا ، يقبِضكم ماقبَضه ، ويبسطكم ما بَسَطه من لومة المصيبة ، وحسن العُقْبى ، وقد علِمتم معشر أهل الحجا والنُّهى ، والطاعة لله عز وجل وخليفتــه ، وذوى الغَناء والبَلاء فى دعوته من أهل خراسان وغيرهم ممن حضر ممّن ٱمتحن اللهُ قلبــه بوفاء العهد والاستبصار فى حقّ أمير المؤمنــين أبقاه الله ، والمجاهدة دونه ، والصـبر على مواطن الصِّدق واللأْوَاء ، والذّبّ عن البَيْضة والحريم ،

والمتحمّلين للنَّصَب، والمصائب التى انجلَت، حتى كأن لم تكن، وبقى أجرها على الله عزّ وجل، ومحمودُ ذكرها شائعا فى الناس، إن نعَم الله، قد جلّت ولَطُفت، وخصّت وعمّت، وعلت وسَمَقت، وتمّت ودامت، حتى قصّرنا عن موازينها، والإحاطة بأدائها، فإذا لم يكن لنا معشر إخواننا سببٌ الى مكافأة بَلائه بالعمل، فنحن جُدَراء أن نجتهد فى القول، ونُطْنب فى الوصف إن شاء الله جلّ وعزّ، فقد جعل ذكرَ النِّعم من أسباب الشكر، وقد جدّد لنا أميرُ المؤمنين أيّده الله من الحياة والكرامة، وجزيل الحيطة، وسَنِىّ الرتبة التى قُرِئ بها عليكم كتابُه ما يَستغرِق جَهْدنا، ويستفرغ وُسْعنا، فنرغب إلى الله عز وجل، وَلِىّ الرغبة، ومُؤْتى السُّؤْل والطَّلِبة، فى إعانتنا على تأدية ما وجَب له، فيما منحنا من فوائده ونحَله، ثم نسترفدكم ونستعينكم على شكره، وإمدادنا بما بلَغته طاقتكم فى السّعى له فقد آدنَا ثِقْلُ ما حمّلنا، وثقل ما طوّقنا، وعظُمت فاقتنا الى آستعمال القوَى من الأنْفس والحامّة، والخاصّة والعامّة، فى جَزاء ما جَلّل أمير المؤمنين فينا من سُنَنه، وشملنا من تالد أياديه وطارفها، وقديمها وحديثها، وكيف يُوجد الى موازاة أمير المؤمنين سبيل ببذل جَهْد، أو بلوغ حَشْد، فإنما نَقتدى بهُداه، ونَعْشُو بنوره فى ديننا، وليس عَجْزُنا عن أن نجزى حقّه، بواضعٍ عنّا مؤونةَ الدُّؤوب فى التحرّى لتأديته، فإن الله عز وجل، قد أخبر بفضائل الشكر ومناقبه، وجعله من أسمائه، ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾، وقد قال تعالى ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾. وقال تعالى ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾. ولولا أن الله عزّ وجل رَضيه لنفسه، لأجللناه عن التسمية إذ كان أكثر ما نستعمله، ونعرفه فى مكافأة من منٍّ وتَطَوّل، ثم ثنّى بذكر فضله فى العباد، فإن الله تبارك وتعالى آفتتح أوّل ما علّم خلقه بالحمد، وجعله بَدْء كتابه، وخاتمة دعوة أهل جنّته، فقال عزّ وجل، ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وخلق الله السموات والأرض، ومن بَرأ وذَرأ فى الحياة لِيَبْلُوَ عبادَه بشكره، وأعدّ الجنة فى الآخرة لمن شكره، والنار لمن كفره، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ

كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾، وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، فجعل التقوى واقعة، والشكر مرجوًا ليدل على ارتفاع رتبته، وعلو درجته عنده، وقال لنجيّه موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ . فلم يكلّفه الا أخذ ما أعطاه، والشكر على ما أتاه، وأخبر بعزّته فى العباد، فقال تعالى : ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾، فأيّة نعمة أجلّ قدرا، وأسنى أمرا، معشرَ الشّيعة من نعمة أمير المؤمنين، أيّده الله، عند الأمير ذى الرّياستين، ومراتبه التى رتّبه بهــا، فإنه أعطاه رياســة الحرب، ورياســة التدبير، وعقد له على رأسهما علما فى راية دعوته ، وقلّده سيفهما وختّمه بخاتم الخلافة، وخاتم الدولة، وجعل صلاته بين صاحب حَرَسه، وصاحب شُرْطَته، ومَسيرَه بين أمير المؤمنين و بينهما، أمامه وخلفه، وصيّرله الجلوسَ على الكرسى بحضرته، فى صدر كل مجلس جلس، الا أن يُؤثِر به من أحبّ من أبناء الخلفا، وقدّمه فى دخول دار الأمير راكبا الى أقصى مكان ينتهى إليه أحد من بنى هاشم، لأنه منهم، وأعظمهم غَنَاء عنهــم ، فسمّاه صــاحب دعوته وسيفه على عدوّه و بابه الذى يدخل اليه منه، وولّاه خيوله فى أقطار الأرض، ومُقَدَّمته بحضرته، وقلّده من الثغور ما قد علمت، بما أفرده فى عهده، الى ما أنْفَذه من أمره، فى جميع سلطانه ومُلْكه، من مشارق الأرض ومغاربهــا ، وأين يأتى الوصفُ على ما فضّــله به ، وقدّمه وشرّفه على النــاس كافّة، ولكنا نُخْطِر بذكره، ثم نَكِلُ السامعين الى ما يرجعون إليــه من المعرفة التى لا تبلغها الصّفة ، ثم لم يكن ما أكرمه به فى حياته بأعلى ممّا أكرمه به فى وفاته، تولّى غسله وتكفينه، ومباشرته بجهازه، إلى حفرته بيده، وقاسى من الغُصَص، و برحاء الحزن، و إذراء العَبْرة، و إراقة الدمعة ماحال بينه و بين الكلام، وكاد يمنعه من القول والدعاء فى صلاته عليه، من الحكم، وحِفْظ أهل الحُرْمة، به رعايةً له فيهم، ووفاءً بعهده من بعده، وأقرّ خاصّته، وقوّاده وعُمّاله . وكتّابه على مَراتبهم ، وحمِد بحمده، وذمّ بذمّه، وجدّد لجنده، وتل كريته[1]، نظرا وعطفا، فلم يَبْقَ عليه فى إحياء ذكره، وبلوغ كل ما يحبه فى حياته غايةٌ الا أتى من ورائها،

(١) كذا فى الأصل .

وأمر بقراءة فتوحه، كما كانت تُقرأ على عهده، وأضاف كل ما حَدَث من بعده الى ما تقدّم من سَعْيه، وأخبر أنه كان سببَه، والمفتتحَ به، وولّى محمد بن الحسن خلافته، ونَصّبه مَنْصِبه، وأقامه مُقامه الى أن جَدّد العهد لى، فاستخلفتُه على ما وَلِى بحضرته، ثم تتَابعت كتبُ أمير المؤمنين، أكرمه الله بعد مصاب الأمير ذى الرياستين، بما لا يقارب التفضيل، والإطلاق والتفويض الذى كنتم سمعتم به وبلغكم، فلم يكن يرى وراءه مجاراة، ولا فوقه مَصْعَدا، حتى جدّد لنا من كرامته، ما قد قُرِئَ عليكم فى كتابه، فبلَغ بنا ما لم تكن الهمم تبلُغه، والأمانى لِتُحيط به، لولا ما منحنا الله عز وجل من الترقّى فى الفضل، الى ما تتحَسر من دونه الأبصار، وتنقطع دونه الآمال، وإنما اقتصصناه وذكرنا ما أبلانا واصطنع عندنا من بلائه بدعائنا الى الله عز وجل، والى طاعته بالعدل والإحسان الى رعيّته والنظر بالصفح، والأخْذ بالفضل، والأمرِ بالمعروف، وصِلَة المروءة بالوفاء بالعهد، والشكرِ للمَن، ورِعاية الأخلاق المحمودة، وإحْظَاء أهلها، وإقامة سوقها، حتى تنافسوها وتَشَاحّوا فيها، وصارت هى الذّرائع اليه، والوسائل عنده، فلو تأمل متأملُ أهلِ الزُّلْفَة، والأَثْرة لديه، لوجَد الأخَصّ فالأخصّ، والأعلى قدْرا عنده هو الأفضــل دِينا ومروءة، فلو لم يكن فى الحُظْوة عنـده إلا إيجابها لصاحبها صحّة المحبة، والنزاهة عن كل ظِنّة، لكان فيها أعظمُ الغبطة، وأعدل الشهادة والدّلالة؛ وسنقُصّ عليكم بما أخبرناكم عنه مالا سبيل الى جَحْده وإنكاره، بوضوح معَالمه ومنَـائره؛ أو ليس المجاهد عن دين الله، والمحامى عن بَيْضة المسلمين، والمُواتى لأغلظ عدوّهم شوكة، وأخوَفهـم عداوة، والمُنجِح فى بلادهم، بمن كان لا يرام، ولا يُحاول لاستصعابه وشِـدّة مُقَاساته، حتى أذعن جيغويه بالعُبودِيّة له، ثم أباح حريمَه حين تمرّد عليه، حتى بلغ السّبى الى ولَده، وحاربونا به، وتغلغلَت خيولُه، حتى توصّلت الى قُبّته، ومنتهى عِزّه، أو ليس مُسَكِّن التهييج بالمشرق، حتى خَبَت النيران فيه، وأذعن رؤساؤها وقادتها. أَوَ ليس غازى بلادِ بابل حين طَغى أميرها، وبدّل، ونكَث ونقض، حتى اجْتُثَّت أرومتُه، وأباح حَرِيمه، وأراح المسلمين من معرّته، أو ليس سَادّ الثغور، ومُحَصّن

عَوْراتها ، والمباشر لتدبيرها ، والمُسْعَدا لمُكايدة المُنْجح فيمن أرادها ، وفَاكّ العُناة ، من رِقّ الإسار ، وناشر الرحمة على فقراء المسلمين وضُعَفائهم وأهل المَسْكنة ، والخَلّة منهم ، وقاسم الصّــدقات فى أهلها ، وعامر الموسم ومحصّــنه من الآفات حياطَةَ للسلمين فى حَجّهم ، وما يتقرّبون به الى ربهم ؛ وهل اقترن لأحد من الائمة ما اقترن له فى الملك والدّين والعزّ ، والتواضع والسَّعَة ، والبَذْل والقدرة ، والعفو والغلظة ، واللّيان فى مواضعها ، والنُّســك مع الهمّة ، والسطوة مع الاقالة ، وهل ترك معشرَ الأولياء والاخوان فى الدين غايةً لم يَسْمُ بنا الى شرفها ، وعلى مراتبها ، ومستراد الحظّ فى عاجل وآجل ، لم يبلغناه ونختار لنا خاصّ مكرمته ، ومُدّخر عاقبته : أرشدنا إلى الدين ، وسَلَك بنا سُبُل الجنة ، حاز لنا الملك ، فلم يبق وراء ما ملكنا غاية ، وَوَرَد بنا الحروبَ وسَاسَها لنــا ، فلم يدَع غايةً للتعليم والدّراية ، سُلّط علينا بسلطان الله الذى أتاه فلم يدع غاية فى التقلد والفقه ، فكم علّمنا الفضائل ، ثم فَضَّلَنا بهــا ، غلّب لنا الأمَمَ ، ثم خوّلناها . علّمنا طَرائق الشّرف ، ثم شرّفنا بها . أخْبَرنا عن الأنباء فكَفَانا مؤونة التماسها ، وأغنانا بما عنده فيها ، أخذ على أيدينا الخير للرعيّة ، فوهَب لنا شكرَها ، وصدّق مقالتنا عند الشُّبهة ، وأنْفَذ أمرنا فى التدبير .

فيا أيّهــا الامام المنصور المهدىّ الرشــيد حُزْتَ فضائل الآباء ، واهْتَدَيْت بهــدى الأنبياء ، أنشكرك عن الاسلام ، فأنت القائم به الداعى له ، والناصر لحقّه ، أم نشكرك عن الأمصار ، فأنت المُفتتح لمتنعها عَنْوة ، والمتطوّل على أهلها بالرحمــة ، والمنعطف عليهم بحسن الفائدة بعــد ما هيجت منك سَوْرة الغضب ، فأطفأتَ نارها ، وأخمــدتَ لَهَبها ، وعُدت على من سَفِه ، وأضاع حظّه ؛ أم نشــكرك على المساجد ، فأنت الذى أسّسْتَها على التّقوى ، وعَمَرتها بتِــلاوة القرآن ، وطهّرت المنابر وركبتها ، تعلُوها صائمــا ، وتنطق عليها صادقا ، وتدعو الى الرشد عليها ناصحا ، وتختم القرآن قبل أن تَبْدَأها محسنا ، وتتلو من قوارعه ، ما تصيخ له الأسمــاعُ وتلين له القلوب ؛ أم نشكرك على البيت العتيق ، والركن والمقام ، والحِجْر وزمزم ، ومَشَاعر الحج ، وأنت ذبتَ عنها ، وأعَدْت اليها عهدها ، فى مبعث نبيها ،

صلى الله عليه وسلم ، فأمنتَ النازع اليها ، من كلّ فجّ عميق ، والحالّين بها من الركوع والسجود ، أم نشكرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما حفظت فيه من عِترته ، بعفوك عن مُجْرمهم ، ومضاعفتك ثوابَ محسنهم ، وإحيائك من أمرهم ، ما كان قد آندرس وآنطمس ، بعد اللقاء بنبي الله صلى الله عليه وسلم ، وقد راعيت منه فى قرابته وقرابتك ، وذوى رحمه و رحمك ، ماضيّع الناس . ووَصَلْتَ منهم ما كان وصلَه ، إذ كان الله عز وجل ، قد فَرض صِلةَ الأرحام ، فكان أطوع خَلْق الله عز وجل فيما فَرَض عليه . أم نشكرك عن العوامّ ، فقد ألبست المسلمين ثوبَ الأمن ، وأذقتهم طعم السَّعَة والرَّفاهة ، وعدَلت بينهم بالإنصاف ، وتولّيت دونهم النَّصَب ، وآثرتَهم الراحةَ . أم نشكرك عن الملوك والقوّاد والأجناد ، فأنت الذى رفعتَ منازلَهم ، ووفّرت عددهم ، فلم يكن فى دهرِ أحدٍ من الخلفاء أسعدَ ولا أحظى منهم فى سلطانك ، بما بذلتَ لهم من المَعاون ، وولّيتهم من الثغور والأمصار ، وأدررتَ عليهم من الأرزاق والخَواصّ ، أم نشكرك عن الأحكام والسُّنَن ، فأنت الذى أنهجتَ سبيلَها ، فأوجبتَ فَرْضها ، ونافستَ فى أهلها ؛ أم نشكرك عن الأعداء فأنتَ الذى بدأتَهم بالحُجّة ، ودعوتَهم الى الفَيْئة والإنابة ، ثم ثنّيتَ معقّبا بالعفو ، ونَعَشْتَهم بعد البؤس ، وآنَسْتَهم من الوَحْشة ؛ أم نشكرك على مكارم الأخلاق ، وأنتَ الذى ثبّتَ وطّأتها ، ونفيْتَ عنها أضدَادها ، ولو نَطَقتْ بالفضل ، لنطقت بشكرك ، فى إزالتك إياها عن اللئام ، و إخطائك من آعترى اليها . أم نشكرك عن الثغور ، فأنتَ الذى تمّمتها ، وحصّنت عوراتها ؛ أم نشكرك عن السلَف ، فأنتَ الذى أشدتَ بفعالهم ، وحَفِظْتَهم فى أبنائهم ؛ أم نشكرك عن بُرْد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن القضيب الذى شُخّص به ، حتى جعلتهما زِينتك ، وسموتَ بهما فى أعيادك ، عند حَشْدك ، على الطُّهر والزكاة ، والنّسك والتقوى ؛ أم نشكرك عن المسلمين فى رِعايتك إياهم ، وما تُرْعِيهم من جَنَابك ، وتنفى عنهم من الآفات ، وتميل عنهم من جبابرة الكفر ، وتفُضّ من جيوش الشّرك والنّكث ، وتفتح من الحصون المُسْتَصْعَبة ، وتسهّل من الطُّرق الوعرة ، أم نشكرك عن تواضعك لله عزّ وجلّ ولِصَالِح

المسلمين طلبا للرفعة عند الله . أم نشكرك عن الدين وقد جعلت السلطان عبدا وقائدا ومنقّذا . وكان مأمورا فجعلته آمرا ، وآلة للقوة فجعلت القوّة له آلة ، فيامَن آتصل شكره بشكر الله عز وجل ، ونعمته بنعمة الله تعالى وطاعته ، بطاعة الله فوهب الله لك شرَف المنازل ، ورقّاك دَرَج الفضائل ، وجزاك الله عنا وعن غيرنا ، مما شكر من ناطق أو صامت ، جزيلَ الثواب ورفيعَ الدرجات ، وأمتعك ما أتاك وأمتع الأمّة ما آتاهم منك ، والحمــد لله ذى الرّغبات ، ومتمّم الصالحات ، شكرا لرب العالمين ، فإنه مَبْلَغ طاقتنا ، ومُنْتَهى جَهدنا ، وبه نستعين على تأدية فرائضه ، أنه لايعين على ذلك الا هو ، أحببتُ أن نشكر اليكم أمير المؤمنين أيّده الله ، اذ ورد علىّ من أنعامه وافضاله ، مالا أبلغه بالفعل ، وأن يكون ما آقتصصنا عليكم ، داعيا لكم ، الى أن تشكروه عنّا ، وعن أنفسكم ، وعن الإسلام والمسلمين ، ورجوت بمــا وفّقنا الله له ، فيما شرحنا وأوضحنا ، من الدّلالة والبيان أن يكون مجتمعا ينتفع به من حضرنا ، ومن عسى أن يُؤَدّى اليه الخبرُ عنا ، أو حدث بعدنا ، وضننت بهذه المكرمة الرائعة ، والمأثرة البارعة ، التى آدّخرها الله لأمير المؤمنين ، أعزّ الله نصره ، وأفرده بهــا ، دون الأئمة والخلفاء ، أن تمر بالأسماع صفحا ، وتجتاز على القلوب سهوا ، حتى تؤكّد بالشواهد والبرهان ، ليبقى ذكرُها ونفعُها فى الخُلوف والأعقاب ، ونحن نسأل الله عزّ وجل الذى جمع بأمير المؤمنين — مدّ الله فى عمره — أُلْفتنا ، وعلى طاعته أهوَاءنا وضمائرنا ، وأنالنا من الغبطة فى دولتــه وسلطانه ، مالم تَحوِه شِيعة إمام ، ولا أنصار خليفة ، أن يُتمّ نورَ أمير المؤمنين ، ويُعلى كعبَه ، ويمتّعنا ببقائه ، حتى يبلّغه سؤله وهمّتــه فى الاستكثار من البرّ وآدّخار الأجر ، وآستيجاب الحمد والشكر ، وأن يلُمّ به الشَّعَث ، ويرْأَب به الصَّدْع ، ويُصلح على يديه الفساد ويَرْتُق به فُتوقَ هذه الأمة ، ويُثْخِن بسياستة ونكايته فى عدوها ، ويتابع الفتوحَ فى بُلدانهــم حتى يؤتيه من نُجح السعى ، ورغائب الحظّ فى الدنيا ، ما يُجــزل عليه ثوابه فى الآخرة ، وأرشد نجبــاءه واصفياءه ، الذين يقول لهم ، ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَــا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

ومن توقيعاته نقلا عن كتاب الصُّولى .

وقع الى عامل ظالم « الحقُّ طريق واضح لمن طلبه تَهْـديه مَحَجّته ولا تُخَاف عَثْرته وتُؤْمن فى السرّ مَغَبّته فلا تَستقِلّنّ منه ولا تعدِلنّ عنه فقد بالغتُ فى مُناصحتك فلا تُحوجنى الى مُعاودتك فليس بعد التّقدمة اليك إلا سطوةُ الإنكار عليك » .

ووقّع فى عناية بإنسان الى بعض العمّال « أنا بفلان تامّ العِناية وله شديدُ الرِّعاية وكنتُ أُحِبّ أن يكون ما أرعيتَه طرَفك من أمره فى كتابى مستودعًا سَمْعك من خطابى فلا تعدلنّ بعنايتك الى غيره ولا تَمْتحنّ بعقدك سواه حتى تنيله إرادته وتُجاوز به أُمنيّته إن شاء الله » .

وفى كتاب ابن طيفور من توقيعات أحمد بن يوسف الشيءُ الكثير فارجع اليه إن شئتَ .

(و) رســائل سهل بن هارون[١]

من كلامه :

حكى الجاحظ قال : — لقى رجل سهل بن هارون فقال : هب لى ما لا ضَرَرَ به عليك ؛ فقال : وما هو يا أخى ؛ قال : درهم ؛ قال : لقــد هوَّنتَ الدرهم وهو طائع الله فى أرضه

(١) هو من أبناء الفرس وكان من رجالات البلاغة والعلم والحكمة فى دولتى الرشيد والمأمون ، وقد وضع كتابا حاكى به كتاب كليلة ودمنة وسماه « ثعلة وعفرة » . وكان قيم بيت الحكمة (مدير دار الكتب) فى عهد المأمون . ولد سهــل بن هارون فى مدينــة ميسان بين واسط والبصرة ، و فى رواية فى دستميسان كورة بين الأهواز وواسط والبصرة ، فى أواخر النصف الأول من القرن الثانى تقديرا ، و لا يعرف من نسبه إلا أنه سهل بن هرون بن راهيون (راهبون) وكنيته أبو عمرو ، فارسى الجنس ، أهوازى أو خوزى المولد ، عراقىّ المنشأ ، تحوّل الى البصرة فى سنّ لم تعرف ، وكانت البصرة إذ ذاك مدينة العلم فى الدولة الاسلامية ، بل مدينة العلم فى العالم كله ، أو كما قيل فيها « قبة الإســلام ، وخزانة العرب » حوت من العلم الانسانى أصوله وفروعه ، ومن القائمين على تنميته مصاقعــه وفحوله ، فغذى روحه بلبان مجالسها ومجامعها ، واستنار عقله بما اقتبسه من نور معارفها فتخرج بعلمائها ، ولا شك أنهم كانوا طبقة عالية جدا ، فى كل مطلب من مطالب الآداب . وقيل : أن سهل بن هارون كان شيعيا ، وشيعة العراق فى زمنه كانوا على الاطلاق معتزلة ، ولم يؤثر عنه أنه تنقص أحدا من الصحابة الكرام ، بل عرف بالأعتدال مع الأموات ، إعتداله مع الأحياء ، وما أثر عنه أنه خاض غمار مباحث الكلام التى كانت على أشد حرارتهــا إذ ذاك ولا سيما فى البصرة ودار السلام بنغداد ، وآتهموه بأنه كان مع الشعوبيين الذين يصغرون شأن العرب ، ولا يرون لهم على العجم فضلا ، و إذا صحت هذه التهمة فمن الصعب التوفيق بين مذهب من يقول بالشعوبية ومن يقول بالتشيع ، على المعنى الذى فسر به بعد قرون .

وصفه الجاحظ فقال : « كان سهل سهلا فى نفسه ، عشيق الوجه ، حسن الشارة ، بعيدا من الفدامة (العىّ) معتدل القامة ، مقبول الصورة ، يقضى له بالحكمة ، قبل الخبرة ، و برقة الذهن ، قبل المخاطبة ، و بدقة المذهب ، قبل الامتحان ، وبالنبل ، قبل التكشف (الظهور) » . وكان الجاحظ مازجه وثافنه . وقيل للحرانى ولعله ابراهيم بن ذكوان كاتب الهادى ووزيره : بينك و بين سهل بن هارون صداقة فأنعته لنا كى نعرف ، فقال : « هو كالخير ، وازن العلم ، واسع الحلم ، إن حودث لم يكذب ، و إن موزح لم يغضب ، كالغيث أين وقع ، نفع ، وكالشمس حيث أولت ، أحيت ، وكالأرض ما حلتها حملت ، وكالماء طهور لملتمسه ، وناقع لغلة من أحرّ إليه ، وكالهواء الذى تقطف منه الحياة بالتنسم ؛ وكالنار التى يعيش بها المقرور ، وكالسماء التى قد حسنت بأصناف النور » ا . هـ . صورتان جميلتان فى وصف سهل صوّرهما مصوّران مبدعان عاشا بقربه ، وفتنهما بخلقه وخلقه .

وآتهموا سهل بن هارون بالبخل وأوردوا له قصصا ونوادر ، و ربما كان آتهامه بالبخل مبالغا فيــه تراد به النكتة والنادرة ا . هـ . من محاضرة للاســتاذ الباحث السيد محمد كرد على ألقاها بالمجمع العلمى العربى بدمشق ونشرها بمجلتى المجمع والمقتطف .

لا يعصى ، وهو عُشر العشرة، والعشرةُ عشر المائة، والمائةُ عشر الألف ، والألف دِية المسلم ، ألا ترى الى أين آنتهى الدرهم الذى هوّنتـه ، وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم! فانصرف الرجل، ولولا آنصرافه لم يسكت .

وحكى دِعْبِل الخزاعىّ الشاعر قال : أقمنا يوما عند سهل بن هارون، وأطلْنا الحديث حتى أضرّ به الجوع ، فدعا بغـدائه فأُتِىَ بصَحْفة فيها مَرَقٌ تحته ديك هَرِم، فأخذ كسرةً وتفقّد ما فى الصحفة فلم يجـد رأس الديك فبـقى مطرقا ، ثم قال للغـلام : أين الرأس؟ قال : رميتُ به ؛ قال : ولِمَ ؟ قال : لم أظنـك تأكله؛ قال : ولِمَ ظننت ذلك ! فوالله إنى لأمقُتُ من يرمى برِجله فكيف برأسـه ! ولو لم أكره ما صـنعتَ الا للطِّـيَرة والفأل لكَرِهتُه ، أما علمتَ أن الرأس رئيس يُتَفاءل به ، وفيه الحواسّ الخمس، ومنه يَصيح الديك، ولولا صوتُه ما أُرِيد، وفيه فرقه الذى يُتَبَرّك به، وعينُه التى يضرب بصفائها المثل فيقال : شرابٌ كعين الديك، ودماغه عجب لوجع الكُلْيـة، ولم أَرَ عَظْمًا قطُّ أهشّ تحت الأسنان منـه، وإن كان بلغ من نُبْلك أنك لا تأكله، فعنـدنا من يأكله، أو ماعلمتَ أنه خيرٌ من طرف الجَنَاح ومن رأس العُنُق! أنظر أين رميتَه؛ فقال : والله ما أدرى؛ قال : أنا والله أدرى! إنك رميتَ به، والله فى بطنك، فالله حسيبك .

ومن مؤلّفاته كتابُ البخلاء .

ولمـا صنّف سهلٌ كتابه فى البخل أهداه الى الحسن بن سهل وآستماحه ، فكتب إليه الحسن : قد مدحتَ ما ذمّه الله، وحسّنت ما قبّحه الله، وما يقوم بفساد معناك صلاحُ لفظك، قد جعلنا ثوابَ مدحك فيه قبولَ قولك، فما نُعطيك شيئا .

وآتّهـم سهلُ بن هارون بالبخل واورد له فى ذلك قِصَصٌ ونوادرُ وعدّه الجاحظ من "مُتعَاقلى البخلاء وأَشِحّـاء العلماء" قال : ما علمتُ أن أحدا جرّد فى البخل كتابا إلا سهل بن هارون ، وأبا عبد الرحمن الثورى ، والبخل فى الفرس غالب فى الجملة ، غلبة الكرم على

طبائع العرب ، فاقتضى ذلك التفريط الذى رآه سهل فى تبـذير العرب ، أن يُدلى لقومه بآرائه المفرطة فى الاقتصاد والإمساك . وما شُوهد قطّ تفريطٌ ألا و إلى جانبه إفراط .

كتبه وطريقته فى التأليف :

كان سهلُ بن هارون مُنقَطع القرين فى صنوف العلم والآداب، وناهيك بعَالِم كبير كالجاحظ كان يؤلّف الكتابَ الكثيرَ المعانى، الحسن النَّظْم، فينسُبُه الى نفسـه فلا يرى الأسماع تُصْغِى اليه، ولا القلوب تَيَمَّمُ نحوَه ثم يؤلف كما قال عن نفسه، ما هو أنقصُ منه مرتبةً وأقلّ منه فائدةً، فينحَلُه عبد الله بن المقفّع، أو سهل بن هارون، فيُقبِل الناس عليها، ويسارعون الى نَسْخها .

ويقال إن طريقة سهل فى كتابته طريقةُ أميرِ المؤمنين علىّ بن أبى طالب لا يتكلّف لكلامه، فلا يُشاهد فيـه الناقدُ أثرَ التعمُّل، بل لا يكلّف بغير إرسال النفس على سجيّتها، فهو وابنُ المقفع والجاحظ على غِرارٍ واحدٍ .

وقيل إن سهلا كاتبُ سلاطين، والجاحظَ مؤلِّف دواوين. وكأنّ كلامَه نغمةٌ موسيقيةٌ تعرف انتهاءَ جُمْلته من رَنّتها بعـد أن ملكتْ عليك مشاعرَك ، لا يَحْفِلُ بالأسجاع إلّا إذا جاءت عَفْوَ الخاطرِ، شأنَ بُلغَاء الصدرِ الأوّل . وكان يقول الشعر وأكثرُ شعره ممّا أملاه قلبهُ، فى غرض من أغراض المجتَمع . وعدّه الجاحظ من الخطباء والشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطِّوالَ والقِصَار، والكتب الكِبار المجلّدة، والسِّيَر الحِسَان المولّدة، والأخبار المدوّنة . ولقّبـه مرةً بالكاتب ، ولعلّ لقب الكاتب فى شرفه أكبرُ من عالم . وذكره ابن النديم فى البلغاء وقال: إنّه شاعرٌ مُقِلٌّ، وعدّه فى الشعراء الكُتّاب . وقال: إنه كان ممن يعمل الاسْمَار والخُرافَات على ألْسِنة الناس والطَّيْر والبهائم هو وعبدُ الله بن المقفع وعلىّ بن داود كاتب زبيْده . وشعره خمسون ورقةً . أما الدهشة ففى تآليفه ، فله ديوان رسائله، وكتاب النمر والثعلب، وكتاب اسباسيوس (أسانوس) فى اتخاذ الإخوان ، كتاب أسد بن أسد ، كتاب سَحَرةَ العقل، كتاب تدبير الملك والسياسة ، كتاب الى عيسى بن أبَان

فى القضاء، كتاب الفرس، كتاب الغـزالين، كتاب ندود وودود وولدود، كتاب الرياض، كتاب ثعلة وعفراء، (وفى رواية ثعلة وعفرة) على مثال كتاب كليلة ودمنة، قلده فى أبوابه وأمثاله .

وقال المسعودى : يزيد عليه أى على كليلة ودمنة فى حسن نظمه وقد صنفه للمأمون . ومن تآليفه : كتاب الهزلية والمخزومى، كتاب الوامق والعـذراءالى غير ذلك من المصنفات التى لم تبق الأيامُ ويالالأسف على واحد منها فيما علمنا .

دخل سهلٌ على الرشيد وهو يُضاحك المأمون، فقال : اللهم زِده من الخيرات، وابْسُطْ له من البركات، حتى يكون فى كل يوم من أيامه مُرْبِياً على أمسه ، مُقصرا عن غَده، فقال الرشيد : يا سهلُ، مَن رَوَى من الشعر أحسنَه وأرصنَه ، ومن الحديث أفصحه وأوضحَه، إذا رام أن يقول لا يُعجزه القولُ؟ فقال سهل : يا أمير المؤمنين، ما ظننت أن أحدا تقدمنى الى هذا المعنى، قال بل أعشى هَمْدان حيث يقول :

رأيتُك أمسِ خيرَ بنى لُؤَىٍّ * وأنتَ اليوم خيرٌ منك أمسِ
وأنت غدًا تَزيد الخيرَ ضعفاً * كذاك تزيد سادة عبد شمس

وقد شَهِد مقتلَ البرامكة فى سنة ١٨٧هـ وحدّث فيما كان عليه يحيى وجعفر من البلاغة فقال : إن مَجَاعى الخطب ، ومُجرى القَريض عِيالٌ على يحيى بن خالد بن بَرْمك وجعفر بن يحيى، ولو كان كلامٌ يتَصوّر دُراً ، ويُحيله المَنطِق السَّرِىّ جوهرًا ، لكان كلامَهما، والمُنْتقَى من لفظهما، ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد فى بديهته وتوقيعاته فى كُتُبه، فَدْمين عَيين، وجاهلين اميين، ولقد عُمِّرت معهـم، وأدركت طبقـة المتكلمين فى أيامهم، وهم يرَوْن أن البلاغة لم تُستكمل الا فيهم، ولم تكن مقصورةً إلا عليهـم، ولا انقادت الا لهم، وأنهم مَحْضُ الأنام، ولُبَاب الكِرَام، ومِلْح الأيام، عِتْقُ منظرٍ، وجودة مَخْبَر، وجَزَالةُ مَنْطق، وسهولةُ لفظ، ونزاهةُ نفس، واكتمالُ خِصال، حتى لو فاخرتَ الدنيا بقليل أيامهم، والمأثور

من خِصَالهم، كثير أيام مِن سواهم من لَدُن آدم أبيهم الى النفخ فى الصور، وآبتعاث أهـل القبور، حاشا أنبياء الله المكرّمين، وأهل وَحْيه المرسَلين، لمـا باهتْ إلّا بهم، ولا عوّلتْ فى الفخر إلا عليهم، ولقـد كانوا مع تهذيب أخلاقهم، وكريم أعراقهم، وسعةِ آفاقهـم، ورِفْق ميثاقهم، ومعسولِ مذاقهم، وبهاءِ إشراقهم، ونقاوةِ أعراضهم، وتهذيبِ أغراضهم، وآكتمالِ خِلَالِ الخير فيهم، الى ملء الأرض مثلهم فى جنب محاسن المأمون كالنُّفْثة (التفلة) فى البحر، والخَرْدَلة فى المَهْمَه القفر .

قيل : وهذا الكلام على ما فيـه من حقيقة فى بيان سجايا البرامكة والرشيد والمأمون لم يختتم بالنَّصَفَة الحقّة ، ومال به سهل الى المصـانعة ، وخرّجه على نحو مبالغة الفُرْس ، فى الإطراء والمَلَق لولىّ الأمر .

ورَوى بعضُ الرُّواة أن المأمون كان آستقل سهل بن هارون ؛ وقد دخل عليه يوما والناسُ على مراتبهم، فتكلّم للمأمونُ بكلام ذهب فيه كلَّ مَذْهب، فلما فَرَغ من كلامه أقبـل سهل بن هارون على الجمْـع فقال : مالكم تسمعون ولا تَعُون ، وتُشاهدون ولا تَفْقهون ، وتفهمون ولا تتعجبون، وتتعجبون ولا تُنْصِفون! والله إنه ليقول ويفعل فى اليوم القصير ما فَعَلَ بنو مَرْوان فى الدهر الطويل، عَرَبُكم كعَجَمكم، وعَجَمُكم كعبيدكم، ولكن كيف يُعَرِّف بالدواء مَن لا يشـعرُ بالداء . فرجع المأمونُ فيـه الى الرأى الأوّل ؛ وعرف أنه الرجل كلّ الرجل ، فقرّبه وأدناه على النحو الذى كان عليه فى عهد والده .

ومن كلام له فى كتابه ثعلة وعفرة :

"اجعلوا أداءَ ما يجبُ عليكم من الحقوق مُقَـدَّما قبل الذى تجودون به من تفضلكم، فإنّ تقديم النافلة مع الإبطاء فى الفريضة شاهدٌ على وَهْن العقيدة ، وتقصيرِ الرَّوِيّة ، ومُضِرٌّ بالتدبير، ومخلٌّ بالآختيار، وليس فى نفع تحمـد به عوض من فساد المروءة، ولزوم النقيصة " .

وهذا مأخوذ من قوله فى يحيى بن جعفر :

عَدُوُّ تِلَادِ المالِ فيما يَنُوبُهُ * مَنُوعٌ اذا ما مَنْعُهُ كان أَحْزَمَا

مُذَلِّلُ نفسٍ قد أبَتْ غيرَ أن تَرَى * مكارِهَ ما تأتِى من العيش مَغْنَمَا

وكتب الى صديق له أبَلَّ من ضعف :

" بلغنى خبر الفَتْرة فى إلمامها وٱنحسارها ، والشكاة فى حلولها وٱرتحالها ، فكاد يشغل القَلَق بأوّله عن السكون لآخره ، وتَذْهَل الحَيْرَةَ فى ٱبتدائه ، عن المَسَرَّة فى ٱنتهائه ، وكان تَغَيُّرِى فى الحالين بقدرهما ٱرتياعًا للأولى ، وٱرتياحا للأُخْرى " .

⁂

وكتب فى البخل :

بسم الله الرحمن الرحيم

أصلح اللهُ أمْرَكم و جمع شَمْلَكم وعَلَّمكم الخير وجعلكم من أهله . قال الأحنفُ بن قيس : يا معشرَ بنى تَميم ، لا تُسْرِعوا الى الفتنة فإنّ أسرع الناس الى القتال أقلُّهم حَياء من الفِرار . وقد كانوا يقولون : اذا أردتَ أن تَرى العيوب جَمَّةً فتأمل عَيَّابًا فإنه إنما يَعيب الناس بفضل ما فيه من العَيْب . ومن أعيب العيب أن تَعيب ماليس بعيب . وقبيحٌ أن تَنْهى مُرْشِدًا وأن تُغْرِى بمُشْفِقٍ . وما أردنا بما قلنا إلا هِدايتكم وتقويمكم ، و إصلاحَ فاسدكم ، و إبقاءَ النعمة عليكم . وما أخطأنا سبيل حُسْن النية فيما بيننا و بينكم . وقد تَعلمون أنا ما أوصيناكم إلا بما ٱخترناه لكم ، ولأنفسنا قَبْلكم ، وشُهِرنا به فى الآفاق دونكم ؛ ثم نقول فى ذلك ما قال العبد الصالح لقومه : ﴿وَمَا أُرِيد أن أُخالِفكم الى ما أنْهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاحَ ما ٱستطعتُ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلتُ و إليه أُنيب﴾ فما كان أحَقَّنا منكم فى حُرْمَتنا بكم أن تَرْعَوْا حقَّ قَصْدنا بذلك اليكم على ما رَعَيْناه من واجب حقكم ؛ فلا العُذْرَ المبسوط بَلَغتم ولا بواجب الحرمة قُمْتم . ولو كان ذكرُ العيوب يُرادُ به فخرٌ لرأينا فى أنفسنا من ذلك شغلا .

عِبتُمونى بقولى لخادمى : أجيدى العَجينَ فهو أطْيَب لطَعْمه وأزْيَدُ فى رَيْعه (١) . وقد قال عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه : أَمْلِكوا العجينَ (٢) فإنّه أحَدُ الرَّيْعين .

وعِبْتُمونى حين خَتَمْتُ على ما فيه شيء ثَمِين من فاكهةٍ رَطْبَةٍ نَقِيّـة ومن رَطْبَة غريبة على عَبْد نَهِمٍ وصَبىّ جَشِع وأَمَةٍ لَكْعاء (٣) وزوجة مُضيعةٍ .

وعبتمونى بالخَتْم وقد خَتَمَ بعضُ الأئِمّة على مِزْود سَـوِيق (٤) وعلى كيس فارغ . وقال : طِينَةٌ خير من ظِنّةٍ ، فأمسكتم عمّن ختَم على لا شىء وعِبْتم من خَتَم على شىء .

وعبتمونى أن قلتُ للغـلام : اذا زدتَ فى المَرَق فَزِد فى الإنضاج ليجتمع مع التّأدُّم باللّحم طِيبُ المرق .

وعبتمونى بخَصْف (٥) النّعـل و بتَصْدير (٦) القميص وحين زَعَمْتُ أن المخْصُوفة من النعل أبقى وأقوى وأشْبَه بالشَّدّ وأن التّرقيع من الحَزْم والتّفْريط من التضييع . وقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يَخْصِف نعله و يُرَقِّع ثوبَه و يقول : لو أُهدى الىّ ذِراعٌ لقَبِلتُ ، ولو دُعِيتُ الى كُراعٍ لأجَبْتُ . وقالت الحكماء : لا جديدَ لمن لم يَلْبَس الخَلَق . و بعث زِيادٌ رجلا يَرْتاد له مُحَدِّثا وٱشترط عليه أن يكون عاقلا فأتاه به موافِقا فقال له : أكنتَ به ذا معرفة ؟ قال : لا ، ولكنى رأيته فى يومٍ قائظ يَلْبَس خَلَقا و يلبس النـاس جديدا ، فتفرّستُ فيه العقلَ والأدبَ . وقد علمت أنّ الخَلَق فى موضعه مثل الجديد فى موضعه . وقد جعل اللهُ لكل شيء قَدْرا وسَمَا به مَوْضِعا كما جعل لكل زمانٍ رجالا ولكل مقام مَقَالا . وقد أحْيَا اللهُ بالسّمّ وأمات بالدواء وأَغَصّ بالمـاء . وقد زَعَموا أن الإصلاح أحَدُ الكاسبين كما زعموا أن قِلّة العيال أحد اليَسَارَيْن . وقـد جَبَر الأحنفُ بن قيس يد عَنْز وأمر مالكُ بن أنس

---

(١) الريع : النماء والزيادة . (٢) إملاك العجين : إنعام عجنه . (٣) اللكعاء : الحمقاء .

(٤) المزود : وعاء الزاد . والسويق : طعام يتخذ من الحنطة أو الشعير . (٥) خصف النعل : خرزها .

(٦) تصدير القميص : أن يجعل لصدره بطانة .

بِقَرْك النَّعل . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من أكل بَيْضَةً فقد أكل دَجَاجةً . ولَبِس سالم بن عبد الله جِلْد أُضْحِية . وقال رجل لبعض الحكماء : أريد أن أُهْدى اليك دجاجةً . فقال : إن كان لابد فاجعلها بُيُوضًا .

وعبتمونى حين قلتُ : من لم يعرف مواضِعَ السَّرف فى الموجود الرخيص لم يعرف مواضع الاقتصاد فى المُمْتَنِع الغالى . ولقد أُتِيتُ بماء للوضوء على مبلغ الكِفَاية وأشدّ من الكفاية ، فلما صرت الى تفريق أجزائه على الأعضاء والى التوفير عليها من وَضِيعة الماء (١) وجدتُ فى الأعضاء فَضْلا عن الماء ، فعلمتُ أن لو كنتُ سلكتُ الاقتصادَ فى أوائله لخرج آخرُه على كفاية أوّله ولكان نصيبُ الأوّل كنصيب الآخر ، فعبتمونى بذاك وشنَّعتم علىّ ؛ وقد قال الحسن وذَكَر السّرف : أما إنه ليَكونُ فى الماء والكَلأ فلم يَرْض بذكر الماء حتى أردفه الكَلأ .

وعبتمونى أن قلت : لايَغْتَرَّنّ أحدُكم بطول عمره وتَقْوِيس ظهره ورِقّة عَظْمه ووَهْن قوّته وأن يرى نحوه أكثر ذُرِّيّته ، فيدعوه ذلك الى إخراج ما له من يده وتحويله الى مِلْك غيره والى تحكيم السّرف فيه وتسليط الشهوات عليه ، فلعله يكونَ مُعَمّرا وهو لا يدرى ، وممدودًا له فى السنّ وهو لايَشْعر، ولعله أن يُرْزَق الولدَ على اليأس ويَحْدُث عليه من آفات الدهر ما لا يَخْطُر على بال ولا يُدْركه عقل ، فيستردّه ممن لا يردّه ويُظْهِر الشكوى الى من لا يرحمه أصْعَبَ ما كان عليه الطّلب وأقبح ما كان به أن يَطْلُب ، فعبتمونى بذلك ؛ وقد قال عمرو بن العاص : ” اِعْمَل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا “ .

وعبتمونى بأن قلت : بأنّ السّرف والتبذير الى مال المواريث وأموال الملوك وأنّ الحفظَ للمال المكتسب والغنى المجتلب والى من لا يُعَرِّضُ فيه بذهاب الدِّين واهتضام العرض ونَصَبِ البدن واهتمامِ القلبِ أسرعُ ومن لم يحسبُ نفقته لم يحسب دَخْلَه

(١) الوضيعة هنا : النقص .

ومن لم يحسب الدخل فقــد أضاع الأصل . ومن لم يعرف للغنى قَدْرَه فقد أُوذِن بالفقر وطاب نفسًا بالذل .

وعبتمونى بأن قلت : إن كَسْب الحلال يضمن الإنفاق فى الحلال . وإنّ الخَبيث ينْزِع الى الخبيث ، وإنّ الطّيّب يدعو الى الطيّب ، وإنّ الإنفاق فى الهوى حِجاب دون الهُدى ؛ فعبتم علىّ هــذا القول ، وقد قال معاويةُ : لم أرتبــذيرا قط إلا والى جنبه حقّ مُضَيَّع . وقد قال الحسن : إن أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجلُ مالَه فانظروا فيماذا يُنفِقُه فإن الخبيث إنما يُنْفَق فى السّرف . وقلت لكم بالشّفقة عليكم وحسن النظر منى لكم وأنتم فى دار الآفات ، والجوائحُ غير مأمونات : فإن أحاطَتْ بمال أحدكم آفَةٌ لم يرجِع إلا الى نفسه . فاحذروا النِّقَمَ باختلاف الأمكنة فإن البَلِيّة لا تجرى فى الجميع إلا بموت الجميع .

وقد قال عمر بن الخطــاب رضى الله عنه فى العَبْــد والأَمة والشاة والبعير : فرّقوا بين المنــايا . وقال آبن سِيرِين لبعض البَحْريّين : كيف تَصْــنَعون بأموالكم ؟ قالوا : نُفَرّقها فى السُّفُن فإن عَطِب بعضٌ سَلِم بعض . ولولا أن السلامة أكثر ماحَملنا أموالَنا فى البحر . قال آبن سِيرين : "تحْسَبها خَرْقاء وهى صَنَاع"(١) .

وعبتمونى بأن قلت لكم عند إشْفاقى عليكم : إن للغنى لَسُكْرًا وللمــال لَنَزْوةً(٢) فمن لم يحفَظ الغنى من سكره فقد أضاعه ، ومن لم يرتبط المــال لخوف الفقر فقد أهمَله .

فعبتمونى بذلك وقد قال زيد بن جَبَلَة : ليس أحد أقصرَ عقلا من غنىّ أمِن الفقرَ ، وسُكْرُ الغِنى أكثر من سكر الخمر . وقد قال الشاعرُ فى يحيى بن خالد بن بَرْمك :

وَهُوبُ تِلاد المــال فيما يَنُوبه ٭ مَنُــوعٌ اذا ما مَنْعُه كان أحزما

وعبتمونى حين زعمتم أنى أُقدِّم المــال على العلم ، لأن المــال به يُفَاد العــلمُ وبه تقوم النفسُ قبل أن تَعرِف فضلَ العلم ، فهو أصل والأصل أحقّ بالتفضيل من الفرع ، فقلتم :

(١) هذا مثل يضرب لمن تظن به الغفلة وهو فطن يقظ . (٢) النزوة : الثورة أو الوثبة .

كيف هذا ؟ وقد قيل لرئيس الحكماء : الأغنياء أفضل أم العلماء؟ قال : العلماء . قيل له : فما بال العلماء يأتون أبوابَ الأغنياء أكثَر ما يأتى الأغنياءُ أبوابَ العلماء ؟ قال : ذلك لمعرفة العلماء بفضل المال وجَهْل الأغنياء بحقّ العلم . فقلت : حالُهما هى القاضية بينهما . وكيف يستوى شيءٌ حاجةُ العامّة اليه وشيءٌ يَغْنَى فيه بعضُهم عن بعضٍ .

وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياءَ باتّخاذ الغَنَم والفقراء باتّخاذ الدّجاج . وقال أبو بكر رضى الله عنه : إنى لأُبغِضُ أهلَ بيْتٍ يُنفقون نفقَةَ الأيامِ فى اليوم الواحد . وكان أبو الأسْود الدُّؤلىّ يقول لولَده : اذا بَسَطَ الله لك الرزقَ فابْسُط واذا قبَض فاقبِض .

وعبتمونى حين قلت : فَضْلُ الغنى على القُوت إنما هو كفضل الالة تكون فى البيت اذا ٱحْتِيج اليها ٱستُعْمِلت وإن ٱستُغْنِىَ عنها كانت عُدَّةً . وقد قال الحُصَيْن بن المنذر : وَدِدْتُ أن لى مثل أُحُدٍ ذَهَبًا لا أنتفع منه بشىء . قيل له : فما كنتَ تَصْنع به ؟ قال : لكثرة من كان يَخْدُمُنى عليه لأن المال مخدوم . وقد قال بعضُ الحكماء : عليك بطلب الغِنَى فلو لم يكن فيه إلا أنه عِزٌّ فى قلبك وذُلٌّ فى قلب عدوّك لكان الحظ فيه جسيما والنفع فيه عظيما .

ولسنا نَدَعُ سِيرةَ الأنبياء وتعليمَ الخلفاء وتأديبَ الحكماء لأصحاب اللّهو ؛ ولستم علىّ تردّون ولا رأيى تُفَنّدون ، فَقَدّموا النظرَ قبل العزم وأدْركوا مالكم قبل أن تُدْرِكوا مَالكم . والسلام عليكم .

وسَهْلٌ هو القائل :

تَقَسَّمنِى هَمَّانِ قد كَسَفَا بالِى * وقد تَركَا قَلْبِى مَحَلَّةَ بِلْبَالِ
هما أَذْرَيَا دَمْعِى ولم تُذْرِ عَبْرَتِى * رهينةُ خَدٍّ ذاتُ سِمْطٍ وَخَلْخَالِ
ولا قَهْوة لم يَبْقَ منها سوى الذى * على أن تُحاكِى النورَ فى رأس ذَبَّالِ

تحلّى منهـا جُرْمُها وتماسكـتْ * لها نفسُ معـدومٍ على الزّمنِ الخالِى
ولكنما أبْكِى بعينٍ سَخِيَّـةٍ * على حَـدَثٍ تَبْكِى له عينُ أمثـالى
فِرَاقُ خليـلٍ لا يقـومُ به الأَسَى * وخَـلَّةُ حُرٍّ لا يقـومُ بهـا مالى
فَوَاحسرتى حتّى متَى القلبُ مُوجَعٌ * لنَفْرِ خليـلٍ أو تعـذُّرِ إفضال
وما الفضـلُ إلّا أن تجُودَ بنائلٍ * وإلا لِقاء الخـلِّ ذى الخُلُقِ العَالِى

وهو القائل :

اذا امرؤٌ ضاقَ عنّى لم يَضِقْ خُلُقِى * من أن يَرانى غَنِيًّا عنـه باليَأسِ
لا أطلبُ المـالَ كى أُغْنَى بفَضْلَتِه * ما كان مَطْلَبُه فَقْـرًا من الناسِ

(ز) عمـــرو بن مَسْعَدة (١)

كان كاتبا بليغــا، جَزْلَ العبارة وجيزَها، سديدَ المقاصد، فضــلُه شائع، ونُبلُه ذائع، أشهرُ من أن يُنَبّــه عليه، أو يُدَلَّ بالوصف اليه، قد وَلِىَ للمأمون الأعمــالَ الجليلةَ، وأُلحقَ بذوِى المراتبِ النبيلةِ. وسمّاه بعضُ الشعراء وزيراً لعظَمِ منزلته لا لأنه كان وزيرا، وهو قوله:

لقد أسعدَ اللهُ الوزيرَ بن مَسْعَدَهْ * وبثَّ له فى النــاس شُكْرٌ ومَحْمَدَهْ

(١) هو عمرو بن مسعدة بن سعد بن صول بن صول . وصول (بضم الصاد) كان رجلا تركيا وكان ملك وأخوه فيروز على جرجان وبجسا بعد التركية وتشبها بالفرس .

بدأ عمرو بن مسعدة فى خدمة الدولة عاملا من العمال فظهرت كفايته و بلاغته ، و بالبلاغة توصــل الى الخليفة فعدّ أحد أفراد قلائل فى رجاله ، قال أحمد بن يوسف الكاتب : دخلت يوما على المأمون و بيــده كتاب يعاود قراءته تارة بعد أخرى ، ويصعد فيه و يصوّب ، فلما مرت على ذلك مدّة من زمانه التفت الىّ وقال : ياأحمد أراك مفكرا فيما تراه منى ، قلت : نعم ، فقال : ان فى هــذا الكتاب كلاما نظير ما سمعت الرشيد يقول فى البلاغة ، زعم أن البلاغة إنما هى التباعد عن الاطالة ، والتقرب من معــنى البغية ، والدلالة بالقليل من اللفظ ، على الكثير من المعنى ، وما كنت أتوهم أن أحدا يقدر على ذلك . وقال : هذا كتاب عمرو بن مسعدة الينا ، ففككته فاذا فيه : « كتابى الى أمير المؤمنين ، ومن قبلى من قواده ، ورؤساء أجناده ، فى الانقياد والطاعة ، على أحسن ماتكون طاعة جند تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم ، فاختلت لذلك أحوالهم ، والتاثت معه أمورهم » . فلما قرأته قال : ان استحسانى اياك بعثنى أن أمرت للجند قبله بأعطياتهم لسبعة أشهر ، وأنا على مجازاة الكاتب بمايستحقه من حل محله فى صناعته . وفى رواية أن المأمون أمر لعمرو بن مسعدة برزق ثمانية أشهر وأنه قال لأحمد بن يوسف : لله در عمرو ما أبلغه ! ألا ترى الى إدماجه المسألة فى الأخبار ، و إعفائه سلطانه من الاكثار .

وكان عمــرو بن مسعدة وكنيته أبو الفضل أبيض أحمر الوجه ، وكان المأمون يسميه الرومى لبياض وجهه وكان يخضب وتوفى بأذنة سنة سبع عشرة ومائتين . ولم نعــرف منشأه ومولده وأساتيذه وغاية ما عرفناه أنه كان أحد إخوة أربعة أحسن أبوهم — وكان كاتبا أيضا — تربيتهم كل الإحسان حتى جاءت من أحدهم هذه البلاغة النادرة التى كان من أثرها أن أصبح عشير المأمون ، وكان هو وأبو عباد ثابت بن يحيى يكتبان بين يديه ويخــلوان معه و يمازحانه . ولكى يصل الرجل الى هذا المقام مع مثل هــذا الخليفة العظيم فى كل شؤونه يجب أن ينطوى على صفات عالية يعز مثلها فى الأقران والأتراب .

قال عمرو بن مسعدة : كنت أوقع بين يدى جعفر بن يحيى البرمكى فرفع اليه غلمانه ورقة يستزيدونه فى رواتبهم فرمى بها الى وقال : أجب عنها فكتبت : «قليل دائم خير من كثير منقطع» فضرب بيده على ظهرى وقال : =

فهو كما كتبَ الحسنُ بنُ سهل الى محمد بن سَمَاعة القاضى وقد احتاجَ الى رجلٍ يُولِّيه بعضَ الأعمال فقال : إنه يريد رجلا جامعا لخصال الخير، ذا عِفّة ونزاهة طِعمة (١)، قد هذّبته الآداب، وأحكمته التجارب، ليس بظَنينٍ فى رأيه، ولا بمطعونٍ فى حَسَبه إن أُؤتمن على الأسرار قام بها، وإن قُلِّد مُهمّاً من الأمور أجزأ (٢) فيه، له سنٌّ مع أدب ولسان، تُعقده الرزانة، ويُسكته الحلم، قد فُرّ (٣) عن ذكاء وفِطْنة، وعضّ (٤) على قارحة من الكمال، تكفيه اللحظةُ، وتُرشده السكتة، قد أبصر خدمةَ الملوك وأحكمها، وقام فى أمور فحُمِد فيها، له أناةُ الوزراء، وصَوْلةُ الأمراء، وتواضُع العلماء، وفهمُ الفقهاء، وجوابُ الحكماء، لا يَبيع نصيبَ يومه بحرمان غده، يكاد يَسترِقّ قلوبَ الرجال بحَلاوَة لسانه، وحُسْنِ بيانه، دلائلُ الفضل عليه لائحةٌ، وأماراتُ العلم له شاهدةٌ، مُضطلِعاً بما استنهض، مستقِلّاً بما حمل .

= أى وزير فى جلدك . وقد شهد لعمرو بن مسعدة بالبلاغة أعيان البيان فى عصره ومنهم الفضل بن سهل فقال فيه : إنه أبلغ الناس، ومن بلاغته أن كل أحد اذا سمع كلامه ظن أنه يكتب مثله فاذا رامه بعد عليه . وهذا كما قيل لأحد البلغاء : ما حد البلاغة؟ فقال : التى اذا سمعها الجاهل ظن أنه يقدر على مثلها، فاذا رامها استصعبت عليه .

ولم يؤثر عن عمرو أنه ألف فى موضوع خاص وأفرد مسألة فى التأليف، وعدّه ابن النديم فى الشعراء الكتّاب ولم يذكر إلا أن له ولأخيه مجاشع خمسين ورقة من الشعر وهى من الضائع أيضا . والغالب أن مهام الدولة لم تترك له وقتا يصرفه فى درس خاص، أو وضع كتاب أو رسالة : وما تلقفه العلماء والأدباء من كلامه، فهو مما صدر عنه بالمناسبات، ورواه له المعجبون به، وما أعظم المفقود منه . والمظنون أن لو كانت جمعت له رسائله على إيجازها لكان منها ديوان كبير، لأن من صرف أعواما طويلة وهو قابض على يراعته يعالج بها الموضوعات السياسية والادارية فى ذاك المجتمع العظيم لا شك أنه تجتمع له صفحات كثيرة مهما كان مقلا معروفا بالايجاز . اهـ من محاضرة للاستاذ الباحث محمد كرد على نشرها بمجلة المجمع العلمى العربى . وفى عمرو بن مسعدة قال محمد اليدق وقد اعتل :

قالوا أبو الفضل معتل فقلت لهم * نفسى الفداء له من كل محذور

يا ليت علته بى غير أن له * أجر العليل وإنى غير مأجور

وتجد ترجمته فى معجم الأدباء لياقوت (ج ٦ ص ٨٨) وابن خلكان (ج ١ ص ٥٥٥) والوافى بالوفيات للصفدى (ج ٥ ص ٢٠٥ قسم ثالث من الأصل الفتوغرافى المحفوظ بدار الكتب المصرية) .

(١) فى الأساس : ومن المجاز فلان طيب الطعمة وخبيث الطعمة (بالكسر) وهى الجهة التى منها يرتزق (بوزن الحرفة) . (٢) أجزأنى كذا : كفانى . (٣) فرعن ذكاء، وفطنة، أى جرب واختبر فيهما . (٤) وعض على قارحة، كناية عن بلوغه درجة الكمال .

ومن كلام عمرو بن مسعدة :

أعظمُ الناس أجراً، وأنبهُهم ذِكْرا ، مَنْ لم يَرْضَ بموت العدل فى دولته ، وظهورِ الجهة فى سلطانه، وإيصال المنافع الى رعيّته فى حياته، وأسعدُ الرعاة مَن دامتْ سعادةُ الحقّ فى أيامه، وبعد وفاته وانقراضه .

وقال : الخطّ صُوَرُ الكُتُبِ تُرَدّ اليها أرواحُها .

وقال : الخطّ صورةٌ ضئيلةٌ لهـا معَانٍ جليلة، ورُبّمـا ضاق عن العيون ، وقد ملأ اخطار الفنون .

وقال : لا تستصحبْ مَن يكون استمتاعُه بمالك وجاهك ، أكثرَ من إمتاعه لك بشكر لسانه وفوائد علمه ، ومَن كانت غايتُـه الاحتيالَ على مالك و إطراءَك فى وجهك، فإن هذا لا يكون إلا ردىء الغيب، سريعاً الى الذم .

وكتب الى الحسن بن سهل :

أما بعد، فإنّك ممّن اذا غَرَسَ سَقَى، واذا أسّس بَنَى، ليستتمّ تشيدَ أُسُسه، ويجتنيَ ثمارَ غَرْسه، وثناؤُك عندى قد شارفَ الدروسَ ، وغرسُك مُشْفٍ على اليبوس ، فتداركْ بناء ما أسّستَ، وسقْىَ ما غَرَستَ إن شاء الله .

وكتب الى بعض أصحابه فى شخص يعزُّ عليه :

أما بعد، فوصِّل كتابى اليك سالم والسلام . أراد قول الشاعر :

يُديرونَنى عن سالمٍ وأُديرُهم * وجِلدَةُ بين العينِ والأنفِ سالمُ

أى يَحُلّ منى هذا المحل .

وكتب الى المأمون فى رجل من بنى ضبّة يستشفع له بالزيادة فى منزلتـه وجعل كتابه تعـريضا :

أما بعـد، فقد استشفع بى فلانٌ يا أمير المؤمنين لتطولك علىّ، فى إلحاقه بنُظَرائه من الخاصة فيما يرتزقون به ، وأعلمتُه أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المُستشفعين ، وفى ابتدائه بذلك تعدّى طاعته والسلام .

فكتب اليه المأمون : "قد عرفنا توطئتَكَ له ، وتعريضَك لنفسك ، وأجبناك اليهما ، ووافقناك عليهما" . وقوله : "إن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفعين ، وفى ابتدائه بذلك تعدى طاعتـه" : من الكلام السرّى الذى يدلّ على مَبْلغ أدبِ عمرو وبُعْـدِ غَوْره فى السياسة ووقوفه على رُوح عصره ونفسيّة الخلفاء .

قَدِمَ رجل من أبناءِ دَهَاقِين(1) قريش ، على المأمون لِعِدَة سلفتْ منـه ، فطال على الرجل انتظارُ خروج أمر المأمون ، فقال لعمرو بن مسعدة : تُوَصِّلُ منى رُقْعـةً الى أمير المؤمنين تكون أنت الذى تكتبُها تكن لك علىّ نعمتان . فكتب : "إنـ رأى أميرُ المؤمنين أن يَفُكَّ أَسْرَ عبـدِه من رِبْقة المُطْل بقضاء حاجته ، أو يَأْذَنَ له بالانصراف الى بلده فعل إن شاء الله" .

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عَمْرا فجعل يَعْجَب من حسن لفظها ، وإيجازِ المراد . فقال عمرو : فما نتيجتُها يا أمير المؤمنين؟ قال : الكتاب له فى هذا الوقت بما وعدناه ، لئلا يتأخَّر فضـلُ استحساننا كلامَه ، وبجائزة مائة ألف درهم ، صِـلَةً عن دناءة المَطْل . وسَمَاجةِ الإغفـال .

وهـذا ممـا يدلّ على سـعة عقل المأمون وولُوعه بالبلاغة وقدره أهلَها حقّ قَدْرهم ، دع ما هنالك من نفسٍ ما أحبتْ إلا الجُودَ والعطاءَ .

ومن حِكَم عمرو بن مسعدة :

العبوديّة عبوديةُ الإخاء . لا عُبُودية الرِّق . الودّ أعطف من الرَّحِم . إن الكريم لَيَرْعَى من المعرفة ما رعى الوَصْلُ من القرابة . عليكم بالإخوان فإنهم زينةٌ فى الرخاء ، وعُدَّةٌ للبلاء . مَثَلُ الإخوان مَثَلُ النار ، قليلُها مَتاعٌ ، وكثيرُها بَوَار . النفس بالصديق ، آنَسُ منها بالعشيق ، وغَزَلُ المودة ، أرقُّ من غَزَل الصبابة . من حقوق المودة ، عفوُ الإخوان ، والإغضاءُ عن تقصيرٍ إن كان . ذكر رجلٌ رجلا فقال : حسبُك أنه خُلِقَ كما تشتهى إخوانُه . المودّةُ قرابةٌ

(1) الدهاقين : الزعماء أرباب الأملاك بالسواد ، وأحدهم دهقان (بكسر الدال معرّب) .

مستفادةٌ . ما تواصل اثنان فدام تواصلُهما، الا لفضلهما أو فضل أحدهما . أسرعُ الأشياء انقطاعا مودة الأشرار . المحرومُ من حُرِم صالحى الإخوان . لقاءُ الخليل شِفاءُ الغليل . قلّةُ الزيارة، أمانٌ من الملالة . إخوانُ السوءِ كشجر النار يُحرق بعضُه بعضا . علامةُ الصّديق اذا أراد القطيعةَ أن يُؤخِّر الجوابَ ، ولا يبتدئَ بالكتاب . لا يُفسدَنّك الظنُّ على صديق قد أصلحك اليقينُ له . من لم يُقدِّم الامتحانَ قبل الثّقة ، والثقةَ قبل الأُنْس ، أثمرتْ مودتُه ندمًا . اذا قدمتَ الحُرمة ، تشبّهتَ بالقرابة . العِتابُ حياةُ المودة . ظاهرُ العتاب خيرٌ من باطن الحقد . ما أكثر مَن يُعاتب لطلب علّة ، ويَبْقَ الوُدُّ ما بَقِى العتابُ . كُمُون الحقد فى الفُؤاد ككُمون النار فى الزِّناد . القريب بعيدٌ بعداوته ، والبعيد قريبٌ بمودّته . لا تأمنَنّ عدوَّك وإن كان مقهورا ، واحذرْه وإن كان مفقودا ، فإن حدَّ السيف فيه وإن كان مغمودا لا تتعرضْ لعدوِّك فى دولته ، فإنها اذا زالت كفتْك مؤونتَه . نُصح الصديق تأديبٌ ، ونصحُ العدو تأنيب .

روَى البَيْهَقِىّ قال : أخبرَنا بعضُ أصحابنا قال : شهدتُ المأمون يوما وقد خرج من باب البُستان ببغداد فصاح به رجل بَصْرِىّ : يا أمير المؤمنين إنى تزوجتُ بامرأة من آل زياد وإن أبا الرازىّ فرّق بيننا وقال : هى امرأة من قريش ؟ قال : فأمر عمرو بن مسعدة فكتب الى أبى الرازى :

إنه قد بلغ أميرَ المؤمنين ما كان من الزيادية وخَلْعِك إيّاها إذ كانت من قريش . فمتى تحاكمت اليك العرب ؟ لا أمّ لك فى أنسابها ، ومتى وكّلتك قريش يابن الخناء بأن تُلْصق بها من ليس منها؟ فخلّ بين الرجل وامرأته ، فلئن كان زياد من قريش ، إنه لآبن سُمَيَّةَ بَغِىّ عاهرة ، لا يُفتخر ، بقرابتها ولا يُتطاول بولادتها . ولئن كان آبن عُبَيد ، لقد باء بأمر عظيم ، اذ آدّعى الى غير أبيه ، لحظ تَعَجّلَه ، ومُلْكٍ قهره .

وأمر المأمونُ عمرَو بن مسعدة أن يكتب لرجل به عِناية الى بعض العُمّال فى قضاء حقّه ، وأن يَختصر كتابَه ما أمكنه ، حتى يكونَ ما يكتبُ به فى سطر واحد ، لا زيادةَ عليه . فكتب عمرو :

كتابى اليك كتابُ واثقٍ بمَن كتبتُ اليـه ، معْنِيٍّ بمن كُتِب له ، ولن يَضيع بين الثقة والعناية حاملُه .

وكتب الى بعض الرؤساء، وقد تزوَّجتْ أُمه فساءَه ذلك ، فلمـا قرأها ذلك الرئيس تَسلَّى بها، وذهب عنه ما كان يجده . وقيل: إن هذه الرسالةَ من إنشاء ابن العَميد وهى :

الحمد لله الذى كشَفَ عنا سترَ الحَـيْرة ، وهدانا لسَتْرِ العَوْرة . وجَدَعَ بمـا شَرَعَ من الحلَال أَنْفَ الغَيْرة ، ومَنع مَن عَضَل الأمهاتِ، كما مَنع من وَأْدِ البناتِ، استنزالا للنفوس الأبيَّةِ، عن الحَمِيَّة حَمِيَّـةِ الجاهليَّة ، ثم عَرَّض لجزيل الأجر، مَن استسلم لواقع قضائه ، وعوَّضَ جليلَ الذخرِ مَن صَبَرَ على نازل بلائه، وهنَّأَكَ الذى شرح للتقوى صـدرك، ووسَّع فى البَـلوى صَبْرَكَ ، وألهمَك من التسليم لمشيئته ، والرِّضا بقضيته ، ما وفَّقك له من قضاء الواجب فى أحد أَبَوَيْك ، ومَن عَظُم حقُّه عليـك، وجعل الله تعـالى جَدُّه ما تجرَّعْتَه من أَنَف ، وكظمتَه من أَسَف ، معدودا فيما يُعظِّم به أجرك ، ويجزل عليه ذُخْرك ، وقَرَن بالحاضر من امتعاضك بفعلها، المُنتظر من ارتماضك بدفنها، فتستوفى بها المصيبة، وتَستكمل عنها المَثُوبة، فوصل الله لسيدى ما استشعره من الصّبر على عُرْسها، بما يَكتسبهُ من الصبر على نفسها، وعوَّضه من أَسِرّة فرشها، أعواد نعشها، وجعل تعالى جدُّه ما ينُعم به عليه بعدها من نعمة، معرًى من نقمة، وما يولِّيه بعد قبضها من مِنْحة ، مُبرَّأً من مِحْنة، فأحكام الله تعالى جَدُّه، وتقدّستْ أسماؤه، جاريةٌ على غير مُراد المخلوقين، لكنه تعالى يختار لعباده المؤمنين ما هو خيرٌ لهم فى العاجلة، وأبقى لهم فى الآجلة ، اختار الله لك فى قبضها اليـه، وقُدومها عليه، ما هو أنفعُ لها، وأولى بها، وجعل القبر، كُفُوءًا لها والسلام .

وقال عبد العزيز بن يحيى المكىّ الذى ناظر بِشْر بن غِيَاث المَرِيسىّ بحضرة أمير المؤمنين فى مسألة خَلْق القرآن :

جاءنى خليفةُ عمرو بن مسعدة ومعه جَمْعٌ من الفرسان والرَّجَّالة فحملنى مكْرَماً على دابّته حتى صار الى باب أمير المؤمنين فأوقفنى حتى جاء عمرُو بن مَسْعدة فدخل فجلس فى حُجرته

التى كان يَجلس فيها ثم أَذِن لى بالدخول عليـه فدخلتُ فلما صرتُ بين يديه أجلسنى ثم قال لى : أنت مقيمٌ على ما كنتَ عليه أَو قد رجعت عنه؟ فقلتُ : بل مقيمٌ على ما كنتُ وقد ازددتُ بتوفيق الله تعالى إياى بصيرةً فى أمرى؛ فقال لى عمرو بن مسعدة : أيها الرجل، قد حملتَ نفسكَ على أمرٍ عظيم، و بلغتَ الغايةَ فى مكروهها، وتعرضتَ لما لا قِوامَ لك به فى مخالفة أمير المؤمنين، وادّعيتَ بما لا يثبتُ لك به حجةٌ على مخالفتك، ولا لأحدٍ غيرِك، وليس وراءك بعد الحُجّة عليك الا السيفُ ، فانظرْ لنفسك و بادر أمرَكَ ، قبل أن تقعَ المناظرةُ وتَظْهَرَ عليك الحجةُ ، فلا تنفعك النَّدامةُ ولا يُقْبلُ منك معذرةٌ ولا تُقال لك عثْرةٌ، فقد رحمتُك وأشفقتُ عليك مما هو نازلٌ بك، وأنا أَستقيلُ لك أميرَ المؤمنين وأسألُه الصفحَ عن جُرْمك ، وعظيمِ ما كان منك اذا أظهرتَ الرجوعَ عنه والندمَ على ما كان ، وآخذُ لك الأمانَ منه والجائزةَ ، فان كانت لك ظُلَامةٌ أزلتُها عنك وان كانت لك حاجةٌ قضيتُها لك ، فانما جلستُ رحمةً لك مما هو نازلٌ بك بعد ساعة إن أقمتَ على ما أنت عليـه ورجوتَ أن يخلصك الله تعالى على يدىْ من عظيم ما أوقعتَ نفسَك فيه .

شـــعره :

نقلْنا أمثلةً قليلةً من نثر عمرو بن مسعدة، أما شعرُه فقليلٌ جدا. ذَكَرَ المترجمون له أنه كان له فَرَسٌ أدهمُ أغرُّ، لم يكن لاحد مثله فَرَاهَةً وحُسنا . فبلغ المأمونَ خبرُه، و بلغ عمرو ابنَ مسعدةَ ذلك . فخاف أن يأمر بقَوْده اليه فلا يكون له فيه مَحْمَدة، فوجّه به اليه هدية وكتب معه :

يا إماماً لا يُـــدا * نيـــه اذا عُدّ إمامُ
فَضلَ الناسَ كما يَفْـ * ـضُل نقصانا تَمــامُ
قــد بعثْنا بجـــوادٍ * مثـــلُه ليس يُرامُ
فــرسٌ يَزْهى به للـ * ـحُسن سَرْجٌ و لجَامُ
دُونه الخيـلُ كما دُو * نك فى الفضلِ الأنامُ

وجهُهُ صُبحٌ ولكن * سائرُ الجسم ظـلامُ
والذى يَصْلُح للـو * لى على العبـدِ حَرَامُ

وعمرو هو القائل :

ومستعذب للهَجْرِ والوصل أعذَبُ * أكاتِمُه حُـبى فَيَنْأَى وأَقــرُبُ
اذا جدتُ منى بالرضا جاد بالجَفَا * ويَزعُم أنّى مُذْنبٌ وهـــو أذنبُ
تعلّمتُ ألوانَ الرضا خوفَ هَجْـرِه * وعلّمه حُـــبى له كيف يَغْضَبُ
ولى غيرُ وجه قد عرفتُ طريقَهُ * ولكن بلا قلبٍ الى أين أذهبُ

ووقّع مرّة فى ظهر رُقْعة لرجل :

أَعْزِزْ عَلَيَّ بأمرٍ أنت طَالِبُـــهُ * لم يمكن النُّجْحُ فيه وٱنقضى أَمَدُهْ

ولعمرو بن مسعدة حكاياتٌ منها ما حكاه القاضى التنوخىّ (١) فى كتاب الفرج بعد الشدّة: قال عمرو بن مســعدة : كنتُ مع المأمون عنــد قدومه من بلاد الروم حتى اذا نزلتُ الرَّقّةَ قال: يا عمرو، ما ترى الرُّخجىّ قد احتوَى على الأَهْوَاز، وهى سلّة الخير وجميعُ المــال قِبلَه وطمع فيها، وكُتُبُهُ متّصــلة بحملها، وهو يتعلّل و يتربّص بى الدوائر؟ فقلتُ : أنا أكفى أمير المؤمنين هذا، وأنفذ مَن يضطره الى حَمْل ما عليه، فقال : ما يقنعنى هذا، فقلت : فيأمر أمير المؤمنين بأمره، فقال : فاخرُج اليه بنفسك حتى تُصَفِّده بالحديد، فتحمله الى بغداد وتَقْبض على جميع ما فى يده من أموالنا، وتنظر فى أعمالنا وترتّب لها عُمّالا، فقلتُ : السمع والطاعة، فلما كان فى غدٍ دخلتُ عليــه فقال : ما فعلتَ فيما أمرتك به ؟ قلتُ : أنا على ذلك، قال : أتريد أن تجيء فى غدٍ مُوَدِّعا؟ قلت : السمع والطاعة، فلــا كان فى غدٍ جئتــه مودّعا، فقال : أريد أن تحلف لى أنك لا تقيم ببغداد إلا يوما واحدا، فاضطربتُ من ذلك الى أن حضّنى وٱستحلفنى ألا أقيمَ فيها أكثر من ثلاثة أيام، فخرجتُ

(١) راجع (ج ٢ ص ٣٥ طبعة الهلال) . والعقد الفريد لابن عبد ربه (ج ٢ ص ٢١١ طبعة بولاق) .

حتى قدمتُ بغداد ، فلم أُقِم بها إلا ثلاثة أيام وانحدرتُ فى زَلالىّ أريد البصرة وجُعل لى فى الزلالى خَيش واستكثرتُ من الثلج لشدّة الحرّ .

فلما صرتُ بين جُرجان وجَبُّل[1] سمعتُ صوتا من الشاطئ يصيح : يا ملّاح ، فرفعتُ سَجف الزّلالىّ واذا بشيخ كبير السنّ جالس حاسر الرأس حافى القدمين خَلَق القميص ، فقلت للغلام : أجبْه ، فأجابه ، فقال : ياغلام ، أنا شيخ كبير السنّ على هـذه الصورة التى ترى ، وقد أحرقتْنى الشمسُ وكادتْ تُتلفنى ، وأريد جبل ، فاحملونى معكم فانّ الله يحسن أجر صاحبكم ، قال : فشتمه الملّاح وانتهره ، فادركتْنى رقّةٌ عليه وقلتُ : خذوه معنا ، فتقدّمنا الشطّ وصِحْنا به وحَملناه ، فلما صار معنا فى الزلالىّ وانحدَرْنا نتقدّم فدفعتُ اليـه قميصا ومِنْديلا وغَسَلَ وجهه واستراحَ وكأنّه كان ميْتا وعاد الى الدنيا فحضرَ وقتُ الغذاء وتقدّمت وقلتُ للغلام : هاته يا كلْ معنا ، فجاء وقعَد على الطعام ، فأكل أكلَ أديبٍ نظيفٍ غير أنّ الجوع أثّر فيه ، فلما رُفعتْ المـائدةُ أردت أن يقوم ويَغْسل يده ناحية كما تفعل العامة فى مجالس الخاصّـة فلم يفعل ، فغسلتُ يدى وتذمّمْتُ أن آمر بقيامه ، فقلتُ : قدّموا له الطشت فغسل يده ، وأردتُ بعدها أن يقوم لأنام فلم يفعل ، فقلتُ : يا شيخ ، أىّ شىء صناعتك؟ قال : حائك أصلحك الله ، فقلتُ فى نفسى : هذه الحياكة علّمته سوءَ الأدب ، فتناومتُ عليه ومددتُ رجلى فقال : قد سألتنى عن صناعتى وأنت أعزّك الله ما صناعتك؟ فأكبرتُ ذلك وقلت : أنا جَنيْتُ على نفسى هذه الجناية ولا بدّ من احتمالها ، أتراه الأحمق لا يرى زَلالىّ وغلمـانى ونعمتى وأنّ مثلى لا يقال له هذا ! فقلتُ : كاتب ، فقال : كاتب كامل أم كاتب ناقص فإنّ الكتّاب خمسـة ، فأيّهم أنت ؟ فورد علىّ قول الحائك موردا عظيما وسمعتُ كلاما أكبرته وكنت متكئا فجلست ، ثم قلت : فَصِّل الخمسة قال :

نعم ، كاتبُ خَراج يحتاج أن يكون عالمـا بالشروط والطسوت والحسـاب والمساحة والبثوق والفتـوق والرتوق . وكاتبُ أحكام يحتاج أن يكون عالمـا بالحلال والحرام

(١) فى العقد الفريد : «بين ديرهرقل ودير العاقول» .

والاحتجاج والإجماع والأصول والفروع . وكاتبُ مَعُونة يحتاج أن يكون عالما بالقصاص والحــدود والجراحات والمواثبات والسياسات . وكاتبُ جَيْش يحتاج أن يكون عالمـا بحُلَى الرجال وشِيَات الدوابّ ومُدَاراة الأولياء وشيئا من العلم بالنسب والحساب . وكاتب رسائل يحتاج أن يكون عالمـا بالصدور والفصول والإطالة والايجاز وحُسْن البلاغة والخط، قال : فقلت : إنى كاتب رسائل، قال : فأسألك عن بعضها، قلت : قل، فقال لى :

أصلحك الله، لو أنّ رجلا من إخوانك تزوج أمّك فأردت أن تكاتبــه مهنئا فكيف كنتَ تكاتبه ؟ ففكرتُ فى الحـال فلم يخطر ببالى شيء، فقلتُ : ما أرى للتهنئة وجها، قال : فكيف تكتب اليه تعزّيه ففكرت فلم يخطر ببــالى شيء، فقلت : اعفنى ، قال : قد فعلت، ولكنك لست بكاتب رسائل، قلت : أنا كاتب خَرَاج، قال : لا بأس، لو أنّ أمير المؤمنين ولّاك ناحية وأمرك فيها بالعدل والإنصاف وتقضى حاجة السلطان فيتظلم اليك بعضهم من مسّاحيــك وأحضرتهم للنظر بينهم و بين رعيتك، فحلف المسّاح بالله العظيم لقد أنصفوا وما ظلموا، وحلفتْ الرعيّة بالله إنهم لقد جاروا وظلموا، وقالت الرعيّة : قف معنا على ما مَسَحوه وآنظر مَن الصادق مِنَ الكاذب ، فخرجتَ لتقف عليه ، فوقفوا على براح شَكْلُه قاتل قثا، كيف كنتَ تمسحه؟ قلت : كنت آخذ طوله على آنعراجه وعرضــه ثم أضربه فى مثله ، قال : إنّ شكل قاتل قثا أن يكون زاويتاه محدودتين وفى تحديده تقويس، قلت : فآخذ الوَسَــط فأضربه فى العَرْض، قال : إذًا ينثنى عليــك العمود، فأسكتنى ، فقلت : ولستُ كاتبَ خراج، قال : فإذًا ما أنت؟ قلت : أنا كاتبُ قاضٍ، قال : أرأيتَ لو أنّ رجلا توفى وخَلّف امرأتين حاملتين إحداهما حُرّة والأخرى سَرِيّة، فولدتْ السريّة غلاما والحــرّة جارية، فعَــدَتْ الحرّة الى ولد السريّة فأخــذته ، وتركتْ بدله الجارية فاختصما فى ذلك، فكيف الحُكْم بينهـما؟ قلتُ : لا أدرى، قال : فلستَ بكاتب قاض، قلتُ : فأنا كاتبُ جيش، فقــال : لا بأس ، أرأيتَ لو أنّ رجلين جاءا اليك لتُحَلِّيهما وكلّ واحد منهما آسمــه وآسم أبيــه كاسم الآخر إلا أنّ أحدهما مشقوقُ الشفة العليا، والآخر مشقوقُ

الشفة السفلى ؟ كيف كنتَ تحليهما، قال : قلتُ : فلانٌ الأفلح وفلان الأعلم، قال : إنّ رزقهما مختلفان وكلّ واحد منهما يجيء فى دعوة الآخر ، قلتُ : لا أدرى، قال : فلستَ بكاتب جَيْش، قلتُ : أنا كاتب مَعُونة، قال : لا تبـالى، لو أنّ رجلين رُفِعا اليك قد شُجَّ أحدُهما الآخرَ شجـةً مُوضِحَةً (١)، وشجّ الآخرُ شجةً مأمونة، كيف كنتَ تفصل بينهما؟ قلت: لا أدرى، قال : لستَ إذًا كاتب معُـونة، اطلب لنفسك أيهـا الرجل شغلا غير هـذا، قال : فصَغُرَتْ الىّ نفسى وغاظنى، فقلت : قد سألتُ عن هذه الأمور ويجوز ألاّ يكون عندك جوابها كما لم يكن عندى، فإن كنت عالمـا بالجواب فقل، فقال .

نعم، أما الذى تزوّج أمك فتكتب اليه : أما بعد، فإنّ الأمور تجرى من عند الله بغير محبّة عباده ولااختيارهم، بل هو تعالى يختار لهم ما أحبّ، وقد بلغنى تزويج الوالدة خار الله لك فى قبضها ، وإنّ القبورأ كرم الأزواج وأستر العيوب والسلام .

وأما براحُ قاتل قثا فتمسح العمود حتى اذا صار عددا فى يدك ضربته فى مثله ومثل ثلثه فمـا خرج فهو المساحة .

وأما الجاريةُ والغلامُ فيُوزَن لبَنُ الاثنين، فأيّهما كان أخفّ فالجارية له .

وأما الجنديان المتفقا الاسمين، فإن كان الشقّ فى الشفة العليا قيل فلان الأعلم، واذا كان فى الشفة السفلى قلتَ فلان الأفلح .

وأما صاحبُ الشـجّتين فلصاحب الموضحـة ثُلثُ الدِّيَة ، ولصاحب المأمونة نصف الدية ، فلما أجاب بهذه المسائل تعجّبتُ منه وامتحنتُه بأشياء كثيرة غيرها فوجدته ماهرا فى جميعها حاذقا بليغا ، فقلتُ : ألستَ زعمتَ أنك حائك، فقال : أنا أصلحك الله حائك كلام ولستُ بحائك نسّاجة، وأنشأ يقول :

ما مَرَّ بؤسٌ ولا نعـيمٌ * إلا ولى فيهـما نصيبُ
فذقتُ حُلْوًا وذقتُ مُرًّا * كذاك عَيْشُ الفتى ضُروبُ
نوائبُ الدهـر أدّبتنى * وإنّمـا يُوعَـظُ الأديبُ

(١) الموضحة : الشجة التى تبدى وضح العظام .

قلتُ : فما الذى بك من سوء الحال؟ قال : أنا رجلٌ كاتبٌ دامتْ عُطْلتى، وكَثُرتْ عَيْلتى، وتواصلتْ مِحْنتى، وقلّت حِيلتى، فخَرَجتُ أطلبُ تصرُّفا فقُطِع علىّ الطريق فصرتُ كما ترى، فمشيت على وجهى، فلمّا لاحَ لى الزّلّالى استغثتُ بك، قلتُ : فإنى قد خرجتُ الى مُتَصَّرف جليل أحتاجُ فيه الى جماعةٍ مثلك، وقد أمرتُ لك بخِلْعة حَسَنَة تصلح لمثلك وخمســةِ آلاف درهم تُصلِح بها أمرَك ، وتُنفِذُ منها الى عيالك ، وتُقوّى نفسَــك بباقيها، وتصــير معى الى عَمَلى فأولِّيك أجلَّه ، فقال : أحسنَ الله جزاءك إذًا تجدُنى بحيث أسرّك، ولا أقومُ مقامَ معذر اليــك إن شاء الله، وأمرت بتقبيضه ما رَسَمتُ له قَبْضه، وانحدر الى الأهواز معى، فجعلته المناظرَ للرجى والمحاسبَ له بحضرتى، والمستخرجَ لِمَا عليــه ، فقام بذلك أحسن قيام وعَظُمت حاله معى، وعادتْ نعمته الى أحسن ما كانت عليه .

وفى عمرو بن مسعدة يقول أبو محمد عبد الله بن أيُّوب التّيْمى :

أَعِــنِّى عــلى بارقٍ ناضبٍ * خَــفِىٍّ كوَحْيك بالحاجبِ
كأنّ تألُّقَــه فى السماء * يدا كاتبٍ أو يــدا حاسبِ
فــروّى منــازلَ تَذْكارُها * يُهيّــج من شــوقك الغالب
غريبٌ يحِنّ لأوطـانه * ويَبْكى على عصــره الذاهب
كفاك أبو الفضل عمرُو النّدَى * مطالعــةَ الأمــلِ الكاذبِ
وصــدقُ الرجاء وحُسْنُ الوفاء * لعمــرو بن مَسْــعَدَة الكاتبِ
عريضُ الفِنَـاء طويلُ البِنَـا * ء فى العِــزِّ والشّرَف الثـاقب
بَنَى الملك طــودٌ له بيتُــه * وأهــلُ الخــلافة من غالب
هــو المرتَجَى لصرُوف الزمان * ومُعْتَصَــمُ الراغبِ الراهب
جــوادٌ بمـا ملكتْ كفُّه * على الضيف والجار والصاحب
بأُدْمِ الرِّكاب ووَشْيِ الثيـا * بِ والطِّرْف والطِّفْلة الكاعب
نؤمِّــلُه لِجسـامِ الأمــور * ونرجوه لِلجلَــلِ الكــارب

خَصِيبُ الجناب مَطِيرُ السحاب * بشــيمته لَيِّنُ الجانب
يُرَوِّى القَنَـا من نحور العِــدَا * ويُغْرِقُ فى الجُــود كاللاعب
اليــك تبــدّت بأكـوارها * حراجيجُ فى مَهْمَــهٍ لاحب
كأنّ نعامًا تَبَـارَى بنـا * بــوابِلٍ من بَرَدٍ عاصب
يَرِدْنَ نَــدَى كفِّك المُرْتجَى * ويَقْضِينَ من حقّــك الواجب
ولله ما أنتَ من خابرٍ * بسَجْلٍ لقــومٍ ومن خارب
فتَسْقِى العــدا بكؤوس الرَّدَى * وتســبِقُ مســئلةَ الطالب
وكم راغبٍ نلتَــه بالعَطَـا * وكم نِلتَ بالعَطْــف من هارب
وتلك الخــلائقُ أُعْطِيتَهَـا * وفَضْــلٌ من المانح الواجب
كَسَبتَ الثنـاءَ وكسبُ الثنـا * ءِ أفضــلُ مَكْسَبةِ الكاسب
يقينُــك يجلو ستورَ الدُّجَى * وظنُّــك يُخْــبِر بالغـائب

رسائل الجاحظ

رسالته في بني أمية

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ [١] : أطال الله بقاءك ، وأتمّ نعمته عليك ، وكرامته لك . اعلم أرشد الله أمرك ، أنّ هذه الأمةَ قد صارت بعد إسلامها ، والخروج من جاهليتها ، الى طبقاتٍ مُتفاوتة ، ومنازلَ مختلفة : فالطبقة الأولى عصر النبي صلّى الله عليه وسلم ، وأبي بكر وعمر ، رضي الله عنهما ، وستّ سنين من خلافة عثمان رضي الله عنه ، كانوا على التوحيد الصحيح ، والإخلاص المحض [٢] ، مع الأُلفة واجتماع الكلمة على الكتاب والسنة ، وليس هناك عمل قبيح ، ولا بِدْعة فاحشة ، ولا نزعُ يد من طاعة ، ولا حسدٌ ولا غِلٌّ ولا تأوّلٌ ، حتى كان الذى كان : من قتل عثمانَ ، رضي الله عنه ، وما انْتُهِكَ منه ، ومن خَبْطهم إيّاه بالسلاح ، وبَعْج بطنه بالحِراب ، وفَرْى أَوْداجه بالمَشاقِص ، وشَدْخ

(١) هو إمام الأدب أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب الكنانى البصرى صاحب التصانيف الممتعة والرسائل المبدعة . وقد تقدّم الكلام عليه فى المجلد الأوّل من هذا الكتاب (ص ٤٢١) .

ولد حوالى سنة ١٦٠ هـ بمدينة البصرة ونشأ بها فتناول كل فن ومارس كل علم عرف فى زمانه مما وضع فى الاسلام أو نقل عن الأمم الأوائل فأصبح له مشاركة فى علم كل ما يقع عليه الحس أو يخطر بالبال فهو راوية . متكلم . فيلسوف . كاتب . مصنف . مترسل . شاعر . مؤرخ . عالم بالحيوان والنبات والموات . وصاف لأحوال الناس ووجوه معايشهم واضطرابهم وأخلاقهم وحيلهم إلا أنه غلب عليه أمران : الكلام على طريقة المعتزلة فهو بذلك إمام الطائفة الجاحظية من المعتزلة والأدب الممزوج بالفلسفة والفكاهة فهو أوّل من ألف الكتب الجامعة لفنونه ككتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وغيرهما .

وكان غاية فى الذكاء ودقة الحسّ وحسن الفراسة إلى دعابة فاشية ، وقلة اعتداد بما يأخذ به الناس انفسهم و يتحلونه من الرسوم والعادات وأنواع العصبية المذهبية وعدم مبالاة بوقوع المتورّعين فيه . وكان سمحا جوادا كثير المواساة لإخوانه وكان على دمامة خلقه وتناقض خلقه خفيف الروح ، فكه المجلس ، غاية فى الظرف وطيب الفكاهة وحلاوة الكلام وهو على الجملة أحد أفذاذ العالم وأحد حجج اللسان العربى . توفى سنة ٢٥٥ هـ ببغداد بمقبرة الخيزران . وتجد ترجمته فى معجم الأدباء لياقوت (ج ٦ ص ٥٦ — ٨٠) وابن خلكان (ج ١ ص ٥٠٣) .

(٢) فى الأصل : « المخلص » .

هامته بالعُمُد، مع كفّه عن البسط، ونهيه عن الامتناع، مع تعريفه لهم قبل ذلك : من كم وجه يجوز قتل من شهد الشهادة، وصلّى القبلة، وأكل الذبيحة، ومع ضرب نسائه بحضرته، وإلحام الرجال على حرمته، مع اتقاء نائلة بنت القَرافِصة[1] عنه بيدها، حتى أطَنّوا[2] إصبعَين من أصابعها، وقد كشفتْ عن قِناعها، ورفعتْ عن ذَيلها ليكون ذلك رادعا لهم، وكاسرا من غَرْبهم ؛ مع وطئهم فى أضلاعه بعد موته، وإلقائهم على المَزْبلة جسدَه مُجرّدا بعد سحبه، وهى الجزرةُ التى جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم كُفْئا لبناته وأيّاماه وعقائله، بعدَ السبّ والتعطيش والحصرْ الشديد، والمنع من القوت، مع احتجاجه عليهم وإفحامه لهم ؛ ومع اجتماعهم على أنّ دمَ الفاسق حرام، كدم المؤمن ، إلّا مَن ارتد بعد إسلام ، أو زنى بعد إحصان ، أو قتل مؤمنا على عَمْد ، أو رجلٌ عدا على النّاس بسيفه فكان فى امتناعهم منه عطبه ؛ ومع اجتماعهم على ألّا يُقتل من هذه الأمّة ، ولا يُجْهز منها على جريح ؛ ثم مع ذلك كلّه دَمَروا[3] عليه وعلى أزواجه وحُرَمه وهو جالس فى مِحْرابه ومُصْحفُه يلوح فى حِجْره، لن يُرَى أنّ مُوَحِّدا يقدِم على قتل مَن كان فى مثل صفته وحاله .

لاجَرَم لقد احْتَلَبوا به دمًا لاتطير رغوتُه، ولا تَسْكُنُ فورتُه، ولا يموت ثائرُه، ولا يَكِلّ طالبُه، وكيف يُضيِّع اللهُ دم وَلِيّه، والمنتقم له، وما سمعنا بدم بعد دم يحيى بن زكريا عليهما السلام، غلا غليانَه، وقُتِل سافحُه، وأُدْرِكَ بطائلته، وبلغ كلُّ محبته، كدمه رحمة الله عليه .

ولقد كان لهم فى أخذه، وفى إقامته للناس، والاقتصاص منه، وفى بيع ما ظهر من رِباعه، وحَدائقه، وسائرِ أمواله، وفى حَبْسه بما بَقِى عليه ، وفى طَمْره حتى لا يُحَسّ، بذكره، ما يُغنيهم عن قتله إنْ كانَ قد ركب كلّ ماقذفوه به، وادّعَوْه عليه، وهذا كلّه بحضرة جِلّة المهاجرين والسلَف المقدّمين، والأنصار والتابعين .

---

(١) قال فى شرح القاموس : كل ما فى العرب من هذا الاسم «فراقصة» فهو بضم الفاء الا فرافصة أبا نائلة فهو بالفتح لاغير . (٢) أطنوا : قطعوا . (٣) حض بعضهم بعضا عليه متهددين .

ولكنّ الناس كانوا على طبقاتٍ مختلفـة، ومراتبَ متباينـة : من قاتلٍ ومن شادٍّ على عضده، ومن خاذل عن نصرته، والعاجز ناصر بإرادته، ومطيع بحسن نيته. وإنّما الشك منّا فيـه، وفى خاذله، ومن أراد عزله والاسـتبدالَ به؛ فأمّا قاتله، والمعينُ على دمه، والمُريدُ لذلك منـه، فضُلّالٌ لاشـكّ فيهم، ومُرّاقٌ لا امتراء فى حكمهم؛ على أنّ هـذا لم يَعْـدُ منهم الفجورَ : إمّا على سـوء تأويلٍ، وإمّا على تعمّد للشقاء، ثم ما زالت الفتن مُتّصلة، والحروبُ مترادفةً، كحرب الجمل، وكوقائع صِفّين، وكيوم النَّهْروان، وقبل ذلك يوم الزَّابُوقة[1]، وفيه أُسِر ابن حُنَيف، وقُتل حَكيم بن جَبَلة، الى أن قَتَل أشقاها علىَّ بن أبى طالب رضوان الله عليه، فأسعده الله بالشهادة، وأوجب لقاتله النار واللعنة؛ الى أن كان من اعتزال الحسن عليه السلام الحروبَ وتخْليته الأمورَ، عند انتثار أصحابه، وما رأى من الخلل فى عسكره، وما عرَف من اختلافهم على أبيه، وكثرة تلونهم عليه؛ فعندها استوى معاويةُ على الملك، واسـتبدّ على بقية الشُّورَى، وعلى جماعة المسلمين، من الأنصار والمهاجرين، فى العام الذى سَمّوْه عامَ الجماعة، وما كان عامَ جماعةٍ، بل كان عام فُرقـةٍ وقهرٍ وجبريّةٍ وغَلَبةٍ، والعامَ الذى تحوّلت فيـه الإمامة مُلْكاً كسْرويّاً، والخلافةُ غصبا قَيْصَرياً، ولم يَعْـدُ ذلك أجمعُ الضلالَ والفسقَ. ثم مازالت معاصيه من جنس ماحكيْنا، وعلى منازلِ مارتّبنا، حتى رَدّ قضـيةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ردا مكشوفا، وجَحد حكمَه جَحْدا ظاهرا، فى ولد الفِـرَاش وما يَجب للعَاهر، مع اجتماع الأمة انّ سُمَيّـة لم تكن لأبى سـفيان فِراشا، وأنّه إنمـا كان بها عاهرا. فخرج بذلك من حُكم الفجّار الى حكم الكفار، وليس قتل حُجْر بن عَدِىّ، وإطعامُ عمرو بن العاص خراجَ مِصر، وبيعةُ يزيد الخَليع، والاستئثارُ بالفىْء، واختيارُ الوُلاة على الهوى، وتعطيلُ الحدود بالشفاعة والقرابة، من جنس جحد الأحكام المنصوصة، والشرائع المشهورة، والسُّنَن المَنْصوبة، وسواءٌ فى باب مايستحقّ من الكفار جحَدَ الكتاب، وردَّ السـنة اذا كانت السـنة فى شُهْرة الكتاب وظهوره، إلا أنّ أحدَهما

---

(١) الزابوقة : موضع قريب من البصرة كانت فيه وقعة الجمل أوّل النهار .

أعظم ، وعقابَ الآخرة عليه أشدّ، فهذه أوّل كَفْرَة، كانت من الأمّة، ثم لم تكن إلّا فيمن يدّعى إمامتها، والخلافة عليها؛ على أنّ كثيرا من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفاره، وقد أرْبَتْ عليهم نابتةُ عصرنا، ومُبْتَدِعةُ دهرنا، فقالت : لا تَسبّوه، فإنّ له صحبة، وسبّ معاوية بدعة، ومَن يُبْغِضه فقد خالف السنة ، فزعمتْ أنّ من السنة ترك البَرَاءة، ممن جحَد السنة؛ ثم الذى كان مِن يزيدَ آبنه، ومن عمّاله، وأهل نُصرته، ثم غزو مكةَ، ورمى الكعبة، واستباحة المدينة، وقتل الحسين عليه السلام، فى أكثر أهل بيته، مصابيح الظلام، وأوتاد الإسلام ، بعد الذى أعطى من نفسه ، من تفريق أتباعه ، والرجوع الى داره وحَرَمه، أو الذّهاب فى الأرض، حتّى لا يُحسّ به أو المُقام حيث أُمِرَ به ، فأبوْا إلّا قتله ، والنزولَ على حكمهم، وسواءٌ قتل نفسَه بيده، أو أسْلَمها الى عدوّه ، وخُيِّر فيها مَن لا يبرُد غليلُه إلّا بشُرْب دمه، فاحسُبوا قتلَه ليس بكفر، وإباحةَ المدينة، وهتْكَ الحُرمة، ليس بحجة؛ كيف تقولون فى رمْى الكعبة، وهدمِ البيت الحرام، وقِبلة المسلمين؟ فإن قُلتم ليس ذلك أرادوا بل إنّما أرادوا المتحرّز به، والمتحصّن بحيطانه، أفما كان فى حق البيت وحريمه أن يَحصُروه فيه، الى أنْ يُعطى بيده! وأىّ شيءٍ بَقِى من رجُل، قد أُخذتْ عليه الأرض إلا موضعَ قدمه! واحسُبوا مارووا عليه من الأشعار ، التى قولها شِرْك، والتمثّل بها كفرٌ، شيئا مصنوعا؛ كيف تصنع بنَقْر القضيب بين ثَنِيَّتَى الحسين عليه السلام، وحمل بنات رسول الله صلّى الله عليه وسلم حواسرَ على الأقتاب العارية، والإبل الصِّعاب ، والكشف عن عورة على بن الحسين عند الشكِ فى بلوغه! على أنّهم إنْ وجدوه ، وقد أنبت قتلوه وإنْ لم يكن أنبت حملوه ، كما يصنَع أميرُ جيش المسلمين ، بذرارى المشركين ؛ وكيف تقول فى قول عُبَيْد الله بن زياد لإخوته وخاصّته، دعونى أَقتلْه ، فإنّه بقيّةُ هذا النسل ، فأَحسِم به هذا القرنَ، وأُميت به هذا الداءَ، وأقطع به هذه المادة !

خبّرونا علام تُدل هذه القسوةُ ، وهذه الغلظة! بعد أنْ شفوْا أنفسهم بقتلهم، ونالوا ما أحبوا فيهم، أتدلّ على نَصْب ، وسوءِ رأيٍ وحِقْدٍ، و بغضاءَ ونفاق، وعلى يقينٍ مدخولٍ

وإيمانٍ مخروج ! أم تدلّ على الإخلاص، وعلى حبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم، والحفظ له، وعلى براءة الساحة وصحـة السريرة ! فإنْ كان على ما وصفنا لا يَعْـدو الفسقَ والضلالَ، وذلك أدنى منازله؛ فالفاسق ملعون، ومَن نَهى عن نهى الملعون فملعون .

وزعمتْ نابتة عصرنا، ومبتدعةُ دهرنا، أنّ سبّ وُلاةِ السوء فتنـةٌ، ولعنَ الجوَرَةِ بِدْعَة، وإنْ كانوا يأخذون السّمىّ بالسّمىّ، والولىّ بالولىّ، والقريبَ بالقـريب، وأخافوا الأولياءَ، وأمّنوا الأعداء، وحكموا بالشفاعة والهوَى، وإظهارِ الغدر والتهاون بالأمّة، والقَمْع للرّعيّة، وأنّهم في غير مُداراة ولا تقيّة، وإنْ عدا ذلك الى الكفر، وجاوز الضلال الى الجحْد، فذاك أضلّ ممّن كفّ عن شتْمهم، والبراءةِ منهـم، على أنّه ليس مَن استحقّ اسمَ الكفر بالقتـل كمَن استحقّه بردّ السـنة وهدم الكعبة، وليس مَن استحقّ اسم الكفر بذلك كمن شبّه الله بخلقه، وليس مَن استحقّ الكفر بالتشبيه كمن استحقّه بالتجوير(١)، والنابتة فى هذا الوجه أكفرُ من يزيدَ وأبيه، وابن زياد وأبيه، ولو ثبت أيضا على يزيدَ أنّه تمثل بقول بن الزِّبَعْـرَى :

ليتَ اشياخى ببدْرٍ شهِدوا * جزَعَ الخزرَجِ من وَقْعِ الأَسَلْ
لاسـتطاروا واستهلّوا فَرَحًا * ثم قالوا يا يزيدُ لا تَسَـل
قد قتلنا الغُرّ من ساداتهم * وعدَلْنـاهُ ببـدرٍ فاعتـدَل

كانــ تجويرُ النابتى لربّه، وتشبيهه بخلقه، أعظمَ من ذلك وأقطع، على أنهـم مُجْمِعون على أنّه ملعون من قتـل مؤمنا، متعمدا أو متأولا؛ فاذا كان القاتل سلطانا جائرا، أو أميرا عاصيا، لم يستحلوا سـبّه، ولا خلعه، ولا نفيه، ولا عيبه، وإنْ أخاف الصلحاء، وقتل الفقهاء، وأجاع الفقير، وظلم الضعيف، وعطّل الحدود والثغور، وشرب الخمور، وأظهر الفجور؛ ثم ما زال الناس يتسكعون مرّة، ويداهنونهم مرّة، ويقاربونهم مرّة، ويشاركونهم مرّة إلّا بقيّةً ممن عصمَه الله تعالى ذكْرُه، حتى قام عبد الملك بن مرْوان، وابنه الوليد،

---

(١) نسبه الله الى الجور .

وعاملهما الحجاج بن يوسف، ومولاه يزيد بن أبى مُسْلِم، فأعادوا على البيت بالهدم، وعلى حَرَم المدينة بالغزو، فهدموا الكعبة، واستباحوا الحُرْمة، وحوّلوا قبلة واسط، وأخّروا صلاة الجمعة، الى مُغَيْرِبَانِ الشمس، فإن قال رجل لأحدهم : اتق الله فقد أخّرت الصلاة عن وقتها، قتله على هذا القول جِهارا غيرَ ختْلٍ، وعَلانيةً غيرسرّ، ولا يُعْلَمَ القتل على ذلك إلّا أقبحَ من إنكاره، فكيف يكفّر العبد بشىء ولا يكفر بأعظم منه !

وقدكان بعض الصالحين ربّما وعظ الجبابرة،وخوّفهم العواقبَ،وأراهم أنّ فى الناس بَقيّةً يَنْهَوْن عن الفساد فى الأرض، حتى قام عبد الملك بن مَرْوان، والحجاجُ بن يوسف، فزجرا عن ذلك، وعاقبا عليه، وقتلا فيه، فصاروا لا يَتَناهَوْن عن منكر فعلوه؛ فاحسبْ تحويل القبلة كان غلطا،وهدم البيت كان تأويلا، واحسبْ ما رووْا من كلّ وجه، أنّهم كانوا يزعمون أنّ خليفة المرء فى أهله أرفعُ عنده من رسوله اليهم[1]، باطلًا ومسموعا مولّدا،واحسب وَسْمَ أيدى المسلمين ونقشَ أيدى المسلمات، وردَّهم بعد الهجرة الى قُراهم، وقتلَ الفقهاء، وسبَّ أئمة الهُدَى، والنّصْب لعترة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يكون كفرا؛ كيف تقول فى جمع ثلاث صلوات فيهنّ الجمعة، ولا يُصَلّون أُولاهنّ، حتى تصير الشمسُ على أعالى الجُدران، كالمُلَاءِ المُعَصْفَر، فإن نطقَ مسلمٌ، خُبِطَ بالسيف، وأخذتْه العُمُد، وشُكّ بالرّماح، وإن قال قائل : اتّق الله أخذتْه العزّة بالإثم، ثم لم يَرْضَ الا بنثر دماغِه على صدره، وبصلْبِه حيث تراه عِيالُه، ومما يَدُلّ على أنّ القومَ لم يكونوا إلا فى طريق التمرُّد على الله عزّ وجلّ، والاستخفافِ بالدين، والتهاونِ بالمسلمين، والابتذالِ لأهل الحق، أكلُ أُمرائهم الطعامَ، وشرْبُهم الشرابَ على منابرهم أيّام جُمَعِهم وجُموعهم، فَعلَ ذلك حُبَيْش[2] بن دُلْجَة، وطارق مولى عثمان، والحجّاج بن يوسف، وغيرهُم، وذلك إنْ كان كفرا كلّه فلم يبلغ كفرَ نابتة

(١) يشير بذلك الى ماورد عن الحجاج انه قال فى كلام له : ويحكم أخليفة أحدكم فى أهله أكرم عليه أم رسوله اليهم؟ يريد بذلك تفضيل مقام الخلافة على مقام الرسالة وبمثل هذا رمى الحجاج بالكفر وقد عقد ابن عبد ربه فى العقد الفريد فصلا فيمن زعم ان الحجاج كان كافرا راجع العقد الفريد ج ٣ ص ٢٣

(٢) فى الأصل : «حسن» وهو خطأ والصواب ما أثبتناه كما فى شرح القاموس والطبرى .

عصرنا، وروافض دهرنا، لأنّ جنس كفر هؤلاء غيرُ كفر أولئك. كان اختلاف الناس فى القَدَر على أنّ طـائفة تقول كلّ شىء بقضاءٍ وقدر، وتقول طائفة أخرى كل شىء بقضاء وقَدَر إلا المعـاصىَ، ولم يكن أحد يقول إنّ الله يعذّب الأبناء ليَغيظَ الآباء، وإنّ الكفر والإيمان مخلوقان فى الإنسان، مثلَ العمى والبصر، وكانت طائفة منهم تقول إنّ الله يرى، لا تزيد على ذلك، فإن خافتْ أن يُظَن بها التشبيهُ قالت يُرَى بلا كيف تَقَزّزًا من التجسيم والتصوير، حتى نبتت هذه النابتة، وتكلّمت هـذه الرافضة، فقالت جسما، وجعلتْ له صورة وحدّا، وأكفرت من قال بالرؤية على غير التجسيم والتصوير، ثم زعم أكثرهم أنّ كلام الله حَسَن وبين وحجةٌ وبرهان، وأنّ التوراة غير الزبور، والزبورَ غيرُ الانجيـل، والانجيلَ غيرُ القرآن، والبقرةَ غيرُ آل عمران، وأن الله تولّى تأليفه، وجعلَه برهانَه على صدق رسوله، وأنّه لو شاء أن يَزيد فيه زاد، ولو شاء أن يَنْقُص منـه نَقَص، ولو شاء أن يبدّله بدّله، ولو شاء أنْ يَنْسَخَه كلّه بغيره نسخَه، وأنه أنزله تنزيلا، وأنّه فصله تفصيلا، وأنّه بالله كان دون غيره، ولا يقدر عليه إلّا هو، غيرَ أن الله مع ذلك كله لم يخلقـه، فأَعْطَوْا جميع صفات الخلق، ومنعوا اسم الخلق.

والعجبُ أنّ الخلقَ عند العرب إنّمـا هو التقدير نفسُه، فلذا قالوا: خَلَقَ كذا وكذا، ولذلك قال: ﴿أَحْسَنُ الخَالِقِينَ﴾. وقال: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ وقال: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيرِ﴾ فقالوا: صنَعه وجعلَه وقدّره، وأنزلَه وفصّله وأحدثه، ومنعوا خلقَه، وليس تأويلُ خلقَـه أكثرَ من قَـدّره، ولو قالوا بدلَ قولهـم: قدّرَه ولم يخلُقْه خلقَـه ولم يقَـدِّره ما كانت المسألة عليهم إلّا مِن وجهٍ واحد؛ والعجب أن الذى منعه بزعمه أن يَزْعُمَ أنّه مخلوق، أنه لم يسـمع ذلك من سَلَفه، وهو يعـلم أنه لم يسمع أيضا من سلفه أنه ليس بمخلوق، وليس ذلك بِهِمُّ، ولكنْ لمـا كان الكلام من الله تعالى عندَهم على مثل خروج الصوت من الجوف، وعلى جهةِ تقطيع الحروف، وإعمـال اللّسان والشفتين، وما كان على غير هذه الصورةِ والصفة فليس بكلام، ولمـا كنا عندهم على غيرهذه الصفة،

بِوكنا لِكلامنا غيرَ خالقـين ، وجب أنّ الله عز وجل لكلامه غيرُ خالق ، اذ كنا غيرَ خالقين لكلامنا ، فإنّما قالوا ذلك ، لأنّهم لم يجدوا بين كلامنا وكلامه فَرْقاً ، وإنْ لم يُقِرّوا بذلك بألسنتهم فذلك معناهم وقصدُهم .

وقد كانتْ هذه الأمّةُ لاتجاوز معاصيها الإثمَ والضلالَ ، إلّا ماحكيتُ لك عن بنى أمية ، وبنى مرْوان ، وعمّالهم ، ومن لم يَدِن بإكفارهم حتّى نجمَت النوابت ، وتابعتْها هذه العوام ، فصار الغالبُ على هذا القرن الكفرَ ، وهو التشبيهُ والجبْر ، فصار كفرهُم أعظمَ مِن كفر مَن مضى فى الأعمـال التى هى الفسقُ ، وشركاءَ(١) مَن كفر منهم بتَوليِّهم ، وترك إكفارِهم ، قال الله عز وجل مِن قائل : ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ .

وأرجو أن يكونَ اللهُ قد أغاث المُحِقِّين ، ورحِمهم وقوّى ضعفَهم ، وكثّر قِلّتَهم ، حتّى صـار وُلاة أمرِنا فى هـذا الدهرِ الصعبِ والزمن الفاسد أشـدَّ استبصارا فى التشبيهِ من علْيَتِنا ، وأعْلَمَ بما يلزم فيه منّا ، وأكشفَ للقناع من رؤسائنا ؛ وصارفوا الناس وقد انتظموا معـان(٢) الفساد أجمع ، وبلغوا غاياتِ البدع ، ثم قرنوا بذلك العصبيّةَ التى هلَك بها عالَمٌ بعد عالم ، والحميّةَ التى لا تُبْقِى دينا إلّا أفسدتْه ، ولا دنيا إلّا أهلكتْها ، وهو ماصارت اليه العجم مِنَ مذهب الشُّعُوبية ، وما قد صار اليه الموالى من الفَخْر على العجم والعرب ، وقد نجمَت من الموالى ناجمةٌ ، ونبتتْ منهم نابتـةٌ ، تزعم أن المولى بوَلائه قد صار عربيا ، لقول النبىّ صلّى الله عليه وسلم : «موْلَى القومِ منهم» ولقوله : « الوَلاء لُحْمَـة كلُحْمَة النسبِ لا يُباع ولا يُوهب » .

قال : فقد علِمنا أنّ العجم حيـن كان فيهم المُلْك والنبوّة كانوا أشرفَ من العرب ، ولمّـا حُوِّل ذلك الى العرب صارتِ العربُ أشرفَ منهـم ، قالوا : فنحن معاشرَ الموالى بقديمنا فى العجمِ أشرفُ من العرب ، وبالحديث الذى صار لنا فى العرب أشرفُ من العجم ، وللعرب القـديمُ دون الحديث ؛ ولنـا خصْلتان جميعا وافرتان فينا ، وصاحب الخصْلتين

---

(١) كذا فى الأصل ، ولعله : وصاروا شركاء الخ .

(٢) معان بفتح الميم والعين : المباءة والمنزل .

أفضلُ مِن صاحب الخصْلة ، وقد جعل الله المولى بعـد أن كان عجميا عربيا بوَلائه ، كما جعل حليفَ قُريش من العرب قرشيا بحَلِفه ، وجعل اسماعيل بعد أن كان أعجميا عربيا ولولا قول النبيّ صلّى الله عليه وسلم : « إنّ اسماعيل كان عربيّا » ما كان عندنا الّا أعجميا لأنّ الأعجميّ لا يَصير عربيّا ، كما أنّ العربيّ لا يصير أعجميّا ، فإنما علمنا أنّ اسماعيل صيّره الله عربيا بعد أن كان أعجميا ، بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فكذلك حكمُ قوله « مولى القوم منهم » وقوله : « والوَلاء لُحمة » . قالوا : وقد جعل الله إبراهيمَ عليه السـلام أبًا لمَن لم يلِد ، كما جعله أبا لمن وَلَد ، وجعل أزواجَ النبيّ أمّهات المؤمنين ، ولم يَلِدْن منهم أحدا ، وجعل الجار والد مَن لم يَلِد فى قولٍ غير هذا كثير قد أتينا عليه فى موضعه ، وليس أدعى الى الفساد ، ولا أجلَبَ للشرّ من المفاخرة ، وليس على ظهرها إلّا فَخور (الّا قليل) وأىّ شىء أغيظُ من أنْ يكونَ عبدُك يزعم أنّه أشرفُ منك ، وهو مُقِرّ أنّه صار شريفا بعِتْقِك إيّاه .

وقد كتبتُ — مدّ الله فى عمرك — كُتبا فى مُفاخرة قحطان ، وفى تفضـيل عدْنان ، وفى ردّ الموالى الى مكانهم من الفضل والنقص ، والى قدر ما جعـل الله تعالى لهم بالعرب من الشرف ، وأرجو أنْ يكون عدلًا بينهم ، وداعيـةً الى صلاحهم ، ومَنْبَهةً عليهم ولهم ؛ وقد أردتُ أن أُرسل بالجزء الأوّل اليك ثم رأيتُ ألّا يكونَ إلّا بعد استئذانك ، واستئمارك ، والانتهاء فى ذلك الى رَغبتك ، فرأيُك فيه موفّق إن شاء الله عز وجل وبه الثقة .

وكتب الى بعض إخوانه فى ذم الزمان

بسم الله الرحمن الرحيم

حفِظك الله حِفظ من وفّقه للقناعة ، واستعمله بالطّاعة ؛ كتبتُ اليك وحالى حالُ من كثُفت غمومه ، وأشكلت عليه أموره ، واشـتبه عليه حالُ دهره ، ومَخْرج أمره ، وقلّ عنده من يثِق بوفائه ، أو يحمَد مغبّة إخائه ، لاستحالة زماننا ، وفساد أيامنا ، ودولة أنذالنا ؛ وقدْما كان مَنْ قدّم الحيـاءَ على نفسه ، وحكّم الصدق فى قوله ، وآثر الحق فى أموره ، ونبذ المُشتبهات عليه من شؤونه ، تمّتْ له السلامة ، وفاز بوُفور حظّ العافية ، وحمد مغبّة مكروه

العاقبة ؛ فنظرنا إذ حال عندنا حكمُه ، وتحولت دولتُـه ؛ فوجدنا الحيـاء متّصلا بالحرمان والصدق آفة على المـال ، والقصْد فى الطلب بترك آستعمال القِحَة ، و إخلاق العِرض من طريق التوكّل دليلا على سخافة الرأى ، إذ صارت الحُظوة البالغة ، والنعمة السابغة ، فى لؤم المشيئة ، وسَناء الرزق من جهة محاشاة الرخاء ، ومُلَابَسة مَعرّة العار ؛ ثم نظرنا فى تعقّب المتعقّب لقولنا ، والكاشر لحُجّتنا ؛ فأقمنا له علَمًا واضحا ، وشاهِدا قائما ، ومنَارا بيّنا ؛ إذ وجدنا مَنْ فيه السُّفُولِيّة الواضحة ، والمَثالب الفاضحة ، والكذب المُبَرّح ، والخُلف المصرّح ، والجَهالة المُفرطة ، والركاكة المُستخَفّة ، وضعف اليقين والآستئبات ، وسرعة الغضب والجراءة ، قد آستكمل سرورُه ، وآعتــدلت أموره ، وفاز بالسهم الأغلب ، والحظ الأوفر ، والقَدْر الرفيع ، والجوَاز الطائع ، والأمر النافذ ؛ إن زَلّ قيل حَكُمَ ، و إن أخطأ قيل أصاب ، و إن هَذَى فى كلامه وهو يقظان قيل رؤيا صادقة من نَسَمة مباركة ؛ فهــذه حُجّتنا والله على من زَعم أنّ الجهل يخفض ، وأنّ النُّوك يُرْدى ، وأنّ الكذب يضُرّ ، وأنّ الخُلف يُزرى ؛ ثم نظرنا فى الوفاء والأمانة والنُّبل والبــلاغة وحسن المذهب وكمال المروءة وسَــعَة الصدر وقلّة الغضب وكرم الطبيعة ، والفائق فى سعة علمه ، والحاكم على نفسه ، والغالبِ لهواه ، فوجدنا فلان بن فلان ؛ ثم وجدنا الزمان لم يُنْصِفه من حقه ، ولا قامَ له بوظائف فَرْضه ، ووجدنا فضائلَه القائمة له قاعدةً به ؛ فهــذا دليل أنّ الطّلاح أجدى من الصلاح ، وأن الفضــل قد مضى زمانُه ، وعفَت آثارُه ، وصارت الدائرة عليه كما كانت الدائرة على ضــدّه ؛ ووجدنا العقل يَشْقى به قرينُه ، كما أنّ الجهل والحمق يَحْظَى به خَدينُه ؛ ووجدنا الشعر ناطقا على الزمان ، ومُعْربا عن الأيام حيث يقول :

تَحامَقْ مع الحمقى اذا ما لقِيتَهم * ولاقِهم بالجهل فِعْلَ أخى الجهل
وخلِّط اذا لاقيتَ يوما مخلِّطا * يُخَلِّط فى قول صحيح وفى هَزْل
فإنى رأيت المرء يشــقى بعقله * كما كان قبل اليوم يسعَد بالعقل

فبقيتُ — أبقاك الله — مثلَ من أصبح على أوفاز،(١) ومن النُّقلة على جهاز، لا يسوغ له نعمة، ولا تَطْعَم عينهُ غَمْضة، فى أهاويلَ يباكِره مكروهُها، ويُراوحه عَقابُها؛ فلو أنّ الدعاء أُجيب، والتضرّع سُمع، لكانت العِدَة العظمى، والرَّجْفة الكبرى؛ فليتَ أىْ أخى ما أستبطئه من النَّفخة، ومن بَغْتَة الصَّيحة، قُضى فحانَ، وأُذن به فكان؛ فوالله ما عُذِّبتْ أمة برَجْفة، ولا ريح ولا سَخْطة، عذابَ عينى برؤية المُغايَظة المُدْمنة، والأخبار المهلكة، كأنّ الزمان يُوكَّل بعذابى، أو يُنْصَب بأيامى، فما عيشُ من لا يُسَرّ بأخ شفيق، ولا يَصْطبح فى أوّل نهاره، إلا برؤية من يكرهه، ويَغُمّه بطلعته؛ فقد طالت الغُمّة، وواظبت الكُربة، وادلهمّت الظُّلمة، وخمَد السراج، وتَبَاطأ الانفراج .

وصف الجاحظ لقريش وبنى هاشم

قد علِم النـاسُ كيف كرَمُ قريش وسَخـاؤها، وكيف عقولها ودَهاؤها، وكيف رأيُها وذكاؤها، وكيف سياستُها وتدبيرها، وكيف إيجازها وتحسـيرها، وكيف رجاحة أحلامها اذا خَفّ الحلم، وحِدّة أذهانها اذا كلّ الحديد، وكيف صَبْرها عند اللقاء، وثباتها فى اللأْواء، وكيف وفاؤها اذا آستُحْسن الغـدر، وكيف جـودها اذا حُبّ المـال، وكيف ذكرها لأحاديث غَدٍ، وقلّة صـدودها عن جهة القصد، وكيف إقرارها بالحقّ وصـبرها عليه، وكيف وصفها له ودُعاؤها اليه، وكيف سماحة أخلاقها، وصونُها لأعْراقها، وكيف وصلوا قديمَهم بحديثهم، وطريفَهم بتليدهم، وكيف أشـبه عَلانِيَتهم سرُّهم، وقولَهم فعلُهم، وهل سلامة صـدر أحدهم إلا على قدر بُعدِ غديره، وهل غفلته إلا فى وزن صِدق ظنّه، وهل ظنه إلا كيقين غيره .

---

(١) أى على سفر .

وكتب فى الاعتذار :

أما بعد فنعم البَديلُ مِنَ الزَّلَّة الاعتذار، و بئس العِوَضُ من التوبة الإصرار، وإن أحقَّ من عطَفتَ عليه بحلمك من لم يَستَشفع إليك بغيرك، و إنى بمعرفتى بمَبلغ حِلمك وغايةِ عفوك، ضمِنت لنفسى العفو من زَلّتها عندك، وقد مسّنى من الألم ما لم يَشفِه غير مُواصلتك .

وله فى الاستعطاف :

ليس عندى أعزّك اللهُ سببٌ ولا أقدُر على شفيع إلا ما طَبَعَك الله عليــه من الكرم والرحمــة والتأميل الذى لا يكون إلا من نِتاج حسن الظن و إثبات الفضــل بحال المأمول وأرجو أن تكون من الشاكرين فتكون خيرَ مُعْتِب، وأكون أفضل شاكر، ولعل الله يجعل هذا الأمر سببا لهذا الإنعام، وهذا الإنعــام سببا للانقطاع إليكم والكون تحت أجنحتكم، فيكون لا أعظم بركة، ولا أَنْمَى بقيّة من ذنب أصبحت فيه، و بمثلك — جعلتُ فداك — عاد الذنبُ وسيلةً، والسيئة حسنة، ومثلك من انقلب به الشرّ خيرا والغُرْم غُنْما .

من عاقَب فقد أخذ حظّه، و إنمــا الأجر فى الآخرة، وطِيب الذكر فى الدنيا، على قَدْر الاحتمال وتجرّع المرائر وأرجو، ألا أَضيع وأَهْلَك فيما بين كرمك وعقلك، وما أكثر من يعفو عمّن صَغُر ذنبُه وعظُم حقّه، و إنمــا الفضل والثناء العفو عن عظيم الجرم ضعيف الحُرْمة، و إن كان العفو عظيما مُستَطْرَفا من غيركم فهو تِلادٌ فيكم، حتى ربما دعا ذلك كثيرا من الناس إلى مخالفة أمركم، فلا أنتم عن ذلك تَنْكُلون، ولا على سالف إحسانكم تندَمون، وما مثلكم إلا كمثــل عيسى بن مريم عليه السلام حين كان لا يمرّ بمَلإ من بنى اسرائيل إلا أسمعوه شرًّا وأسمعهم خيرا، فقال له شَمْعُون الصفا : ما رأيتُ كاليوم كلّمــا أسمعوك شرّا أسمعتهم خيرا فقــال : كلّ امرئ يُنفِق ممّــا عنده وليس عنــدكم إلا الخير ولا فى أَوعِيَتكم إلّا الرحمــة " وكلّ إناءٍ بالذى فيه ينضح " .

ولـه فى ذَمّ الحسد :

الحسد — أبقاك الله — داءٌ يَنْهَك الجسد، علاجُه عسير وصاحبه ضَجِر وهو باب غامض، وما ظَهَر منه فلا يُداوَى وما بَطَن منه فَمُداوِيه فى عَناء، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم « دَبّ اليكم داءُ الأمم من قبلكم : الحسـدُ والبغضاء » . الحسد عَقِيـد الكفر، وحليف الباطل، وضدّ الحقّ منه تتولّد العداوةُ وهو سبب كلّ قطيعة ومفرق كل جماعة، وقاطع كل رَحِم من الأقرباء ومُحْدِث التفرّق بين القرناء، وملَقِّح الشرّ بين الخلفاء .

دفاع الجاحظ عن مؤلفـاته :

وقد ذكر الجاحظ جلَّ مؤلَّفاته فى كتاب "الحيوان"(1) ودافع عنها بعد أن وصفها فقال : جنّبك الله الشبهة، وعصَمك من الحَيْرة وجعل بينك وبين المعرفة نَسَبا، وبين الصدق سَبَبا، وحبّب اليك التثبّت، وزيّن فى عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عِزّ الحقّ، وأودع صدرَكَ بَرْدَ اليقين، وطرد عنك ذُلّ الطمع، وعرّفك ما فى الباطل من الذِّلّة، وما فى الجهل من القِلّة، ولَعَمْرى لقد كان غيرُ هذا الدعاء أصوبَ فى أمرك، وأدلّ على مِقدار وَزْنك، وعلى الحال التى وَضَعْت نفسك فيها، ووسمْت عِرْضك بها، ورَضِيتها لدينك حظًّا، ولمُروءتك شكْلا، فقد انتهى الىّ ميلُك على أبى إسحاق، وحَمْلُك علىّ، وطعنُك على مَعْبَـد، وتنقّصُك له فى الذى كان جرى بينهما فى مَساوى الديك ومحاسنه، وفى ذكر منافع الكلب ومَضارّه، والذى خرجا اليه من استقصاء ذلك وجمعه، ومِنْ تَتَبّعه ونظمه، ومن الموازنة بينهما، والحكم فيهما .

ثم عِبْتَنى بكتاب حِيَـل اللصوص، وكتاب غِشّ الصـناعات، وعِبْتَنى بكتاب المُلَح والطُّـرَف، وما حَرّ من النوادر وبَرُد، وعاد باردُها حارًّا بفرط برْدِه، حتّى أمْتَع بأكثر من امتاع الحارّ، وعِبْتنى بكتاب احتجاجات البُخَلاء، ومناقضتهم للسُّمحاء، والقول فى الفَرْق بين

(1) اعتمدنا فى تصحيح هذه الفصول على الأصل الفتوغرافى المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢٨٥ آداب، لأن النسخة المطبوعة من كتاب الحيوان بمطبعة السعادة بمصر فى غاية التحريف وملأى بالأخطاء .

الصدق اذا كان ضارا في العاجل، والكذب اذا كان نافعا في الآجل، ولم جعلنا الصدق أبدا محمودا، والكذب أبدا مذموما، والفرق بين الغَيْرة وإضاعة الحُرْمة، وبين الإفراط في الحَمِيّة والأَنَفَة، وبين التقصير في حفظ حق الحُرْمة، وقلّة الاكتراث بسوء القالة؛ وهل الغَيْرة اكتساب وعادة، وبعض ما يَعرِض من جهة الديانة ولبعض التزيّد فيه والتحسن به، أو يكون ذلك شيئا في طبع الحرية وحقيقة الجوهرية، ما كانت العقول سليمةً، والآفات مَنفِيّة، والأخلاط مُعتدِلة؛ وعبتني بكتاب الصُّرحاء والهُجَناء، ومُفاخرةِ السودان والحُمْران، والموازنةِ بين حق الخُؤُولة والعُمُومة؛ وعبتني بكتاب الزرع والنخل، والزيتون والأعناب، وأقسامِ فضولِ الصناعات، ومراتبِ التجارات؛ وبكتاب فضل ما بين الرجال والنساء، وفَرْقِ ما بين الذكور والإناث، وفي أيّ موضع يَغْلِبنَ ويَفْضُلنَ، وفي أيّ موضع يكنّ المغلوبات والمَفضولات، ونصيبُ أيِّهما في الولد أوفرَ، وفي أيّ موضع يكون حقهنّ أوجبَ، وأيّ عمل هو بهنّ أليقُ، وأيّ صناعة هنّ فيها أبلغُ؛ وعبتني بكتاب القحطانية وكتاب العَدْنانية في الرد على القحطانيّة، وزعمت أني تجاوزتُ فيه حدّ الحَمِيّة، الى حدّ العصبية، وأني لم أصل الى تفضيل العَدْنانيّة إلا بتنقّص القحطانيّة؛ وعبتني بكتاب العرب والمَوَالي، وزعمتَ أني بخَسْت الموالىَ حقوقهم، كما أني أعطيت العرب ما ليس لهم؛ وعبتني بكتاب العرب والعجم، وزعمت أن القول في فَرْق ما بين العرب والعجم هو القولُ في فرق ما بين الموالي والعرب، ونسبتني الى التّكرار والتّرْداد، والى التكثير والجهل بما في المُعاد من الخَطَل، وحمْل الناس المُؤَن؛ وعبتني بكتاب الأصنام، وبذكر اعتلالات الهند لها، وسبب عبادة العرب إيّاها، وكيف اختلفا في جهة المِلّة مع اتفاقهما على جملة الديانة، وكيف صار عُبّاد البِدَدَة[1] والمتمسّكون بعبادة الأوثان المنحوتة، والأصنام المنجورة، أشدّ الناس إلفا لما دانوا به، وشغفا بما تعبّدوا له، وأظهرَهم جِدًّا، وأشدّهم على مَن خالفهم ضِغْنًا، وبما دانوا صبابةً وعُجْبا، وما الفرق بين البُدّ والوثَن، وما الفرق بين الوثن والصنم، وما الفرق

(١) البددة جمع بدّ، وهو بيت فيه الصنم أو الصنم نفسه كما قال ابن دريد .

بين الدُّمْية والجُثّة ، ولم صوّروا فى محاريبهم وبيوت عبـاداتهم صُوَر عظمائهم ورجال دعوتهم ، ولم تأنّقوا فى التصوير ، وتجرّدوا فى إقامة التركيب ، وبالغوا فى التحسين والتفخيم ، وكيف كانت أوّلية تلك العبادات ، وكيف افترقت تلك النِّحَل ، ومن أىّ شىء كانت خُدَعُ تلك السَّدَنة ، وكيف لم يزالوا أكثر الأصناف عددا ، وكيف شمل ذلك المذهبُ الأجناس المختلفــة !

وعبتنى بكتاب المعـادن ، والقول فى جواهر الأرض ، وفى اختلاف أجناس الفلزّ ، والإخبار عن ذائبها وجامدها ، ومخلوقها ومصنوعها ، وكيف يُسْرِع الانقلابُ الى بعضها ويُبْطِىء عن بعضها ، وكيف صار بعض الألوان يَصْبغ ولا ينصبغ ، وبعضها ينصبغ ولا يصبغ ، وبعضها يصبغ وينصبغ ، وما القول فى الإكسير والتلطيف ؛ وعبتنى بكتاب فرق ما بين هاشم وعبد شمس ، وبكتاب فرق ما بين الجنّ والإنس ، وفرق ما بين الملائكة والجنّ ، وكيف القول فى معرفة الهُدْهُد واستطاعة العفريت ، وفى الذى كان عنده علم من الكتاب ، وما ذلك العـلم ، وما تأويل قولهم : كان عنده اسم الله الأعظم ؛ وعبتنى بكتاب الأوفاق والرياضات ، وما القول فى الأرزاق والإنفاقات ، وكيف أسباب التثمير (١) والترقيح وكيف تجتلب التجّارُ الحُرَفاء ، وكيف الاحتيالُ للودائع ، وكيف التَّسَبُّبُ إلى الوصايا ، وما الذى يوجب لهم التعـديل ، ويَصْرِف اليهم بابَ حُسـن الظنّ ، وكيف ذكرنا غشّ الصناعات والتجارات ، وكيف التَّسَبُّب الى تعـرّف ما قد سَتَرُوا ، وكشف ما موّهُوا ، وكيف باب الاحتراس منه والسلامة من أهله ! . وعبتنى برسائلى ، وبكلّ ما كتبتُ به الى إخوانى وخُلَطائى من مَزْح وجِدّ ، ومن إفصاح وتعريض ، ومن تَغَافُل وتوقيف ، ومن هجاء لا يزال وَسْمُهُ باقيـا ، ومديح لا يزال أثَرُه ناميا ، ومن مُلَح ، تُضْحِك ، ومواعظَ تبكى ؛ وعبتنى برسائلى الهاشميّات ، واحتجاجى فيهـا ، واستقصائى معانيها ، وتصويرى لهـا فى أحسن صورة ، وإظهارى لها فى أتمّ حِلْيَة ، وزعمتَ أنّى قد خرجتُ بذلك من حد المُعتزِلة الى حدّ الزَّيْديّة ،

(١) التثمير والترقيح : نموّ المال واصلاحه .

ومن حدّ الاعتدال فى التشيّع والاقتصاد فيه الى حدّ السَّرف والإفراط فيه، وزعمت أن مقالة الزيدية خطبة مقالة الرافضة ، ومقالة الرافضة خطبة مقالة الغالية ، وزعمت أن فى أصل القضيّة ، والذى جرت عليه العادة أنّ كلّ كبير فأوّله صغير ، وأن كلّ كثير فإنما هو قليل جُمع الى قليل، وأنشدتَ قول الراجز :

قد يَلْحَق الصغيرُ بالجليل * وإنما القَرْمُ من الأَفِيل (١)

* وسُحُقُ النَّخلِ من الفَسيل *

وأنشدتَ قول الشاعر :

رُبّ كبيرٍ هاجَه صغيرُ * وفى البحور تَغْرق البُحورُ

وقلتَ وقال يزيد بن الحكم :

وٱعلم بُنَىّ فإنّه * بالعلم يَنْتَفِع العليم

إنّ الأمور دَقيقُها * ممّا يَهِيج له العظيم

وقلت وقال الآخر :

صار جِدّا مامَزَحتُ به * رُبَّ جِدٍّ ساقه اللَّعِبُ

وأنشدت قول الآخر وهو عنترة (٢) :

ما تَنْظرون بحقّ وَرْدةَ فيكمُ * تُقضى الأمور ورَهْط وردة غُيَّبُ

قد يَبْعَثُ الأمرَ الكبيرَ صغيرُه * حتّى تَظَلّ له الدّماء تَصَبَّبُ

وقالت كَبْشَةُ بنت مَعْديكرب :

جَدَعْتُم بِعَبْد الله آنُفَ قَوْمِه * بَنِى مازِنٍ أَنْ سُبّ راعِى المُخَزَّمِ

وقال الآخر :

أيَّةُ نارٍ قَدَح القادحُ * وأىّ جِدٍّ بلغ المازحُ

(١) الأفيل : صغير الإبل .

(٢) والصواب أن البيتين لطرفه وهما من جملة أبيات فى ديوانه .

وتقول العرب : « العَصَى من العُصَيَّة ولا تلد الحيّة إلا حُيَيّة » ؛ وعبت كتابى فى خَلْق القــرآن ، كما عبت كتابى فى الرّد على المُشَــبِّهة ؛ وعبت كتابى فى أصول الفُتْيا والأحكام، كما عِبت كتابى فى الاحتجاج لنظْم القرآن، وغَريب تأليفه، وبديع تركيبه؛وعبت مُعارَضَتِى الزَّيْدِيّة، وتفضيلى الاعتزالَ على كلّ نِحْلة، كما عبت كتابى فى الوعد والوعيد، وكتابى على النصارى واليهود؛ ثم عبت جُمْلة كتبى فى المعرفة، والتمست تهجينها بكلّ حِيلة، وصغّرت من شأنها، وحطَطْت من قدرها، واعترضت على ناسخيها والمنتفعين بها .

وعبت كتاب الجوابات وكتاب الرسائل،وكتاب الردّ على أصحاب الإلهام،وكتاب الحُجّة فى تثبيت نُبُوّة النبىّ صــلى الله عليه وســلم ، وكتاب الأخبــار ؛ ثم عبت كتابى إنكارى بَصيرةَ غَنّامٍ المُرتدّ، وبصيرة كلّ جاحد ومُلْحِد، وتفريق بين اعترام الغُمْر(١) وبين استبصار المُحِقّ؛ وعبت كتاب الرد على الجَهْمِيّة فى الإدراك، وفى قولهم فى الجهالات، وكتاب الفرق ما بين النبىّ والمُتَنَبّى،والفرق بين الحيل والمَخاريق،وبين الحقائق الظاهرة والأعلام القاهرة؛ ثم قصدت الى كتابى هــذا بالتصغير لقدره، والتهجين لنَظْمــه ، والاعتراض على لفظه ، والتحقير لمعانيه،فزَرَيْت على نحتــه وسبكه، كما زَرَيْت على معناه ولفظه، ثم طعنت فى الغرض الذى اليه نَزَعنا، والغايةِ التى اليها أجرينا(٢)، وهنا كتاب معناه أنبه من اسمه،وحقيقته آنَقُ من لفظه، هو كتاب يحتاج اليه المتوسِّط العامىّ، كما يحتاج اليه العالم الخاصىّ، ويحتاج اليــه الرِّيِّض، كما يحتاج اليه الحاذق .

أما الرِّيِّض فللتعلّم والدُّرْبة، وللترتيب والرياضــة، وللتمرين وتمكين العادة ، اذ كان جليله يتقدّم دقيقه،واذ كانت مُقَدّماته مُرَتّبة،وطبقات معانيه مُنَزَّلة؛ وأما الحاذق فلكفاية المُؤونة ، ولأنّ كلّ مَن التقط كتابا جامعا، وبابا من أمهات العلم مجموعا كان له غُنْمُه،وعلى مُؤلِّفه غُرْمُه، وكان له نفعه، وعلى صاحِبه كَدّه، مع تَعَرُّضِــه لمطاعن البُغاة ، ولاعتراض

(١) الغمر مثلثة الغين : من لم يجرب الأمور، والجاهل الأبله .

(٢) أجرينا : قصدنا .

المنافسين، ومع عَرْضه عقلَه المكدودَ على العقول الفارغة، ومَعانيَه على الجَهابذة، وتحكيمه فيه المتأوّلين والحَسَدة، ومتى ظفر بمثله صاحب علم، أو هجم عليه طالب فِقْه، وهو وادع رافه، ونشيط جام، ومُؤلّفه مُتْعب مكدود، فقد كُفِيَ مؤونة جمعه، وخزنه وتتبعه، وطلبه، وأغناه ذلك عن طُول التفكير، واستنفاد العمر، وفَلّ الحَدّ، وأدرك أقصى حاجته، وهو مُجْتَمع القوّة، وعلى أنّ له عند ذلك أن يجعل هُجُومَه عليه ضربا من التوفيق، وظفَره به بابا من التسديد .

(وهذا كتاب) تستوى فيه رَغْبة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربيا أعرابيا، وإسلاميا جماعيّا، فقد أخذ من طُرَف الفلسفة، وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنّة، وبين وِجدان الحاسة وإحساس الغريزة، ويشتهيه الفِتيان كما يشتهيه الشيوخ، ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعب ذو اللهو كما يشتهيه الجِدّيّ ذو الحزم، ويشتهيه الغُفْل كما يشتهيه الاديب، ويشتهيه الغبيّ كما يشتهيه الفَطِن ؛ وعبتنى بحكاية قول العثمانية والضِّراريّة وأنت تسمعنى أقول فى أول كتابى: وقالت العثمانية والضِّراريّة، وكما سمعتنى أقول : وقالت الرافضة والزَّيْديّة، فحكمت على بالنّصْب لحكايتى قول العثمانية، فهلّا حكمت على بالتشيّع لحكايتى قول الرافضة، وهلّا كنتُ عندك من الغالية لحكايتى حُجَج الغالية، كما كنتُ عندك من الناصبة لحكايتى قول الناصبة ، وقد حكينا فى كتابنا قول الإباضيّة والصُّفْرِيّة ، كما حكينا أقاويل الأزارقة والنجديّة ، وعلى هذه الأركان الأربعة بُنِيت الخارجيّة ، وكل ٱسم سواها فإنما هو فرع ونتيجة وٱشتقاق منها ، ومحمول عليها ، فهلّا كنّا عندك من المحكّمة الخارجة ، كما صرنا عندك من الضِّراريّة، والناصبة! وكيف رضيت بأن تكون الشيعة الى أعراض الناس أسرع من المارقة! اللهم إلّا أن تكون وجدت حكايتى عن العثمانية والضِّراريّة أشبع وأجمع، وأتمّ وأحكم وأجود صَنْعَةً، وأبعد غايةً، ورأيتنى قد وَهّنْتُ حقّ أوليائك بقدر ما قوّيتُ باطل أعدائك ، ولو كان ذلك كذلك لكان شاهدُك من الكتاب حاضرا، وبرهانُك على ما آدّعيتَ واضحا .

وعبتني بكتّاب العبّاسيّة فهلّا عبتني بحكاية مقالة من ادّعى وجوب الإمامة ، ومن يرى الامتناع من طاعة الأئمــة الذين زعموا أن ترك الناس سُدًى بلا قيّم أردّ عليهم ، وهَمَلا بلا راعٍ أربح لهم ، وأجدر أن يجمع لهم ذلك بين سلامة العاجل ، وغنيمة الآجل ، وأنّ تركهم نَشَرا لا نظام لهم أبعد لهم من المفاسد ، وأجمع لهم على المراشد ! بل ليس ذلك بك ، ولكنّه لمـا بهرك ما سمعت ، وملأ صـدرك الذى قرأت ، وأبعلك وأبطرك فلم تتجه للحُجّة وهى لك مُعترضــة ، ولم تعرف المَقاتل وهى لك بادية ، ولم تعرف باب المَخْرج إذ جهلتَ باب المَدْخل ، ولم تعرف المصادر اذ جهلت الموارد ، ورأيت أن سَبّ الأوليـاء أشفَى لدائك ، وأبلغَ فى شفاء سُقْمك ، ورأيت أنّ إرسال اللسان أحضرُ لذّة ، وأبعــدُ من النَّصَب ، ومن إطالة الفِكْرة ، ومن الاختلاف الى أرباب هــذه الصناعة ، ولو كنتَ حين فطَنت لعجزك وصَلْت نقصك بتمــام غيرك ، وآستكفيت من هو موقوف على كفاية مثلك ، وحبيسٌ على تقويم أشباهك ، كان ذلك أزينَ فى العــاجل ، وأحقّ بالمثـُـوبة فى الآجل ، وكنتَ إن أخطأتك الغنيمة لم تُخْطِئك الســلامة ، ولقد سلِم عليك المخالف ، بقــدر ما آبْتُلِى به منك الموافق ؛ وعلى أنه لم يُبْتل منك إلّا بقدر ما ألزمته من مؤونة تثقيفك ، والتشاغل بتقويمك ؛ وهل كنت فى ذلك إلّا كما قال العربى : * وهل يضرّ السحابَ نبح الكلاب * ؟ وإلّا كما قال الشاعر :

هل يضرّ البحــرَ أمسَى زاخرا * أنْ رَمَى فيــه غلامٌ بحجر

وهل حالنا فى ذلك إلّا كما قال الأوّل :

ما ضر تَغْلِبَ وائلٍ أَهَجَــوْتَها * أمْ بُلْتَ حيث تَناطَحَ البحْرانِ

وقال حسان :

ما أُبالى أَنَبّ بالحــزن تَيْسٌ * أم لحَانى بظهــرِ غَيْبٍ لئيمُ

وما أشك أنّك قد جعلت طول إعراضنا عنك مطيّة لك ، ووجّهتَ حِلْمنا عنك الى الخوف منــك ، وقد قال زُفَر بن الحارث لبعض مَن لم يرحقّ الصفح بجعــل العفو سببا الى سوء القول :

فإنْ عُدْتَ والله الذى فوقَ عرشه * مَنَحْتُكَ مَسْنُونَ الغِرَارَين أزرقا
فإنّ دواءَ الجهل أن تُضْرَبَ الطُّلَى(١) * وأن يُغْمَسَ العِرِّيضُ(٢) حتى يُغَرَّقا

وقال الأوّل :

وما نَهى عنك قوما أنت خائفُهُمْ * كمثلِ وقْمِكَ جُهّالاً بجهّالِ
فاقعس إذا حدِبوا واحْدَبْ إذا قعسوا * ووازِنِ الشرَّ مِثقالاً بمثقالِ

وقال الآخر :

وضغائنٍ داويتها بضغائنٍ * حتّى يَمُتْنَ وبالحُقُودِ حُقُودا

وإنّى وإن لم يكن عندى سِنانُ زُفَرَ بن الحارث، ولا مُعارضةُ هؤلاء : الشرّ بالشرّ، والجهلَ بالجهل، والحِقْدَ بالحقد، فإن عندى ما قال المسعوديّ :

فَمَسَّا ترابَ الأرض منها خُلِقْتُما * وفيها المَعادُ والمَصيرِ الى الحشْرِ
ولا تَعْجَبَا أنْ تَرْجِعا فتُسَلِّما * فما حُشِى الأقوامُ شرّا من الكِبْرِ
فلو شِئْتُ أَدْلى فيكما غيرُ واحدٍ * علانيةً أو قال عِنْدِىَ فى سِتْرِ
فإنْ أنَا لمْ آمر ولم أَنْهَ عنكُما * ضَحِكْتُ(٣) له حتّى يَلِجّ ويَسْتَشْرِى

وقال النَّمِرُ بن تَوْلَبْ :

جزَى الله عنّى حَمْزَةَ بنةَ نَوْفلٍ * جزاءَ مُغِلٍّ بالأمانة كاذبِ
بما خبّرت عنّى الوُشاةَ لِيكذبوا * علىّ وقد أوليتُها فى النوائبِ

يقول : أخرجت خبرى الى من يشتهى أن أُعاب عندها .

ولو شئنا لعارضناك من القول بما هو أقبح أثرا، وأبقَى وسْما، وأصدق قيلا، وأعدل شاهدا، وليس كل من ترك المعارضة فقد صفح، كما أنّه ليس كل مَن عارض فقد انتصر،

---

(١) الطلى : الأعناق .

(٢) العريض : الذى يتعرّض للناس بالشر .

(٣) كذا فى الأصل، وفى اللسان فى مادة لجج : تضاحكت حتى يلج ويستشرى .

وقد قال الشاعر قولاً إنْ فهمته كفيْتنا مؤونة المعارضة ، وكفيت نفسك لزوم العار ، وهو قوله :

إنْ كُنتَ لا ترْهَبُ ذمّى لِما * تَعرِف من صفْحِى عن الجاهلِ
فاخْشَ سكوتى آذِنًا مُنصِتًا * فيكَ لمسْموعِ خَنا القائلِ
فالسامعُ الذمَّ شريكٌ له * كالمُطعِم المأكولَ للآكلِ
مَقالةُ السوء الى أهلها * أسرعُ من مُنحدِرٍ سائلِ
ومَن دعَى الناسَ الى ذَمّه * ذمّوه بالحقّ وبالباطلِ
فلا تهِجْ إنْ كنتَ ذا إرْبةٍ * حَرْبَ أخى التَّجْرِبة العاقلِ
فإنّ ذا العقلِ إذا هِجْتَه * هِجْتَ به ذا خَبَلٍ خابلِ
تُبْصِر فى عاجلِ شَدّاته * عليكَ غِبَّ الضررِ الآجلِ

وقد يقال : إنّ العفوَ يُفسدُ من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم ؛ وقد قال الشاعر :

والعفوُ عند لَبيب القومِ مَوْعِظةٌ * وبعضُه لسَفيه القومِ تَدْريبُ

فإن كنّا قد أسأنا فى هذا التقريع والتوقيف ، فالذى لم يأْخذ فينا بحُكْم القرآن ، ولا بأدب الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم يفزع الى ما فى الفِطَن الصحيحة ، أو الى ما توجبُه المقاييسُ المُطّرِدة ، والأمثال المضروبةُ ، والأشعارُ السائرة ، أوْلَى بالإساءة ، وأحقّ باللائمة ، قال الله جَلّ ثناؤه : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ وقد قال النبىّ عليه الصلاة والسلام : "لا تجْنِ يَمينُك على شِمالك" وهذا حُكْمُ الله جَلّ وعزّ ، وآدابُ رسوله ، والذى أُنزِل به الكتاب ، ودُلّ عليه فى حُجَج العقول .

أخْذ البرىء بذنب المذنب

ثم قال فى أخذ البرىء بذَنْب المذنب : فأمّا ما قالوا فى المثل المضروب ، "رمَتْنِى بدائها وانْسَلّت" . وأمّا قولُ الشعراء وذمُّ الخطباء لمن أخذ إنسانا بذَنْب غيره ، وما ضربوا فى ذلك من الأمثال ، كقول النابغة حيث يقول فى شعره :

وكَلَّفْتَنِى ذنبَ امرِئٍ وتركتَه * كذِى العُرِّ يُكْوَى غيرُه وهو راتِعُ

وكانوا إذا أصاب إبلَهم العُرّ كووْا السليم ليذهب العُرّ عن السقيم فأسقموا الصحيحَ من غير أن يُبْرِئوا السقيم، وكانوا إذا كثُرتْ إبلُ أحدهم فبلغت الألفَ فقئوا عينَ الفحل، فإن زادت الإبلُ على الألف فقئوا عينه الأخرى، فذلك المُفقّأ والمُعمّى اللـذان سمعتَ بهما قال الفرزدق :

غلبتُـك بالمفقّأ والمعمّى (١) * وبيتِ المحتبِي (٢) والخافقاتِ

وكانوا يزعمون أن المفقّأ يَطْرُد عنها العينَ والسُّواف (٣) والغارة فقال الأوّل :

فَقَأْتُ لها عَينَ الفَحيل تَعيُّفًا * وفيهنّ رَعْلاءُ المسامعِ والحَامِ

الرَّعْلاءُ : التى تُشَقّ أُذنها وتترك مُدَلّاةً لكرمها .

وكانوا يقولون فى موضع الكفّارة والأُمنيّة، كقول الرجل إذا بلغتْ إبلى كذا وكذا، وكذلك غَنمى ذبحتُ عند الأوثان كذا وكذا عَتيرةً، والعَتيرةُ : من نُسك الرَّجَبيَّة، والجمع عتائر، والعتائر من الشاء، فإذا بلغت إبلُ أحدهم أو غنمُه ذلك العدد استعمل التأويلَ وقال : إنما قلتُ : إنّى أذبح كذا وكذا شاةً، والظباء: شاء، كما أنّ الغنمَ شاءٌ، فجعل ذلك القُرْبان كلّه ممـا يَصيد من الظباء، فلذلك يقول الحارث بن حِلّزة اليشكُرىّ :

عَنَتًا باطلا شَذُوخًا (٤) كما تُعْـ * ـتَرُ عن حُجرة الرَّبيض الظباءُ

بعد أن قال :

أم علينا جُناحُ كِندةَ أن يَغْـ * ـنم غازيهـم ومنّا الجـزاءُ

وكانوا إذا أوردوا البقرَ فلم تشرب، إمّا لكدَرِ المـاء وإما لقلّة العطش، ضربوا الثَّوْرَ ليقتحم المـاءَ لأنّ البقَر تتبعه كما تتبع الشَّوْلُ الفحلَ، وكما تتبع أُتُنُ الوحش الحِمـارَ، فقال فى ذلك عوف بن الخرِع :

تمنّتْ طيِّءٌ جهـلا وجُبنا * وقـد خاليتُهم فأبوْا خلائى

هَجَوْنى أن هجوتُ جبالَ سَلْمَى * كضربِ الثَّـوْرِ للبقـرِ الظِّماءِ

(١) فى اللسان مادة « فقأ » « المعنى » . (٢) كذا فى الأصـل وفى اللسان « المحتبى » بالحاء المهملة . (٣) السواف : مرض الابل . (٤) كذا فى الأصل وفى اللسان مادة عتر «وظلما» .

وقال فى ذلك أنس بن مُدْرِكة فى قتله سُليكَ بن السُّلَكَة :

إنّى وقتـلى سُـليكا ثم أعقله * كالثّور يُضرَبُ لمـا عافتِ البقرُ[1]

أنِفت للمـرءِ إذ تُغشَى حليلته[2] * وإذ يُشـدُّ على وجْعائها الثُّفَرُ[3]

وقال الهيَّبان الفهمىّ :

كما ضُرِبَ اليعسوبُ أنْ عاف باقرٌ * وما ذنبـه أن عافت المـاءَ باقرُ

ولمـا كانَ الثـوْر أمير البقر، وهى تطيعه كطاعة إناث النحل لليعسوب سماه بٱسم أمير النحـــل .

وكانوا يزعمون أن الجنّ هى التى تصدّ الثيرانَ عن المـاء حتى تُمْسك البقرُ عن الشرب حتّى تَهْلك ؛ وقال فى ذلك الأعشى :

وإنّى وإن كلفتمونى وربّكم * لأعلمُ مَن أمسَى أحقّ وأحوَبا

لكالثّور والجنىُّ يضرِبُ ظهرَه * وما ذنبه أنْ عافت المـاء مَشْربا

وما ذنبُه أن عافت المـاءَ باقرٌ * وما إن تعافُ المـاء إلّا لِتُضرَبا

كأنه قال : إذ كان يُضرَبُ أبدا لأنها عافت المـاء، فكأنها إنّما عافت المـاءَ ليضربَ؛

وقال يحيى بن منصور الذّهْلىّ فى ذلك :

لكالثور والجنىُّ يضرب وجهَهُ * وما ذنبُه إن كانت الجنُّ ظالمهْ

وقال نهشل بن حَرِّىّ :

أَتُتْرَكُ عارضٌ وبنـو عدىّ * وتَغْـرَمُ دارمٌ وهُمُ بُراءُ

كدأب الثور يُضربُ بالهَراوى * إذا ما عافت البقـرُ الظِّماءُ

وكيف تكلِّفُ الشّعرَى سُهَيْلا * وبينهما الكواكبُ والسماءُ

---

(١) فى اللسان : « غضبت » . (٢) فى الأصـل "وإن" والتصويب عن اللسان .

(٣) الثفر : السير الذى فى مؤخر السرج .

وقال أبو نُوَيْرة بن حُصَيْن حين أخذه الحَكَمُ بنُ أيّوبَ بذنْب العطّرق :

أبا يوسف لو كنتَ تعلم طاعتى * ونُصحى إذا مابعتَنى بالمُحلَّق

ولا ساق سرّاق العِرافة صالحٌ * بَنِىَّ ولا كُلِّفتُ ذنبَ العَطَرّق

وقال خَدَاش بن زُهَير حين أُخذ بدماء بنى مُحَارب :

أُكَلَّف قَتْلَى معشرٍ لستُ منهمُ * ولا دارهم دارى ولانصرهمْ نَصْرى

أُكلَّفُ قَتْلَ العِيص عِيص شُواحِطٍ * وذلك أمرٌ لم تُثَقَّفْ له قِدْرى

وقال الآخر :

اذا عَرَكتْ عِجلٌ بنا ذنبَ طَيِّءٍ * عرِكْنا بتَيْم اللاتِ ذنبَ بنى عِجْلِ

ولما وجد اليهوديُّ أخا حِنْبِص الضِّبابيّ فى منزله فخصاه فمات، وأخذ حِنْبِص بنى عبس بجناية اليهودىّ قال قيس بن زهير : أتأخذُنا بذنْب غيرنا، وتسألنا العَقْل، والقاتلُ يهوديٌّ من أهل تَيْماء؟ قال : والله لو قتلَهُ هَيْفُ الريح لودَيْتموه، فقال قيس لبنى عبس : الموتُ فى بنى ذُبيان خيرٌ لكم من الحياة فى بنى عامر، ثم أنشأ يقول :

أُكلَّف ذا الخُصْيَيْن إنْ كان ظالمًا * و إن كنتُ مظلوما و إن كنتُ شاطنًا

خَصاه آمْرُؤ من أهل تَيْماء طابنٌ * ولا يَعْدَم الإنسىُّ والجنُّ طابنا

فهلّا بنى ذُبيان أُمُّك هابلٌ * رَهَنْتَ بهَيْف الريح إنْ كنتَ راهنا

اذا قلتُ قد أفلتُّ من شرّ حِنْبِص * أتانى بأخرى شرُّه مُتَباطنا

فقد جَعلتْ أكبادُنا تَجْتَويكم * كما تَجْتَوِى سُوقُ العضاه الكَرازنا

ولمّا قَتَل لقمان بن عاد آبنته وهى صُحْرُ بنت لقمان قال حين قتلها : ألستِ آمرأة ؟ وذلك أنّه تزوّج عِدّة نساء وكلُّهنّ خُنَّهُ فى أنفسهنّ، فلمّا قَتَل أُخراهنّ ونزل من الجبل كان أوّلَ من تلقاه صُحْر ابنته، فوثب عليها فقتلها، وقال وأنتِ أيضا آمرأة، وكان قد ابتُلى أيضا بأنّ أخته كانت مُحمَّقة، وكذلك كان زوجها، فقالت لإحدى نساء لقمان : هذه ليلةُ طُهْرى

وهى ليلتك، فدعينى أنم فى مضجعك، فإن لقمانَ رجلٌ مُنجِبٌ، فعسى أن يقع علىَّ فأُنجِب، فوقع على أخته فحملت بلُقَيم وفى ذلك قول النمِر بن تَوْلَب :

لقيمُ بنُ لقمانَ من أختــهِ * فكان ٱبنَ أختٍ له وابنَمَا
ليالىَ حُمِّقَ فاستحصَنتْ * عليــه فغُــرَّ بها مُظْلِما
فأحبلها رجلٌ محــكَمٌ[1] * فجاءت به رجلا مُحْــكِما

فضربت العربُ فى ذلك المثلَ بقتل لقمانَ بنتَه صُحْرا فقال خُفَاف بن نَدْبة فى ذلك :

وعبّاسٌ يُدبّ لى المنــايا * وما أذنبتُ إلا ذنبَ صُحْرِ

وقال فى ذلك ٱبن أُذَيْنَة :

أتجمــعُ تَهْيــاما بليــلَى اذا نأتْ * وهِجْرانها ظُلْمًا كما ظُلِمتْ صُحْرُ

وقال الحارث بن عُبَاد :

قَــرِّبا مَرْبَطَ النعــامةِ منِّى * لقحتْ حَرْبُ وائلٍ عن حِيالِ
لم أكن من جُنَاتِها علم اللـ * ـه وإنى بحَرِّها اليــومَ صالى

وقال الشاعر وأظنّه ٱبن المقفّع :

فلا تلمِ المــرءَ فى شأنهِ * فربّ ملومٍ ولم يُذْنبِ

وقال آخر :

لعلّ له عذرا وأنتَ تلومُ * وكم لائم قد لام وهو مُليمُ

وقال بعض العرب فى قتل بعض الملوك سِنِمّار الرومىّ : فإنّه لمــا علا الخورنَق، ورأى بُنْيانا لم يرمثلَه، ورأى ذلك المستشرَف، وخاف إنْ هو ٱستبقاه أن يموت فيبنىَ مثل ذلك البُنْيانِ لملك آخر، فأمر به فرُمِىَ من فوق القصر، فقال فى ذلك الكابى فى شئ كان بينه وبين بعض الملوك :

(١) وروى : تائه .

جزانى جزاه الله شرَّ جزائه * جزاءَ سِنِمَّار وما كان ذا ذنبِ
سِوَى رَصِّه البُنْيانَ سبعينَ حِجَّةً * يُعَلِّى عليه بالقراميدِ والسَّكْبِ
فلما رأى البُنْيانَ تمَّ سُحُوقُه * وآض كمِثْل الطود ذى الباذخ الصعْبِ
فَظَنَّ سِنِمَّارٌ به كُلَّ حَبْوةٍ * وفاز لديه بالمَوَدَّة والقُربِ
فقال اقذفوا بالعِلْج من رأس شاهقٍ * فذاك لعَمْرُ الله من أعظم الخَطْبِ

وجاء المسلمون يَرْوِى خَلَفٌ عن سلَف، وتابعٌ عن سابق، وآخرُ عن أول، أنهم لم يختلفوا فى عيب قول الحجّاج : لآخُذنّ، السمِىَّ بالسمىِّ والولىَّ بالولى، والجارَ بالجار، ولم يختلفوا عن لعن شاعرهم حيث يقول :

اذا أُخِذَ البرىء بغير جُرْمٍ * تجنَّب ما يُحاذره السقيمُ

قال : وقيل لعمرو بن عُبَيد إنّ فلانا لما قدّم رجُلا ليضرب عُنُقَه فقيل له : إنّه مجنون، قال : لولا أنّ المجنون يلِد عاقلا لخلَّيتُ سبيله، قال فقال عمرو : وما خلق الله النار إلّا بالحقّ .

ولما قالت التَّغْلِبيّة للجحّاف بن حكيم فى وقعة البِشر: فَضَّ الله عِمادكَ، وأطال سُهادك، وأقلّ رمادَك، فوالله إن قتلت إلّا نساء أسافلهن دُمىً، وأعاليهن ثدَى، فقال لمن حوله : لولا أن تلِد هذه مثلَها لخلّيت سبيلَها، فبلَغ ذلك الحسنَ فقال : إنّ الجحّاف جُذْوة من نار جهنم .
قال وذَم رجلٌ عند الأحْنَف بن قيس الكَمْأَةَ بالسِّمَن، فقال عند ذلك الأحنف : رُبَّ مَلوم لا ذنب له ؛ فبهذه السيرة سرتَ فينا ؛ وما أحسن ما قال سعيد بن عبد الرحمن ابن حسّان :

وإنّ امرأً يمسى ويصبح سالما * من الناس إلّا ما جَنَى لَسَعيدُ

وقلتَ : وما بالُ أهل العلم والنظر، وأصحاب الفكر والعِبَر، وأرباب النِّحَل، والعلماء بمخارج المِلَل، وورثة الأنبياء، وأعوان الخُلفاء، يكتبون كتب الظُّرفاء والمُلَحاء، وكُتُبَ الفُرّاغ والخُلعاء، وكُتُبَ الملاهى والفُكاهات، وكتُبَ أصحاب الخصومات والمِراء، وكُتُبَ

أصحاب العصبيّة، وحَمِيّة الجاهليّة، حتّى كأنهم لا يحاسبون أنفسهم، ولا يُوازنون بين ما عليهـم ولهم، ولا يخافون تصفُّح العلماء، ولا لائمة الأدباء وشَـنَف الأكفاء، ومَسَاءَة الجُلساء؛ فهـلّا أمسكتَ رحمـك الله عن عينا، والطعن عليها، وعن المَشُورة والموْعظة، وعن تخويف ما فيه سوء العاقبة الى أن تبلغ حال العلماء، ومراتب الأكفاء .

أقســام البيان

وبعد أن تكلم فى تقسيم العالَم الى ثلاثة أقسام، وذكر أقسام الحيوان ، قال فى أقسام البيان :

ووجَدْنا الحكمة على ضربين : شيءٌ جُعِـلَ حكمةً وهو لا يعقِـل الحِكْمةَ ولا عاقبـةَ الحِكمة ، وشيءٌ جُعلَ حكمةً وهو يعقِل الحكمةَ وعاقبةَ الحكمة ، فاستوى بَدَن الشيء العاقل وغير العاقل فى جهة الدِّلالة على أنّه حِكمة، وآختلفا من جهة أنّ أحدَهما دليلٌ لا يَسْتدِلُّ، والآخَر دليلٌ يَسْتدِلّ، فكلُّ مُسْتدِلٍّ دليلٌ، وليس كلُّ دليل مستَدِلّا، فشارك كلّ الحيوان سوَى الإنسان جميعَ الجمـاد فى الدِّلالة وفى عدم الاسـتدلال ، واجتمع للانسان بأن كان دليلا مُستَدِلًّا ، ثم جُعلَ للستَدِلِّ سبَبٌ يَدُلُّ به على وجوه آسـتدلاله ، ووجوهِ ما نتج له الاستدلالُ، وسَمَّوْا ذلك بيـانا؛ وجعل ذلك البيان على أربعة أقسام : لفظٍ وخطّ وعقْد وإشارة، وجُعل بيان الدليل الذى لايَستدِلّ تمكينَه المُستدِلّ من نفسه واقتياده كلّ مَن فكّر فيــه الى معرفة ما استُخْزِن من البرهان، وحُشِى من الدلالة، وأودع من عجيب الحكمـة؛ فالأجسامُ الخُرُس الصامتةُ ناطقة من جهة الدلالة ، ومُعرِبةٌ من جهة صحة الشهادة ، على أنّ الذى فيها من التدبير والحكمة تلوحان لمن آستخبرهما ، وينطقان لمن آستنطقهما كما يخبِر الهُزال وكمود اللون عن سـوء الحال، وكما ينطق السِّمَنُ والنَّضْرةَ عن حسنِ الحال، وقـد قال الشاعر :

فعاجوا فأثنَوْا بالذى أنت أهلُه * ولوسكتوا أثنت عليك الحقائبُ

وقال آخر :

متَى تكُ فى عدوٍّ أو صديقٍ * تخبِّرْك العيونُ عن القلوبِ

وقد قال العُكْلِيّ فى صدق شمه الذئب، وفى شدة حسه وآستروا حه :

يستخبر الريحُ اذا لَم يَسْمع * بمثل مِقراع الصفا الموَقّع

وقال عنترة وهو يصف نعيبَ غرابَ :

حَرِق الجَناح كأن لَحْيَىْ رأسِهِ * جَلَمان بالأخبـار هَشٌّ مُولَعُ

وقال الفضل بن عيسى بن أبَان فى قَصصه : سل الأرض فقلْ : مَن شقّ أنهارَكِ، وغَرَس أشجارَكِ، وجَنَى ثِمـارك؛ فإن لم تجبْك حِوارا، أجابتْك اعتبارا، فموضوع الجسم ونِصْبتُه دليلٌ على ما فيه، وداعيةٌ اليـه ومَنْبَهة عليه، فالجماد الأبكم الأخرس من هذا الوجه قد شارك فى البيان الإنسانَ الحيَّ الناطقَ؛ فمن جعل أقسامَ البيان خمسةً فقد ذهب أيضا مذهبا له جوازٌ فى اللغـة، وشاهدٌ فى العقـل، فهذا أحدُ قِسمَى الحكمـة، وأحدُ معنيَيَ ما آستخزنها الله تعالى من الوديعة .

القسمة الأُخرى ما أُودع صدورَ صُنوف سائر الحيوان من ضروب المعارف، وفطَرها على غريب الهِـدايات، وسخّر حناجرَها له بضرب النغم الموزونة، والأصوات الملحّنة، والمخارج الشجيّة، والأغانى المُطْرِبة، فقد يقال : إن جميعَ أصواتِهـا معدَّلة، وموزونة موقَّعة، ثم الذى سهّل لها من الرفق العجيب فى الصنعة مما ذلله الله تعالى لمناقيرها وأكُفِّها، وكيف فتح لهـا من باب المعرفة على قدر ماهيّأ لها من الآلة، وكيف أعطى كثيرا منها من الحِسّ اللطيفَ، والصنعة البديعة عن غير تأديب وتثقيف، وعن غير تقويم وتلقين، وعن غير تدريج وتمرين، فبلغت بعفوها ومقدارِ قُوَى فِطْرتها من البديه والآرتجال، ومن الآبتـداء والآقتضاب، ما لا يقدِر عليه حُذّاقُ رجال الرأى، وفلاسـفةُ علماء البشر بيـد ولا آلة، بل لا يبلغ ذلك من الناس أكملُهـم خِصالا، وأتمُّهم خِلالا، من جهة الارتجال والاقتضاب ولا من جهة التعسف والآقتـدار، ولا من جهة التقديم فيه، والتأتى له، والترتيب لُمقَـدّماته، وتمكين الأسباب المُعِينة عليه فصار جهد الإنسان الثاقب الحِسّ، الجامع القُوَى، المُتصرّف فى الوجوه المتقدم فى الأمور يعجَز عن عفو كثير منها، وينظر اذ نظر

الى ضروب ما يجيء منهـا كما أُعطِيَت العنكبوت ، وكما أُعطِيَت السُّرْفَةُ ، وكما عُلِّمَ النحلُ ، بل عرَّف التَّنَوِّطُ من بديع المعرفة ، ومن غريب الصنعة فى غير ذلك من أصناف الخَلْق ثم لم يوجدهم العجْزَ فى أنفسهم فى أكثر ذلك إلا عما قوى عليـه الهَمَجَ والخَشَاش وصِغارَ الحشرات ، ثُمَّ جعل الإنسانَ ذا العقلِ والتمكين، والاستطاعة والتصريف، وذا التكلف والتجرِبة ، وذا التأتى والمُنافسة، وصاحبَ الادخار والمتفقد لشأن العاقبة متى أحسن شيئا كان كلُّ شيء دونه فى الغموض عليه أسهلَ، وجَعَل سائر الحيوان و إن كان يُحسِن أحدُها ما لا يُحسن أحذقُ الناس متى أحسن شيئا عجيبا لم يمكنه أن يُحسن ماهو أقربُ منـه فى الظنّ ، وأسهلُ منه فى الرأى، بل لايحسن ما هو أقرب منه فى الحقيقة ؛ فلا الإنسان جَعلَ نفسَه كذلك ، ولا شيءٌ من الحيوان آختار ذلك ، فأحْسَنَت هذه الأجناس بلا تعلُّم ما يمتنع على الإنسان، و إن تعلم فصار لا يحاوله اذ كان لا يطمَع فيه، ولا يحسُدها اذ كان لا يَأملُ اللَّحاق بها، ثم جعل تعالى وعزّ هاتين الحِكمتين إزاءَ عيون الناظرين، وتُجاه أسماع المعتبرين، ثم حثّ على التفكير والاعتبار، وعلى الاتعاظ والازدجار، وعلى التعرّف والتبيّن، وعلى التوقّف والتذكّر، فجعلها مُذكِّرةً منبّهةً، وجعلَ الفطر تنشيء الخواطر، وتجول بأهلها فى المذاهب، ذلك ربّ العالمين، سبحان الله ربِّ العالمين .

وهـذا كتاب موعظة وتعريف ، وتفقُّهٍ وتنبيه، وأراك قد عِبْتَـه قبل أن تقِف على حدوده ، وتتفكرَ فى فصوله ، وتتذكّرَ آخرَه بأوّله ، ومصادرَه بموارده، وقـد غلَّطك فيـه بعضُ ما رأيتَ فى أثنائه من مزحٍ لم تعرف معانيـه ، ومن بَطالةٍ لم تدرك غَوْرها، ولم تدرِ لِمَ آجتُلِبتْ ولأىّ علة تُكلِّفَتْ، وأىّ معنًى أريغ بهـا ، ولأى جِدٍّ آحتُمِلَ ذلك الهَزْلُ ، ولأيّةِ رياضة تُجشِّمَتْ تلك البَطالةُ، ولم تدر أن المُزاح جِد اذا آجتُلِبَ لأن يكون علّةً للجِد، وأن البَطالةَ وقارٌ و زمانةٌ اذا تُكلِّفَتْ لتلك العاقبة ، ولمـّا قال الخليل بن أحمد : لا يصل أحدٌ من علم النحو الى ما يحتاج اليه حتى يتعلّمَ ما لا يحتاج اليـه ؛ قال أبو شِمْر : اذا كان لايصل الى ما يحتاج اليه إلا بما لا يحتاج اليه فقد صار ما لا يحتاج اليه يَحتاج اليه ؛ وذلك

مثل كتابنا هذا، لأنّا إن حملنا جميع مَن يتكلّف قراءة هذا الكتاب على مُرِّ الحقّ، وصُعوبةِ الجِد، وثِقَل المؤونة وحقيقـة الوقار، لم يصبر عليـه مع طوله إلّا من قد تجرّد للعلم وفهِمَ معناه، وذاق من ثمرته، وآستشعر من عزّه، ونال من سروره على حسَب مايورث الطول من الكدّ، والكثرةُ من السآمة، وما أكثر مَن يُقاد الى حظّه بالسواجير، وبالسَّوْق العنيف، وبالإخافة الشديدة.

مدح الكتب

ثم ذكر فقرات حِساناً فى مدح الكتب فقال :

ثم لم أَرك رضيتَ بالطعن على كلّ كتاب لى بعينه، حتى تجاوزت ذلك، الى أن عِبْتَ وضـع الكتب كيفما دارت بهـا الحال، وكيف تصرّفت بهـا الوجوه؛ وقد كنت أعجب من عيبـك البعضَ بلا عِلم، حتى عِبت الكلّ بلا علم؛ ثم تجاوزتَ ذلك الى التشنيع، ثم تجاوزت التشنيع الى نُصْب الحـرب، فعبت الكتاب ونعم الذخرُ والعُـدة، ونعم الجليس والعُمدة، ونعم النُّشْوة والنزهة، ونعم المشـتغَل والحِرْفة، ونعم الأنيسُ ساعة الوَحْدة، ونعم المعـرفةُ ببلاد الغُرْبة، ونعم القرين والدخيلُ، ونعم الوزير والنزيلُ؛ والكتاب وعاءٌ مُلئَ علمـا، وظَرْفٌ حُشِى ظَرْفا، وإناءٌ شُحِنَ مُزاحا وجِدّا؛ إن شئتَ كان أبينَ من سَحبانِ وائلٍ، وإن شئت كان أعيا مِن باقل؛ وإن شئت ضَحكتَ من بوادره، وإن شئت عجِبتَ من غـرائب فوائده، وإن شئت ألهتـك نوادره، وإن شئت شجتك مواعظه، ومَن لك بواعظٍ مُلْهٍ، وبزاجرٍ مُغْرٍ، وبناسكٍ فاتِك، وبناطقٍ أخرَس، وببارِدٍ حارٍّ؛ وفى البارد الحارّ يقول الحسن بن هانئ :

قُلْ لزهيرٍ اذا آنتحى وشَـدا * أقلِل أو أكْثِرْ فأنتَ مِهْـذارُ
سخُنتَ مِن شـدّة البرُودةِ حتّى صرتَ عندى كأنّك النارُ
لايعجبِ السامعونَ من صفتِى * كذلك الثلجُ باردٌ حارٌّ

ومَن لك بطبيب أعرابىٍّ(١) ، وبرومىّ هندىّ ، وبفارسىّ يونانىّ ، وبقـديم مولَّد ، وبميّت مُمتِع ، ومن لك بشىء يجمع لك الأوّلَ والآخِر ، والناقصَ والوافر ، والخفىَّ والظاهر ، والشاهدَ والغائب ، والرفيعَ والوضيعَ ، والغثَّ والسمينَ ، والشكلَ وخلافه ، والجنسَ وضدَّه .

وبعد ، فمتى رأيت بستانا يُحمَل فى رُدْن ، أو روضةً تَتَقلّبُ فى حِجْر ، وناطقا ينطق عن الموتَى ، ويُترجِم كلام الأحياء ، ومَن لك بمؤنِسٍ لاينام إلّا بنَوْمك ، ولا ينطِق إلا بما تهوى ، آمن من الأرض ، وأكتم للسرِّ من صاحب السرِّ ، وأضبط للوَديعـة من أرباب الوَديعة ، وأحفظَ لما آستُحْفظ من الأُمّيّين ، ومن الأعراب المعْرَبين ، بل من الصِّبيان قبل آعتراض الأشغال ، ومن العُميان قبل التمتّع بتمييز الأشخاص ، حين العنايةُ تامّة لم تنقُص ، والاذهانُ فارغة لم تُقْتَسم ، والإرادةُ وافرة لم تستعِب ، والطينةُ ليّنة فهى أقبل ماتكون للطابع ، والقضيب رطبٌ فهو أقرب ما يكون من العُلوق ، حين هـذه الخصالُ لم يَبْـلَ جديدُها ، ولم يُفَلّ غَرْبُها ، ولم تتفرّق قُواها ، وكانت كما قال الشاعر :

أتانِى هواها قبلَ أنْ أعرِفَ الهوَى * فصادف قلبـا فارغا فتمكّنا

وقال عَبْدَةُ(٢) بن الطبيب :

لا تأمَنُوا قوما يَشِبّ صبيُّهم * بين القوابل بالعَدَاوة يُنْشَعُ

هذا مع قولهم : التعلم فى الصغر كالنقش فى الحجر ، وقال جِران العَوْد :

تُرِكن بِرِحْـلَةِ الرَوْحاء حتّى * تَنكّرتْ الديارُ علَى البصـير

كوحىٍ فى الحجارة أو وُشُومٍ * بأيدى الروم باقيةِ النؤورِ

النُّؤور : شىء كان يُعمل فى الجاهلية مثل الخضرة اليوم .

وقال آخر وهو صالح بن عبد القدوس :

وإنّ مَن أدّبته فى الصبا * كالعُود يُسقَى الماءَ فى غَرسه

حتى تراه مُـورِقا أخضـرا * بعد الذى أبصرتَ مِن يُبسه

---

(١) كذا فى الاصل ، ولعلها : «بنبطىّ» .

(٢) فى الأصل : «تميرة» وهو خطأ صوابه ما أثبتناه عن الشعر والشعراء لابن قتيبة .

وقال آخر :

يقوِّم من مَيل الغلام المؤدبُ * ولا ينفع التأديبُ والرأس أشيبُ

وقال آخر :

أدبتُ عِرسى بعد ما هرِمتْ * ومن العناء رِياضةُ الهرِمِ

وقد قال ذو الرمّة لعيسى بن عمر : اكْتُبْ شِعرى فالكتّابُ أعجب الىّ من الحفظ ، إن الأعرابيَّ ينسى الكلمةَ قد سهرت فى طلبها ليلة ، فيضع فى موضعها كلمةً فى وزنها ثم يُنشدها الناسَ، والكتّابُ لا يَنسى ، ولا يُبْدِل كلاما بكلام ؛

وعبت الكتّابَ ولا أعلم جارا أبرّ، ولا خليطا أنصف، ولا رفيقا أطوع، ولا معلِّما أخضع، ولا صاحبا أظهر كفايةً، ولا أقلَّ جناية، ولا أقل إملالا وإبراما، ولا أقلّ خلافا وإجراما، ولا أقلّ غِيبَةً، ولا أبعدَ من عَضيهةٍ، ولا أكثرَ أعجوبةً وتصرّفا، ولا أقلّ صلّفا وتكلُّفا، ولا أبعدَ من مِراء، ولا أتركَ شَغَبٍ ، ولا أزهدَ فى جدالٍ، ولا أكفَّ عن قتالٍ، من كتّاب ؛ ولا أعلم قرينا أحسنَ مواتاة ، ولا أعجلَ مكافأة ، ولا أحضرَ مَعُونة، ولا أخفَّ مَؤونة، ولا شجرة أطولَ عُمْرا، ولا أجمعَ أمرا، ولا أطيبَ ثمرة، ولا أقربَ مُجْتَنًى ، ولا أسرعَ إدراكا ، ولا أوجدَ فى كلِّ إبَّانٍ من كتّاب؛ ولا أعلم نتاجا فى حَداثةِ سنّه ، وقُرب مِيلاده ، ورخصِ ثمنِه، وإمكانِ مَوْجودِه، يجمع من التدابير العجيبة، والعلوم الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمود الأذهان اللطيفة، ومن الحِكَم الرفيعة ، والمذاهب القديمة ، والتجارِب الحكيمة ، ومن الأخبار عن القرون الماضية، والبلاد المتراخية، والأمثال السائرة، والأمم البائدة ما يجمع لك الكتّاب .

وقد قال الله عز وجل لنبيّه عليه الصلاة والسلام : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ وصف نفسَه تبارك وتعالى جده بأن علّم بالقلم، كما وصفَ نفسَه بالكَرم ، واعتدّ ذلك فى نِعَمه العِظَام ، وفى أياديه الجِسام ، وقد قالت : القلم أحدُ اللسانين ، وقالوا : كل مَنْ عرَف فَضْلَ النعمة فى بيان اللسان كان بفضل النعمة فى بيان القلم

أعرف ؛ ثم جَعَل هذا الأمر قرآنا ، ثمّ جعله فى أوّل التنزيل ، ومُستفتح الكتّاب ،
ثم اعلم — يرحمك الله تعالى — انّ حاجة بعض الناس الى بعض صفةٌ لازمة لطبائعهم ،
وخلقةٌ قائمة فى جواهرهم ، وثابتة لا تزايلهم ، ومحيطة بجماعتهم ، مشتملة على أدانيهم
وأقاصيهم ، وحاجتهم الى ما غاب عنهم ، مما يُعيشهم ويُحييهم ، ويأخذ بأرماقهم ، ويُصلح
بالهم ، ويجمع شملهم ، والى التعاون على دَرَك ذلك ، والتوازر عليه كحاجتهم الى التعاون
على معرفة ما بحضرتهم ، والتوازر على ما يحتاجون من الارتفاق فى أمورهم التى لم تغب
عنهم ، فحاجة الغائب موصولة بحاجة الشاهد ، لاحتياج الأدنَى الى معرفة الأقصى ، واختلال
الأدنَى الى معونة الأقصى ؛ معانٍ متضمّنة ، وأسبابٌ متّصلة ، وحبالٌ متقيدة ، وجعل
حاجتنا الى معرفة أخبار من كان قبلنَا كحاجة من كان قبلنا الى أخبار مَن كان قبلهم ، وحاجة
من يكون بعدنا الى أخبارنا ، ولذلك تقدّمت فى الكتب البشارات بالرسل ، ولم يُسخّر
لهم جميع خلقه إلّا وهم يحتاجون الى الارتفاق بجميع خلقه ، وجعل الحاجة حاجتين :
إحداهما قوَام وقوت ، والأخرى لذّة وإمتاع ، وازدياد فى الآلة ، وفى كل ما أجذَلَ
النفوسَ ، وجمع لهم العتَاد ، وذلك المقدار من جميع الصنفَين وَفْق لكثرة حاجاتهم وشهواتهم ،
وعلى قدر اتساع معرفتهم ، وبعدِ غَوْرِهم ، وعلى قدر احتمال طبع البشريّة ، وفطرة
الإنسانية ، ثم لم يَقْطع الزيادةَ عنهم الّا لعجز خَلْقهم عن احتمالها ، ولم يجُز أن يفترق بينهم
وبين العجز إلّا بعدم الأعيان ، اذا كان العجز صفةً من صفات الخلق ، ونَعْتا من نُعوت
العبيد ، ولم يَخْلقِ الله تعالى أحدا يستطيع بلوغ حاجته بنفسه دون الاستعانة ببعض مَن
سُخّر له ، فأدناهم مُسخّر لأقصاهم ، وأجلّهم مُيسّر لأدقّهم ، وعلى ذلك أحوَجَ الملوكَ الى
السوقة فى باب ، وأحوج السوقة الى الملوك فى باب ، وكذلك الغنيّ والفقيرُ ، والعبد وسيّده .

ثمّ جعل الله تعالى كلّ شيء للانسان خَوَلا وفى يده مُذالّا مُيسّرا ، إما بالاحتيال له ،
والتلطف فى إراغته واستمالته ، إمّا بالصولة عليه والفَتْك به ، واما أن يأتيه سَهْوا ورهْوا ،
وعلى أن الإنسان لولا حاجته اليها لما احتال لها ، ولما صال عليها ، إلّا أنّ الحاجة تَفْترق

فى الجنس والجهة، وفى الحظّ والتقدير، ثم تعبّد الإنسانَ بالفكر فيها، والنظر فى أمورها، وبالاعتبار بما يرَى، ووصل بين عقولهم، وبين معرفة تلك الحِكَم الشريفة، وتلك الحاجات اللازمة بالنظر والتفكير، والتنقب والتنقير، والتثبت، والتوقف، ووصل معارفهم بمواقع حاجاتهم اليها، وتشاعرهم بمواضع الحِكَم فيها بالبيان عنها، وهو البيان الذى جعله الله تعالى سببا فيما بينهم، ومُعبّرا عن حقائِق حاجاتهم، ومُعرّفا لمواضع سدّ الخلّة، ودفع الشبهة، ومُداواة الحَيْرة؛ ولأنّ أكثر الناس عن الناس أفهمُ منهم عن الأشباح الماثلة، والأجسام الجامدة، والأجرام الساكنة التى لا يُتعرّف ما فيها من دفائن الحكم وكنوز الأدب، وينابيع العلم، الّا بالعقل اللطيف الثاقب، وبالنظر التام النافذ، وبالأداة الكاملة، وبالأسباب الوافرة، والصبر على مكروه الفِكْر، والاحتراس من وجوه الخُدَع، والتحفظ من دواعى الهوى، ولأنّ الشكل أفهم عن شكله وأسكن اليه وأصب به، وذلك موجود فى أجناس البهائم وضروب السِّباع، والصبىّ عن الصبىّ أفهم وله آلف، وإليه أنزع، وكذلك العالِم والعالِم، والجاهل والجاهل، وقال الله عزّ وجلّ لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾؛ لأنّ الإنسان عن الإنسان أفهمُ، وطباعَه بطباعه آنسُ، وعلى قدر ذلك يكون مَوْقع ما يسمع منه؛ ثم لم يرض من البيان لهم بصنف واحد، بل جمع ذلك ولم يفرّق، وكثّر ولم يُقلّل، وأظهر ولم يُخْفِ، فجعل أصناف البيان التى بها يتعارفون معانيَهم، والتَرْجُمانَ الذى اليه يرجعون عند اختلافهم فى أربعة أشياء وفى خَصْلة خامسة، وإن نقصت عن بلوغ هذه الأربعةِ فى جهاتها، فقد تكمل بجنسه الذى وضع له، وصرف اليه.

وهذه الخِصالُ الأربع: هى اللفظ والخط والإشارة والعَقْد، والخَصْلة الخامسة: ما أوجد من صِحّة الدَّلالة، وصدق الشَّهادة، ووضوح البرهان فى الأجرام الجامدة الصامتة، والساكنة الثَّابتة، التى لا تبِيْن ولا تفهم، ولا تحِس ولا تتحرّك الّا بداخل دخل عليها، أو عند ممسك خلّى عنها بعد تقييده كان لها؛ ثم قسم الأقسام، ورتّب المحسوسات، وحصّل

الموجودات ، فجعل اللفظ للسامع ، وجعل الإشارة للناظر ، وأشرك بين الناظر واللامس ، فى معرفة العَقْد إلاّ بمـا فضّل الله به نصيب الناظر فى ذلك على نصيب اللامس ، وجعـل الخط دليلا على ما غاب من حوائجه عنه ، وسببا موْصولا بينه و بين أعوانه ، وجعله خازنا لمـا لا يأْمن نسيانه ممّـا قد أحصاه وحفِظه ، وأتقنه وجمعـه ، وتكلف الإحاطة به ، ولم يجعل للشام والذائق فى ذلك نصيبا .

ولولا خطوط الهند لضاع من الحساب الكثيرُ البسيط ، ولبَطَلت معرفة التضاعيف ، ولَعدموا الإحاطة بالباورات ، وباورات الباورات ، ولو أدركوا ذلك لمـا أدركوه الّا بعـد أن تغلُظ المَؤونة ، وتنتقص المُنّة ، ولصاروا الى حال معْجَـزة وحُسور ، والى حال مضيعة وكلال حدّ ، مع التشاغل بأمور لولا فَقْد هـذه الآلة لكان أربحَ لهم ، وأرقّ عليهم أن يصرفوا ذلك الشغل فى أبواب منافع الدِّين والدنيا ؛ ونفع الحساب معلوم ، والخلّة فى موضع فَقْده معروفة ، قال الله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ ثم قال : ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ وبالبيان عرَف النـاس القرآن ، قال الله تبارك وتعـالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَاءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ فأجرَى الحساب مَجْرى البيانِ وألحق البيان بالقرآن ، وبِحُسْبان منازل القمر عرَفنا حالاتِ المَدّ والجَزْر ، وكيف تكون الزيادة فى الأهلّة وأنصافِ الشهور ، وكيف يكون النُّقصان فى خلال ذلك ، وكيف تلك المراتب وتلك الأقدار .

ولولا الكُتُب المدوّنة ، والاخبار المُخلّدة ، والحِكَم المخطوطة التى تَحْصُر الحسابَ وغير الحساب ، لَبطَل أكثر العِـلْم ، ولغلب سلطانُ النِّسيان سلطانُ الذكر ، ولمـا كان للناس مَفْزَع الى موضع ٱسـتذكار ، ولو تم ذلك لَحُرِمْنا أكثر النفع ، اذ كنّا قد علمنا ان مقدار حِفْظ الناس لعواجل حاجاتهم وأواجلها لا يبلغ من ذلك مبلغا مذكورا ، ولا يغنى فيه غَناء محمودا ، ولو كُلّف عامّة مَن يطلب العِـلْم ، ويَصْطنِـع الكتب ، ألّا يزالَ حافظا لفِهْرِس كُتُبه لأعجزه ذلك ، ولَكُلّف شَـطَطا ، ولَشَغَله ذلك عن كثير ممـا هو أوْلَى به ؛ ففهمك

لمعانى كلام الناس ينقطع قبل انقطاع فَهْم عَيْن الصوْت مُجرّدا ، وأبعـد فهمك لصوت صاحبك ومُعاملك ، والمُعاون لك ماكان صـياحا صِرْفا ، وصوْتا مُصْمَتاً ، ونداء خالصا ، ولا يكون مع ذلك الّا وهو بعيد من المُفاهمة، وعُطْل من الدلالة، بجعل الله جل وعزّ اللفظ لأقرب الحاجات، والصوْت لِأنفَس من ذلك قليلا، والكتّاب للنازح من الحاجات .

فأمّا الإشارة فأقرب المفهوم منها رفعُ الحواجب، وكسرُ الأجفان، وليُّ الشفاه، وتحريك الأعناق، وقبض جِلدة الوجه، وأبعدها أن تُلْوى بثوب على مَقْطع جبل تُجاهَ عين الناظر ، ثم ينقطِـع عملُها، ويَدْرُس أثرُها، ويموت ذِكرُها، وتصير بعد كلّ شيء فَضَـلَ عن آنتهاء مَدة الصوت، ومُنتهىَ الطرْفِ فى الحاجة، الى التفاهمُ بالخطوط والكُتُب، فأىٌّ نفْع أعظمُ، وأىّ مَرْفق أعونُ من الخط، والحالُ فيه كما ذكرنا !

وليس للعَقْد حظّ الإشارة فى بعد الغاية، ولا للاشارة حظّ الخط فى بعد الغاية، فلذلك وضـع الله عزّ وجلّ القلمَ فى المكان الرفيع، ونوه بذكره فى المَنْصب الشريف حين قال : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ فأقسم بالقلم كما أقسم بما يُخَطّ بالقلم إذ كان اللسان لا يتعاطَى شأوَه، ولا يَشُق غُبارَه، ولا يَجرى فى حَلْبَته، ولا يتكلّف بعـد غايته، ولكن لمـّا كانت حاجات الناس بالحَضْرة أكثرَ من حاجاتهـم فى سائر الأماكن ، وكانت الحاجة الى بيـان اللسان حاجةً دائمةً راكدةً، وراهنة ثابتةً، وكانت الحاجة الى بيان القلم أمرًا يكون فى الغَيْبة وعنْد النائبة، الّا ما خُصّت به الدواوين، فإنّ لسان القلم هناك أبسطُ، وأثرَه أعمّ، فلذلك قدّموا اللسان على القلم، فاللسان الآن انمـا هو فى منافع اليد والمَرافق التى فيها، والحاجات التى تبلغُها، فمن ذلك حظُّها وقِسْطها من منافع الإشارة، ثم نَصيبها فى تقويم القلم، ثم حظّها فى التصوير، ثم حظّها فى الصناعات ، ثمّ حظها فى العَقْد، ثم حظّها فى الدفع عن النفس، ثم حظّها فى إيصال الطّعام والشراب الى الفَم، ثم التوضّؤ والامتساح، ثم آنتقادِ الدنانير والدراهم، ثمّ لُبْس الثياب، وفى الدفع عن النفس أصنافَ الرمْى، وأصنافَ الضرب، وأصنافَ الطعن، ثم الضربَ التَّقْنُ بالعود وتحريكَ الوتر، ولولا ذلك لبطَل الطرب كلّه أو عامتـه ، وكيف

لا تكون كذلك ولما ضرب الطبل والدُّفّ وتحريك الصفاقتين، وتحريكُ مخارق خروق المزامير، وما فى ذلك من الإطلاق والحبس؛ ولو لم يكن فى اليد الّا إمساك العِنان والزمام والخطام، لكان ذلك من أعظم الحظوظ .

وقد آضطربوا فى الحكم بين العَقْد والإشارة، ولولا انّ مَغزانا فى هذا الكتاب سوى هذا الباب لقد كان هذا مما أُحبّ أن يَعرفه إخواننا وخلطاؤنا، ولا ينبغى لنا أيضا أن نأخذ فى هذا الباب من الكلام الّا بعد الفراغ مما هو أَوْلَى بنا منه، إذ كنتَ لم تنازعني، ولم تعب كُتُبي من طريق فضل ما بين العَقْد والإشارة، ولا فى تمييز مابين اللفظ وبينهما؛ وانّما قَصَدْنا بكلامنا الى الإخبار عن فضل الكتب.

والكتاب هو الذى قيّد على الناس كُتُبَ عِلْمِ الدين، وحسابَ الدواوين، مع خِفّة ثقله، وصِغر حجمه، صامت ما أسْكَتّه، وبليغٌ إذا آستنطقته، ومَن لك بمُسامر لا يبتدئك فى حال شُغْلك، ويدعوك فى أوقات نشاطك؛ ولا يحوجُك الى التجمل له، والتذمم منه؛ ومَن لك بزائر انْ شئتَ جعل زيارته غِبًّا، ووُروده خِمْسا؛ وانْ شِئت لزمك لزوم ظِلّك، فكان منك مكان بعضك .

والقلم مُكْتَفٍ بنفسه ولا يحتاج الى ماعند غيره، ولا بد لبيان اللسان من أمور، منها: إشارة اليد، ولولا الاشارة لما فهموا عنك خاصّ الخاصّ، اذا كان أخصّ الخاصّ قد يدخل فى باب العامّ، إلّا أنّه أدنَى طبقاته، وليس يكتفِي خاصّ الخاصّ باللفظ عمّا أدّاه، كاكتفاء عامّ العامّ، والطبَقاتِ التى بينه وبين أخصّ الخاصّ .

والكتاب هو الجليس الذى لا يُطْرِيك، والصديقُ الذى لا يُغْريك، والرفيقُ الذى لا يُملّك، والمَسْتميح الذى لا يَسْتَزيدك، والجار الذى لا يَسْتبطئك، والصاحب الذى لا يريد آستخراج ما عندك بالمَلَق، ولا يعاملك بالمكْر، ولا يخدعُك بالنِّفاق، ولا يحتال لك بالكذب .

والكتاب هو الذى إن نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك، وبسط لسانك، وجوّد بيانك، وفخّم ألفاظك، وبجّح نفسك، وعمّر صدرك، ومنحك تعظيم العوامّ، وصداقة الملوك؛ وعرفت به فى شهر ما لا تعرفه من أفواه الرجال فى دهر، مع السلامة من الغرم، ومن كدّ الطلب، ومن الوقوف بباب المتكسّب بالتعليم، وبالجلوس بين يدى من أنت أفضل منه خُلُقا، وأكرم عرقا، ومع السلامة من مجالسة البغضاء، ومقارنة الأغبياء.

والكتاب هو الذى يطيعك بالليل كطاعته بالنهار، ويطيعك فى السفر كطاعته فى الحضر، ولا يعتلّ بنوم، ولا يعتريه كلال السهر؛ وهو المعلّم الذى إن آفتقرت لم يحقرك، وان قطعت عنه المادّة لم يقطع عنك الفائدة، وان عزلت لم يدع طاعتك، وان هبّت ريح أعاديك لم ينقلب عليك؛ ومتى كنت منه متعلّقا بسبب، أو معتصما بأدنى حبل، لم تضطرّك معه وحشة الوحدة الى جليس السّوء؛ ولو لم يكن من فضله عليك، وإحسانه اليك، إلّا منعه لك من الجلوس على بابك، والنظر الى المارّة بك، مع ما فى ذلك من التعرّض للحقوق التى تلزم، ومن فضول النظر، ومن عادة الخوض فيما لا يعنيك، ومن ملابسة صغار الناس، ومن حضور ألفاظهم الساقطة، ومعانيهم الفاسدة، وأخلاقهم الرديّة، وجهالاتهم المذمومة، لكان فى ذلك السلامة ثم الغنيمة، وإحراز الأصل مع آستفادة الفرع، ولو لم يكن فى ذلك إلّا أن يشغلك عن سخف المنى، وعن آعتياد الراحة، وعن اللّعب، وكلّ ما أشبه اللعب، لقد كان فى ذلك على صاحبه أسبغ النعمة، وأعظم المنّة؛ وقد علمنا أنّ أمثل ما يقطع به الفرّاغ نهارهم، وأصحاب الفكاهات ساعات ليلهم، هو الشىء الذى لا ترى له فيهم مع النّيل أثرا فى آزدياد فى تجربة ولا فى عقل، ولا فى مروءة ولا فى صون عرض، ولا فى إصلاح دين، ولا فى تثمير مال، ولا فى تربية صنيعة، ولا فى آبتداء بإنعام.

قال أبو عبيدة قال المهلّب لبنيه فى وصيّته : يا بنىّ لا تقفوا فى الأسواق إلّا على زرّاد أو ورّاق.

وحدثني صديق لى قال : قرأت على شيخ شامىّ كتابا فيه مآثرُ غَطفان، فقــال لى : ذهبت المكارم إلا مِن الكتب ؛ وسمِعت الحسن اللؤلؤى يقــول : غَبرت أربعين عاما ما قِلْت ولا بِت التكأت إلّا والكتاب موضوع على صدرى؛ وقال ابن الجَهْم : اذا غَشِيَنى النعاس فى غير وقت نوم و بئس الشئْ ء النوْم الفاضل عن الحاجة ، تناولت كتابا من كتب الحِكَم فأجد اهتزازى للفوائد ، والأَرْيَحِيَّــةِ التى تعترينى عنــد الظفَر ببعض الحــاجة ، والذى يَغْشَى قلبى من سرور الاستبانة ، وعِزّ التبيّن، أشــدَّ إيقاظا من نَهيق الحمير، وهَدّة الهَــدْم .

وقال ابن الجَهْم : اذا استحسنتُ الكتاب واستجدْته ، ورجَوْت منه الفائدة، ورأيت ذلك فيه، فلو تَرَوْننى وأنا ساعةً بعْد ساعةٍ أبصُرُكَمْ بَقِى مِن ورقه مخافةَ استنفاده ، وانقطاعِ المــادّة من قِبله، و إن كان المُصْحف فى عظيم الحَجْم، وكان الورق كثير العدد، لرأيتم كيف تمّ عَيْشى، وكَمَل سُرورى .

وذكر القَيْنِىّ كتابا لبعض القــدماء فقال : لولا طوله ، وكثرة ورقه، لنسخته؛ قال ابن الجَهم : لكنّنى ما رغّبنى فيه إلّا الشىء الذى زهّدك فيــه ، وما قرأت كتابا قطّ كبيرا فأخلانى من فائدة، وما أُحصِى كم قرأتُ من صِغار الكُتُب فخرجت منها كما دخلت .

وقال القَيْنِىّ ذاتَ يوم لابن الجَهْــم : ألَا تَتعجّب مِن فُلانٍ! نظر فى كتاب الإقْليدِس مع جاريةِ سَلْمُوَيْهْ فى يوم واحدٍ وساعةٍ واحدة ، فقــد فرغَت الجارية من الكتاب وهو بعدُ لم يُحْكِم مَقالةً واحدة، على أنه حرّ مُخــيَّر وتلك أمَة مَقْصورة، وهو أحرص على قراءة الكتُب مِن سَلْمُوَيْهْ على تعليم جاريته؛ قال ابن الجَهْم : قد كنتُ أظنّ أنه لا يفهم منه شكْلًا واحدا، وأراكَ تزعُم أنه قد فرغ منمَقالة؛ قال القَيْنِىّ : وكيف ظنَنت به هذا الظن كُلّه وهو رجل ذو لسان وأدب؟ قال : لأنّى سمِعتُه يقول لابنه : كم أنفقت على كتاب كذا وكذا ؟ قال : أنفقت كذا وكذا ؛ قال : انّمــا رغّبنى فى العلم أنّى ظننت أنّى أُنفق قليــلا وأكتسب كثيرا، فأما اذ صِرْتُ أُنفِق الكثير وليس فى يدى منه إلّا المواعيدُ فانّى لا أريد

العلم بشىء . والإنسان لا يعلم حتى يَكْثُرَ سماعُه، ولا بُدّ من أن تصير كتبُهُ أكثرَ من سماعه، ولا يعلم ولا يجمع ولا يختلف حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألذَّ عنده من الإنفاق من مال عدوّه؛ ومَن لم تكن نفقته التى تخرج فى الكُتُب ألذّ عنـده من عشاق القِيان، والمستهتَرين بالبُنْيان ، لم يبلغ فى العلم مَبلغا رَضيّا . وليس ينتفع بإنفاقه حتّى يؤثر لذّة آتخاذ الكتب إيثار الأعرابىّ فرَسه باللّبن على عِياله ، وحتّى يُؤمِّل فى العلم مالا يُؤمّل الأعرابىّ فى فرسه .

وقال إبراهيم بن السِّنْدىّ مرّةً : وددْت أنّ الزنادقة لم يكونوا حُرَصاء على المغالاة بالورق النقىّ الأبيض، ولا على تخيّر الحبر الأسود البرّاق، ولا على آستجادة الخطّ والإرغاب لمن يخطّ، فإنى لم أرَ كورق كتبهم ورقا، ولا كالخطوط التى فيها خطّا . وإنّى غرِمت مالا عظيما مع حبّى للمـال وبغضى للغرم، لأنّ سخاء النفس بالإنفاق على الكتب دليل على تعظيم العلم، وتعظيم العلم دليلٌ على شرَف النفس وعلى السلامة من سُكْر الآفات . وقلت لإبراهيم: إنّ إنفـاق الزنادقة على الكتب كانفاق النصـارَى على البِيَع ، ولوكانت كتب الزنادقة كُتُبَ حِكْـمَة ، وكتبَ فلسـفة ، وكانت مقاييسَ تبيينَ ، أو لو كانت كتبهـم كتبا تعرّف النـاس أبواب الصناعات ، أو سبُلَ التكسُّب والتجارات ، أوكتب إرفاق ورياضات ، أو بعض ما يتعاطاه النـاس من الفِطَن والأدب ، أوكان ذلك لا يُقرّب من غِنًى ، ولا يباعد من مأثم، لكانوا ممّن قـد يجوز أن يُظَنّ بهـم تعظيم البيان والرغبـةُ فى التبيين، ولكنّهم ذهبوا فيها مذهبَ الديانة على طريق تعظيم المِلّة؛ فانّما إنفاقهم فى ذلك كانفاق المجوس على بيت النار ، وكانفاق النصارَى على صُلْبان الذهب ، أوكإنفاق الهنـد على سَدَنة البُدّ؛ ولو كانوا العلمَ أرادوا لكان العلمُ لهم معرضا ؛ وكتبُ الحكمة لهم مَبْذولة، والطرُقُ اليها سهلة معروفة؛ فما بالُهم لا يصنعون ذلك إلّا بكتب ديانتهم كما يُزخرِف النصارَى بيوت عبادتهم؛ ولو كان هذا المعنى مُستحسنا عند المسلمين ، وكانوا يروْن أنّ ذلك داعيةٌ الى العبادة وباعِثـةٌ على الخشوع ، لَبلَغوا فى ذلك بعَفْوِهم ما لا يبلغه النصارى بغاية الجُهْد .

وقد رأيتم مَسْجد دِمشق حين استجاز هذه السبيلَ ملكٌ من ملوكنا ، ومن رآه فقد علِم أنّ أحدا لا يرومه ، وأنّ الروم لا تسخو أنفسُهم به ؛ فلما قام عمر بنُ عبـد العزيز جلّله بالجِـلال ، وغطّاه بالكَرابِيس (١) ، وطَبَخ سلاســل القناديل حتّى ذهَب عنها ذلك التلألؤ والبَرِيق ، وذهب الى أنّ ذلك الصنيعَ مجانِب لسُنّة الاســلام ، وأنّ ذلك الحُسْن الرائع والمحاسن الدِّقاق مَذْهَلة للقلوب ، مشغلة دون الخشوع ، وأنّ البال لا يكون مُجْتمعا وهناك شيء يُفرّقه و يَعترض عليه .

والذى يدلّنا على ما قلنا أنّه ليس فى كتبهم مثَلٌ سائر ، ولا خبر طريف ، ولا صـنعةُ أدب ، ولا حِكْمة غريزية ولا فلســفية ، ولا مسئلة كلاميــة ، ولا تَعْريفُ صِــناعة ، ولا استخراجُ آلة ، ولا تعليم فِلاحة ، ولا تدبير حَرْب ، ولا مُقارَعة عن دِين ، ولا مُناضلة عن نِحْلَة ؛ وجُلّه ذكر النور والظُّلْمَة ، وتناكُحُ الشياطين ، وتسافُدالعفاريت ، وذكرُ الصِّنْديد والتهويلُ بعمود السنخ ، والاخبار عن شقلون وعن الهــامَة والهامة ، وهَذَرٌ وعِيٌّ ودعوَى وخُرافة وسخف وتَكَذُّب ، لا ترى فيه موعظة حَسَنة ، ولا حديثا مُونِقا ، ولا تدبيرَ معاش ولا سياســةَ عامّة ، ولاترتيب خاصّة ؛ فأىّ كتابٍ أجهــلُ ، وأى تدبير أفسد من كتابٍ يُوجب على النــاس الطاعة والبُخُوع بالديانة على جهــة الاستبصار والمحبّــة ، وليس فيــه صلاح معاشٍ ، ولا تصحيح دِين ، والناس لا يحيبون إلّا دينا أو دُنيا .

فأمّا الدنيــا فاقامة سُــوقها و إحضارُ نفعها . وأما الدِّين فأقلّ ما يُطمع فى استجابة العامة واستمالة الخاصّــة ، أن يصوّر فى صورة مُغلّطة ، ويُموّه تمويه الدينار البهرج والدرهم الزائف الذى يَغلَط فيــه الكثير و يعرف حقيقته القليــل . فليس اتفاقُهم عليها من حيث ظننت . وكل دِين يكون أظهر آختــلافا وأكثر فسادا يحتاج من الترقيع والتمويه ومن الاحتشاد له والتغليظ فيه الى أكثر من غيره .

---

(١) الكرابيس جمع كرباس : ثوب من القطن الأبيض وقيل : الثوب الخشن ، فارسى معرّب .

وقد علمت أن النصرانية أشدُّ انتشارا من اليهودية تعبُّدا ، فعلَى حسبِ ذلك يكون تزيُّدهم فى توكيده، واحتفالهم فى إظهار تعظيمه .

وقال بعضهم : كنتُ عند بعض العلماء فكنتُ أكتبُ عنه بعضًا وأدع بعضًا، فقال لى : اكتبْ كلّ ما تسمع ، فانّ أخس ما تسمع خير من مكانه أبيض . وقال الخليل بنُ أحمد : تكثَّر من العلم لتعرِف، وتقلّل منــه لتحفَظ . وقال أبو إسحاق : القليــلُ والكثير للكُتُب، والقليلُ وحْدَه للصدر، وأنشد قول ابن يَسير :

أمَا لو أَعِى كلّ ما أَسمعُ * وأَحْفَظ من ذاكَ ما أَجْمَعُ
ولم أَستَفِد غيْر ما قَدْ جمعْـــــتُ لقِيلَ هو العالِمُ المُقْنِــعُ
ولكنّ نَفْسِى الى كُلِّ نو * عٍ من العِـلْم تَسْمَعُه تَنْزِع
أشَاهَدُ بالعىّ فى مَجْلِسِى * وعِلْمِى فى البيت مُسْتَوْدَع
فلا أَنَا أَحْفَــظُ ما قد جمعْـــ*ـــت ولا أنا مِنْ جَمْعِه أشبَع
ومَنْ يَكُ فى عِلْمِه هكذَا * يكُنْ دهرَه القَهْقَرى يَرْجِعُ
اذا لَمْ تَكُنْ حافِظـا واعِيًا * فجَمْعُك لِلعــلْمِ لا يَنْفَـع

قال أبو اسحاق : كلف ابن يَسير الكتبَ ما ليس عليها، إنّ الكتب لا تُحيى الموتى، ولا تُحَوِّل الأحمق عاقلا، ولا البليدَ ذكيا، وذلك أنّ الطبيعة اذا كان فيها أدنَى قبول فالكتبُ تَشْحَذ وتَفْتِق وتُرهِف وتَشْفِى، ومن أراد أن يعــلم كلّ شىء فينْبَغِى لأهله أن يداووه، فان ذلك انّما تصــوّر له لشىء اعتراه . فمَن كان عاقِلا ذكيًّا حافظًا فليَقْصِــد الى شيئين أو ثلاثة أشياء : فلا يَنْزِع عن الدرس والمطارحة، ولا يَدَع أن يمرّ على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه ما قدر عليه من سائر الأصــناف فيكون عالمــا بخواصّ ويكون غيرَ غُفْل من سائر ما يجرى فيــه الناس ويَخوضون فيه ، ومَن كان مع الدرس لا يحفَظ شيئا إلّا نسِى أكثر منــه فهو من الحفظ من أفواه الرجال أَبعدُ .

وحدثنى موسى بنُ يحيى قال : ماكان فى خِزانة كتب يحيى وفى بيت مدرســه كتاب إلّا وله فيه ثلاثُ نُسَخ .

وقال أبو عمرو بنُ العـلاء : ما دخلت على رجل قطُّ ولا مررت ببابه فرأيتـه ينظر فى دفتر وجليسُه فارغ اليد إلّا اعتقدت أنه أعقل منه وأفضل .

قال أبوعمرو وقيل لنا يومًا : إنّ فى دار فلانٍ ناسا قد اشْتملوا على سوءة، وهم جلوسٌ على نُخَيْرة لهم وعندهم طُنْبور، قال: فَذَمَرْنا عليهم فى جماعة من رجال الحىّ، فاذا فتًى جالسٌ فى وَسط الدار وإذا أصحابه حوْلَه ، واذا هم بيضُ اللِّحَى، واذا هو يقرأ عليهم كتاب شـعر، فقال الذى كان سعى بهم : السَّوْءة فى ذلك البيت ، وإن دخلتموه عَثَرْتم بها ؛ قال قلتُ : والله لا أكشِف فتًى أصحابُه شيوخ وفى يده دفترعِلْم ولو كان فى ثوبه دَمُ يحيَى بنِ زكرياء . قال وأنشد رجل يونُس النَّحوىّ قوله :

أَسْتودِعَ العِـلْمُ قِرْطاسا فَضَيّعه * فبِئْس مُسْتودَعُ العِلْمِ القراطيسُ

قال فقـال يونس : قاتله الله، ما أشـدّ صبابته بالعلم وأحسنَ صِيانَته له ! إنّ عِلْمك من رُوحِك، ومالك مِن بدنك، فضعْه منك بمكانِ الرُّوح، وضَعْ مالك بمكان البدن .

وقيـل لابن دَاحَة وأخرج كتاب أبِى الشَّـمَقْمَق واذا هو فى جُلود كوفيّة ودفّتيْن طائفيتين وبخطّ عجيب (١)، فقيل له : لقد ضيّع دِرهمه مَن تجوّد لشعر أبى الشمقمق؛ قال : لا جَرَمَ والله إنّ العـلم ليُعْطِيكم على حساب ما تُعْطُونَه ، ولو استطعتُ أنْ أودعَه سُـوَيداء قلبى وأجعله مخطوطا على ناظرىّ لفعلت .

واقد دخلت على إسحاق بنِ سليمان فى إمْرته، فرأيت السماطين بين يديه والرجال مُثُولًا كأنّ على رءوسهم الطير، ورأيت فِرشَته (٢) وبِزّته ، ثم دخلت عليـه وهو معزول، واذا هو فى بيت كتبه وحواليْه الأسْـفاط والرفوف والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر، فما رأيتـه قطُّ أفخمَ ولا أنبَـل ولا أهْيَب ولا أجزل منـه فى ذلك اليوم ، إلا أنّه جمـع مع المَهابة المَحبة، ومع الفَخامة الحلاوَة، ومع السُّودَد الحِكْمة .

(١) كذا فى الأصل، ولعلها زائدة . (٢) الفرشة : الهيئة .

وقال ابن داحة : كان عبد الله بنُ عبد العزيز بنِ عبد الله بنِ عمر بن الخطاب لا يُجالسُ الناس ، ونزل مَقْبرة من المقابر ، وكان لايكاد يُرَى إلّا وفى يده كتاب يَقْرؤه ، فسُئل عن ذلك وعن نزوله المَقْبُرَة، فقال : لم أرَ أوْعظَ من قبْر ، ولا أمتَع من كتاب ، ولا أسْلَم من الوَحْدة؛ فقيل له : فقد جاء فى الوَحْدة ما قد جاء ، قال : ما أفسدَها للجاهل وأصلحها للعاقل !

وضروب من الخُطوط بعد ذلك تَدُلّ على قدر مَنْفَعة الخطّ ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ وقال الله عز وجل : ﴿فِى صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ وقال : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ وقال : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ وقال : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ .

الترغيب فى اصطناع الكتب

(وبعد أنْ تكلّم عن الخطّ فى الأرض عند التفكّر وما قيل فى ذلك من الأشعار، وذَكَر الخطّ ومِقْدار الحاجة اليه ، وتاريخَ الشعر قبل الإسلام، وبيان أنّ فضيلته مقصورة على العرب، آستطرد القول بالترغيب فى اصطناع الكُتُب) فقال :

« إنّ على مَن شكر المعرفة بمَغاوِى الناس ومَراشِدِهم ومَضارِّهم ومَنافِعِهم ، أنْ يَحتَمِل ثِقَل مَؤونتهم فى معرفتهم ، وأنْ يتوخّى إرشادهم وانْ جهِلوا فضل ما يُسْدَى اليهم . ولن يُصان العِلْم بمثل بذله ، ولن تُسْتَبْقَى النعمة فيه بمثل نشره . على أنّ قراءة الكتب أبلغُ فى إرشادهم من تلاقيهم ، إذ كان مع التلاقى يشتدّ التصنع ، ويَكْثر التظالُم ، وتُفْرِط العَصَبِيّة ، وتقْوَى الحمِيّة ؛ وعند المُواجهة والمُقابلة يشتدّ حُبّ الغَلَبة ، وشهوة المُباهاة والرياسة مع الآستحياء من الرجوع ، والأنفة من الخُضوع ؛ وعن جميع ذلك تحدُث الضغائن ويظهر التبايُن ؛ فاذا كانت القلوب على هذه الصفة وعلى هذه الهيئة ، آمتنعت من التعرف ، وعَمِيت عن موضع الدّلالة ؛ وليست للكتب عِلّة تمنع من دَرْك البُغْيَة ، واصابة الحُجّة ، لأن المُتوحّد بدرسها والمُنفرِدَ

بفَهْم معانيها ، لا يُباهى نفســه ، ولا يُغالبُ عقــلَه ، وقد عدم من له يباهى، ومن أجله يغالب؛ والكتاب قد يفضــل صاحبَه و يتقدّم مؤلِّفَه، و يرجح قلمُه على لسانه بأمور :

منها، أنّ الكتاب يُقرأ بكلّ مكان، و يَظْهر ما فيه على كلّ لسانٍ، و يوجد مع كلّ زمان على تفاوت ما بين الأعصار، وتَباعُد ما بين الأمصار، وذلك أمرٌ يستحيل فى واضع الكتاب، والمنازع بالمسألة والجواب ؛ ومُناقلة اللسان وهدايتُــه لا تجوزان مَجْلِسَ صاحبــه ، ومَبلَغَ صَــوته؛ وقد يذهب الحكيم وتبقَى كُتبهُ، و يفنَى العقلُ ويبقَى أثرُه . ولولا ما تَسمّت لنــا الأوائلُ فى كُتبها، وخلّدت من عجيب حِكْمتها، ودوّنت من أنواع سِــيرَها، حتّى شاهَدْنا بها ما غاب عنّا، وفتحنا بها كلّ مُسْتغلَق كان علينا، فجمعنا الى قليلنا كثيرَهم، وأدركنا مالم نكن نُدْركُه إلّا بهــم ، لقد خسّ حظّنا من الحكمة ، وضعف سببُنا الى المعرفة ؛ ولو أُلجئنا الى قــدر قوتنا، ومبلغ خواطرنا، ومنتهى تَجْربتنا لِمــا تُدْركه حواسُّــنا وتشاهده نفوسُنا، لقد قلّت المعرفة، وقصُرت الهِمّة، وانتقَضت المُنّة، وعاد الرأى عقيما، والخاطر فاسدا، ولَكَلّ الحدُّ، وتبلّد العقلُ . وأ كثرُ من كتبهم نفعًا، وأشرفُ منها خَطَرا، وأحسنُ موْقعا، كُتُب الله تعالى التى فيها الهُدَى والرحمة ، والإخبار عن كل عِبرة ، وتعريفُ كلّ سيّئة وحَسنةٍ . وما زالت كتب الله تعــالى فى الألواح والصحف والمَهارِق(١) والمصاحف ، فقــد قال الله عزّ وجلّ : ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيــهِ﴾ وقال : ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ و يقال لأهل التوراة والإنجيل : أهل الكتاب . و ينبغى أن يكون سبيلُنا لمن بعدَنا كسبيل مَن كان قَبلَنا فينا . على أنّا قد وجدْنا من العِبْرة أ كثرَ مما وجدوا، كما أنّ مَن بعدَنا يجد من العِــبْرة أ كثرَ ممــا وجدْنا، فما ينتظر العالِم بإظهار ما عِنْده، وما يمنع الناصرَ للحق من القيام بمــا يلزمُه ، وقد أمكن القوْلُ، وصلُح الدهر، وهوَى نجمُ التقيّــة ، وهبت ريحُ العلماء، وكسَد العِىّ والجهــل ، وقامت سوق البيان والعلْم . والإنسان ليس يجد فى كلّ حالٍ إنسانا

(١) المهارق جمع مهراق ، وهو ثوب حرير أبيض يسقى بالصمغ و يصقل ثم يكتب فيه ، فارسىّ معرّب .

يُدرِّسه ومقوّما يُثقّفه، والصبر على إفهام الرَّيِّض شديدٌ، وصرف النفس عن مُغالبة العالِم أشدُّ منه هما .

والمتعلم يجد فى كلّ مكان الكتاب عتيدًا، وبما يحتاج اليه قائما . وما أكثر من فرّط فى التعلّم أيّامَ خمول ذكره وأيّام حداثة سِنّه . ولولا جياد الكتب وحَسَنُها، ومُبَيَّنُها ومُختصرُها، ثم تحرّكت هِمَم هؤلاء لطلب العلم،ونازعت الى حب الأدب، وأنفت من حال الجهل وأنْ تكون فى غِمار الحَشْو لَدَخل على هؤلاء من الضرر والمَضَرّة والجهل وسوء الحال ما عسى ألّا يمكن الإخبار عن مِقداره إلّا بالكلام الكثير .

ولذلك قال عمر رضى الله تعالى عنه : تَفقّهوا قَبل أنْ تُسَوَّدوا . وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين سَنَة، ولا يعدّ فقيها ولا يجعل قاضيا؛ وما هو إلّا أن يَنْظر فى كتب أبى حنيفة وأشباه أبى حنيفة،ويحفَظ كتب الشروط فى مقدار سنة أو سنتين حتّى تمرّ ببابه فتظُنّ أنّه باب بعض العمال؛ وبالحَرى ألّا يمرّ عليه من الأيّام إلّا اليسيرُ حتّى يصيرَ حاكما على مصرٍ من الأمصار، أو بَلْدةٍ من البُلْدان .

وينبغى لمن كتب كتابا ألّا يكتبه إلّا على أنّ الناس كلّهم له أعداء، وكلّهم عالِم بالأمور، وكلّهم متفرّغ له؛ ثمّ لا يرضَى بذلك حتّى يدَعَ كتابه يغبّ ويختمر، ولا يثق بالرأى الفطير؛ فإن لابتداء الكتاب فِتنةً وعُجْبا، فإذا سكَنت الطبيعة وهدأَت الحركة، وتراجعت الأخلاط، وعادت النفس وافرةً، أعاد النظر فيه وتوقّف عند فُصوله توقّف مَن يكون وَزْنُ طمعه فى السلامة أنقصَ مِن وزن خَوْفه من العيب، ويتفهّم معنى قول الشاعر :

إنّ الحديثَ تَغُرُّ القومَ خَلوتُه * حتّى يكونَ لهم عِيٌّ وإكْثارُ

ويقف عند قولهم فى المثل : "كُلُّ مُجْرٍ فى الخَلاء يُسَرّ"، فيخاف أن يعتريه ما يعترى من أجرَى فرسَه وحْدَه، أو خلا بقلمه عند فقد خصومه وأهل المزية من أهل صناعته . وليَعلم أنّ صاحبَ القلم يعتريه ما يعترى المُؤدِّب عند ضربه وعقابه؛ فما أكثرَ مَن يعزِم على

عشرة أسواط فيَضْرِبُ مائة، لأنه ابتــدأ الضرب وهو ساكنُ الطباع فأراه الســكونُ أنّ الصواب فى الإقلال ، فلمّا ضرب تحرّك دمُه فأشاع فيــه الحرارةَ وزاد فى غضبه، فأراه الغضب أنّ الرأى فى الإكثار؛ وكذلك صاحب القلم، فــا أكثرَ مَن يبتدئ الكتّاب وهو يُريد مِقْــدار سَطرَيْن فيكتب عشرة . والحفظ مع الإقلال أمكــنُ ، وهو مع الإكثار أبعــد .

وٱعلم أنّ العاقل إنْ لم يكن بالمتبع فكثيرًا ما يُغَرّ من ولده ويَحْسُن فى عينه منــه القبيح فى عين غيره ، فليعلم أنّ لفظه أقرب اليه نسبا من ابنه ، وحَركَته أمسُّ به رَحِما من ولده؛ لأنّ حركته شيءٌ أحدثه من نفسه وبذاته، ومن عين جوهره فصلت، ومن نفسه كانت، وإنّمــا الولد كالمَخْطَة يَتَمَخّطها، وكالنُّخامة يقذفها ، ولا سواءٌ إخراجك من نفسك شيئا لم يكن منــك ، وإظهارُك حركةً لم تكن حتى كانت منك ؛ ولذلك تجــد فِتْنة الرجل بشِعره وفِتْنته بكلامه وكتبِه، فوق فِتْنته بجميع نِعْمَتِه .

وليس الكتّاب الى شىء أحْوَجَ منــه الى إفهام معانيه حتّى لا يحتاجَ السامع بمــا فيه الى الروية فيه . ويحتاجُ من اللفظ الى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السَّفلة والحَشْو، ويَحُطّه عن غريب الأعراب ، وَوَحْشِىّ الكلام . وليس له أن يهــذّبه جدّا ويُنقّحه ويصفّيه ويُرَوّقه حتّى لا ينطقَ إلّا باللبّ وبالسِّرّ، وباللفظ الذى قد حذف فُضوله وتعرّقَ زوائده، حتّى عاد خالصا لا شَوْب فيه؛ فإنه إن فعل ذلك لم يُفْهم عنه إلّا بأنــ يُجدّد لهم إفهاما وتَكْرارا، لأنّ الناس كلّهم قد تعودوا المبسوط من الكلام ، وصارتْ أفهامُهم لا تزيد على عاداتهم إلّا بأنْ تُعطَس عليها وتُؤْخذَ بهــا ؛ ألَا تَرَى أنّ كتّاب المَنْطق الذى قد وُسم بهذا الأسم لو قرأتَه على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأَعْراب لمــا فهموا أكثره ؛ وفى كتّاب إقليدس، كلام يدور وهو عربى وقد صُفِّىَ، ولو سمعه بعض الخطباء لمَــا فهمه، إلا بأن يُفهِّمَه مَن يريد تعليمه ؛ لأنه يحتاج الى أن يكون قد عَرَف جِهَة الأمر، وتعوّد اللفــظ المَنْطِق الذى استُخْرِج من جميع الكلام .

وقد قال معاوية بن أبى سُفيان رضى الله تعالى عنهما لصُحَار العَبْدى : ما الإيجاز ؟ قال أنْ تجيب فلا تُبْطِئ ، وتقولَ فلا تُخطِئ؛ قال معاوية : أوكذاك تقول . قال صُحَارٌ : أقِلْنِي يا أمير المؤمنين، لا تُخطِئ ولا تُبْطِئ . فلو أنّ سائلا سألك عن الإيجاز فقلتَ : لا تُخطِئ ولا تُبْطِئ وبحضرتك خالد ابنُ صفوان لَمَا عرَف بالبديهة وعند أوّل وَهْلة أنّ قولك لا تُخطِئ مُضمّن بالقول، وقولَك لا تُبْطِئُ مضمّن بالجواب . وهذا حديث — كما ترى — قد ارتضوْه ورووْه ؛ ولو أنّ قائلا قال لبعضنا : ما الإيجاز ؟ لظننتُ أنه كان سيقول الاختصار والإيجاز ، ليس يعني به قلّة عدد الحروف واللفظ . وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يَسَعُ بطن طُومار[1] فقد أوجز، وكذلك الإطالة . وإنما ينبغي أن يحذف بقدر مالا يكون سببا لإغلاقه ولا يُرَدِّد وهو يُكْتفَى فى الإفهام بشطره، فما فَضَل عن المقدار فهو الخَطَل .

وقلت لأبى الحسن الأَخْفَش : أنت أعلم الناس بالنحو، فلِمَ لا تجعل كتبَك مَفْهومةً كلَّها؟ وما بالنا نفهم بعضَها ولا نفهم أكثرَها، وما بالك تُقَدِّم بعض العويص وتُؤَخِّر بعض المفهوم؟ قال : أنا رجل لم أضع كتبي هذه لله، وليست هى من كتب الدِّين، ولو وضعتُها هذا الوضع الذى تدعونى اليه قلَّت حاجاتُهم إلىّ فيه ، وإنّما غايتى المَنالة ، فإذاً أضع بعضها هذا الوضع المفهوم لتدعُوَهُم حلاوةُ ما فهموا الى التماس فهم ما لم يَفْهموا ، وأنا قد كسَبتُ فى هذا التدبير اذ كنتُ الى التكسُّب ذَهبتُ ، ولكن ما بالُ ابراهيم النظّام وفلان وفلانٍ يكتبون الكتب لله بزعمهم، ثمّ يأخذُها مِثلى فى موافقته وحسن نظره وشِدّة عِنايته ، فلا يفهم أكثرَها ؟

وأقول لو أنّ يوسف السَّمْتِيّ كتب هذه الشروطَ أيّام جَلَس سَلْمان بن ربيعةَ شهرَيْن للقضاء فلم يتقدّم اليه رجُلان والقلوبُ سليمةٌ والحقوق على أهلها مُوَفَّرة ، لكان ذلك خَطَلا ولَغْوا ، ولو كتب فى دهرنا شروطَ دهر سَلْمان لكان ذلك غَرارَة ونَقْصا ،

(١) الطومار : الصحيفة .

وجَهْلا بالسياسة وما يَصْلُح لكلّ دهر؛ ووجدنا النــاس اذا خَطَبُوا فى صُلْح بين العشائر أطالوا ، واذا أَنْشَدوا الشــعر بين السِّماطَيْن فى مدح الملوك أطالوا؛ فللإطالة مَوْضِعٌ وليس ذلك بخَطَل، وللإقلال موضعٌ وليس ذلك مِن عجز .

ولو لا أنّى أتكل على أنّك لا تَمَلّ باب القول فى البعير حتّى تخرُج الى الفيل،وفى الذَّرّة حتّى تخرُج الى البَعُوضة ، وفى العقرب حتّى تخرُج الى الحيّــة، وفى الرجُل حتّى تخرُج الى المرأة، وفى الذِّبّان والنَّحْل حتّى تخرُج الى الغِرْبان والعِقْبان ، وفى الكَلْب حتى تخرُج الى الديك، وفى الذّئب حتّى تخرُج الى الضَّبُع، وفى الظِّلْف حتّى تخرُج الى الحافر، وفى الحافِر حتّى تخــرُج الى الخُفّ ، وفى الخُفّ حتّى تخرُج الى البُرْثُن ، وفى البُرْثُن حتّى تخرُج الى المِخْلب؛ وكذلك القولُ فى الطــير وعامّة الأصــناف ، لَرأيتَ أنّ ذلك يُوجب المَلال، ويُعْقِب الفَتْرة المــانعة من البلوغ فى الفهم، وتَعَرُّف ما يُحتاج منه الى التعرُّف، فرأيت أن جُملة الكتاب و إنْ كثُر عدد ورقه،أنّ ذلك ليس ممّــا تَمَلّ من كثرة قراءته أبدا وتَعتدّ علىّ فيــه بالإطالة ، لأنّه و إنْ كان كتابا واحدا فانّه كُتُب كثيرة، وكلّ مصحف منهــا أمّ علَى حِدَة . فانْ أراد قراءة الجميع لم يطُل عليه الباب الأوّلُ حتّى يهجُم على الثــانى ، ولا الثانى حتّى يهجُم على الثالث ، فهو أبدا مُستفيد ومُستَطْرِف ، وبعضه يكــونُ جَماما لبعض ، ولا يزال نشاطُه زائدا ، ومتَى خرَج من آى القــرآن صار الى أثَر ، ومتى خرَج من أثَر صار الى خبر، ثم يخرُج من الخبر الى شــعر، ومِن الشعر الى نوادِرَ، ومن النوادِر الى حِكَم عقليّة ومقاييس سِدادٍ ، ثمّ لا يترك هذا الباب فلعلّه أن يكون أثقل، والملالُ اليه أسرعَ، حتّى يُفْضَى به الى مَزْح وفُكاهــة والى سُخْف وخُرَافة . ولست أراه سخفًا إذ كنت إنّمــا استعملت سِــيرَة الحكماء ومأدُبَة العلمــاء ، ورأينا الله تبارك وتعــالى اذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مُخْرج الإشارة والوَحْى والحَــذْف ، واذا خاطب بنى إسرائيــل أو حَكَى عنهم جعله مبسوطا وزاد فى الكلم . فأصوب العمل اتّباع آثار العلماء والاحتذاءُ

على مثال القدماء ، والأخذُ بما عليه الجماعة . وقال آبن يَسِير فى صفة الكُتُب فى كلمة له :

أَقبلْتُ أهرُب لا آلو مُباعَدَةً * فى الأرض منهم فلم يُحْصِنِّى الهَرَبُ
بِقَصْر أَوْسٍ فما والَتْ خَنادِقُهُ * الى النّواوِيسِ فالماخُورُ فالحَرِبُ
فأَيْما مَوْئِلٍ منها آعتصمتُ به * فمِن ورائِى حَثِيثًا منهُمُ الطّلَبُ
لمّا رأيتُ بأنّى غيرُ مُعجِزِهِمْ * فَوْتًا ولا هَرَبًا قَرّبت أحْتَجِبُ
وصِرْتُ فى البيت مَسْرورًا به جَذِلًا * جارًا لِبَوْءة لا شَكْوَى ولا شَغَبُ
فَرْدًا تُحدّثنِى المَوْتَى وتَنْطِق لِى * عن علم ما غاب عنّى منهُمُ الكُتُبُ
همْ مُؤْنِسُونَ وأُلّافٌ غَنِيتُ بِهِمْ * فليس لى فى أنِيسٍ غيرِهِم أَرَبُ
لله من جُلَسَاءٍ لا جَلِيسهُمُو * ولا عشيرُهُمُو للسُّوءِ مُرْتَقِبُ
لا بادِراتِ الأَذَى يَخْشَى رفيقُهُمُ * ولا يُلاقِيهِ منهُمْ مَنْطِقٌ ذَرِبُ
أبقَوْا لنا حِكَمًا تَبْقَى منافِعُها * أُخْرَى اللّيالِى على الأيّام وآنْشَعبوا
فأيْما أدَبٍ منهُمْ مَدَدتُ يدِى * يومًا إليه فدانٍ مِن يدى كثَبُ
إنْ شئتُ مِن مُحْكَم الآثارِ يَرْفَعُها * الى النبىّ ثِقاتٌ بَرَرَةٌ نُجُبُ
أو شئتُ مِن عَرَبٍ عِلْمًا بأوّلها * فى الجاهليّة أنبَتْنِى به العَرَبُ
أو شئتُ من سِيَرِ الأمْلاكِ مِنْ عَجَمٍ * تُنْبِى وتُخْبِر كيفَ الرأْىُ والأَدَبُ
حتّى كأنّى قد شاهدْتُ عصرَهُمُو * وقد مضَتْ دونَهُ مِن دهرِهم حِقَبُ
يا قائلًا قَصُرَتْ فى العِلْمِ نُهيَتُهُ * أَمْسَى الى الجَهْل فيما قال يَنْتَسِبُ
إنّ الأوائلَ قد بانوا بعلْمِهِمُ * خلافَ قولِك قد ماتوا وقد ذهبوا
ما مات منّا امْرُؤٌ أبقَى لنا أدبًا * يكونُ منه اذا ما مات يُكتَسَبُ

وقال أبو وجْزة وهو يصف صحيفة كُتِبَ له فيها بستّين وَسْقا :

راحتْ بستّينَ وَسْـقا فى حَقيبتها * ماحُمِّلَتْ حِمْلَها الأدنى ولا السَّدَدا
ولا رأيتُ قلوصًـا قبْلَها حَمَلَتْ * سِـتّين وَسْـقًا ولا جابتْ بها بلَدا

وقال الراجز :

تَعلَمنْ أنّ الدواةَ والقلمْ * تَبقَى ويُفْنى حادثُ الدَّهرِ الغَنَمْ

يقول كتابُك الذى تَكْتُبُه علىّ يبقَى فتأخُذُنِى به وتذهب غَنَمى فيما يذْهَب . وممـا يدُلّ على نفع الكتّاب أنّه لولا الكتّاب لم يجُزْ أنْ يعلَم أهل الرَّقّة والمَوْصِلِ وبَغْداد وواسطَ ما كان بالبصرة وحدث بالكوفة فى بياض يوم، فتكون الحادثة بالكوفة غُدْوَةً فيعلمُها أهل البصرة قبل المَساء .

وذلك مشهور فى الحَمَـام الهُدَّى : اذا جُعلت بُرُدا قال الله جلّ وعزّ ، وذكر سُلَيمانَ ومُلْكَه الذى لم يُؤْتِ أحدًا مثلَه ، فقال : ﴿وتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فقَالَ مَالِىَ لَا أَرَى الهُـدْهُدَ﴾ إلى قوله : ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ . فلم يلبث أن قال الهُدْهد : ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّى وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَـا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ . قال سليمان : ﴿اذْهَبْ بِكِتَابِى هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ وقد كان عنده من يُبَلِّغ الرسالة على تمامها من عِفْريت ومن بعض مَن عنــده عِلْم من الكتاب فرأى أنّ الكتّاب أبهَى وأنبَلُ وأكرم وأفخم من الرسالة عن ظهر لسان وإنْ أحاط بجميع ما فى الكتّاب . وقالت ملِكة سبأ : ﴿يَأَيُّهَـا المَـلَأُ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ فهذا ممّـا يدُل على قدر اختيار الكُتُب وقد يريد بعض الجِلّة الكبار وبعضُ الأدباء والحكماء أن يدعو بعضَ مَن يجرى مجراه فى سلطان أو أدب الى مأْدبة أو ندام أو خروج الى مُتَنَزَّه أو بعض ما يُشبه ذلك، فلو شاء أن يُبَلِّغه الرسول إرادته ومعنـاه لأصاب مَن يحسن الأداء ويَصْدُق فى الإبلاغ فيرَى أنّ الكتّاب فى ذلك أسرَى وأنبه وأبلغ ولو شاء النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ألّا يكتب الكُتُب الى كِسرَى وقَيصر والنجاشىّ

والمُقَوقِس و إلى بنى الجَلَنْدَى و إلى العَباهِلَة من حِمْيَر و إلى هَوْذَة بن على و إلى الملوك العظماء والسادة النُّجباء لفعل ولوجَد المُبلِّغ المعصومَ من الخطإ والتبـديل، ولكنّه عليه السلام علم أنّ الكتاب أشـبه بتلك الحال، وأليـق بتلك المراتب، وأبلغ فى تعظيم ما حواه الكتاب ، ولو شاء الله أن يجعـل البشارات على الألسِـنة بالمرسلين ولم يودعْها الكتب لفعل ولكنّه تعـالى وعزّ علِم أنّ ذلك أتمّ وأكمل ، وأجمـع وأنبل ؛ وقد يكتُب بعض من له مرتبـة فى سلطان أو دِيانة الى بعض مَن يشاكله أو يَجْرى مجراه فلا يرضَى بالكتاب حتّى يَخْزِمـه ويَخْتِمه، وربّمـا لم يرضَ بذلك حتّى يُعَنونه و يُعظِّمه .

قال الله جل وعز : ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى و إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ فذكر صُحُف موسى الموجودة وصُحُف إبراهيم البائدة المعـدومة ليُعرِّف النـاس مِقدار النفع والمصلحة فى الكتب . قالوا : وكانت فلاسفة اليونانيّة تُوَرِّث البناتِ العينَ وتورّث البنين الدَّيْن ؛ وكانت تَصِل العجز بالكفاية والمَؤُونة بالكُلفة وكانت تقول : لا تورّثوا الآبن من المـال إلاّ مايكون عَوْنا له على طلب المـال، وآغذوه بحلاوة العِلْم وآطبعوه على تعظيم الحِكْمة ليصير جمعُ العِلْم أغلبَ عليه من جمع المـال، وليَرَى أنه العدّة والعَتادُ، وأنه أكرم مُسْتفاد، وكانوا يقولون : لا تُوَرِّثوا الآبن من المـال إلاّ ما يَسُد الخَلّة، و يكون له عونا على دَرْك الفضول إنْ كان لا بدّ من الفضول، فإنّه إنْ كان فاسدا زادت تلك الفضولُ فى فساده، وإنْ كان صالحا كان فيما أورثتموه من العِلْم، و بقّيتم له من الكفاية ما يَكْسِبه الحال، فإنّ الحال أفضل من المـال، ولأنّ المـال لم يزل تابعا للحال، وقد لا يَتْبَع الحالُ المـال ، وصاحب الفضول بعَرَض فسادٍ وعلى شَـفا إضاعة مع تمـام الحُنْكة وآجتماع القوة ؛ فمـا ظنُّكم بها مع غَرارَة الحـداثة وسوء الآعتبار وقلّة التّجربة ! وكانوا يقولون : خير ميراث ما كسبك الأركان الأربعـة، وأحاط بأصول المَنْفعة وعجّل لك حلاوة المحبّة، و بقّى لك الأُحدوثة الحسَنة ، وأعطاك عاجل الخير وآجله، وظاهرَه و باطنه ؛ وليس يجمع ذلك إلّا كرام الكتب النفيسة المشْتملة على ينابيع العِـلْم ، والجامعة لكنوز الأدب ومعرفة الصـناعات وفوائد الإرْفاق ؛

وبحجج الدِّين الذى بصحّته وعنـد وضوح برهانه تسكن النفوس وتَثلَج الصـدور، ويعود القلب معمـورا ، والعزّ راسخا ، والأصـل فسيحا ؛ وهذه الكتب هى التى تَزيد فى العقل وتَشحَذه، وتُداويه وتُصلِحه، وتُهذِّبه وتنفى الخبَث عنـه، وتُفيدك العلم وتُصادق بينـك وبين الحُجّة، وتُعوّدك الأخذ بالثقة وتَجلُب الحال وتَكسِب المـال. ووراثة الكتب الشريفة والأبواب الرفيعة مَنْبَهة للمَورِّث وكنز عند الوارث، إلّا أنّه كنز لا تَجب فيه الزكاة ولا حقُّ السلطان، وإذا كانتِ الكنوز جامدة يَنْقصها ما أُخذ منهـا كان ذلك الكنز مائعا يزيده ما أخذ منـه، ولا يزال بها المُوَرِّث مذكورا فى الحكماء ومُنوّها باسمه فى الأسمـاء، وإماما مَتبوعا، وعَلَما مَنْصوبا، ولا يزال الوارث محفوظا، ومن أجله محبوبا ممنوعا؛ ولا تزال تلك المَحبّة ناميةً ما كانت تلك الفوائد قائمة ولن تزال فوائدها موجودة ما كانتِ الدار دار حاجة، ولن يزال مِن تعظيمها فى القلوب أثرٌ ما كان من فوائدها على الناس أثر.

وقالوا: متى وَرّثتَه كتابا وأودعتَه عِلْما فقد ورّثتَه مايُغِلّ ولا يَسْتَغِلّ، وقد ورّثتَه الضيْعة التى لاتحتاج الى إثارة، ولا الى سقى، ولا الى إسجال بإيغار، ولا الى شرط ولا تحتاج الى أكّار ولا الى أن يثار، وليس عليهـا عُشْر ولا للسلطان عليها خَرْج، وسواء أفدته عِلْمـا أو ورّثته آلة علم، وسواء دفَعْت اليه الكِفاية أو ما يَجلِب الكِفاية، وإنّمـا تجرى الأمور وتتصرّف الأفعال على قدر الإمكان، فمن لم يقدِر إلا على دفع السبب لم يَجب عليه إحضار المُسبَّب، فكتب الآباء تحبيب للأحياء، ومَحْيا لذكر الموْتى.

وقالوا: ومتى كان الأب جامعا بارعا وكانت مواريثه كتبا بارعة، وآدابا جامعة، كان الولد أجدر أن يَرَى التعلُّم حظًّا وأجدَرَ أن يُسرع التعليم إليه ويرى تركه خطأ، وأجدَرَ أن يجرى من الأدب على طريق قد أُنْهِج له، ومِنْهاجٍ قد وُطِّئ له، وأجدَرَ أن يَسْرِى اليه عِرْق مَن نَجَله وسَقْىُ من غرسه، وأجدَرَ أن يجعل بذل الطلب للكتب النظرَ فى الكتب، فلا يأتى عليـه من الأيام مِقْدار الشغل بجمع الكتب، والاختلاف فى سماع العـلم، إلا وقد بلغ بالكِفاية غايةَ الحاجة وإنّمـا تُفسِد الكفايةُ مَن تمت آدابه، وتوافت اليه أسبابه، فأمّا

الحَدَث الغَرِير، والمَنقوص الفقير. فخير مواريثه الكفاية الى أنْ يبلَغ التمام، ويكمل للطّلب. فخير ميراث وُرِّث كتبٌ وعلم، وخير المُوَرِّثين من أَوْرث ما يجمِّع ولا يُفرِّق، ويُبصِّر ولا يُعمِي، ويُعطِى ولا يأخذ، ويجود بالكلّ دون البعض، ويدَع لك الكنز الذى ليس للسلطان فيه حقّ، والرِّكازَ الذى ليس للفقراء فيه نصيب، والنِّعمة التى ليس للحاسد فيهما حيلة، ولا للصوص فيها رغبة، وليس للخَصم عليك فيه حجّة، ولا على الجار فيه مؤونة.

وأمّا ديمقراط فإنّه قال: ينبغى أن يَعرِف أنّه لا بدّ من أنْ يكون لكلّ كتاب علم وضعه أحدٌ من الحكماء ثمانيةُ أوجه، منها الهِمّة والمَنفعة، والنِّسبة والصحّة، والصِّنف والتأليف، والإسناد والتدبير. فأوّلها أن تكون لصاحبه هِمّة، وأن يكون فيما وضع مَنفعةٌ، وأن يكون له نِسبة ينسب اليها، وأن يكون صحيحا، وأن يكون على صِنف من أصناف الكتب معروفا به، وأن يكون مُؤتلفا من أجزاء خَمسة، وأن يكون مُسندا الى وجه من وجوه الحكمة، وأن يكون له تدبير موصوف. فذكر أن أَبِقراط قد جمع هذه الثمانية الأوجه فى هـذا الكتاب وهو كتابه الذى يُسمّى «أفُورِيسْمُوا» تفسيره: كتاب الفصول. وقولك وما بلغ من قدر الكلب مع لؤم أصله، وخُبث طبعه، وسُقوط قدره، ومَهانة نفسه، ومع قِلّة خيره وكثرة شرّه، وآجتماع الأمم كلّها على آستسقاطه وآستسفاله، ومع ضربهم المَثَل فى ذلك كلّه به، ومع حاله التى يُعرَف بها من العَجْز عن صَولة السباع، وآقتدارها، ومن تمنّعها وتشرّفها وتوحّشها، وقلّة إسماحها، وعن مسالمة البهائم ومُوادعتها، والتمكين من إقامة مصلحتها، والانتفاع بها، إذ لم يكن فى طبعها دفع السباع عن أنفسها، ولا الآحتيال لمعاشها، ولا المعرفة بالمواضع الحريزة من المواضع المَخُوفة. ولأنّ الكلب ليس بسَبُع تامّ ولا بهيمة تامّة حتى كأنّه من الخَلْق المُركَّب، والطبائع المُلفّقة، والأخلاط المُجتلبة، كالبغل المتلوّن فى أخلاقه الكثير العيوب المتولدة عن مِزاجه، وشرّ الطبائع ما تجاذبته الأعراق المُتضادّة والأخلاق المتفاوتة، والعناصر المتباعدة، كالراعبيّ من الحَمَام الذى ذهبت عنه هِداية الحَمَام، وشكل هديره وسرعة طيرانه، وبطَل عنه عُمْر الوَرَشان، وقوة جُناحه، وشدّة عصبه، وحسن

صوته، وشحا حلقه، وشكل لحونه وشدّة إطرابه، واحتماله لوقع البنادق، وجرح المخالب. وفى الراعبيّ أنه مُسَرْوَل مُثقل، وحدث له عِظَم بدن وثقل وزن لم يكن لأبيـه ولا لأمّه.

وكذلك البغل خرج من بين حيوانَيْن يلدان حيوانا مثلهما ويعيش نتاجهما ويبقى بقاءَهما، وهو لا يعيش له ولد وليس بعقيم، ولا يبقى للبغلة ولد وليست بعاقر؛ فلوكان البغل عقيما والبغلة عاقرا لكان ذلك أزيدَ فى قوتهما وأتمّ لشدّتهما، فمع البغل من الشبَق والنعْظ ما ليس مع أبيه، ومع البغلة من الشوَس وطلب السِّفاد ما ليس مع أمّها؛ وذلك كلّه قدح فى القوّة ونقص فى البِنْية، وخرج غُرْمولُه أعظمَ من غراميل أعمامه وأخواله، فترك شبههما ونزع الى شىء ليس له فى الأرض أصـل، وخرج أطولَ عُمْرا من أبويه وأصبرَ على الأثقال من أبويه؛ أو كابن المذكّرة من النساء، والمؤنّث من الرجال، فإنّه يكون أخبث نتاجا من البغل وأفسدَ أعراقا من السِّمْع[1]، وأكثر عيوبا من العِسْبار[2]، ومن كلّ خَلْق خُلِق اذا تركّب من ضد، ومن كلّ شجرة مُطْعمة بخلاف؛ وليس يعترى مثل ذلك الخلاسىّ[3] من الدّجاج، ولا الوَرْدانىّ[4] من الحَمَام؛ وكلّ ضَعْف دخل على الخِلْقة، وكلّ رِقة عرضت للحيوان، فعلى قدر جنسه وعلى وزن مِقداره وتمكّنه يظهر العَجْز والعيب. وزعم الأصمعىّ أنه لم يسبِق الحَلْبة فرس أهضَم قطّ. وقال محمد بن سلّام لم يسبق الحَلْبة أبلقُ قطّ ولا بَلْقاء.

والهداية فى الحَمَـام والقوّة على بعد الغاية إنّمـا هى للُصْمَتة من الخُضْر. وزعمـوا أنّ الشِّيات كلّها ضَعْف ونقص، والشِّيَة: كلّ لون دخل على لون. وقال الله جلّ وعزّ: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْـقِى الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَاشِيَةَ فِيهَا﴾. وزعم عثمان ابن الحكم أنّ ابن المذكّرة من المؤنّث يأخذ أسوأ خِصال أبيـه وأردأ خِصال أمّه فتجتمع

---

(١) السمع بكسر السين و إسكان الميم و بالعين المهملة : ولد الذئب من الضبع وهو سبع مركب فيه شدّة الضبع وقوّتها وجراءة الذئب وخفته (راجع حياة الحيوان للدميرى ج ٢ ص ٣٢). (٢) العسبار بكسر العين وبالسين الساكنة والأنثى عسبارة : ولد الضبع من الذئب وجمعه عسابر (راجع حياة الحيوان للدميرى ج ٢ ص ١٣٩). (٣) الخلاسى : الولد بين أبوين أبيض وأسود، والديك بين دجاجتين هندية وفارسية. (٤) الوردانى بالراء المهملة طائر متولد بين الورشان والحمام وله غرابة لون وظرافة قدّ.

فيه عِظام الدواهى وأعيان المساوى، وأنّه اذا خرج كذلك لم يُنْجِع فيه أدب ولا يَطْمع فى علاجه طبيب، وأنّه رأى فى دور ثقيف فتًى آجتمعت فيه هذه الخصال ، فما كان فى الأرض يوم إلّا وهم يتحدّثون عنه بشىء يَصغُر فى جنْبه أكبرُ ذنب كان ينسب اليه .

وزعمت أنّ الكلب فى ذلك كالخُنْثَى الذى هو لا ذكر ولا أنثى، أو كالخَصِىّ الذى لمّا قُطِع منه ما صار به الذكر فلا خرج من حدّ كمال الذكر بفقْدان الذكر، ولم يكمُل لأن يصير أنثى للغريزة الأصليّة وبقيّة الجَوْهريّة ،وزعمتَ أنّه يصير كالنبيذ الذى يُفْسده إفراط الحرّ، فيُخرجه من حدّ الخلّ، ولا يُدخله فى حدّ النبيذ . وقال مِرْداس بن خِدام :

سَقَيْنا عِقالًا بالثَّوِية شَرْبةً * فمالتْ بلُبِّ الكاهِلِىّ عِقالِ
فقلتُ اصْطَبِحْها يا عِقالُ فإنّما * هى الخمرُ خَيّلْنا لها بخَيالِ
رَمَيْتُ بأمّ الخَلّ حبّةَ قلبِه * فلم يَنْتعِش منها ثلاثَ ليالِ

فجعل الخمر أمّ الخلّ قد يتولّد عنها ، وقد يتولّد عن الخلّ اذا كان خمرًا مرّةً الخمرُ .

وقال سَعيد بن وَهْب

هلّا وأنتَ بماء وجهك تُشْتَهَى * رُودُ الشباب قليلُ شَعْر العارض
فالآن حين بدَتْ بخدّك لِحيةٌ * ذهبَت بمِلْحك ملءَ كفّ القابض
مثلَ السُّلافة عاد خمْر عصيرها * بعدَ اللّذاذة خَلَّ خمْر حامِض

ويصير أيضا كالشِّعر الوسَط والغناء الوسط ، والنادرة الفاترة التى لم تخرج من الحرّ الى البَرْد فتُضحكَ السنّ ولم تخرج من البَرْد الى الحرّ فتُضْحك السنَّ .

باب الرسائل

١ — الفصول المنتخبة من الرسائل المختارة فى كل فن[1]

كتب رجل الى صديق له :

إن آباءك شادوا أكارمَهم بالفضائل التى كانت فيهـم ، وإنك قد كنت أخذت فى مَدْرجتهـم فأوفيتَ على غايتهم، ثم آختلجك الهوى ببعض جَدِيلتك[2] وجودك، من لباس فضلك الذى كنتَ تطُول به على أكفائك، وتملِك به أعنّـة كافّة جندك، وألقيت مالك على شرّ عواقبه عليـك لا لك إن زلت مكاره بوادِره عنك .

فصـــل — قيل : إن مروءة الرجل فى نفسه نَسَبٌ لقوم آخرين، فإنه اذا فعل الخير عُرِف له ، وبَقِى فى الأعقاب والأصحاب، ولَقِيَه يوم الحساب .

فصـــل — إن حقّ الله على المسلمين أن ينظروا فى دينهم بالنّصيحةِ لأَئمتهـم ، فإن الأئمة اذا صلَحوا بُدّل الهـوى بالتقوى فى قلوبهم ، وماتت سَوْرة الغضب فيهـم لأحلامهم، وسكنت العـامّة الى عدلهم وذلّت لإنصافهم . واذا كان للحسن من الحـق ما يُقنعه، وللظالم من النّكير ما يَقْمَعه ، بذَل المحسنُ الحقّ عليه رغبةً، وذَلّ المسىء بالحق عليـه رهبةً . فأوّل ما آمرك به رَجاء الله وتقـواه . فأما رجاؤه فأن تُحْسِن به فى الصُّـنع اذا آطلعتَـه ، ويكون لك وِقاية اذا آثرته مطمئنا . وأما تقـواه فأن تكون له فيما أَمَرك به ونَهاك عنـه مُراقِبا؛ فإن تَقِيّة المؤمن تزيد فى آنشراح صدره، وإن شـدّة خوفه تَرُدّ هواه على عقـــله .

---

(١) نقلا عن اختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور .

(٢) الجديلة : الناحية والحالة والطريقة .

فصــــل — تنبّه اذا نُبّهت، وآذكر اذا ذُكّرت، وآنتفع فقد وُعظت، وآسمع فقد نُوديت، نبّهك الوعيـدُ، وحذّرك الزاجر، وأَمَرك ونهـاك الكتاب، ونَعَتْك آثارُ الموت، ودعاك الى الجنة مَلِيء جواد، فالجدّ الجدّ، فقبل المهجرة يُريح المُدْلِج .

فصــــل — ما نظرتُ فى معروف عنـد أحَدٍ، فوجدتُه قصُر عن أمله وكان يمكننى أن يكون أكثر منه، إلا عددتُه سيئةً لى عنده ، لأنى ذوقتُه ما أحَبَّ ، ثم منعتُـه إياه ، وكأنى قصدتُ لإشخاص قلبه . ولا نظرت فى معروف عند أحد فوجدته قد تَنَاهى عند تناهى أمله وكان يمكننى أن يكون أكثر منه، إلا رأيتُنى فى ذلك واترًا لنفسى، لأنه كفى عَيبا لهـا و إزْراء بها ، أن أقنع ...[1] فضل تتخذه بمثل ما أقنع رجلا من فضل يتخذه عليــه .

فصــــل — ما أنتَ ممّن يعلَم مِنْ جَهْل به ، ولا تُحَسّ منه بادرة زَلّة ، ولا يقابل بين أمرين إلا عرَف خيرَهما فآثره، وشرَّهما فاجتنبه. وقد رأيتَ ما ساقت اليـك الطاعةُ من حظّ العاجلة، فلا تتعرض لزوال ما أنت فيه ، فتخسر الحظّين ، وتندم فى الدّارين، فقـد رأيت من عانَد الحقّ كيف صَرعه الله و بسـط يدَ وَلِيّـه على سـفك دمه، و إحلال النّقمة به، فصار بعد أن كان فى الأُمنيّة مثلا ، و لجميع الخلق غاية وأملا ، فكرةً فى الاعتبار، وعِظـةً للأبصار . فلا يُبعـد الله إلا من ظَلَم وخَتَر، وذهب عن الحقّ وأدْبَر. وأنت اليوم مُحَكّم فى أمرك، مخـيّر فى رأيك، تُدْعى الى حظّك بالحظ الجزيل بتدلّل. فاهْتبِل ما قـد هَدَف لك وهو مُمْكن ليـدك، فإنك إن أهمَلت وتراخيت، لم يكن بالحقّ ووليّـه وحشة اليك ، ومضتْ أحكام الله فى نصرها وتأييدها على أذْلالها[2] ، وصَفِرت يدُك بمـا لا يُشْرِف لك بمثله ، وأَخطرتَ بدمك وأسَلْتَه أخبث مَسـيل وأضَلّ سبيل، حيث لا تبكى عليك السماءُ والأرض .

(١) بياض فى الأصل . ولعله : أن أقنع نفسى بفضل أتخذه بمثل ماأقنع رجلا الخ .

(٢) على أذلالها : على وجوهها وطرقها .

فصـــــل — الناس رجلان : عالمٌ لا غِنًى به عن الازدياد، وجاهلٌ به أعظم الحاجة الى التعلم ، وليس فى كل حال يكون العالم لما يَبْدَهُه من الأمور مُعِدًّا ، ولا المتعلِّم على ما يستفيد منه قادرا وقِيًا .

فصـــــل — إن أنت عَطَّلتنا من أمورك ، وأعفَيْت ظهورنا من أثقالك ومؤونتك ، وتركتنا أَغْفَالا فى ولايتك من تنبيهك وتحريكك ، فقد أنزلتنا منزلةَ من لا خير عنده، وجعلت نفسك أُسْوةَ من لا مُعين له ، وكفى بذلك ظلما .

فصـــــل — إن إعلامى إياك ... غير محـــدِّد[1] شيئا ، ولكنه أقــرب من الجميـــل فى معرفة عذر المعتذر، وأحمل للآئمة على المسيء المقصّر .

فصـــــل — الذى آعتمدنا عليه من رأيك، ونثق به من جميل نظرك، قد خلَطَنى بأهل صنائعك، والخاصّة من ثِقاتِك، وبَسَط أملى فيك الى غاية خير يُرتجى، أو جزيل حظّ يُؤَمَّـــل .

فصـــــل — ليس يَسُوغ لأحد فى الأمير أمَل، ولا يتوجّه اليه منه رغبة، ولا يلزمه فى قضاء حقه، ودنانة[2] مؤونته إلّا وفضلُه مستغرِق لها .

فصـــــل — من أحمـد الأمور وأجمل المذاهب، ما كان آخرُه موصولا بأوّله ، ومؤدِّيًا بَدْؤه الى حَمْد عاقبته ؛ فحافِظ على الأمور التى حَسُن فيها عنـد أمير المؤمنين أثرُك ، مستقِلّا فيها لكثير ما يكون منك ، مُعْتَدًّا بها فى النعم عندك، والإحسان الواصل اليـك ، فيما يوفقك الله له منها ويخصّك به من الفضل فى آختيارها ، وأمير المؤمنين يستحفظه الله لك، ويستمتعه فى النعمة فيك .

فصـــــل — قد كان يجب أن تجعلنا بمتابعة النّعم علينا فى خاصّـة الشاكرين لفضلك، ولا تجعلنا بتواتر الإساءات الينا فى عامّة الشاكين لك .

(١) بياض فى الأصل . ولعل الكلمة المتروكة «بحاجتى» . والظاهر أن كلمة «محدّد» محرّفة عن كلمة «مجد» .

(٢) كذا بالأصل .

فصـــل — علمي بما بنى اللهُ عليه أخلاقَ الأمير أكرمه الله، وجعل عليـه رأيه فى بسط العدل على رَعيّته، وبثّ الفضل على مُلْتمِسى فضلِه، يبعثنى على الكتّاب فى مثل ما كتبتُ اليـه فيه، من ظُلامة مظلوم يستعيذ فيها بعدله، وحاجةِ ملهوف يَرجع فيها الى فضـله؛ فأجمعُ الى ما ألتمس من الثواب فى ذلك مُوافقةَ رأى الأمير، وإذكارَه ما يجب أن يذكّر به؛ فزاد الله الأمير من نِعمه، وأوزعه من الشكر عليها ما يُوجب له تتابُعَها عنده، وترادفَها له .

فصـــل — أنت والحمد لله ممن آحتمل الصنيعة، وقبِل الأدب، وصدَق المَخِيلَة وَخلَص علَى المِحنة وحسّن الظن؛ فاستقامت طريقتُه وقدّمه جميلُ مذهبه وآثارِه، وجَرَتْ على قصد السبيل طاعتُه، وآشتدّت على السريرة والعلانية مُنَاصحتُه؛ فأصبح أميرُ المؤمنين لا يتناهَى فى برّك وتكْرِمتك، إلّا رآك مُستحقًّا لهـا ولِمـا فَوْقها، ولا يرفَعك الى درجة إلّا رآك أهلا لأشرفَ منها، صُنْعا من الله لكَ بما وفّقك له من طاعته، ووهب لك من جميل مَراتبه، والمكانِ منه والأُثْرة عنده .

فصـــل — فضـلُ مشاركتنا إيّاك فى محبوب الأمور ومكروهها يجعلنا فى السرور بالنّعمة عندك — جدّدها اللهُ لك — ويوجِب الشكر بمـا يكون لحقّها قاضيا، وللمَزيد فيها موجبـا .

سَعيد بن حُمَيد — شُغْلك يقطعنا عن مطالبتك بالحقّ فى جوابات كُتُبنا اليك، وصدقُ مودّتنا لك يمنعنا من التقصّى فى الحُجّة عليك، ومن يَكِلُك الى رأيك فإنّه لايفى بك إلّا لك، صلةَ إخوانك والتعاهد لهم من برّك، بما يُشبه فضلك والنعمةَ عليهم فيك .

وفلان بينى و بينـه مَودّة أقدمه بها على الأُخوّة؛ لأنّك تعـلَم قربَ ما بين المودّة والقرابة، وقد بَلَوْته علَى الحالات كلّها، فلم يزدنى آختبارُه إلّا آختيارا له؛ ولا أعلم بالعسكر جليلا إلا وهو لى صديق، يَشْكُر بشكره ويُوجِب على نفسه المِنّة فيما آتى اليه؛ فأمّا من بين إخوانه فلست أعدِل عن قضاء حقّه، ولا أتأخّر عن معروف أُسْـدى اليه؛ فإن رأيتَ أن

تُحِلّه بالمحل الذى يستحقه بنفسه وسَلَفه، فوالله ما رأيتُ سُوق الاحرار أنْفَق منها عندكم أهلَ البيت ؛ أبقى الله تبارك وتعالى باقيَكم ورحِم ماضيَكم .

فصـــل — إنّ أحدا ليس بمستخلِص شيئا من غَضَارة عيش إلّا من بين خِلال مَكارِه، فمن آنتظر بعاجل الدَّرك آجِلَ الآستقصاء سَلَبته الأيام فُرْصته ، لأن مِن صِناعتها السَّلْبَ، ومن شَرْط الزمان الإفاتة .

فصـــل — إنّ الأمير قد جَلّ فضلُه عن أن يُحيط به وصف، أو يأتىَ على تَعْداده اجتهاد، فلو كان شىء أكثر من الشكر لكان الأميرُ يستحقّه علينا، ويَستوجِبه منّا .

فصـــل — قد أصبح المختلفون مجتمعين على تقريظه ومدْحه، حتى إنّ العـدوّ يقول آضطرارا ما يقوله الوَلِىّ آختيارا؛ والبعيـد يثِق من إنعامه علينا بمـا يثِق به القريبُ خاصّـا .

فصـــل — المـائلون اليه بين نِعَم مُكْتنِفة من تَالِد به يَستدِيمونه، وطارِف منـه يَستعيدونه، ومواهبَ متجدِّدة، وفوائدَ مُتَرادفة ؛ هى مبسوطة به الى برَكة أيّامه، وعُلُو حظّ(١) مَن آتصل به، فزاده الله من فضله ، وزاد أولياءَه به و ببركة دولته .

فصـــل — آعتمدتُ أخًا لايُذَمّ إخاؤه، ولاتُنكر أحواله ، على بعد الدار وقُربها، وآتصال المكاتبة وآنقطاعها؛ تجِده مُتَصرّفا معك فى الخطوب التى يَطْرُق بها الزمانُ، ويَدًا لك فى الأمور التى يُمْتَحن فيها الإخوان .

فصـــل — أسأل الله أن يجعـل ما تَطَول به فيه من الجلالة فى القلوب والعيون عند الوَلِىّ والعدو موصولا بالإنساء فى مُدّته ، والإدامة لعزّه وسلامته ،والأعلاء ليده وكلمته .

أحمد بن يوسف — عندى فلان وفلان، فإن كنّا من شأنك فقد آذَنّاك .

فى صفة حَرْب — كانت لكم الكَرّة،وعليهم الدَّبْرَة؛فحملوا حَمْلةً كاذبة، أتبعناها بأُخرى صادقةً .

(١) فى الأصل : «حظه» والسياق يقتضى ما أثبتناه .

فصل في هدية — قد أهديتُ اليك من فنون كلامي وعيونِ مقالي، دفترا ظريف المعاني، شريفَ المباني، صحيحَ الألفاظ، يَلَذُّ بأفواه الناطقين، ويَلين على أسماع الصّامتين.

فصل في شَفَاعة — لفلان قِبَلك حاجة، ليس يحتاج فيها الى مَعْدِلَتك ونَصفَتك المبسوطتين لمن لا يتوسّل بخُلْطتِك ومعرفتك، ولكنّه يريد ما في ذلك العدل والإنصاف من الرفق والإحسان المَذْخورَيْن للخاصّة والإخوان.

فصل لرجل تميميّ — ضَعْفُ حالي يدعوني الى كثرة الطلب، ومَعْرفتي بجميل رأيك تحجزُني عن الإلحاح عليك، خوفًا أن أكون جاهلا بعنايتك، وحسن نظرك، والكرم يستحيي بعضُه لبعض، ويبعَثُ بعضُه بعضًا، ودين حيلته الغير على العقود، فبعثه كرمه للنهوض، أو دعاه هواه الى المنع، لجاءه عقله على البذل؛ وحالي جانحة لدى فضلك ونعمة الله عليك من سدّ خَلَّتها، ومداواةِ عِلّتها بجاهك الواسع، ورِفْدك النافع.

أحمد بن يوسف — قد بَذَلتَ لنا من نفسك أعزَّ مَبْذول وأنفسَه، والمودّةَ التي كلما يُحْمد من صاحبها، فهو لها نافع. وثقتُنا بك واستنامتُنا الى ناحيتك، على أحسن ما أكّد الله بيننا وبينك. وإن كان مدى اللقاء بيننا لم يَطُلْ فأثّل منه ما يرعاه أهلُ الوفاء والمُخالصة، ويقصّر في المحافظة عليه وعلى أكثرَ منه، من دُخِلَتْ نيّته، وضَعُفت خُلّتُه.

فصـــل — قد أصبحتَ للخاصّة عُدّة، وللعامّة عِصْمة، وللأنام ثقة في مناصحتك.

فصل في الصفح لأبي علي — إنّ الذي فَرَط منك، وإن تجاوزَ مني ما أرضاه لك، لم يبلُغ ما يُغضبني عليك؛ وحيث انتهى ما يخالفني من قولك وفعلك، فإنّ وراءه تغمُّدًا منّي لإساءتك وصَفْحًا عن زَلّتك؛ فإن تأمَنّا لا نخُنْك، وإن يسؤْ ظنُّك فإنما نحتاج الى إصلاحه منك.

أحمد بن يوسف — الى ابراهيم بن المهديّ في هَديّة استقلّها:

بلغني استقلالُك لما أَلطفتُك، والذي نحن عليه من الأنس سهّل علينا قلّةَ الحشد لك في البر، فأهدينا هَديّةَ مَنْ لا يَحتشِم الى مَنْ لا يغتنِم.

كتب عَقّال بن شَبّة — الى خالد بن عبد الله فى شفاعة :

إنّ الله انتجبك من جوهرة كرم ومَنْبِت شرف، وقَسَم لك خَطَرًا شَهَرته العرب وتحدّثت به الحاضرةُ والبادية، وأعان خَطَرك بقُــدرة مبسوطة، ومَنْزِلة ملحوظة، بجميع أكفائك من جماهير العرب، يعرِف فضلك، ويسرّه ما خارَ الله لك، وليس كلّهم أدالَه الزمان ولا ساعده الحظّ؛ وأنت أحقّ من تَعطّف على أهل البيوتات، وعادَ لهم بما يُبقى له ذِكرَه ويُحسن به نشرَه، مثلُك . وقد وَجَّهتُ اليك فلانا، وهو من دِنية قرابتى، وذوى الهيئة من أسرتى، وعرف معروفك؛ وأحببتُ أن تُلبسه نِعمتك وتصرِفَه الىّ وقد أودعتنى وإيّاه ما تجده باقيًا على النَّشر، جميلا فى الغيبِ .

فصـــل فى التـــوديع

أستودعُ اللهَ الأميرَ بأحسنِ وَدَاعه، وأسأله أن يجعـلَه فى كَنَفه وحِرْزه، فقد أكرم المثوَى، وأحسن الأبتغاء؛ فأطال الله له البقاء، وأدام عليه النَّعماء .

فى الصـــفح

بلغنى كتابك، تذكر كتابى اليـك بوضعى عنك مَوْجِدتى، وردّى لك الى أحسن ما عَهِدتَ من منزلتك عِندى؛ وقد حَلَلتَ منّا المَحَلّ الذى خلطناك فيه بأنفسنا، وأدخلناك منـه مداخلَ أهل ثِقَتنا؛ ولستَ تُؤتى من جهالة بما أنت فيه، ولبعض ما أنت عليه من التجارِب تُسْتفاد بمثلها العِبَر، ويُنْتفع بها فى عطف الأمور .

جواب فى فتح

كتب سالم بن هشام الى يوسف بن عمر حين قَتَل زيد بن علىّ رحمة الله عليه :

قد بلغ أميرَ المؤمنين كتابُك بما أبلَى الله فى مِذْره الســوء، وأنّه لمـا عضّتهم الحــرب، وآلمهم الحديد، عادوا بالمسجد الجامع، قد أكذَب الله ظنونهم، وخذَل مُخْرجهم، وقتل إمام ضلالتهم؛ وحفِظ لأمير المؤمنين ما ضيّعوا من حقّه، وحاط له ما أباحوا من الغــدر فيه؛ وقد رأى أمير المؤمنين أن يجعل من شكر الله على نِعَمه، الصفح عنهم، وتغمّد حَرِيمهم

وأن يعمّهم من عدله، بما يردّ به الجاهلَ عن جهله، والغويَّ عن غَوايته؛ ويعلمون مكانه من الله، واستجابتَه لعزّه ونَصْره؛ وأنه الخليفة المُتّقِى، والإمامُ المُتألف؛ وأنه يُقـدّم العفو فى الطاعة، على الحُجّة فى العُقوبة، والحِسْبَة فى الاستصلاح، على القوّة فى التأييد؛ فأمسك عنهم بيدك؛ فإنّ أمير المؤمنين قد وهب ذلك كلّه لله، ورجا به ما ليس ضائعا عنده من ثوابـــه .

فى الصفح عن الجفاء

لو كان من نازع الى الغدر، قلّدناه عِنان الهجر، لم يكن أقرب منا الى الذنْب، ونحن نردّ عليك من نفسك، ونأخذ لنفسك منك، حتى يكون تركنا إياك، وعذرُنا فيه وافرا .

فصـــــل — الحمد لله على البليّة التى طال أمدها، وبعُد ما بين طرَفَيها .

آخـــــر — اقتفرتَ فى التثبّت أناة ذوى الحِجَى، وقدّمتَ المقـدّم من الأناة على العجلة، وأطعتَ فى أمرك النظرةَ، وانتهيتَ الى العُـذْرة والمعرفة، فملكتَ ما ملّكك، وحكمت على الذى حكم عليك، فأخذتَ مثل الذى أعطيت .

فصـــــل — بدءُ أسـباب الأمور دليل على عواقب الأمل فيها، والخِيرة بعـد الله عزّ وجـــلّ .

فصـــل اعتـــذار

لو كان الناس يَقضون الحقوق التى تجِب عليهم، ويحافظون على الأمور التى تلزمهم، لقلّت اللائمـة، وخلصت المودّة، وارتفعت أسباب العتاب؛ ولكنّهم عجزة منقوصون، يضعُفون عن العلم، بأكثرَ ما تدركه عقولهم، وتعوقهم عن ذلك أشغال لا يجب بها العذر، ولا تستحقّ الإيثار؛ ولم أزل عاتبا على نفسى فيما ضيّعت من مكاتبتك، مع معرفتى بفضلك، وموقع ذلك عنـدك، وما اعتذارى اليك، سوءُ ظنّ بك، ولا مخافةٌ للائمتك؛ ولئن فعلتُ ما ظلمتُ؛ غير أنّى أحببتُ أن أكفيَك المؤونة، فيما عسيْتَ أن تنقبض عنـه من مقايستى ومعاتبتى؛ وأنا أحب أن تقبل العذر، وتعينَ على مستقبل البرّ .

فصـــل — أنت فى زمان إن لم تغالط أهله ، وتختلهم على ما فى أيديهم ، وتصبر على مكاره الأمور بعد المطالبة ، لم تصل الى شىء ، ولم تجد أحدا ما على فضل منك و إن عرفه فيك ، ولم يفتــه من محاسنك شىء ، إلا رأى فى مساوئ غيرك عوضا منــه ؛ فكان بذلك أثلج ، واليه أسكن ؛ فعليك بالصبر ، فإن غايتــه الى خير ، وأقل ما فيه أن صاحبه لا يلوم نفسه ، ولا يلومه أحد ، ولعا يظفر أو يدلل .

الى المأمون من عامل

قلّ مَن يسارع إلى بذل الحق من نفسه ، إذا كان الحق مُضرّا به ، وقلّ من يدع الاستعانة بالباطل ، إذا كان فيه صلاح معاشه ، وسببُ مكتسبه ؛ واذا تفرق الحقُّ فى أيدى جماعة فطولبتْ به ، تشابهت فى الكُرْه لبذله ، وتعاونتْ على دفعه ومنعه ، بالحيــل و بالشُّبَه قولا وفعــلا ؛ واحتاج المُبْتَلَى باستخراج ذلك الحق من أيديها ، الى استعمال مجاهدتها ومصابرتها على الحيلة فى مدافعتها .

ابن الكلبىّ

كان خبر ما أبلاك الله فى فلان بعــد أمانه ما عزمتَ عليــه من الأمان ، خبرا عظم مكانُه من أمير المؤمنين ، وحسُن موقعُه من الدِّين ؛ ثم ردَف خبرَك بإذعانه عنــد ما عضّه من بأسك ، ومسّه من مُؤْلم إيقاعك للاستسلام ، وطلبِ عقــد الأمان ؛ و إنك بذلتَ له ما طلب لا لِرهبــة بقِيَت فى ناحيتك ، إلا الاحتذاء على مثال أمير المؤمنين وأدبه ؛ فكان إباؤه ما عرضتَ عليــه فى أول أمره ذخيرة حظ فيما كشفتَ عنه البلوى من محمود أثرك ، واجتمع لك فى ذلك حظان : الظفَر آخرا ، والدرْك لمــا حاولتَه أولا ، فلا زلت على نصيبك من الحظ ، مؤيّدا بالنصر والمَعُونة ، والحمد لله على ما حقّق من الظن ...[1] من هذه النعمة على يديك و بسعيك .

(١) بياض فى الأصل . ولعل الكلمة المتروكة «وآتى» .

ابراهيم بن اسماعيل بن داود الى ذى الرياستين

وصل الىّ كتابك بخطّ يدك المباركة، فلم أر قليلا أجمع، ولا إيجازا أكفأ من إطناب، ولا اختصارا أبلغ فى معرفة وفهم منه؛ وما رأيت كتابا على وَجازته، أحاط بما أحاط، وضربتُ ظنّى فى فلان فعظّم ذلك سرورى، وقد يُستعطَف الظالم، ويُستعتب المُتَجَنّى؛ وفى رفقك وعِلْمك بالأمور ما يُصْلح الفاسد، ويُذلّل الصعب، ويُقْبِل المدبِرَ؛ ولا يمنعنّك جور من جار عليك، من الاعتقاد فى الحُجّة عليه، والأخذ بالثقة فى أمره، فإنّ الله عزّ وجلّ لم يجعل عليك فى ذلك مَنْقَصة ولا غَضاضة، بل فيه الإعذار والإنذارُ والاستبصار، وقضاءُ حاجة النفس، مع التأدية الى السلامة، والأمنِ من الندامة .

فصـــل — أنا فى حال عافية، تتجاوز الى حال نِعْمة، والحمدلله حتّى يرضى، فقد أرضى؛ فامّا ما أشرتَ به، وخَبّرتَ من إمضاء رأيكَ فيه، والإمساك عنه، فمثلك جعل لمن نصحه شَركاء فى كلّ أمره، ولم يجعل رأيَه فَرْضا لبعضه أن يتعدى[1]، وذكرت أدب فلانَة، وعنـدنا لفلانة الطمع المستقبَل معَ الإنعام المتقـدم، مع أنّه لا شىء لها عندنا قلّ ولا جلّ، ولو كان ما استحللنا حبسه صَفْقة كفّ، ولا تغميضَ طرْف؛ وذكرتَ أنّه لا يستغنِى مثلنا عن مثلِها، وأبدال الله كثيرة عتيدة، وما بان علينا فَقْد أحد ممّن كان قبلها فى دارنا، فحال بيننا وبينه حائل، ولا اختللنا له مع نظر الله تبارك وتعالى وأخلافه؛ وبعد هذا فأحسن الله جزاءك، وحاط لى فيك ما أحبّ منك، وكفاك المُهمّ وكفانيه بك، فما تقوم نفس لو كانتْ لى أحرى مقامَك فى نصيحتى وبِرّى، والاهتمامِ لى، بما أنا عنه ساهية لاهية من أمرى، لا أَعْدمنيك الله ولا النصيحةَ منك .

فصـــل — قال أبو جعفر الكِرْمانى للحسن بن سَهْل ووعَده شيئا فابطأ عليه :

أنا أعرِف تكامل الثقة فيك، ورجاحة الفضل بك؛ وأعلم أنّ فعلك يُربِى على قولك، وأنّ إنجازك أكثر من وعدك؛ فقدّم لى من كرمك، ما أثمره إلى أن[1] يلحقه المتأخر

(١) بياض فى الأصل . وما وضعناه يناسب المقام .

عنه ، وإلّا فَدُلّني على ما أقول اذا سألني مَن بعثته على شكرك ، عما بلغه من الحظ على نيتك .
فقال الحسن : تقول ما ينبغي ، فقال : فافعل ما ينبغي أقلّه .

عمرو بن مَسْعَدة

وصل الى كتابك ، على ظمإ منّى اليه ، وتطلّع شديد ، وبُعْدَ عهد بعيد ، ولوم منّى على ما مسستنى به ، من جفائك ، على كثرة ما تابعتُ من الكتب ، وعدمتُ من الجواب ، فكان أوّل ما سبق الىّ من كتابك السرور بالنظر اليه أُنسا بما تجدّد لى من رأيك ، فى المُواصلة بالمكاتبة ، ثمّ تضاعُف المَسرّة ، بخبر السلامة ، وعلم الحال فى الهيئة ، ورأيتك بما تظاهرتَ من الاحتجاج ، فى ترك الكتاب ، سالكا سبيل التخلّص مما أنا مُخَلِّصُك منه ، بالإغضاء عن إلزامك الحجة ، فى ترك الابتداء والإجابة ؛ وذكرتَ شغلك بوجوه من الأشغال كثيرة متظاهرة ممكنة ، لا أُجشّمك متابعة الكتب ، ولا أحمل عليك المشاكلة بالجواب ؛ ويُقْنِعنى منك فى كل شهر كتاب ، ولن [تُلْزِم][1] من نفسك فى البرّ قليلا ، إلّا ألزمتُ نفسى عنه كثيرا ، وإن كنتُ لا أستكثر شيئا منك ؛ أدام الله مَودّتك وثبّت إخاءك ، وأسماح لى منك ؛ فرأيك فى مُتابعة الكتب ومحادثتى فيها بخبرك مُوَفّقا إن شاء الله .

عيسى بن واضح الى الفضل بن الربيع

قد أكّد الله من حُرمتى بك ، ووصل من الشُّعَب بينى وبينك ماجعله ذخيرة ليوم الحاجة ، وعُدّةً عند مُلِمّ النازلة .

جبل بن يزيد

أما بعد فإن مَن صحب الدنيا لم يخلُ مِن تصرّف أحوالها ، وكثرة مَعاريض فجائعها ، فى اخترام الأنفس فى خواصّها ، ومواقع البلايا بين ذلك فيما يَهُدّها ، ويفر من الأشياء عليها ؛ وكان ذلك لا سبيل الى دفعه ، ولا حيلَة يُستعان بها عند نزوله ، إلّا الرضا عن الله عزّ وجلّ فيما قضى ، والتسليم لأمره فى كلّ ما أَتى ، والسكون الى الأُسْوة التى نَهَج الله سُبُلها ، وخفّف

(١) السياق يقتضى وضع هذه الكلمة ، وهى متروكة فى الأصل .

بها مواقعَ المصيبات على أهلها، ثم الرجاء بعد ذلك لحُسْن ثواب الله، [وقد] جعله الله لمن لزِم أمره وأجشمَ نفسَه مكروهها فى مواطن الصبر على المصيبة، والشكر فى حال العافية .

وله فى المطـــر

قد كنتُ كتبتُ الى أمير المؤمنين أُعلمُه المَطْرَةَ التى أصابتنا، وما أنزل الله بها من رحمته ثم عادتْ لنا بعدها من الله عائدةُ رحمةٍ، بوَلِيِّ مَطَرٍ أنزله الله بأحسن ما رأينا من المطر وابلا جَوْدا، لا يفتر غزيره ولا يَرْعوِى جَوْدُه ، إلّا الى دِيمة عن دِيمة، يتراخى اليها يسيرا ريثما تعود، فأقامت علينا سمــاؤه مُستهلة بذلك وكذلك الى غروب الشمس، ثم آنقطع مطرها بسكون من الريح، وفُتور من القُرّ، وفضل من الله عظيم، يَنشُر به رحمته، ويَبسُط به رزقه، فأسبغ النعمة، وأوسع البركة، وأوبَق بحمد الله معارف الخِصْب والحى . والله محمود على آلائه ومشكورٌ على بَلائه، وما أنزل الله من سُــقياه ورحمته، بعــد الذى أقبلتْ به السنة البرية والقحطِ وعدم الإمطار، وشدّة ما بلغ الناس من القنوط وسوء الظنون .

وله الى بعض إخوانه

أما بعد، فإنّ أعظم الأمور فيما بين الناس حقا أمران: منهما الإخاء فى الدين، فهو سبب وصيّة الله بين عباده بالأُلفة والمحبّة التى آنقطعت بها قرائنُ القلوب من بعضهم الى بعض، فآتصلت بحبائلهم مَرائرُ حبلها، وتقطّعت فيما بينهم عاطفاتُ وصلها؛ ومنهما مجاملة جميل الأعداء، وحفظُ ما يحِقّ لأهل حسن البلاء، ثم الصّنائع بعد ذلك فى مواقعها فضائل بقدر ما جرتْ به أسبابُها ولطُفت مداخلها .

: فصــــل — الصناعة ليست يزيدها الأخلاقُ الجميــلة ، ويزيد فى أسبابها أوَاصر المودّة؛ وقد جعلك الله فى صناعتك مُقدّما، وفى مودّتك مُتفضّلا؛ فلا زالت عنك نعم الله، ولا برِحتَ سكنًا لإخوانك، وأُنسا وموضعا لمــا تَستميحون من معروفك، ويَستمِيرون من يدبّـــرك .

فصل — إن لك من قلبي لموضعا معمورا بالمودّة والثّقة ، والاسترسال والأَنَسة ، فلا تُخرج فلانا من سعة جميل برّك، الى عُقْبى استحقاقه .

آخر

قد طالت الصبابة اليك، وللدهر عُقَبٌ عائدة بالنفع والصنع ، ولا سيّما لمن كان على مثل شاكلتك فى أدبك وفضلك و إنصافك إخوانَك وبِرّك بهم، وما توجبه على نفسك لهم مما يُقصِّرون عن شأوِك فيه .

الكلبيّ

كان أسلافنا تقارضوا دُيونا من الصفاء يَستأْديها كلّ عَقب من صاحبه، وقد أورثونا مودّة لا نَعجزُ عن اكتساب مثلها .

ابن أَعْيَن كاتب الخَيْزُران

ليس يكون منك شيء و إن حسُن، إلا وحُسْن ظنى بك يَبلغُه، فاستتمّ أحسنَ ما كان منكَ، يتمّ لك أحسَنُ ماتُحِب منّى. ولا يَمنعنك الاكتفاءُ بحالك اليومَ من طلب الزيادة فى غد، فانّه لقَلّ شيءٌ لا يزيد إلّا نقَص ، والزمان يمحَق الكثير، كما يربو على الزيادة القليلُ ؟

ابن الكلبيّ

أنت مَن أُطول بمكانه وأثق بجميل رأيه، وأعتمد على رِفده، وأرجو دَرْك كلّ فضيلة به، ومّما أُحب علمَه مَقرّ نعم الله عز وجل لديك ؟

علىّ بن عبيدة الى ابن الكلبيّ

وصل الله أيّام عُمْرى باتباع موافقتك، ولولا موعد أخذ علىّ، لأطعتُك فيما أمرتَ به، مُتْبِعا مع إجابتك سرورَ نفسى برؤيتك فى السلامة .

أما بعد ، فإنى أصبحتُ وقد استفرغ الأميرُ منّى كلّ مودّة ونصيحةٍ ، ومبلغ جهد وطاقةٍ فيما عرفتُ له فيه موافقةً .

فصـــل — فإنّ الذى شعَب الله بيننا من التواصل والتكاتب، يدعونى الى متابعة الكتب اليــك فى تعهّد حقك ، وإن كان الخبر عن ظاهر الحال قلّمـا يُغْنى، فإنّ له من الأُنْس والموقع فى الكتب ما ليس لمُستعرضات الأخبار .

فصـــل — قد كنتُ أعلمت الأمير انقطاع بنى فلان الى فلان ، بأهوائهم وبصائرهم وشراء ما قِبَـله بغيره، (١) وما كان وصل الينا فى ذلك من الأمور التى حملوا إصْرها، وبَقِىَ لنـا أجرُها وذكرها ونافلتها وسابقتُها؛ فنحن عدد الأمير وخَباياه وذخائرُه، ومَن يأمل يومَه وغده، ولا مُتَخطًّى له عنه ولا مقتصر دونه .

عُمـارة

بلغنى كتابُك يصف كذا . فإن رأيتَ ألّا تعتمـد على ما لصقت [به] من عذرك، وأطعتَ فيه الهوى من قبول عفوك، وتجعلنى أحدَ مَن يَسُرّ بسرورك، وتُشركه فى مُهمّات أمورك، فإنى أحدُهم وأوسطهم عِناية بمـا عَناك وتوسّطا لمـا عراك، فعلتَ .

فصـــل — والدنوّ من دارك إذ الدار جامعةٌ والحبل متّصلٌ، إذ نحن فى الاستيفاء بالخبر والعـلم بدخْلَة الحال، بمنزلة من كأنّه يُعانى مَن يشتاق اليـه ويَصْبو به فى كل يوم، حتى نأتْ النوى، وأنتَ فى اللقاء والإنظار فى كلّ أمر وعلى كلّ حال مَن لا يُشَكّ فى صفاء غيبه، وصدق إخائه .

فصـــل — مُشاركتنا إيّاك فى محبوب الأمور ومكروهها يحلّنـا محلَّكَ فى السرور بالنعمة يجـدّدها الله لك ، ويُوجب من الشكر علينا (٢) مثل الذى يوجب عليك . فوَصَلَ اللهُ كل نعمة يَهبُها لك من الشكر بما يكون لحقّها قاضيا، وللزيد فيها موجباً .

سعيد بن عبد الملك

كتبت على شُغْل فى قِطَع من القِرطاس، ولم يقطع بى حسنُ الظنّ بك فى قبولك العذر، وتحسينك ما أنت أهلٌ لتحسينه؛ فإنك تقبل دون حقك، وتَهَب الذنب فيه، فيكون شكرُك

(١) فى الأصل : « ... وسراء ماقبله ... » : (٢) فى الأصل «عليا ... » وهو لا يؤدّى الغرض المراد .

جاريا على سبيلين، كلاهما يُبين لكَ عن فضلك، ويوجب لك مالا يَقْصُر معه إلّا مغبونُ الحظ خسيسُ النصيب .

فصـــل — وقد ظهر من أمير المؤمنين فى فلان بعد وَفاته، ماهو أعدلُ شاهدٍ على حسن مُنْقَلَبِه ، ورَدّ اليك من رأيه وتفقّده ما أرجو أن يكون فيــه أعظمُ العِوَض . والله أسأل أن يتولّى لك أمورك فى السرّاء والضرّاء، والشدّة والرخاء، والشكر وحسن العزاء .

جبل بن يزيد الى بعض إخوانه

تَمّم الله علينا وعليك النعم ، وأَجْزَل لنا ولك (١) محاسن صالح القِسَم . إن الله تبارك وتعالى أجرى بيننا و بينــك لطيف مَوَدّة، وخاصّ أُخوّة ، غيرَ أنّ المعرفة قد تُحمد بعــد الخبرة ، والثقةَ إنمــا تعرف بعد التجرِ بة، وقد أحببتُ أن يعلم مَن قِبَلك (٢) الذى أحدث الله لك من حال دولتك ، وأنْ يُعْلَمَ هلْ أبقتْ لنا منك النعمةُ سَعةً، أم تَركتْ لنا منك صَفْحةً نعرِف بها عهــدك ونأمُلُ بها وصلك؟ فإنّ أصحاب السلطان ، بحال بَلْوَى فى التغيُّر والانتقــال ، إلا من نالته من الله تبــارك وتعالى عصمة . فإنْ كنتَ على ما رجَوْنا من الوفاء، وحسنِ الحفظ للودّة والإخاء ، فمثلُك لم يرض لنفسه إلّا بأجمل الأخلاق وأوفقِها للســداد . وإن حجزك عن ذلك ما تأتى به الأقدارُ فى مُتَصرَّف الليــل والنهار ، نَعذرْك بمــا نَعذر به أهلَ السلطان، اذا غيّرتهم الحالُ، وتنكرت شمائلُهم بين الإخوان .

وله الى بعض إخوانه أيضا :

اِعلم أنى اليك مشوق، وأنّ صِــلةَ الإخوان كرَمٌ ، وخيرَ الصّلات ما لم يكن لها وجه إلّا الرجاءُ والحفظُ وتجــديدُ المودة وتصحيحُ الإخاء ؛ فإنّ الذى يكاتب إخوانه على حال الرغبــة يكفى القائلَ كتابه حيث شاء ، إن أحب مال به الى الصحة ، و إن شاء وضعه للرغبة، والرغبة أملكهما (٣) به . والذى يكاتب إخوانه على حال الضرورة، فقد يستقطع الصِّلَةَ

(١) فى الأصل : «وأجزلنا ...» . (٢) فى الأصل : «ما قبلك» .
(٣) فى الاصل : «وأملكها ...» .

عنـد الحَدَث مخافةَ الملامة[1] من الناس على القطيعة الشّنعاء المشهورة لإخوانه ؛ فإن الذى لا مَودّة له قد يصل ذلك فى تلك القطيعة بأهل البلاء .

والكِتاب على مثل حالنا وحالك اليوم شاهدٌ على أن ذلك ليس إلّا صِحّةَ الإخاء والشوقَ الى المحـادثة بالكِتاب ، حين لا يلومك اللائمون لمنزلة البـلاء تلك اللائمةَ على التقصـير ، ولا يُوضع منك الرغبــة فى الإطاع . إيّاك أن تعتلّ بالأشغال أن كنت فى خاصة نفسك ، فإن أداء الحق وصِلةَ الإخوان أعظم الخاصّة بك خاصة . وانما أمرنا فى كل هذا كأمرك فى الذى يَسـتغني مِن خاصّتك تلك التى لنا ، فإن لنا ما لك ، وهذه التى لنا لك ؛ أ ليس ماسرّنا سَرَّك وما سلبناه حظا لك ، فهذه كذلك وذلك كهذى . والله يوفّقنا و إيّاك . وأنت أبا يوسف . هكذا حال ما بيننا و بينـك ما وصفتُ لأبى سـعيد ، غير أنّه سألنـا أمرا لم يسألناه قطُّ ، فله فضـل السبق علينا فى المسألة ، ولنا فضـلُ المنزلة عليك فى اللائمة . ولن أَدَعَك والفعلَ ، دون أن تَشْفَعه بالعمل الذى هو صلة القول . وسلام عليك ورحمة الله ، وقضى الله عز وجل بالحُسنَى لنا ولك .

فصـــل — أتانى كتابُك ، فأنعمتُ أن يَسرّنى بسلامتك ، وما حاق فيه كرمُ بِرّك ، ولطيفُ عِنايتك ، مالم أفقِد فى حالة مِن حالاتك ، فكان الكِتاب مُصدّقا لمـا سلف ، مُبشّرا بما يستأنف ، مُذكّرًا منك عهدا موصو[2] مثاله طرفى وقلبى ، مُلْصَقا ذكْرُه بلسانى وقلبى . فلا عدِمتُك ، بل أمتعنى الله بك فأطال ، وكثّرنى ببقائك .

فصـــل — أتانى كتابك فطامن قلبى وطرفى ، بعد ما كان شاخِصا اليه ، مُتشوّقا الى رؤيته ، ثم ملأنى سرورا ما رأيتُ فيــه من آثار بِرّك وكريم تفقّدك . وأفضل ما عندى منك قِبَله ، مما إنْ ذكرتُه ، فللاستراحة[3] الى الذكر ، وإن أمسكتُ ، فللعجز عن الشكر . فأمّا الضمير فبِنىٌّ على الإقرار بفضلك ، والنيّةُ خالصة بشكرك . وقليـل ذلك لك ، فأعطاك الله فأطاب ، ووهب فأجزل .

---

(١) فى الاصل : «مخافة السلامة من الناس...» . (٢) فى الاصل بياض . (٣) فى الأصل : "فالاستراحة..." .

فصـــل — وصل الىّ كتابُك فخُيِّل لى حين نظرت الى أثر يدك تجرى قلمك فى بطن صحيفتك، أنّك ماثل بين عينىّ: أنظُر الى شخصك وأسمَع من لفظك، فابتعث ذلك منى طربا شائقا، وصبابةً هيّجت الأحزان وذكّرت الإخوان. وكنتَ من إخوانى الذين أنْفَرَ بسلامتهم للوُدّ الذى أجرَى الله بيننا و بينك، فتواصلنا بحرمته، وتعاطفنا بوصله.

فصـــل — إنّ الله جعل عاقبة كلّ نعمة و إن عظُمت، تبعا لأوّلها، وجعل الشكر عليها سببا لتمـامها ومُوجبا لأحسن الزيادة منها.

فصل فى شكر — فإنّ الله جعلك للخير مَعْدِنا، وللفضل موضِعا، فيما حمّلته نفسك من ثقل أعباء المُرُوءة، وحَمَلتها عليه من عِظام المكارم، حتى صِرْت بما أنعم الله به عليك، مُنتهَى كلّ أمل وغايةَ كلّ رغبــة. ثم أَلْبَسْتَ النعمةَ لباسَ التواضع، وناسبت فى الأخلاق مَنْ سبقت به عليك الأمور، حتى كأنّهم فى النعمة لك شركاءُ. وتحنّنت على الأقربين والمُتقرِّبين من الاخوان والأكفاء، حتى كأنهم لك ولدٌ، وأجبرت نفســك حين ساعدك الدهر، على طبيعة التقرب الى العامة؛ فكلّهم يُدلِى اليك بدَلْو رغبته، ويَمتاح منك مَتَّاحة فضــل؛ فلا عَدِمتُ ألّا تزالَ تُنْعِش سَقْطة، وتُقيل عَثْرة، وتَسُدّ خللا، وتُنيل أملا؛ ولا عدِم مَن شهِد ذلك منك، أن يَسْتَتِمّ هذه النعمةَ عليك وعلى نفسه؛ فإنّ من سعادة العامة أن يجعَل سارّها عنــد خِيارها. ومن البلاء العظيم عليها المُوجِــع لهـا، أنْ يخُصّ شرارُها بموضع رغباتها.

فاســلَم كلأك اللهُ بهذه النعمة، غيرَ مُنَغّص بهــا، ولا مُكدّر عليــك صفوُها[(١)]، حتّى تُسلّمك النعمةُ العاجلةُ الى النعمة الباقية؛ فإنّا و إن علِمنا أنّ من شأن الدهر الغَدَران فى العواقب فقد علمنا أنّك فيما أهدى الله اليــك من النعمة، قد أدّيتَ حق الله عزّ وجل ثمّ حقّ إخوانك فيهــا، فكنتُ أحرَمَن نال فضلك، كرما فى السناء، ورِضا فى الأثَرة، غيرَ مُتَطاوِل لِمــا نأمل، ولا مُتَضعضِع لمــا تحذر؛ فإنّا نَجزى شكر المــاضى منك، ورجاءَ الباقى،

(١) فى الأصل: "ولا مكدر عليها صفوها ...".

فنرى تضييعا منا فى عَقْد الرأى، وإزراء بنا فى وثائق الأمور، ألّا نمنحك من أنفسنا مَودّة الولد ورقّة الوالد . وإذا أعطاك آمرؤ ثمرة فؤاده، فقد فرَغ اليك من جميع حقّك، لأن ذات يد امرئ فى البذل أهون عليه من ذات نفسه فى الشكر . وكفى لامرئ من آمرئ أن يستولىَ عليه حتى لا يدَعَ لغيره فيه فضلا . وكفى بك لنا من غيرك . وكثير منّا أن نقوى على أداء أدنى صنوف حقّك، غير أن أوثق أمورنا فيك عند أنفسنا ألّا نسأمَ النظر الى فنائك بهجين بك إن برزتَ، وعاذرين لك إن شُغلت .

فصـــل — إنّ الهدى والضلالة يقتسمان دُوَل الأزمنة، لغير كرامة للباطل، ولا هوان للحق . وأهل الحقّ كيف تصرّفت أحوالهم فى كرامة من الله عز وجل، ونعمة بين دولة تكون لهم، يَقومون لله فيها بحقّه ويُظْهِرون هداه ودينه، ودولة تكون للباطل، يكونون فيها كُهوفا للخيرات، ومَعْدِنا للحسنات، يستكنّ الحق فى صدورهم، ويأوِي البرّ والصدق اليهم؛ فهم بين يومَىْ صبر وشكر، ليس أحدهما دون صاحبه فى الفضل .

وأهل الباطل كيف تصرّفت أمورهم بين سُخْط الله وعقوبته، لأنّ الله تعالى لم يجعل فى الباطل فَرجا لأهله، وإن كانت لهم دولة كانتْ إملاءً واستدراجا، وكانوا فيها على مَدْرَجة هَلَكة وسبيل نِقمة؛ وإن كانت الدولة لأهل الحق، كانوا فيها بين ذل وضيم، وخوف وجزع، وقد سدّت عليهم المطالع، وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَت . ففى أىّ يومَيْهم مستراحهم : أيوم دولتهم، وهم لايشكرون النعمة ولا يقطعون أسباب النقمة؟ أم يوم علو الحق عليهم، وهم لا يَصبِرون على المِحنة ولا يُبْصرون من العمى؟ وأهل الحق بين حالَىْ غِبْطة وحسبة، وأهل الباطل بين حالَى إمْلاء ونِقمة .

فصل فى صفة الجند — إنّ الغالب على أهواء جماعة من فِئام أولياء الأمير وجنده إعظام الأمير ومعرفة فضله، والتقرب الى الله بمحبّته ومُناصحته وطاعته، ومُعاداةِ عدوّه؛ وتلك نعمة يَعْتَدّونها ويتقربون الى الله بها، ويتوسّلون الى الأمير بجَزْى قوم خالفوا.

فصـــل — حل بين فلان وبين التشريد بهـم والاجتياح لهم ، فإنّ ذلك أرضى لربك ، وأجمع للأُلفة ، وأقومُ لعمود الخلافة الذى سدّد الله دعائم الإسلام وأسّ الدين به . وأعلم أنّ مَن حاط الله دينَه ، ورمتْ عن فُوقه الجماعة ، وعادى أهلَ النقض لها ، ابتعثه الله آمنـا من هول الحساب وضيق المَحْشر ، والله بنصره أحقُّ وأولى . وكن لله بحيث افترض عليك ، فإنّه قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ ﴾ .

كتب جعفر بن محمد بن الأشعَث الى رجل لم يكاتبه

لست بما صرَفتَ الىّ من معروفك بأسرّ منى ، بما أهديتَ الىّ من قضاء الحق عنك ، وقلّة ذوى الحُرْمة بك ، لأنكَ قد تصِل مَنْ لا يثِق ولا يأنس الّا بمن يَعتمِد عليه .

كتب الفضل بن يحيى الى رجل يُشاوره فى أمر حَدَث

ليس كلّ امرئ وإن كان ذا عَزيمةٍ فى رأيه ، وأَصالة فى عقله ، بمستغنٍ عن مُكاشَفة أهل الرأى ، لتوزيع الله عزّ وجلّ ، أقسامَ الفضل فى خلقه ، وإشراكه إيّاهم ، فى عطاياه ، فرأيَك فى كذا .

رِكب ابراهيم بن المهدىّ الى أحمد بن يوسف ، فكتب أحمد الى إسحاق بن ابراهيم الموصلىّ

عندى مَن أنا عبدُه ، وحُجّتنا عليك ، إعلامُنا إيّاك .

توسّـــل

توسّل رجل الى رجل بمحمّد بن عبد الملك وادّعى قرابتَه منه ، وبلغ ذلك محمّدا فكتب الى المُتوسل اليه :

بلغنى أنّ رجلا ادّعى قرابتى ، وأورد عليك كتابا ذكر أنّه منّى ، وما أُنكر أن ينتفِـع بى مَن توَسّل بنسبى ، إلا أنّه مَن ادّعى قرابةً ، ولا قرابةَ له ، كان استعمال الشفاعة فى أمره أَوْلَى .

كتب طاهر بن الحسين الى الفضل بن سَهل

أسعدك الله بمحاربتك، التى بذَلتَ فيها مُهجتَك، ومُهجَ مَن هو موصولٌ بك منّا .

محمد بن الجَهْم

وليس فى جميع الناس أعدى لك : مِن صديق مؤمِّل، أو حميم راجٍ، إن منعتَهما شتماك وبَهتاك، وإنْ أعنتَهما الباهه اغتالاك[(١)] .

محمد بن مُسْعَر

قال : كنتُ أنا ويحيى بنُ أكْثم عند سُفْيان، فبكى سُفيان، فقال له يحيى: ما يُبكيك يا أبا محمّد؟ قال :

بعد مُجالستى مَن جالس أصحابَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ابتُليتُ بمجالستكم ؛

فقال له يحيى : فمُصيبةُ مَن جالستَ منهم بمجالستهم إيّاك بعـدَ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظمُ من مُصيبتك بنا؛ فقال : ياغلامُ، أظنّ السلطانَ سيحتاج اليك .

دخل ميمون بن مِهْران على بعض خلفاء بنى أُميّه — وأَحسَبه عمرَ بنَ عبد العزيز — فقال له وقد قعد فى أُخريات مجلسه : عِظنى، فقال له : إنّك لمن خير أهلك إنْ وقِيتَ ثلاثا، قال: ماهنّ؟ قال : السلطانُ وقدرته، والشباب وغِرّته، والمـال وفِتنته، فقال : أنت أولى بمكانى منّى فارتفع الىّ؛ فأجلسه معه على سريره .

ابن وَهْب فى الاعتذار

لو لم نَعذرك لم نعذر أنفسنا بقطيعتك، فكن لنا فى لائمة نفسك، كما كنّا لك فى عذرك .

وفى مثله

ليس فى الإساءة فضلٌ عن الاعتذار، وفى عائدتك فضل عن إساءتنا، فمن أين يسقط بين فضلك والاعتذار !

(١) هكذا وردت فى الأصل .

آخـــر

فلان من حملة المعروف، يكثر عنده هم قليله فى شكرهم، ويقل لهم كثيره فى عظيم حقوقهم .

فصـــل — لئن عميتُ عن الرأى فيك، لقد أبصرتُه بك .

فصـــل — تغيب فأشتاق، ونلتقى فلا أَشتفى .

٢ — فصول من رَسائل مختارةٍ فى كل فنّ

وهى مُثُل ممـا كتب به الكتّاب فى أبواب لا نظير لها

فمن ذلك ما كُتِب به فى التحميـد لله عزّ وجلّ فى أوائل الفتـوح وأواخرها وأوائل الكُتُب التى فيها تحميد الله عزّ وجلّ .

التحميد الأول

الحمد لله القادر القاهر، المتوحِّد بالسلطان والربوبيّة، والمتفرّد بالبقاء والقدرة، والمتجبِّر بالكبرياء والعظمة؛ ذى الجلال والإكرام، والإفضال والإنعام، والعز والبرهان، والأسماء الحسنى، والمَثَـل الأعلى؛ الأوّل بلا غاية، والآخر بلا نهـاية، الذى لا يحيـط به وصف الواصفين، ولا تبلغ مَدَى عظمته أوهامُ المتوهِّمين، ولا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير؛ لا يئوده حفظ كبير، ولا يَعزُب عنه علم صغير، يعلم خائنة الأعين وما تُخفِى الصدور، وما تَسْقُط من ورقة إلّا يَعلمها، ولا حبّةٍ فى ظُلمات الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابِسٍ إلّا فى كتاب مُبين .

التحميد الثانى

الحمد لله الذى خلَق الأشياء على غير مِثال ولا رُسوم، وأنشاها على غير حُدود، ودبّر الأمور بلامُشير، وقضى فى الدهور بلا ظَهير، وسمك السماء بقدرته، وبناها على إرادته، وأسكنها ملائكتَه الذين آصطفاهم لمُجاورته، وجبلَهم على طاعته، ونزّههم عن مَعْصيته،

وجعلهم حملة عرشه، وسكّان سماواته، ورسله الى أنبيائه، يُسبّحون الليل والنهار لا يفترون؛ ودحا الأرض وبسطها لكافّة خلقه، وقسّم بينهم الأرزاق، وقدر لهم الأقوات، فهم فى قبضته يتقلّبون وعلى أقضيته يجْرون، حتّى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وصدر تحميد مفرد

الحمد لله العلىّ مكانُه، المنير برهانُه، التامّة كلماتُه، الشافية آياتُه؛ والحمد لله ولىّ أوليائه وعدوّ أعدائه.

وصـــدر تحميـــد

الحمـد لله الغالب الذى لا يُغلَب، والمُقتـدر الذى لا يُعان، والمُنجز وعدَه، والمؤيِّد أولياءَه، والحاتم بالفَلَج (١) والظهور لهم، والمُديل من أعدائه، ومُحيط دائرة السَّوْء بهم.

ولكاتب خُزَيمة بن خازم فى فتح الصَّنَّاريَّة تحميد مختار

أما بعد، فالحمد لله ذى المَلَكُوت والقُدْرة، والجَبَرُوت والعزَّة، والسلطان والقوة؛ أهلِ المحامد كلِّها، ومدبِّر الأمور ووَليِّها، وخالق الخلائق وبارئها، ومميتها ومحييها، وباعثها ووارثها؛ الذى أوْجب على نفسه بمـا نفَذ من مشيئته، وسبق من علمه، وثبت فى اللّوح المحفوظ عنده إعزاز دينه، وإظهار حقه، وإعلاء كلمته، وإبلاج حجّته، وإزهاق باطل أعدائه، الصارفين عن طاعته، والجاحدين لربوبيّته، المكذِّبين بكتبه ورُسُله؛ بلَغ بذلك أمرَه، ونطق به كتابُه؛ فإنّه يقول تبارك اسمه فى المُنزَل من فرقانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾.

وتحميد لأحمد بن يوسف الى الوُلاة عن الخليفة

أما بعد، فالحمد لله ذى المِنَن الظاهرة، والحُجج القاهرة؛ الذى قطَع بينه وبين عباده المَعْذرة، وأردف عليهم البيّنة، ومُهلَة النَّظِرَة؛ وجعـل ما أتاهم من حظوظ الدنيا بالقَسْم

(١) الفلج: الغلب والظفر، يقال فلج فلان على خصمه، أى غلب وظفر.

المكتوب، وما ذَخَر لهم من ثواب الآخرة بالنُّجْح المطلوب؛ فهم فى العاجلة شركاءُ فى النعمة، وفى الآجلة شتّى فى الرحمة؛ يختص بها أهلها المتنفعين بما ضرب لهم من الأمثال، وتصريف الحالِ بعـد الحال؛ المبادِرين بأعمالهم الى انقضاء مَدَدِ آجالهم، قبل حلول مايُتوقّع، وفوت ما لا يُرتجع .

وتحميد لابراهيم بن العباس فى فتح اسحاق بن اسماعيل

الحمد لله مُعزّ الحقّ ومُديله، وقامـع الباطل ومُزيله، الطالبِ فلا يفوته مَن طلب، والغالب فلا يُعْجزه مَن غلب؛ مُؤيِّد خليفته وعبده، وناصِر أوليائه وحزبه؛ الذين أقام بهم دعوتَه، وأعلى بهم كلمتَه، وأظهر بهم دِينه، وأدال بهم حقَّه، وجاهد بهم أعداءَه، وأنار بهم سبيلَه؛ حمدًا يتقبّله ويرضاه، ويُوجِب أفضلَ عواقب نصره، وسوابغَ نَعْمائه .

التحميد الثـانى

الحمد لله الغالبِ ذى القُدْرة، والقاهرِ ذى العِزّة؛ الذى لم يقابل بالحقّ باطلا فى موْطنٍ من مَواطن التحاكم بين عباده، إلّا جعل أولياءَ الحق منهم حِزْبه وجُندَه، وجعل الباطل بهم فلًّا منكوبا، ودَحيضا زَهُوقا؛ إن نهَض به أولياؤُه كانتْ مراصدُ عواقبه مُفرِّقةً ما جُمِـع، ومُبتِرةً ما أُعِدّ، وقائدة باشياعه الى مَصْرع الظالمين، حتّى يكون الحقُّ الطالبَ الأعزّ، والباطلُ المطلوبَ الأذلّ؛ وأولياءُ الحقّ الأعْلَيْن يدا وأيدا، وأشياعُ الضلال الأخْسرِين أعمالا وكيدا؛ قضاءُ الله وسُنّته، وعادة الله وإرادتُه، فى الفِئَة المنصورة أن تعزّ فلا تُرام، وأن يُمكّن لهـا فى الأرض كما مكّن للذين من قبلها؛ وفى الفِئَة الناكبين عنه، أن تَزِلّ فتكونَ كلمتُها السُّفلى، وكلمة الله هى العليا، والله عزيز حكيمٌ .

وتحميد له مبتدأ مقام بين يَدَى خليفة

أما بعد، فالحمد لله الأول بلا أَبَدٍ يُحْصَى، والآخر بلا أَمَدٍ يَفْنَى؛ الظاهرِ لخلقة بعزّته، العزيزِ فى سلطانه بعظمته، الفَرْد فى وَحدانيّته بقدرته، المدبّر فى ملكه بجبَروته؛ الذى نأى عن الأشياء أن يكون فيها مَحْوِيًّا، واتصل بها فلم يكُ من علمها خَليًّا؛ وهو فيها غيرُ مُسْتكِنٍّ؛

ومعها غيرُ مُماسّ فى لجج البحار، ومفاوز القِفار، وشَواهق الجبال، وكُثبان الرمال؛ مع كلّ خَلْق، وفى كلّ أُفُق، وعلى كلّ شَرَف ومكان، وفى كلّ وقت وأوان؛ موجود إذا طُلِب، وقريبٌ حيث نُدِب؛ عالمُ خَفِيّات الغيوب، وخَطَرات القلوب، وما فى السموات وما فى الأرض، ما يكون من نَجْوى ثلاثةٍ الاهو رابعُهم، ولا خمسةٍ الاهو سادسُهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثرَ الّا هو معهم؛ وما تسقط من ورقة الّا يعلمها ولا حبّة فى ظُلُمات الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابس الّا فى كتاب مبين .

وتحميد ثانٍ يتلو الأوّل

الحمد لله المُتعالِى عن تشبيه الجاهلين، وتحديدِ الواصفين، وتكييف الناعتين؛ يُوصفُ لا بالعَرْض والطول، ويُنْعَت بغير الشبح المَثُول، ويُحَدّ لا بالخلْق المعدود، والجسم الموجود؛ بل يُتناهَى من وصفه، الى ما دلّ عليه من صُنعه، ويُوقَفُ عليه من نعته، على ما أَخْبَر به عن نفسه؛ وكيف يُوصف مَن لم يَرَه أحد، ويُحدّ من لم يَحُدّه بلد؛ أو يُشْبه غيرَ ذى أعضاء، أو يُكيّف غيرُ ذى أجزاء؛ لَوْ رُئِىَ لَوُصف، ولو وُصِف لَمُثِّل، ولو مُثِّـل لكان له نظيرٌ؛ سبحانه وتعالى عن ذلك عُلوّا كبيرا، لا تُجِنّه الأقطار، ولا يحويه قَرار؛ ولا تُدركُه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير؛ لا يوصف أُولاه، ولا يُدْرك أُخراه، ولا يُعرَف مُنتهاه؛ عَظُم أن يَحْصره وَهْم، وجلّ أن يُدركه فَهْم، وامتنع من أن يخاله علِم، ولا يُغيّره ليل ولا يومٌ؛ ولا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلّا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفَهم ولا يُحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء، وسِع كرسيّه السمواتِ والأرضَ ولا يؤوده حفظُهما، وهُوَ العلىّ العظيم .

وتحميد ثالث

الحمد لله الذى ألهمَنا من الإقرار بربو بيّته، والإيمان بوَحْدانيّته، وأنّه غيرُ ذى صاحبة يسكُنُ اليها من وَحْشَــة، ولا ولد يتكثّر به من ضعف قِلّة، ولا شريك يعـاونه من عجز قُدرة، ولا ظهير يكانفه لملال فَتْرَة؛ ما جعل لنا به أوثَق الأسباب لَدَيْه، وأرجى الوسائل

اليـه ، إذ كان من أنكر ما دللنا الإقرار به بصـير بجحد ما أخنعنا الاعترافُ فيه ، الى أليم عقوبته بالمعصية التى استحكمت السُّخطة على أهلها ، وحَلّت النِّقمة بمن فارقها ؛ ثمّ جعلنـا تبعَ إشراف كثير على أنفسنا فى مشيئة منه ، بَسطَ اليها آمالنا وأحسَن علينا أطمَاعنا بكرم عفوه ، وعظيم حِلْمه ، وسعة رحمته ، التى وعد أهل الإيمـان بها ؛ إذ صار مَن فارقهم فى ذلك بمـا استهوت عليهم ، بتزيينـه لهم شياطينُهم ، ورانت على أفئدتهم ...(1) وما ظَلَمَتْـه قُرباؤهم الى النـاس من كل طمع يُجْدى وخبر يُنْجى ؛ جَزاءً بمـا أشركوا بالله ما لم ينَزّل به سلطانا ، إنّ الله لا يَغفِر أن يشرك به ، ويَغفِر ما دونَ ذلك لمن يشاء ، ومَنْ يُشرِك بالله فقد حبِط عملُه ، وهُوَ فى الآخرة من الخاسرين .

وتحميـد يتلو الثالث فى هـذا المقام

الحمد لله الذى ابتدع لا مِن شىءٍ ما أنشأ ، وابتدأ على غير مِثال ما ابتدأ ؛ فجعل كثيرا من لطائف تقـديره ، وصُنوف تدبيره ، وتصاريف أُمُوره ، حُججا واضحة ، وآياتٍ بيِّنـة ، وعِبرًا شافيـة ؛ تَشهَد له بعزّة القـدرة ، ونفاذ الحول والقُوّة ؛ فخلق مدبّرا بلا مَشُورَة أحد ، سـبعًا دحاهنّ على المـاء على غير سَـنَد ؛ مبسوطات فى تكاثف أجزائهنّ ، على مَعِـين ماء مسَخّر من تحتهن ، فجَرَّ خلالهنّ أنهـارا ، وقدّر فيهنّ من المعاش أقواتا ، وجعـل لهنّ من الجبـال أوتادا ، ثم آستوَى الى السماء وهى دُخَانٌ ، فقال لها وللأرض آئتيا طوعا أو كَرْها قالتا آتينا طائعين . ففَطَر من الدُّخَان فى خفته على الهواء سَبعا ، جعل بينهنّ من الجو مُتّسعا ، سـبعَ سمواتٍ طِباقا مُرْتفعات ، بلا دعائمَ قِبلَها ولا عِلاقات ، يُمْسكهنّ بقدرة أن يَرْتفعنَ فوق ما حبسهنّ عليـه ، وأن يَهْوِين الى قرار دون ما رفعهنّ اليـه ؛ فأتقن صنعَها ، وأوحى فى كلّ سماء أمرَها ، و زيّن السماء الدنيا بالمصابيح النيّرة ، والشُّهُب الثاقبة ، والنجوم الواضحة ؛ وسخَّر الشمس والقمر عَلمـا للمهتدين ، وسِراجا للبصِرين ، ورُجوما للشياطين ، وأوقاتا لاختلافِ السنين ، ومعـرفة لكل حين ؛ لا الشمسُ يَنبغِى لهـا أن تدرِكَ القمر ولا الليل

(1) فى الاصل بياض . وفى العبارة اضطراب ظاهر .

سابق النهار وكلٌّ في فلك يَسبحون ؛ فقضاهنّ سبع سموات فى يومَيْن ، ولو شاء خلقها فى أسرعَ من طَرْف العين ؛ إنّما أمرُه إذا أراد شيئا أن يقولَ له كُنْ فيكون ؛ بلا مُعاناة لقول ، ولا ضَعْف من حَوْل ؛ ثم أسكنهنّ من خلقه ملائكةً اصطفاهم لعبادته ، واجتباهم لتبليغ رسالته ، مَعصومِين من أن يُشْركوا بالله ، ما لم يُنزّل به سلطانا ، وأن يقولوا على الله إفكا وبُهتانا ؛ يُسَبّحونه بالليل والنهار لا يفتُرون ولا يَسأمون من عبادته ، ولا يَستحسرون عن طاعته ؛ يخافون ربّهم من فوقهم ويَفعلون ما يُؤْمرون .

وتحميـــد فى فتح لابن العباس

أما بعد ، فالحمد لله الذى حمد نفسَه ، وفرَض حمدَه على خلقه ، وأعزّ دينَه وأكرم بطاعته أولياءه ، وأكرم طاعته بأوليائه ، فجعل جندَه منهم المنصورِين ، وحزبه منهم الغالِبين ؛ نهجَ بهم سبيله ، وأقام بهم حُجّته ، وجاهد بهم أعداءه ، وأظهَر بهم حقّه ، وقمع بهمُ الباطل وأهلَه ؛ وأعلَى كلمتهم ، وأيّد نصرَهم ، وألّف لهم وبهم ، ومكّن لهم فى الأرض ، فجعلهم أئمة وجعلهم الوارثِين .

والحمـد لله المُعزّ لدينه ، المُظهِر لحقه ، الناصر لخلفائه ، المُمَكّن لحزبه ؛ المُنتقم بهم ممّن صدف عنه ، مؤيّدا دينَه بالنصر ، ليُظهِرَه على الأديان ، وحَفّه بالعزّ ، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلْفــه ؛ وجنودَه بالفَلجَ فهم الأعلون إن استُنْصِر بهــم ، والأعَزُّون إن كادبهــم ؛ والأقربون منه إخلاصا وعملا ؛ حمــدا يُوازى نعمه ، ويَمْترى بمثله فواضــله ومزيده .

وله فى فتح ابن البَعيث لمّـا ظفر به

أما بعد ، فالحمدُ لله ناصرِ أنبيائه وخلفائه ، وهادى أوليائه ، أولياء الحق وحزب الهُدى ؛ الذين أقام بهم سُبلَ الرشاد ، ونصَب بهــم مناهجَ الدين ، فأظهره على الدين كُلّه ولو كَرِه المُشركون .

وله صدر كتاب الخميس فى تحميد الله وتمجيده

أما بعــد ، فالحمــدُ لله الذى جلّت نِعمه ، وتظاهرتْ مِننُه ، وتتابعتْ أياديه ، وعمّ إحسانُه ، إلهِ كلّ شيء وخالقِه ، وبارئه ومصوّره ، والكائنِ قَبْـلَه ، والباقى بعدَه ، كما قال فى كتابه : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ . العالى فى مشيئته والقاهر فَوْق عباده ، المُتعالِى عن شَــبَه خلقِه ، ليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصيرُ ، خلق العباد بُقدرته ، وهداهم برحمته ، وأوْضحَ لهم السبيلَ الى معرفته بمــا نصَب لهم من دلائله ، وأراهم من عِبره ، وصرَفهم فيه من صُنْعه ، كما قال جلّ جلاله : ﴿ٱلَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ .

وذلك كلّه مِن خَلْقــه إيّاهم بتمثيله ما مَثّــل لهم من الدلائل التى نصبها لهم ، والأعلامِ التى جعلها إزاء قلوبهــم ، وأسماعِهــم وأبصارهم ، ويَسّر لهم خواطرهم وفِكَرهم ، والهيئةِ التى هيأهم لها لِيقع الأمرُ والنهى عليهم ؛ فلا يُكلّفهم فوق طاقتهم ، ولا يُجشّمهم ما يَقْصُر عنه وسُعْهم ، نظرا منه تبارك وتعالى إليهم ورحمةً بهم ؛ ليؤمنوا به ويعبــدوه ، فيَستحِقّوا به رحمتــه ورِضوانه ، والخلودَ فى النعيم المُقيم ، والظلِّ المَديد ، والعيش الدائم ؛ كما قال تعــالى ذكره : ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ . وكان من نظره ورأفتــه بهم أن بَعَث فيهم أنبياءه ورُسُلَه ، يدعُونهم الى طاعته ، ويبيّنون لهم هُداه ، ويُوَضّحون لهم سَبِيله ؛ ويَهْدُونهــم الى رحمتــه ، ويَعِدُونهم ثوابَه ، ويُنذرونهم عِقابه ، ويَبْسطُون لهم توبته ، ويُحذّرونهــم سُخطه ، ويبيّنون لهم سنّته وشرائعَــه ، ويَكشفون لهم مَواعظه ، ويعلّمونهم كتابَه وحِكمتَه ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ . وكان من رأفته بهم ، ونظره لهم ، أن بعثهم اليهم بالحُجج الظاهرة ، والأعلامِ البيّنة ، والشواهد الناطقــة ، التى أظهرَ بهــا صِدْقهم ، وأقام بها برهانَهم ، وأوضح

بها دليلَهم ، وأثابهم عَمَل سواهم ، ليكون أدعَى لهم الى تصديقهم ، والقبول عنهم ، وأوكدَ للحجّة على مَن أبَى ذلك منهم .

وتحميد أحمد بن يوسف فى صدر رسالة الخميس التى كانت تقرأ بخُراسان

أما بعـد ، فالحمد لله القادرِ القاهرِ ، الباعث الوارث ، ذى العـز والسلطان ، والنورِ والبُرهان ؛ فاطر السماءِ والأرض وما بينهما ، والمتقدِّم بالمَنِّ والطَّوْل على أهلهما ؛ قبل استحقاقهم لمَثُوبته ، بالمحافظة على شرائع طاعته ، الذى جعـل ما أَوْدَع عباده من نِعمته ، دليلا هاديا لهم إلى معرفته ، بما أفادهم من الألباب ، التى يَفْهمون بها فصل الخطاب ؛ حتّى آقتنوا علم مواردِ الاختبار ، وثقِفوا مصادر الاعتبار ، وحكموا على ما بطَن بمـا ظهرَ ، وعلى ما غاب بمـا حضر ؛ واستدلوا بمـا أراهم من بالغ حكمته ، ومُتْقَن صنعته ، وحاجة مُتَزايِل خلقه ومُتَواصله ، الى القِوام بمـا يَلُمُّه ويُصْلحه ، على أنّ له بارئا هو أنشأه وابتدأه ، ويَسّر بعضَه لبعض ، فكان من أقرب وجودهم ، ما يباشرون به من أنفسهم ؛ فى تَصرّف أحوالهم ، وفنونِ انتقالها ، وما يُظْهِرون عليـه من العجز عن التأتِّى لِمـا تكاملت به قُواهم ، وتمّت به أدواتُهم ، مع أثَرَ التدبير والتقدير فيهم ، حتى صاروا الى الخلقـة المُحْكَمَة ، والصورة المُعْجِبة ، ليس لهم فى شىء منها تلطُّفٌ يتيمّمونه ، ولا مَقْصدٌ يَعْتَمدونه من أنفسهم ؛ فإنّه قال تعالى ذكرُه : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ . وما يتفكّرون فيه من خَلْق السماء ، وما يجرى فيها من الشمس والقمر ، والنجومِ مُسَـخّراتٍ على مَسيرٍ لا يثبت العالَم إلّا به ، من تصاريف الأزمنة ، التى بها صلاحُ الحَرْث والنّسْل ، وإحياءِ الأرض ، ولِقاح النبات والأشجار ، وتعاورِ الليل والنهار ، وممرّ الشهور والأيام ؛ والسنين التى تُحصى بهـا الأوقات ؛ ثم ما يوجد من دليـل التركيب ، فى طبقات السقْف المرفوع ، والمَهاد الموضوع ، باختلاف أجزائه والتئامها ، وخَرْق الانهار ، وإرساء الجبال ، ومن التئام الشاهـد على ما أخبر الله به من إنشائه الخلق وحدوثِه بعد أن لم يكن ، مُترقيًا فى النّمـاء ، وثباته الى أجله فى البقاء ، ثم مَحاره مُنْقضيا الى آخر الفناء ؛ ولم يكن له

مُفتتحُ عدد ، ولا مُنْقطعُ أمد، وما ازداد بنشوء، ولا تَحَيّفه نُقصان ، ولا تفاوت على الأزمان، لأنّ مالا حد له ولا نهاية، غير ممُكِن الاحتمال للنقص والزيادة؛ ثم أَجرَى فيما ذكر من خلق الله وخلق الإنسان الى ذكر ماتفضّل الله به على عباده الأنبياء ، وما اختصهم به من مَبْعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، الى ذكر الخُلَفاء أوّلا، ثم الى ذكر المأمون ودولته .

وتحميد للعبّاس فى مقام له بين يَدَىْ المأمون

الحمـد لله على نعمه علينا ، وإحسـانِه إلينا، بالأرض المَبْســوطة، والسماءِ المَرْفوعة، والرِّياح المُســخّرة ، والأمطارِ النازلة ، والأوقات القائمة ، والمَنافع الدائمة، والدين المبين، والأدب القويم ؛ حمدًا يكون اليه صاعدا ، ولَدَيه ناميا، ولمَلَكوته مائلا ؛ والحمـد لله حمدا يُثْبِت رضوانَه ، ويورث إحسانَه ، ويُوجِب مزيدَه؛ فهو المنعم المحمود، والمُتَطوِّل المشكور؛ لاإله إلّا هو لا شريك له ، كما شهِد الله وملائكتُه قائمـا بالقِسْـط لا إله إلّا هو العزيزُ الحكيمُ .

وتحميد لعبد الحميد فى أبى العلاء الحَرُوريّ

الحمد لله الناصر لدينه، وأوليائه وخُلفائه، المُظْهِر للحق وأهلِه ، والمُذلّ لأعدائه وأهــل البِدْعة والضلالة ؛ الذى لم يجمع بين حقّ وباطل، وأهلِ طاعةٍ ومَعْصيةٍ، إلّا جعل النُّصْرة والفَلَج والعاقبـةَ لأهل حقّه وطاعته ، وجعـل الخزْىَ والذِّلّةَ والصَّغار، على أهل الباطل والخلاف والمَعْصية ؛ حمـدا يتقبّله ويرضاه ، ويوجِب به لأمير المؤمنين وأهلِ طاعتـه الزيادةَ التى وعد مَن شكرَه ؛ والحمـد لله على ما يَتَــولّى من إعزاز أمير المؤمنين ونَصْره وإفلاحِه وإظهارِ حقّــه، على ما وقع بأعدائه وأهلِ مَعْصِيَته والخلاف عليه من سَطَوَاته ونَقِماته وبأسه، فيما وَلِيَ أميرُ المؤمنين بِن مُوالاة مَن والاه، وعداوة مَن بَغَى عليه وعاداه ؛ لا يَكِلُه فى شىء من الأمور الى نفسه، ولا الى حوْله وقوّته ومكيدته، فإنّه لا حولَ ولا قوّةَ لأمير المؤمنين إلا به .

وتحميد فى آخر فتح

الحمد لله المُعزّ لدينه ، المُظْهِر لحقّه ، الناصرِ لأوليائه ، المنتقم من أعدائه أهلِ الكفر ، المُنْزِل بهم من بأسه ، ونَقْمته وجَوائحه ، الذى لم يجمع بين أهل حقّه ، و باطل عدوّه ، فى مَوْطِنٍ من مواطِنِ التحاكم ، إلّا جعل فيه لأوليائه الظفَر ، وأفرَغ عليهم الصبر ، ومنحهم النصر ، وجعـل الدائرة وسوء العاقبةَ على عدوه ، وأهل الكفر ، حمـدا كثيرا يرضاه من الشكر ، ويَحْسُن به المزيدُ .

وتحميد فى فتح الى أمير لقمامة

الحمد لله الفتّاح العليم ، الذى خَصّ الأمير بأفضل الكرامة وأتمّ النعمة ، وأَحْسَنِ الوِلاية ، وأعظم الكفاية ، وحفظ ما استرعاه ، وأعزّ أولياءَه ، وقمعَ بالمَذَلّة أعداءه ، وجعل حسن العـاقبة له ولأهل طاعتـه ، ودائرة السوء على أهل معاندته ، حمـدا يحسُن به القضاءُ ، وتزيد به النّعماءُ .

وصدر تحميد لغسان بن عبد الحميد فى خطبة موجزة

الحمد لله الذى لا يُدْرَك خيرٌ إلّا برحمته ، ولا يُنـال الفضلُ إلّا بنعمته ، ولىّ التسديد للحسناتِ ، والعصمة مِن السيئات .

تحميد لعبد الحميـد فى فتـح

الحمد لله العلىّ مكانُه ، المنيرِ برهانُه ، العزيزِ سلطانُه ، الثابتةِ كلماتُه ، الشافيةِ آياتُه ، النافذ قضاؤُه ، الصادقِ وعدُه ، الذى قدر على خلقه بمُلكه ، وعزّ فى سماواته بعظمته ، ودبّر الأمور بعلمه ، وقدّرها بحلمه ، على ما يشاء مِن عَزْمه ، مُبتدعا لها بإنشائه إيّاها ، وقدرته عليهـا ، واستصغاره عظيمَها ، نافذة إرادتُه فيها ، لا تَجْرِى إلّا على تقديره ، ولا تنتهى إلّا الى تأجيله ، ولا تقَع إلّا على سبق مِن حَتْمه ، على كلّ ذلك بلطفه وقُدْرته ، وتصريف وَحْيه ، لا مَعْدل لهـا عنـه ، ولا سبيل لها غيرُه ، ولا علِم أحدٌ بخفاياها ومعادِها إلّا هو ، فإنّه يقول فى كتابه الصادق : ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ... ...﴾ الى آخر الآية .

وتحميـد ثان

الحمد لله الذى علا بالحُجُب التى آستتر بها عن جميع خَلْقه، وآستغنى بها عنهم لما توحّد به دونهم من عبادة الذين فطرهم على المعرفة، رءوفا عليهم بمنّه ومتطوّلا وهو فيما يُمْضى من أقداره، مفصلا لهم بابتدائه خَلْقهم فى أحسن تقويم، وإعطائه إيّاهم عاجل كل خير مقسوم، وتسخيره لهم جميع ما فى السموات والأرض، وبَسْطه لهم فى معايشهم أوسعَ الرزق، وإسباغه عليهم فيها أفضلَ النعم التى لطُفت فبطنت، وعظُمت فظهرت، ولبِستَ فعمّت، وانتشرت فجَلّت، وكثُرت فلا يحصيها عاد، وجُزلت فلا يؤدّى حق ما آفترض منها شاكر، فإنّه يقول: ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

والحمد لله الذى لم يقتصر بهم فى إكرامه وتفضيله إيّاهم على عاجل، فإنّه مُضْمَحِلّ زائل مما أعطاهم إيّاه ولم يَكِلْهم فى معرفة خالقهم تبارك وتعالى، ومُتَوَلّى النعم عليهم، والاحسان اليهم، والارتياش لهم، ولا فى مُبْتَغَى سبيل طاعته، وأداءِ حقه، وشكرِ نعمته، واستيجاب غِبْطة المعاد اليه الى أن يَعُوا ذلك بعقولهم، والنظر فيه بألبابهم، والتصريف له على أهوائهم، فإنّه لو ألجأ ذلك اليهم، وأفردهم فيه الى أنفسهم، ووكلهم فيما أمرهم به الى مقدرتهم، لحارت عنه منهم الأبصار، ولتاهت فيه منهم العقول، ولأضلّهم عن قصده العمَى، ولمال بهم الى غيره الهوَى، ولاستحكم عليهم شرك الردى، ولكنّه بعث فيها أنبياءه الهادين، يدعونهم الى الصراط المستقيم، بنوره المُضىء، ودينه القويم، وآياته البيّنة، وكُتُبه الفارقة التى بيّن فيها مَحابّه ومَكْروهه، وطاعته ومعصيَته، وثوابَ الفريقَيْن فى ذلك من عباده ليحذروا ما حذّرهم فيه من سُخْطه، ونزل بهم فيه من نِقمته، وليسارعوا فيما جعل لأهله به الى أفضل المثوبة، وأحسنِ العاقبة فى الدنيا والآخرة، وكَشَف لهم الجَهَالةَ، وهدَى من الضلالة، وبصّرهم سبيلَ الحق، وبيّن لهم معالمَ الإسلام، ليرجِع جائرٌ، ويَقْصِدَ زائغٌ، ويعرِفَ جاهل، وليعبدَ الربَّ بما وحّد به نفسَه، وليستبين العلمَ، ويستضىءَ الحق، وليبتغىَ من الله الثواب بلزوم دينه الذى شرع، وأداءِ فرائضه التى فَرَض، وإيثار طاعته التى أوجب، وليكون لله

الحجةَ البالغة على عباده فيا تركوا من ذلك وسفَّهوا بعد استبانته لهم ، واستفاضته فيهم وإعذاره اليهم ، فانه يقول : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ويقول ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ .

لأنس بن أبي شيخ

الحمد لله الذى بالقلوب معرفتُه ، وبالعقول حُجّتُه ، الذى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم أمينا فوفَى له ، ومُبلِّغا فأدّى عنه فحجّ به المُنكِر ، وتألّف به المُدبِر ، وثبّت به المستبصرَ ، الى أن توفّاه على منهاج طاعته ، وشريعةِ دينه ، ثم أورثكم عهدَه وخصّكم بكلمة التقوى ، وجعلكم الأمةَ الوُسطى .

ولعبد الحميد فى فتح

يُعظِّم فيه أمرَ الإسلام بمحمد صلى الله عليه وسلم

أما بعد ، فالحمد لله الذى آصطفى الإسلام دِينًا رَضِى شرائعَه ، وبيّن أحكامه ونوّر هُداه ، ثم كَنفَه بالعزّ المؤيّد ، وأيّده بالظفر القاهر ، وآزره بالسعادة المُنتجبَة ، وجعل مَن قام به داعيا اليه من جُنْده الغالبين ، وأنصاره المسلّطين ، كلّما قهر بهم مناوئا أورثهم رِباعَتهم المأمولة ، وأموالهم المُثرِية ، ودارَهم الفسيحة ، ودولتَهم المطولة ، أمرا حتمه على نفسه ؛ ثم جعل مَن عاندهم وآبتغى غيرَ سبيلهم مُسلَمًا قد آستهوته ذِلّةُ الكُفر بظُلَمها ، وحَيْرةُ الجَهالة بحَوارِها ، وتيه الشقاء بمغاويه ، وكلّما ازدادُوا لدعوة الحق إباءً ، ازداد الحقُّ اليهم آزدلافا ، وعليهم عُكوفًا ، وفيهم إقامة ، الى أن يَحلّ بهم عِزُّ الغلبة ، ونَجاةُ المتجاوز ؛ راغبين فيما شوّقهم اليه ، مُحافظين على ما نَدبهم له ، قد بذَلُوا فى طاعة الله دماءَهم ، وقبِلوا المَعرِضَ عليهم فى مبايعة ربهم لهم بأنفسهم الجَنّة . محمودٌ صبرُهم ، مسهّل بهم عزمُهم ، الى خير الدنيا والآخرة .

والحمد لله الذى أكرم محمدا صلى الله عليه وسلم بما حَفظ له من أمور أُمّته ، أن اختار لمواريث نبوّته ما أصار الى أمير المؤمنين من تطويقه ما حَمل بحسن نُهوض به وثُجّ عليه ، ومُنافسة فيه ، أن فعل وفعل . والحمد لله الذى تمّم وعده لرسوله وخليفته فى أمة نبيّه مسدّدا

له فيما اعتزم عليه . والحمد لله المعزّ لدينه، المتولّى نصرَ أمته بنبيّه المتخلّى ممن عاداهم وناوأهم، حمدا يَزيد به من رضى شُكْرَه ، وحمدا يعلُو حمدَ الحامدين من أوليائه الذين تكاملت عليهم نِعَمُه فلا توصف، وجلّت أياديه فلا تُحْصَى، الذى حَمَّلنا ما لا قوة بنا على شكره إلا بعونه، وبالله يستعينُ أمير المؤمنين على ذلك، واليه يرغب، إنه على كل شىء قدير .

ولعبــــد الحميــــد أيضــا

أما بعد، فالحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه، وارتضاه دِينًا لملائكته، وأهلِ طاعته من عباده، وجعله رحمةً وكرامةً ونجاةً وسعادةً لمن هدَى به مِن خلقه ، وأكرمهم وفضَّلهم وجعلهم بما أنعم عليهم منه أولياءَه المقرَّبين، وحزبَه الغالبين، وجندَه المنصورين، وتوكّل لهم بالظهور والفَلَج، وقضى لهم بالعلوّ والتمكين، وجعــل مَن خالفه وعزَبَ عنــه وابتغى سبيلَ غيره أعداءَه الأقَلّين، وأولياءَ الشــيطان الأخسرين، وأهل الضَّلالة الأسفلين، مع ما عليهم في دنياهم من الذُّل والصَّغار، وما عَجّل لهم فيها من الخذلان والانتقام، إلى ما أعَدّ لهم فى آخرتهم من الخزى والهوانِ المُقيم، والعذابِ الأليم، إنه عزيزٌ ذُو انتقام .

وفى ذكر الإسلام وأهله وما فضّلهم الله تعــالى به

أما بعد، فالحمد لله الذى عظّم الإسلام تعظيما، وفضلّه تفضيلا، فلم يَبقَ مَلَك مقرَّب، ولا نبىٌّ مُرسل ، ولا إمامٌ لأهل حقّ مهتدٍ إلا دَانَ به، واتّصل الى ولاية الله بما هداه له منــه ، وليس فى دين الله الذى ارتضى ، وخيرتِه من أهلِ الإسلام الذين اصطفى، تغاشُمٌ ولا تَظَالُمٌ، ولا تحاســدٌ، ولا تقاطعٌ ولا تدابُرٌ، ولكنهم كما وصفهــم اللهُ عزّ وجلّ بالتبارّ والتراحم، والتوادّ والتناصُف ، قلوبهم متفقةٌ، وأهواؤُهم مؤتلفة، وأيديهم على أهل معصيته مبسوطةٌ، أعوانا على الحق، وإخوانا فى الدِّين، ألّف الله بينهم، وجعل الإسلام نسبَهم، فقال فى كتابه : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ...﴾ الى آخر الآية . فهذه صفة الله أهلَ دينه فيما بينهم ، وكذلك كان أســلافُ الحقّ قبلَهم، فى توادّ وتبــارّهم، وتواصُلهم وتعاوُنهم ، وبذلك دَانَ أهلُ السماء، فلم يختلفوا فيه، ولم يرغَبُوا عنه، ولم يَحتذوا مثالا غيرَه، وبه يَدِينُ

لله الباقون من خَلقه، المتمسكون بحقه الى يوم القيامة ، سنةً مسنونةً، وشريعةً متبوعةً ، لا يَبتغون بها بَدَلا ، ولا يُريدون عنها حِوَلا ، فأهلُ طاعة الله أهلُ سلامةٍ فى دنياهم ،وإخوان كما قال الله عزّ وجلّ فى آخرتهم، لم تنقطِع الولايةُ فيما بينهم، لانقطاع الدنيا عنهم، ولكن الله وصلها بالآخرة لهم، بجمعهم فى داره وجِواره، كما ألّف فى الدنيا بين قلوبهم، وعَصَم بالإسلام أُلْفتهم .

تحميـــد

الحمد لله المُثيبِ على حمده وهو ابتداؤُه، والمنعِم بشكره وعليه جزاؤُه، والمثنى بالإيمان وهو عطاؤُه .

ولُقَامـــه

الحمـد لله الذى أكرم الإسلام وفضّله ، وشرّفه وعظّمه ، وأعلى منزلته ، وجعل أهلَه القائمين به ، والحامدين عليه، أولياءَه وحزبَه الذين قضى لهم بالتمكين، والظهور على الدِّين كله ولو كَرِهَ المشركون .

ولزيد بن على رحمةُ الله عليه خطبة

الحمد لله الواصل النِّعم بالشكر، والشكر بالمَزيد، حمدَ مَنْ يعلم أن الحمد فريضةٌ واجبةٌ، وأنّ تَرْكَه خطيئةٌ مُهْلِكةٌ، وأُومن بالله إيماناً نفَى إخلاصُه الشِّركَ، ويقينُه الشَّكَّ، وأتوكّل عليه توكُّل الواثقِ به ثقةَ أهلِ الرجاءِ، ومَفْزَع أهل التوكّل .

تحمـــيد فى الإسلام

الحمد لله الذى اختار الاسلامَ ديناً لنفسه، وأنبيائه ورُسُله، وشرّفه وعظّمه ، وأناره، وأظهره، ونزّهه وأعزّه ومنَعَهُ، ولم يَقبَل غيرَه، ولم يجعل حُسْنَ الجزاء إلا لأهـله ، الذين كتبَ لمن أسعده بالوَلِيجة فيه منهم الرِّضوان والمَغفرة والرأفة، وعلى مَن خالفه وابتغى غيرَ سبيله الحَسْرةَ والندامةَ، والذِّلة والصَّغار فى الآخرة والأولى ، والممات والمَحْيا ، إذ يقول الله عز وجل ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾

والحمد لله الذى اجتبى محمدا صلى الله عليه وسلم بما اصطفاه من نبوّته، واختاره له من رسالته، وحَبَاه بفضيلته، واجتباه من أفضـل عمائر العرب، وأشرفها مَنْصبًا، وأعرقها حَسَبًا، وأكرمها نَسَبًا، وأوراها زِنادًا، وأرفعها عِمَادًا، فبعثه بالنور ساطعا، وبالحق صادعا، وبالهدى آمرا، وعن الكفر زاجرا، وعلى النبيين مُهَيْمنا، وإلى سبيل ربّه داعيا، وبالكتاب عاملا، فبلَّغ عن الله الرسالة، وهَدى من الضَّـلالة، وانتاش من الهَلَكة، وأنهج معالمَ الدِّين وأدَّى فرائضَه، وبيّن شرائعَه، وأوضح سُنَنَهُ، ونَصح لأمته، وجاهد فى سبيل الله حقّ جِهَاده حتى أتاه اليقين، صلى الله عليه وسلم.

تحميد لأبى عُبَيْد الله

الحمد لله الذى شرع لاظهار حقّه وإنفاذِ سابِق قضائه فيمن ذَرَأ وبَرَأ من عباده، بإدخال من أراد أن يُدخلَ فى رحمته، وانجاز ما حقّ له من العبادة على خَلْقه، بابتـدائه خلقَهم، ومظاهرته الآلاءَ عليهم، وإحسانه البلاءَ عندهم، وإبلاغه فى الحجج إلى عامتهم، دينا رَضِيه لنفسـه وملائكته الذين أسكَنَ سماواتِه ورسُلِه، فأتمن على وجه من لم يَرْضَ إلا به، ولم يقبل إلّا إياه، ثم كان ما أعزّ به نفسَه، وأظهر به نورَه، وأراد أن يبلو به عبادَه، تحقيقا لمـا سَبق به علمُه، وإنفاذًا لمـا جَرت به مقاديرُه، أن بعثَ لِمَـا شَرَعَ من دينـه، واصطفى لتسبيحه وتقديسـه من ملائكته المقرَّبين، مَنْ ارتضَى واختار من أنبيائه ورُسله المُجْتَبَين، لتبليغ رسالته وإظهارِ حقّه، واستِشلاءِ(١) من أراد سعادته من خلقه بالرحمة التى اطلعتْ عليهم وعمّتْهم، ليعبدَ مُخلصا له، محمودا بما استحمد به إلى خَلْقه، مشهودا له بما أشهد به من كلمة الحقّ، فكان منهم التبليغُ لِمـا أُرْسِلوا به، والنصيحة لمن أُرْسِلو إليه، غيرَ مختلفين فيما بُعثوا له، ولا متفرِّقين فيما استعملوا فيـه، يدعوهم آخر إلى ما دعاهم إليه أوّل، فيصدِّق بذلك بعضهـم بعضا، ويَهدُون إلى الحق وإلى طريق مسـتقيم، فمضت رسل الله وأنبياؤه على ذلك سالكين منهاجَ الحق وسبيله، والدُّعاءَ إلى الله عز وجل وإلى

(١) الاستشلاء: الانقاذ.

طاعته، هادين مَهْدِيين غيرَ مبخوسين شيئا مما كانوا أهلَه فى المنزلة عند الله، والقُرْبة منه، والوسيلة إليه، هم وَمن آمن بهم وعَزّزهم، واتّبع النورَ الذى أُنزل معهـم، حتى تقضت بهم الأعمارُ، وتقطعتْ بهم الآثارُ، وتخرمتهم الاجال .

وكذا لأبى عُبَيد الله

الحمد لله الذى جعل الإسـلام رحمةً قدّمها لعباده قبل خلقه إياهم، واستيجابهم إياها منه، فاصطفاه لنفسه وشَرَعه لهم دِينا يَدِينون به، ثم جعل تحديدَ وحيه ومتابعةَ رُسله رحمةً تلافاهم بها بعدَ تقديمها، ومِنّةً ظاهرها عليهم قبل استيجابهم لها، تطوُّلا على العباد بالنّعماء، وإعذارا اليهم بالحجج، وتَقْدِمَةً بالوعد، وإنذارًا إليهم عواقبَ سخطه فى المَعَاد .

والحمد لله الذى ابتعث محمدا صلى الله عليه وسلم بهداه وشرائع حقّه على فَتْرة من الرسل، وطُموس من معالم الحق، ودروسٍ من سُبُل الهُدَى، عند الوقت الذى بلغ فى سابق علمه ومقاديره، أن يجتبى لدينـه الأصفياءَ، ويختارَ له الأولياءَ، الظاهرين بحقه، القاهرين لمن ابتغى سبيلا غير سـبيله، فعظّم حرمته، ووسّع حَوْزته، وصدَع بأمره، وجاهدَ عن حقه فى حَوْمات الضّلالة وظُلُمات الكفر، بالحق المبين، والسراج المُنير، ثم جعلَه مصدّقا لمن سبقه من الرُّسـل ومُجدِّدا لمـا بُعثوا له وهدًى ورحمةً ؛ ثم جعل لدينه وظائف وظفها على أهله، وشرائعَ شَرَعها لهم لا يَكْمُلُ دينُهم إلا بها، وجعل أداءها إليه، واعتصامهم بها إماما لدينه، ونظاما لنوره، وقوَاما لحقه، واستيجابا لمـا وَعَد عليه من ثوابه، وأَمْنا لمـا أوعدَ مَن خالفه من عقابه ؛ فليس يسع أهلَ الإيمان بالله الذين أكرمهم به وأجزل لهم فضلَه وأجرَه، وجعـل لهم عِزّه وعُلُوّه، واختار لهم الغلبة والعاقبة على من فارقهم فيه إلا معرفتُها، وأداؤها بما يُستكمل به حدودُها، ومما لها من كذا وكذا .

إبراهيم بن المهدى — صدر رسالة له فى الخميس

الحمد لله الذى اختار الإسلام دينا لنفسه، ورَضِى أن يَعبُدَه مَن فى سمواته من الملائكة المقرّبين، ومَنْ فى أرضه من النبيِّين والمُرْسَلين، ومَن آمن بالنور الذى هَداهم له من الثّقلَيْن،

واختار لرسالته فى سابق علمــه ، والذكر الحكيم عنده ، محمـــدًا صلى الله عليه وسلم ، وأنزل عليه كتابَه وجعل طاعتَه وطاعة نبيِّه صلى الله عليه وسـلم موصولةً بكذا فقال : ﴿ أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ .

تحميـــد

الحمد لله المتكبر فى جبروته المتعزِّز بسلطانه ، المتعالى فى سمواته ، المحتجب عَن خَلْقه ، فلا تُدْركه فى الدنيا أبصارُ الناظريـــن ، ولا تُحيط به أوهامُ المتوهِّمين ، ولا تبلُغه صفاتُ الواصفيـن ، الذى لا يؤوده عظيم ، ولا يفوته مطلوب ، ولا يعجزه شىءٌ فى الأرض ولا فى السماء ، وهو السميع العليم .

تحميـــد آخر

الحمد لله الحكيم العدلِ ، الذى فَصَلَ بيـن الحقِّ والباطل ، فنفذ قضاؤُه فى خَلْقه ، وحكم فيهم بجرى حكْمه على إرادته ، يَقْضى بالنصر والتأييـد ، والعزِّ والفَلَج ، والتمكين للحق وأهله ، وبالذل والوَقْمِ والخزْى والصَّغَار للباطل وأهله ، وجعل ذلك من فضله وحُكْمه عادَةً جاريةً باقيةً ، وسُنَّةً ماضيةً ، لا رادَّ فيما قضى منه لقضائه .

والحمد لله الذى اختص محمدا صلى الله عليه بكراماته ، واصطنعه لرسالاته ، وأنزَل عليه كتابه العــزيز الَّذِى لا يَأْتِيــه الباطلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْه وَلَا مِنْ خَلْفِه تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيــدٍ ، بما أحلّ وحرّم ، ورَضِى وسخط ، وأَمَرَ به ونَهى عنه ، وجعله خَاتَمَ النبيين والمُهَيْمِنَ عليهم ، وكتابه الذى أنزل ، آخرَ الكُتب المصدق بها النبى صلى الله عليه وسلم .

تحميد فى الإسلام وما أمتن به على أهله من مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو فى صدر الجهاد

أما بعد ، فإنّ لِدين الله الذى ارتضاه لنفسه ، ولِمَن اصطفاه من خَلْقه ، واجتباه من عباده وجعلَه مَعْلَما بين الهُدَى والضلالة ، وفُرْقانا بين الحقّ والباطل ، وحاجزا بين الكُفْر والإيمان ، وظائفَ وَظفَها على أهلها ، وشرائع شَرَعها لهم ؛ بجعل أداءها إليه ومَعْرفتَها له ، ومحافظتَهم عليها ،

واعتصامَهم بها قِواما لدينه، ونظاما لنوره وثَباتا لحقّه، واستيجابا لما وعَد من ثوابه، وأَمْنا لما أَوْعَد من عقابه ؛ فليس يَسَعُ أهل الإيمانِ بالله والإقامةِ على حقّه من المسلمين الذين سمّاهم المسلمين بالإسلام، وأحرَز لهم فضلَه وعزّه، وأصار لهم الغَلَبة على مَن خالفهم وفارقهم بما رَكَنوا إليه من الصدود عن سبيله، والتكذيبِ بكتبه ورسله، ودلّتهم فيه قُرَباؤهم، وقادتْهم إليه أهواؤهم، مِن المِلَل الضالة، والأديان المجموعة، التى لم يَنْزِل بها من الله سُلطانٌ، ولا كتابٌ ولا برهان، إلّا معرفتُها وأداؤُها بما يُسْتكمَل من حُدودها ومَعالمها .

تحميد فى الجهاد وما بعث به النبى صلى الله عليه وسلم

أما بعد، فإنّ الله خالق الخلائقَ بقدرته، وقدّر الأمورَ بعلمه، وأنفذ على ما مضَى من مشيئته، مِن غير أنْ يكون له ظهيرٌ فى ملكه، أو مُعينٌ على ما يُرى من عجائب خلقه، واحتذاء منه على سابقٍ مِن صنعة غيره، فوحّد نفسَه بما تفرّد به دون غيره من خَلْقه، ليُعْبد مُخْلصا مُبرّأ من الأنداد، إتماما لنوره، وتعزيزا لتوحيده، وتأييدا لدينه، وإعلاءً لمن اعتصم به، وإقلالا لمَن خالفه وعَنَد عنه وعبَد غيره، وإحقاقا لكلمته، فإنه يقول : ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ الآية ؛ بذلك أنزَل كُتُبه، وأرسل رُسُلَه، واحتجّ بهم وبما أنزَل إليهم على مَن مضَى من القرون السالفة، والأُمم الخالية، يدعو آخرهم إلى ما سبق إليه أوّلُهم، من عِبادته وتوحيده، لا يستوحشون مِن قِلّة، ولا يؤتون من كثرة ؛ يُعزّهم الله بقوّته، ويُؤيِّدهم بجنده، ويَنصُرهم ويَنصُر بهم إلى أن بَعث الله محمّدا صلّى الله عليه وسلّم بما خصّهم به، وجعله مُصَدِّقا لهم، ومُهيمنا عليهم، وخاتمَ النبيين بعدهم ؛ يمضِى لأمر الله، ويجاهد مَن لم يجبه إلى الدخول فى دين الله، فأظهَره الله وأنار حقّه، وأرهق عدوّه، وأنجزله ما وعَده وأتمّ بذلك النّعمة عليه وعلى من اتّبعه، فإنّه يقول : ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ﴾ .

تحميـــد فى فتح

الحمد لله الفتّاح العليم، الرحمن الرحيم، العزيز الحكيم، الذى أعزّ الإســلام بقُدْرته، وأيّده بنصره؛ فلم يُلحِد فيــه مُلحدٌ، ويَسْعَ فى تشتيت الكلمة وشَقّ العصا ساع، ويُوضِعْ

فى الكفر والمعصية مُوضعٌ، ويمتنعْ من قضائه وإرادته مُمْتنعٌ إلّا أذلّه الله وقصَمه، وأضرَع خَدّه، وأتعس جَدّه، وضلّل سعيَه، وعجّل بَوارَه واستئصالَه؛ حمدا دائمـا لا انقطاع له، ولا نفاد لمدّته .

تحميـــد ثان

والحمد لله الذى اختار الإسلام وشرّفه، وكرّمه وطهّره، وأظهَره وأعزّه، وفطَر عليــه ملائكتَه، وبَعث به أنبياءه ورُسُـلَه، واختارله خيرتَه من خلقه محمدا صلّى الله عليه، فبَعثه برسالته، وأكرَمه بوَحْيه، وآصطفاه على خَلْقه؛ يُبَشّر بالجنّة مَن أطاعه، ويُنْذر بالنـارمَن عصاه؛ وجعله دِينه القَيّم الذى لا يَقْبل دينا غيرَه ولا يُثيب أحدا إلّا عليه .

تحميـــد فى فتح

الحمد لله العزيز فى مَلَكوته القاهرِ فوق بَرِيّته، الذى خلَق الخَلق بقُدْرته، وأنفَذ فيهم إرادته ومَشيئته، وقــدّر كلّ شىء وأتقنه وأحكمه، وأحاط عِلْما به؛ فلا يعزب عنه مِثقال ذَرّة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبينٍ .

صـــدر تحميـــد فى فتح

الحمد لله الذى ابتدع الخـلْق لا من شىء، وجعل الليل والنهار كَهفا ومُستَجَنّا لكل حىّ؛ بقُدرته تفجّرت البِحار، وجرتْ لمواقيتها الأنهارُ، فدار وتطارد الليـلُ والنهار، لا إله إلّا هو ربُّ العرش العظيم .

والحمــد لله الذى فات بعظمته أبصارَ المرتئين، وعلا بمجــده عن خَطَرات الحاسبين، وآحتجب بأستار جَبَروته عن مواقع فكر المحصلين المُتعمّقين؛ فـلم تَحْوه الكَمّيّة، ولم يقع علـيه أدوات التحصيل والكَيْفيّة، ولا أدركه هاجس تبعيض ولا كُلّية، ولم يُنْسَب إلى زيادة فى حين، ولا إلى تقصير فى شهور ولا سنين، فكلّ أمره — عزّ جلاله — تمـامٌ ودوام، وكلّ صفات صنعه آعتدال وكمالٌ؛ وكلّ ما دونه يحتكم فيه الفَناء والزوالُ، ليس كمثله شىءٌ وهو السميعُ البصير .

والحمد لله الذى عرّفنا ربوبيّته إلهاما ، ونهج لنا سُبُلَ طاعته منًّا وإكراما، وتعبّدنا بفرضه تقويما وتعليما وآمتنانا؛ فقامت علينا وعلى الخلق حُجّته ، بالصادع بأمره ، والمُبلّغ لرسالته ، والمجاهد فيه حقّ جهاده ، محمد صلى الله عليه وسلم . والحمد لله الذى أعزّ دينه ، وأظهر تمكينه ، ونصرَ وليّه ، وخذَل عدوّه ، وأوقع بأسه ونقمته بمحلّ الفرية ، وجُرثومة الضلالة ، ومَناخ الشرك ، ومَركز الكفر ؛ بعد طول الإملاء ، والاعتداء فى سَفْك الدماء ، والمُثْلة بالأسرى ، وقلّة المُراقبة والارعواء .

تحميـــد

الحمد لله حمدا يكون رضاه منتهاه ، والمَزيدُ من فضله جزاءَه . والحمد لله حمدا اليه يتناهى حمد الحامدين ، وشكرُ الشاكرين . والحمد لله الذى لا تُحصَى نَعماؤه ، ولا تُجزَى آلاؤه ، ولا يُكافأ بلاؤه ، ولا يُبلَغ شكرُه إلّا بمنّه وتوفيقه ؛ حمدا يرضاه ويتقبّله ، ويزكو لديه ، ويوجب ما تأذّن للشاكرين من يده .

تحميد على فتح

أمّا بعد ، فالحمد لله الواحد القهّار ، العزيز الجبّار ، ذى المَنّ والإنعام ، والجلال والإكرام ؛ الذى اصطفى الإسلام دينا ، واصطفى له من عباده أهلا هداهم له ، وأكرمهم به وبيّن لهم ما يأتون ، ولم يتركهم فى رَيْب من أمرهم ، ولا شُبْهة من دينهم ؛ فله الحجّة البالغة ليَهلِك مَن هلَك عن بيّنة ، ويحيا مَن حىّ عن بيّنة ، وإنّ الله لسميع عليمٌ .

والحمد لله الذى ختم بمحمّد صلى الله عليه وسلم النبوّة ، وآنتجبه لتبليغ الرسالة ، وبعثه إلى خلقه كافة ؛ فبلّغ رسالته ، وصدع بأمره ، وقام فيما بعثه له بحقّه ، ثم أنجز له وعده ، وأتمّ له كلمته ، وأظهر دين الإسلام به على الدّين كُلّه ولو كَرِه المُشْركون .

تحميد فى فتح

أمّا بعـد ، فالحمد لله الأوّل الآخر ، الظاهر الباطن ، الولىّ الحميد ، القوىّ العزيز ؛ الذى لا يقدُر العبادُ قدرَه ، ولا يُحصون نِعمه ، ولا يبلغون شكرَه ؛ المحيط بكلّ شىء علما ،

والمُحصى كلّ شيء عــددا، فلا يُعجزه كبير، ولا يعزب عنه صغير، والأرضُ جميعا قبضَتُه يوم القيامة، والسموات مطويّات بيمينه، سبحانه وتعالى عمّا يشركون .

تحميـــد

الحمد لله المتوحِّد بالخلق والأمر، قادرا قاهرا أحاط بكلّ شيء علما، وأحصَى كلّ شيء عددا، وملأَه عَظَمةً، ووسِعه عَدْلا، وأتقنه صُنْعا. والحمد لله الذى أَعزّ بالحقّ مَن أطاعه، وأذلّ بالباطل مَن عصاه ، وجعل الطاعة والجماعة حِرْزا حَرِيزا، وموئلا مُنِيفا؛ فلم يجمع بين أهل كفرٍ وإيمانٍ ، وطاعةٍ وعِصْيان، إلّا توحّد بالصنع لأهل طاعته، وأنجح سَعْيهم، وأعلَى كلمتهــم ، وأفلَج حُجّتهـم ، وأنزل بأهل الكفر المُعاندين عنه ، الرادّين لأمره الذّلّةَ والصَّغار فى عاجلهم وآجلهم؛ حمدا يكون لَمزيده موجِبا، ولحقّه مؤدّيا .

تحميد فى فتح لسعيد بن حُمَيْد عن وصيف

أمّا بعد ، فالحمــد لله الحميد المَجيــد، الفعّال لـما يريد؛ الذى خلق الخــلق بقدرته، وأمضاه على مشيئته ، ودبّره بعِلْمه، وأظهر فيه آثار حكمته التى تدعو العقولَ إلى معرفته ، وتَشهَد لذوى الألباب بربوبيّته، وتَدُلّ على وحدانيته؛لم يكن له شريكٌ فى ملكه فينازعَه، ولا معينٌ على ماخلق فتلزمَه الحاجة إليه ؛ فليس يتَصرّف عباده فى حال إلّا كانت دليــلا عليه، ولا تقَع الأبصار على شيء إلّا كان شاهدا له، بما رسم فيه من آثار صُنْعه ، وأبان فيه من دلائلِ تدبيره ، إعذارا بحجته، وتطوّلا بنعمته، وهدايةً إلى حقّه، وإرشادا إلى سبيل طاعته ، وهو الذى يَبْدأ الخلق ثم يُعيده، وهو أهون عليه؛ وله المَثَلُ الأعلى فى السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم .

والحمــد لله العزيز القهّار، الملك الجبّار ، الذى اصطفى الإســلامَ واختاره، وارتضاه وطهّره ، وأعلاه وأظهره؛ بجعله حُجّة أهله على مَن شاقّهم، ووسيلَتهم إلى النصر على[مَن] عَنَد فى حقهم،وابتغى غير سبيلهم؛ وبعث به رُسُلَه يدعون إلى حقّه، ويهدون إلى سبيله ،

بالآيات التي يبيّنون بها عن المخلوقين، ويوجبون بها الحجّة على المخالفين؛ حتى انتهت كرامة الله إلى خاتم أنبيائه، وحامل كتابه، ومفتاح رحمته صلى الله عليه وسلم؛ على حين فترة من الرسل، واختلاف من الملل، ودثور من اعلام الحق، واستعلاء من الباطل، والناس عاندون عن سبيل ربهم، يتسافكون دماءهم، ويحلّون ماحرّم الله عليهم، ويعبدون من دون الله مالا يضرّهم ولا ينفعهم؛ وأيّده بالبرهان الواضح، والحجج القواطع، والآيات الشواهد؛ وأنزل عليه كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد؛ وجعل فيه أوضح الدليل على رسالته، وأعدلَ الشواهد على نُبوّته؛ إذ عجز المخلوقون عن أن يأتوا بمثله على مرّ الأيام، وكثرة الأعداء والمنازعين؛ يتحدّاهم به فى المواسم، ويقصدهم بحجّته فى المحافل؛ ولا يزدادون عنه إلّا حسورا وعجزا، ولا تزداد حجّة الله عليهم إلّا تظاهرا وعلوّا؛ ثم أيّده بالنصر بأنصارٍ ألّف بينهم بطاعته، وجمعهم على حقّه، ولمّ شعثهم بنُصْرة دينه، بعد الشّقاق المتّصل بينهم، والحربِ المُفرِّقة لجماعتهم؛ كما قال عزّ وجلّ: ﴿هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ . وقدّم اليه وعده بالنّصرة والتمكين؛ بجعله بُشرى للمؤمنين، وحجّة على الكافرين، ودليلا على ما بعثه به من الدّين؛ فهزم بالقليل من عددهم الكثير من عدد أعدائهم، وغلب بضعفائهم أهلَ القوّة ممّن ناوأهم؛ ففلّ به حدّهم، وفضّ جموعهم، وافتتح حصونهم، وحرَزَ معاقلهم؛ وأظهر بحجّته ونصره عليهم، وأنجز سابق وعده لهم وفيهم، والله لا يُخلف الميعاد .

تحميد لابن المقفع

الحمد لله ذى العَظَمة القاهرة، والآلاءِ الظاهرة؛ الذى لا يُعجزه شيء ولا يمتنع منه، ولا يُدْفع قضاؤه ولا أمره؛ ﴿وَإِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ . والحمد لله الذى خلق الخلق بعلمه، ودبّر الأمور بحكمه، وأنفذ فيما اختار واصطفى منها عزمه؛ بقدرة منه عليها، وملَكة منه لها، لا معقِّب لحُكمه، ولا شريك له فى شيء من الأمور، يخلق ما يشاء ويختار؛ ما كان للناس الخيرة فى شيء من أمورهم، سبحان الله وتعالى عمّا يشركون.

والحمد لله الذى جعل صَفْوَة ما آختار من الأمور دينَه الذى آرتضى لنفسه ولمن أراد كرامتــه من عباده، فقام به ملائكتُه المقربون ، يُعظّمون جلاله ، ويُقدّسون أسمــاءه ، ويذكرون آلاءه، لا يَستحسرون عن عبادته ولا يســتكبرون، يُسبّحون الليــلَ والنهارَ لا يَفْترون، وقام به مَن آختار من أنبيائه وخُلَفائه وأوليائه فى أرضه، يُطيعون أمره، ويَذُبُّون عن مَحارمه، ويُصدِّقون بوَعْده، ويُوفون بعهده، ويأخذون بحقّه، ويُجاهدون عدوَّه، وكان لهم عند ما وعدَهم مِن تصديقه قولَهم وإفلاجِه حجّتهم، وإعزازِه دينَهم، وإظهارِه حقّهم، وتَمْكينه لهم، وكان لعدوّه وعدوّهم عنــد ما أوْعدهم من خِزْيه، وإحلالِه بأسَهم، وآنتقامه منهــم ، وغضبه عليهم ، مضَى على ذلك أمرُه ، ونفذ فيــه قضاؤه فيما مضَى، وهو مُمضيه ومنفّذُه على ذلك فيما بَقِىَ، ليتم نورَه ولو كَرِه الكافرون، وليُحقّ الحقّ ويُبْطلَ الباطل ولو كَرِه المجرمون .

والحمد لله الذى لا يَقْضى فى الأمور ولا يُدَبِّرها غيرُه، ابتدأها بعلْمه، وأمضاها بقُدْرته، وهو وليّها ومنتهاها، وولىّ الخِيرَةَ فيها، والإمضاء لمــا أحبّ أن يُمْضِىَ منها، يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخِيرَة سبحان الله وتعالى عمّا يُشْركون .

والحمد لله الفتاح العليم ، العزيز الحكيم ، ذى المَنّ والطوْل ، والقدرة والحَوْل ، الذى لا مُمْسك لمــا فتح لأوليائه من رحمته، ولا دافع لمــا أنزل بأعدائه من نَقْمته، ولا راد لأمره فى ذلك وقضائه يفعلُ ما يشاء، ويَحْكم ما يُريد .

والحمــد لله المُثيب بحمده ومنه ابتــداؤه، والمُنْعِم بشكره وعليه جزاؤه، والمُثْنى بالإيمــان وهو عطاؤه .

لآخـــــر

الحمد لله الذى يَتَطوّل بالنعم مُبْتدئا، ويُعْطى الخير مَنْ يشاء ويُثيبُ عليه .

تحميد لغسّان بن عبد الحميد

كاتب جعفر بن سليمان فى المطر :

الحمد لله الذى نشر رحمته فى بلاده، وبسط سعته على عباده، الذى لا يزال العبادُ منه فى رزق يقتسمونه، وفضل ينتظرونه، لا ينقضُه ما قبله، ولا ينقضى ما بعده .

لأحمد بن يوسف فى فتح السِّند

الحمد لله وَلِىّ الحمد، وأهلِ الثناء والمجد، خالقِ الخلق، ومُدبِّرِ الأمر؛ المسبغ على عباده والموجِب عليهم حُجّته؛ فليسوا يرجون إلّا سعةَ فضـله ، ولا يحذرون إلّا ما آجترحوا من معصيته ؛ لمـا سبق من جزيل إحسانه، وتظاهر من آمتنانه، وتقدّم به الإعذارُ والإنذارُ اللذان لا يستخفّ بما عظُم منهما إلّا مَن آستحوذ عليه الشيطان، وآستولَى عليه الخذلان، وقاده الحَيْن الى موارد الهلكة .

التحميد الثـانى

الحمـد لله الذى آصطفَى الإسلام دِينا فطهّره وأسْناه ، وأظهره وأعلاه؛ وزيّنه بكلّ حسَنة، ونفَى عنه كلّ سيّئة، وجعله الى مذْخور كرامته سببا واصلا ، وسبيلا نَهْجًا، وبعث به محمدا صلى الله عليه وسلم ليَهْدِىَ مَن كان حيّا، ويَحِقّ القولُ على الكافرين .

تقريظـه فى الخليفـة

الحمد لله الذى آصطفَى أمير المؤمنين لخلافته، وتلافَى الأمة بسُلطانه، فجعله القائم فيهم بقسطه، والمُستفرِغَ فى آلتماس مصلحتهم همّه .

لأحمـد بن يوسف

عن ذى الرياستين الى ابراهيم بن إسماعيل بن داود صدر فتح :

أما بعد ، فالحمد لله الذى حفِظ من دينه ما ضيّع الملحدون، ورأَب منه ما [فرقتـه][1] الصدْعة؛ وأعاد من حبله ماحاولوا نقضه، حتّى أعاد لعباده أحسن أُلفتهم، وردّ اليهم أجمل

(١) بياض فى الأصل . وما أثبتناه يناسب المقام .

عَوْدهم، من الاستشلاء بعد التردّى فى قُحَم المعاطب، والاستنقاذ بعد التوريط فى المهالك؛ وبلّغ خليفته القائم بحقــه، المُؤتمّ بكتابه، الذائد عن حَريم الدِّين، وميراث النبيين، أجزلَ ما بلّغ لخُلفاء الراشدين المهديِّين، من إعلاء الكلمة، وغَلَبة الأعداء، والفوز بالعاقبــة التى وعَدَها المتقين؛ وفرغه لمـا أشعَر قلبه، وشرَح له صدرَه، من إمضاء حُكم الفرائض المُوجَبَة، واقتفاءِ السنن الهادية، حيث سلك به مِن المناهج؛ حمدا يوازى نِعمه، ويبلغ أداء شكره، ويوجِب مزيده .

والحمد لله على ما خصّنا به من إعلاء الدرجة، وإسناء الرتبة، فى مشايعة أمير المؤمنين — أيّده الله — والمُجاهدةِ عن حقّه، والوفاء لله بما عقَده له؛ لانريد بما كان منّا إلّا وجهَه، ولا نسعَى فيه إلّا لرضاه؛ حمدا لايُحصَى عدده، ولا ينْقطع أمدُه .

تحميد لأبى عبيد الله

أمّا بعد، فالحمد لله ذى الآلاء والقُدْرة، والطَّوْل والعزّة؛ الذى اصطفَى الإسلام دينا لنفسه، وملائكته وأنبيائه ومن كَرُم عليه مِن خلقه؛ فبعَث به محمّدا صلّى الله عليه وسلم اختصاصا له فى ذلك بكَراماته، واصطفاءً له به على عباده؛ فأعزّه ومنعه، وكفاه وحاطه، وتوكّل لأهله بالعلم والتمكين، والظهور والتأييد؛ فلم يُلحد فيه ملحِد، ولم يَزِغ عن قبول حقّه زائغ، بعد إعذار الله إليه، وإعادةِ الحُجّة لله عليه، إلّا أُنزل به من الذلّ والصَّغار والاجتياح والاستئصال ما يجعل له فيه قمعا؛ حمدا كثيرا دائما مُرْضيا له، مُؤْمنا من غيره، موجِبا لأفضل مزيد ثوابه .

تحميد لسعيد بن حُمَيد فى فتح

أما بعــد، فالحمد لله المُنعِم فلا يبلغ أحد شُكرَ نعمته، والقادرِ فلا يُعارَض فى قدرته، والعزيزِ فلا يُغالب فى أمره، والحكَمِ العدْل فلا يُرَدّ حكمُه، والناصر فلا يكون نصره إلا للحق وأهلِه، والمـالكِ لكل شىء فلا يَخرج أحد عن سلطانه، والهادى إلى سـبيل رحمته فلا يَضلّ من انقاد لطاعته، والمُقدِّم إعذارَه ليُظاهِر به حُجّته؛ الذى جعل دينه لعباده رحمة، وخلافته عصمة، وطاعةَ خُلفائه فرضا واجبا على كافّة الأمم؛ فهم المُستحفَظون فى أرضه

على مابعث به رُسله ، وأُمناؤه على خلقه فيما دعاهم إليه من دينه ، والحاملون لهم على مناهج حقّه ، لئلا تُشعّب بهم الطرق المخالفةُ لسبيله ، والهادون لهم إلى صِراطه ليجمعهم على الجادّة التى ندب إليهــا عباده ؛ بهم حُمِى الدين من البُغاة الطاغين ، وحُفِظت معالم الحق من الغواة المخالفين ، مُحتجّين على الأمم بكتاب الله عزّ وجلّ الذى آستعملهم به ، ورُعاةً للأمر بحق الله الذى آختارهم له ؛ إنْ جادلوا كانت حُجّة الله معهم ، وإنْ حاربوا فالنصر لهم ، وإنْ جاهدوا كان فى طاعة الله نصرُهم ، وإنْ بغــاهم عدُوّ كانت نِكاية الله حائلةً دونهم ، ومَعْقِلالهم ، وإنْ كادهم كائد فالله فى عونهم ؛ نصبهم الله لإعزاز دينه ، فمن عاداهم فإنّما عادَى الذين عزّ بهم وحُرِس بهم حقّه ، ومَن ناوأهم فإنّما طعن على الحقّ الذى تكلؤه حراستُهم ، جيوشُهم بالرُّعْب منصورة ، وكتائبُهم بسلطان الله من عدوّهم محوطة ، وأيديهم بذَبّها عن دين الله عالية ، وأشياعُهم بتَناصرهم غالبــةٌ ، وأحزابُ أعدائهم ببغيهم مَقْموعةٌ ، وحُجّتهم عند الله وخَلْقــه داحضةٌ ، ووسائلهم إلى النصر مردودةٌ ، وأحكامُ الله بخذلانهم واقعةٌ ، وأقدارُه بإسلامهم إلى أوليــائه جارية ، وعادتُه فيهم وفى الأمم السالفة والقُرون الخاليــة ماضيةٌ ، ليكون أهل الحق على ثِقَة من إنجاز سابق الوعد ، وأعداؤه محجوجين بمــا قَدّم إليهــم من الإنذار ، مُعَجّلة لهم نِقْمة الله بأيدى أوليــائه ، مُعدّا لهم العذاب عنــد ردّهم إليه خِزْيا موصولا بنواصيهم فى دُنْياهم ؛ وعذابُ الآخرة من ورائهم وما الله بظلّام للعبيد . وصلّى الله على محمد أمينه المصطفَى ، ورسولِه المرتضَى ، والمُنقذ من الضلالة والعَمى ، صلاةً نامية بركاتُها ، دائمــا آتصالُها ، وسلّم تسليما .

والحمد لله تواضعًا لعظمته ، والحمد لله إقرارًا بربوبيته ، والحمد لله اعترافًا بقصور أقصى منازِل الشكر عن أدنى منزلة مِن منازل كرامته .

فيما يُقَرّظ به الخليفة

والحمد لله الذى حاز لأمير المؤمنين وِراثته ، وساق إليــه خِلافته ، بالحاجة منها إليه ، والرغبةِ منــه عنها ، وآستخلص مِن خَلْقه مَن جعله ظَهيرا للحوادث ، وعُدّة للنوازل ؛ فلما

أفضتْ الخلافة إليه حسر أمامه أحاجلته(١)، وكشف قناعه لمحاربته؛ فالحمد لله الذى اختص أمير المؤمنين بخلافته، وآرتضاه لولاية أمرِ أمّة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، والقيامِ بحقه، والذبّ عن حُرُماته؛ وحاط له ما آسترعاه من ذلك، وقلّده بحسن الولاية والكفاية، وتوكّل له بالحفظ والتأييد، والنصر والغلبة والظهور على مَن عَنَد عن طاعته، وصدَف عن حقّه، وآبتغى غيرَ سبيله؛ كرامة من الله تطاوَل بها عليه، ومنّة منه توحّد بها له .

والحمـد لله الذى جعل نيّة أمير المؤمنين عَزيمته، وفكْره ورَويّته، منـذ أفضى الله بالخلافة إليه، وجعله القائم بإرث نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم وآستحفظه من عباده وبلاده فيما فيه عِز الدين، ونِظام أمر المسلمين وتوهينُ الشـرك، وإذلالُ الأعداء، وإشجاؤهم ووقْمهم، وتحصين البَيْضة، وإشحانُ الثغور، ولمُّ المُنْتشر، وضمّ الأطراف؛ لا يَفْتأه عن ذلك فاتئٌ، ولا يَذْهَـله عن تفقد كبير أمره وصغيره ومقابلته ذاهلٌ؛ يستقِل كثيرَ ما يُنْفِق من الأموال فى سَدّ الثغور، وتحصينها وحراستها، لمـا يرجو فيه من جسيم الحظّ، وجَزيل الذُّخر، وكثير الأجر؛ تَقَرّبا الى الله وآحتسابا له فى جَنْب ثوابه، وكريم مآبه؛ حتى رأب به الصدْع، ورتَق به الفتْق، وأمّن به السبُل، وأقام به العِوَج، وأفلج به الحُجج، وأعلى به الدرَج، وأزهق به الباطل، وأحيا به الحق، وأشام به سيوف أهـل الضلالة والفِتْنة؛ لا تأخذه فى القيام بحقّ الله والانتصار لدينـه، والانتصاح لأمة نبيّـه محمد صلى الله عليـه وسـلم، والذّبّ عن حوزتهم، والرمى من ورائهم، ودفع بائقة أهـل الشِّقاق والنفاق والخلاف والمَعْصية عنهم فترةٌ ولا سآمةٌ؛ توفيقا من الله، وتَسديدا لحُرمته، وتأييدا لعزْمه، إذ كان لله شاكرا، ولدِينه ناصرا، وبحقّه قائمـا؛ وما توفيق أمير المؤمنين إلّا بالله وحدَه، عليه يتوكل وعليه يتوكل المتوكلون .

والحمد لله الذى لم يزل منذ أفضى الى أمير المؤمنين بخلافته، وحبّاه بكرامته، يَختصّه بالخيرَة فى كل ما أمضَى من أمره، ويتولّاه بالتوفيق فى كلّ ما أبرَم من تدبيره، ويَحمل عنه

(١) هكذا وردت فى الأصل . ولم نوفق الى تحقيقها .

أعباء ما حمّله، ويُعينه بتأييـده على ما قلّده، ويحوطُه بجميل الصنع فيما ولاه واستحفظه، ويُلْهمه جهاد عدوه، ويحبوه بنصره؛ حمدا قاضيا لحقّ نعمته، مُوجبا أفضل مزيده .

والحمـد لله الذى أورث أمير المؤمنين مواريثَ نُبوّته، وصيّر اليه مقاليد خلافته، وأوجب ذلك له بالقرابة برسوله صلى الله عليه وسلم، والوراثة لوراثته من عُصْبته وأَوْلَى الناس به؛ ثم أعزّ نصره، وأعلى كلمته، وأفلج حُجّته، وأظهر على المشركين والمنافقين، ومن حادّه وعانده من الناكثين والمـارقين، والباغين والملحدين، فأتعس جدودهم وفعل وفعل .

والحمـد لله الذى عَرّف أميرَ المؤمنين منذ استخلفه فى أرضه، وآئتمنه على خَلْقه، من عظيم نعمه، ولطيف صُنْعه، وجميل بلائه، واعزاز نصره، واعلاء يده وكلمته، وإفلاج حُجّته على مَن ضاده وحادّه، إنّ الله بعظيم طَوْله ومَنّه آرتضَى أميرَ المؤمنين لدينه، وآصطنعه لخلافته؛ فخلّاه سِرْبالها، وردّاه بهاءَها وجمالها، فاستعمله بالكتاب والسنة والحقّ والعدل فيها؛ فأيّده بقوّته، وأعزّه بنَصْره، وحاطه بكفايته، وتولّى الصُّنع له فى جميع أموره؛ فلم يَكده كائد، ويُعانده مُعاند، ويَمْـرُق عن طاعته الواجبة مارق، ويُلْحد فى إمامته مُلحد، ممّن يُعالِن بمعصيةٍ وشِقاق، أو يَنْطوى على غِلّ ونِفاق، إلّا أوهَن الله كيده، وأتعس جَدّه، وعاجل المُبادئَ بعداوته، الشاهرَ على الدّين والمسلمين سـيفه، باصطلام وبوار، وأمكن منه بذِلّة وصَغار، وقتل المسرّ غيره، المُنْطَوِى على غِلّه بغَيْظه وغَمّه، وأماته بدائه وحَسْرته؛ إنجازا منه جلّ ثناؤه لوعده، وإتماما لكلمته فيما وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات من آستخلافهم فى أرضه، والتّمكين فى دِينه؛ وله الحمد دائما، والشكرُ خالصا، كما هو أهلُه وكما يَنبغى أن يُحمد ويُشكر، لا إله إلّا هو الواحد القهار .

والحمـد لله الذى لم يُبْق لأمير المؤمنين عدوّا من الناكثين والجاحدين، والمشركين والمنافقين، حاولَ نقضا لإمامتـه التى صيّرها الله اليـه، وقلّده إيّاها؛ أو صاول جيشا من جيوشه التى أعدّها للحاماة عن دِين الله ومَحارمه، وإقامة سننه ومَعالمه، إلّا أحلّ به النّقمة، وأصاره الى الصَّغار والذِّلة، والبوار والهَلَكة، وعجّله الى ناره وعذابه .

والحمـد لله الذى لم يزل يتولّى أمير المؤمنين بحياطتـه ، ويتوحّد له من إعزاز نصره وإعلاء كلمته، وإفلاج حُجّته، وتأييد أوليائه وأنصار حقه؛ وأنزل البأس والنّقمة والمُثُلات والسطوة بمن عانده، والذّبّ عن حريم المسلمين وأهله؛ بما يُبيّن به عن مكانه منه، ومنزلته عنـده؛ حميدا ربّنا بذلك كما هو أهلُه ومستحقُّه، مشكورا بعظيم منّه فيه وطَوْله، مسؤلا لتمـام أحسن عائدته وماضِى سـنّته؛ فإنّ الله المحمودَ على نعمه، المشكورَ بآلائه، لم يزل مايتوحّد به لأمير المؤمنين بسلطانه من التعزيز، وفى أوليائه من التأييد بنصره، عادة يَتَبيّن بها برهانه، ويُفْلِج بها حُجّته، ويَدُلّ بها على كرامته عليه، ويُخبر بها عن منزلته عنده؛ ويجعل ما نزل بأعدائه المتولّين عنـه، الراغبين إلى غيره، المُلْحدين فى حقّه، عِظَة لمن قسا قلبُـه، وران عليه سوءُ عمله، ليكون مايُعطيه من البسط فى مُلْكه، والتمهيد فيما خوّلَه له، ويُوفّقه من السطوة بعدوّه، والتنكيل بمن خالفه، حُجّتين متظاهرتين، وعبرتين سعن (١)؛ فيعتصِم مُعْتصِم، وينجو ناجٍ، وليشْجُب [شاجب] (٢) ويَهْلك هالك، وقد مضتْ من الله المشيئة، ووضح منه الإعذارُ، وكان الله بعباده عليما، وبأعمالهم خبيرا .

والحمد لله الذى أكرم أمير المؤمنين بخلافته : وجعله وارث وَحْيه، وقيّمه بكتابه فى عباده، وأكرم هذه الأمة التى جعلها خير أمة أُخرجت للنـاس به؛ فهو الميمون فى تدبيره المنجح حَوِيلُه، الميمونُ النَّقيبة، المُوَفّق الرأى والسياسة؛ فإنّ الله عز وجل خلق الخـلائق بقدرته، وآختارهم بعلْمه، فاختار أمير المؤمنين لخلافته، وآصطنعه للقيام فى العباد والبلاد بأمره وقسْطه، وألهمه إقامة أحكامه وفرائضه، والعملَ بحقه وعدله، وأبلَى أهل الشرك به، وأخّرها الى أيام دولته، وحظَرها عمّن كان قَبْله؛ حتّى حاز له أجرها، وأبقَى له سَناءها وذِكرها، ونشر عنه أُحْدوثَتها وسماعها؛ وفتح عليه البُلدان القاصية، والمدائن المُتنائية، التى لم تكن تُرام من أهلها، ولا يُطمَع فى زوالها؛ وذلّت له الملوك القديم عُتُوُّها وعنادُها، والأُمَمُ المُسْتصعبُ مراسها وجهادها، الحاميةُ فى آباد الدهور حِماها؛ فأنفذ فيهم مَكيدتَه، وأنجح

---

(١) كذا فى الأصل، ولعلها بالقتين . (٢) كذا فى الأصل، ولعلها وليشجب .

سَعيَة، ورماهم بالتخويف، وملأ قلوبهم رُعْبا منه؛ فأذعن مُذْعنوهم بطاعته، وٱنقادوا لأمره، وصاروا يدا وأعوانا لأوليائه على أعدائه .

أما بعـد، فإنّ أعظم النعم قدْرا، وأجلّها أمرا، وأسرّها موْقعا، وأوجبها شُكْرا، ما عمّ الإسلامَ والمسلمين نَفْعُها، وعادتْ عليهم عائدتُها، وجعل الله فيـه عزّ الدين، وذُلّ المشركين؛ وقد جعـل الله ذلك فى خِلافة أمير المؤمنين أطال الله بقاءه بيمنـه وبركاته، وما أخلص الله من نيّته وطاعته، وتأدية حقّه فيما استحفظه من أمر دينه وعباده، وفرغ له نفسَه، وأنصب فيه بدنَه، وأسهر فيه ليلَه، من حِياطة حريم الإسلام، والزيادة فى حدودها مُتّصلا مُتَتابعا، والنعم متظاهرة ومُتوافرة، فسهّل الصعب، وذلّل له العـزيز، وقصم عُتاة الأعداء ومتكبّريهم، والمستعصين والمستصعِبين منهـم، فى آباد الدهور على من رامهم، وفتح عليهم حصون مدائنهم، وممتنع قلاعهم، وأنفذ مكيدته فيهم؛ فبيْن مقتول ومأسور، وشريد طريد عن مَحَلّته، وموضع عزّه ومَنَعته، مُستسلِم مُعْطٍ قِيادَه باخع بطاعته؛ وكذا فإنّ الله بمنّه وطَوْله قد أوصل لأمير المؤمنين من صُنْعه له فيما قلّده من خلافته، وحياطته إيّاها فيما يَحوطه من دِينه، وعرّفه من كِفايتـه فيما قام به من حقّه، وأيّده من نَصْره فيما جاهد عنه فى سبيله، ما قد جعـل النِّعمة به عامة، والشكرَ به لازما، والمِنّة به واجبة، والصُّنعَ عظيما؛ فالحمد لله على نعمه فى ذلك كثيرا .

والحمد لله الذى جعل ٱجتهاد أمير المؤمنين ومُقامَ أمره وتدبيره، فى آناء الليل ونهاره، فيما فيه صلاحُ عباده، وإعزازُ دينه وإقامةُ حقّه .

تحميـــــد

الحمد لله الذى لمّـا ٱفترض من الطاعة لوُلاة الأمر من خُلفائه جعل أوائلها ناطقةً عن فضل أواخرها، وبوادِئَها مُخْبِرةً عن حميد عواقبها، ومواردَها مُبَشِّرةً بالعلوّ فى مصادرها، بما يَعْقُبه أهلَها من السعادة فى الماضين من أوليائها القائمين بحقّها؛ وعاد من الشِّقوة على مُقارفى المَعصية المُلْحدين اليها، حين أقبلت بهـم هوادِى الفِتن، وكشفت لهم تَواليها عن البَوار

والمَلَكة ؛ مُعْتذرين حين لا عذر ولا حُجّة، طالبين للهارب بعد أن كانت منازلُ السلامة بهم مُطمَئِنّة، وخائفين وقد كانت سُبُل الأمن لهم واضحةً ؛ قد جعلتهم النِّقمة الواقعةُ بهم أمثالا سائرةً، وفرّقت بينهم و بين النِّعم الشاملة ،وحصَلت السعادة لمن آتعظ بهم باقيةً، سنّة من الله فيهم ماضيةً، وعادة جاريةً، ولن تجد لِسنّة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا.

والحمــد لله الذى آختار أمير المؤمنين لخلافته فحرس به دِينه من البُغاة الناكلين عنه ، وآختصّه بأعلاء رُتب كرامتــه ، وآفترض طاعتَه على عباده، وجعلها بمواقعها فى دِينه نظاما لسائر فرائضه، فتاركها مُفارق لعِصْمة حقّه، خارجٌ من جملة الأمّة التى سبقت لها رحمتُه؛ يستنصر أشياعَ الباطل والله خاذلُه، ويُغالب الحقّ والله غالبُه، ويَطلب مالا سبيل له اليه والله طالبُه؛ حتّى يَخلِجه أجلُه عن أمله ، وأقدارُ الله فيه عن تقديره، ونفوذُ قضاء الله فيه عن نفوذ حِيَله؛ فضلًا من الله على أوليائه وقضاءً منه عدْلا فى أعدائه، والله ذو الفضل العظيم.

والحمــد لله الذى آختار أمير المؤمنين لرِعاية عباده، وحِفْظ بلادِه، وتنفيذ أحكامِه ، وإقامةِ حدوده؛ لجمع به الأُلفة، وكفّ به بَوائق الفِتْنة، وأصلح به أمور الأمّة، وسكّن به الدهماء، ودفع به عظيم البلاء ، وأنقذ به من الجُهْد واللأْواء ؛ وجدّد لرَعِيّتــه العبرَ الشافية، والعِظَة الناهية، وجعل همّه السعيَ لربّه، وطلبَ الحق الذى أوجبه له من خِلافته، ليؤدّىَ فرضه فى الأمانة التى حمّلها؛ فيُوجب له بذلك مالا يَزول ولا ينْقطع من ثوابه، فأَعمَل رأيه فى الرأفة بمن ولّاه أمره، والحِياطة له، والعِناية بصلاحهم ؛ فأعطاه لِين الموعظة فى وقت التأنى ، والنفوذَ لإقامة الحُجّة والبيّنة، وشِدّةَ السطْوة على مَن غمَط النعمة وعَنَد به الإضرار عن النُّزوع والفَيْئة؛ منّا من الله وتفضلا، وإحساناً وتطوُّلا، والله ذو فضل عظيم .

ويسأل اللهَ أميرُ المؤمنين مُبتدئا ومُعَقِّبا، وأوّلا وآخرا، وقبــل كلّ مسئلة، وأمام كلّ رغبة، ومُقدّمةَ كلّ طَلِبة؛ أن يُصلّى على صفوته من عباده، وخِيرته وخاتَم أنبيائه ورُسله، محمّد عبــده ورسوله، أفضلَ صلواته، ويُباركَ أكثرَ بركاته، وأن يُديم له كرامته، ويُجرىَ عنده أجمل عاداته، ويُتمّ له ما آختص به من إحسانه؛ حتّى يملأ الأرض عَدْلا وقِسطًا؛

والإسلامَ تأييدا وعِزّا، والشّرْك ذُلّا وقَمْعا، إنّه ولىّ كلّ نِعمة، ومنتهَى كلّ رَغبة، وغايةُ كلّ حاجة .

ولم يزل أميرالمؤمنين منذ الوقت الذى أفضَى الله اليه بخلافته ، وأكرمَه بردّ حقّه من إرث نُبُوّته، يتلقّ عظيم النعمة فى ذلك بالإخلاص للنيّة والطّوِيّة فى الصفح عن كلّ زَلّة ، والإقالة لكلّ عَثْرة، والتعمد للهَفْوة وقبول الفَيْئة ، والإنابة ممن عظُم جرمُه، وجلّ ذنبُه ، وظنّ أن لا توبةَ له ؛ وكلما جدّد الله له نعمة ، جدّد له فى ذلك نيّة حَسَنة ، شكرا لله عزّ وجلّ على ما ابتدأه به، وارتهانا لنِعَمه عنده، واستزادةً من جميل مَواهبه، وتقديم الاهتمام بما فيه صلاح رَعيّته ، وآستقامةُ أمورها ، وحِياطتُها والذَّبُّ عنها، وكَفُّ الأذى والمكروه عن الدانى والقاصِى منها ؛ ويتخلّص إلى ذلك بكلّ ما يجد اليه السبيلَ ويجتهدُ فيه، ويعمَلُ لكثرة أوقات دهره فى كلّ مابلّغه محبّته نظرا لها، وحَدَبا على كافتها، وإشفاقا من سوء حالها ؛ إذ كان لها والدا بَرّا، وراعيا كالِئا، وناظرا لطيفا؛ ويستعمل كلّ ما يرجو ائتلافَها ، والإبقاءَ على أحوالها ، والسلامةَ لها فى دِينها ودُنياها؛ وينصَب لذلك ليله ونهارَه، ويُذيبُ فيه نفسه، ويجعله شُغلَه دون غيره .

والحمد لله الذى آصطفَى أميرالمؤمنين بخلافته ، وأكرمه بإرث نُبُوّته ، وجعل خِلافته خلافة يُمْن وبركة ، ولطف وسعادة ؛ انتاش بها أولياءَه من موارد الهَلَكة فرفع منزلتهم ، وشرّف درجتهم ، وأعلى كَلِمتهم، وأذلّ بها أعداءَهم ، وجذّ دوابرهم، وردّ دائرة السوء عليهم؛ وحباه مَزِيّة نَصْره وتمكينه، وإعزازِه وتأييده، وإظهاره على من ناوأه وعَنَد عن حقّه ، وصدَف عن طاعته ؛ فإنّ الله لمّا اختار أميرالمؤمنين لخلافته فأيّده بها ، جعل الحقّ نِيّته ، وإعزازَ الدِّين بُغْيته ، ومجاهدَة أعداء الله شرقا وغربا وبرا وبحرا نَهْمَته وإرادتَه ؛ ثم يسره فى ذلك لما أحسن به عونه ، على من آستحفظه وقلده ، فضلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم .

والحمد لله الذى كان لسابق علمه وسالف قضائه، الذى لا يستطيع الناسُ ردّه، ولا مَنْعه ولا صَرْفه، مَا وَلّى أميرَ المؤمنين من خلافته، وما ٱبتعثه له من النصر لدينه ، والطلب لحقّه، والجهاد لأعدائه؛ وأحسن فى ذلك عَوْنَه فيه وبلاءَه ، وأيّده فى نفسه ، لم ينْقُصه خِذْلان خاذل، ولا مخالفة مَن خالف، ولم يزد أمرُه فى شىء من ذلك إلّا تماما وإحكاما؛ حتّى أظهر حقّه، وأفلج حُجّته، ومحق باطل أعدائه ، وأدحض حججهم؛ وجعل أهل طاعته حزبه الغالبين، وجُنْده المنصورين؛ وجعل عدوّه وعدوّكم حزب الشيطان الخاسرين، وأولياءَه الأذلّين؛ بغير حول من أمير المؤمنين فى شىء ممـا ولّاه وأبلاه، ولا قوة إلّا بالله العلىّ العظيم .

لأبى عبيـد الله

والحمد لله الذى أكرم أمير المؤمنين بما أصار اليه من الخلافة وإرثِ النُّبُوّة ، وجعله القائم بأمر عباده وبلاده، والمُحْيِىَ لسننه ، والذّابَّ عن دينه وحقّه، والمُناصبَ لأهل الشرك والجُحود به؛ ثم نصره وأظهر فضل أيامه ودَوْلته ، ومكّن له فى بلاد عدوّه، وجعل كلمته العُليا وأنصارَه الغالبين ، ومَن ناوأه من أهل الخلاف الأذلّين المقهورين؛ وعرّفه من نعمته فى ذلك ومنّته وجميلِ صُنْعه وعاداته، أحسنَ ما عوّد أحدا من أوليائه الذابّين عن الإسلام وأهلِه؛ حمدا مُتَتابعا لا ٱنقطاع له ولا ٱنصرام، دون بلوغ حقّه، وقد كان كذا وكذا .

ما يكتب به فى المخالفين فى وقت الهزيمة

نَكصوا على أدبارهم منكوبين مَهزومين، قد ضرب الله وجوهَهم، وفَتّ فى أعضادهم، ومنح الأولياء أكتافَهم ؛ فقتلوهم فى كلّ فجّ، وعلى رأس كلّ تَلْعة ومَهْرب ومَسْلك؛ أباد الله خَضْراءَهم وغَضْراءَهم، وحصَد شوكتهم، وفلّ حدّهم، وأباخ[(1)] نيران ضلالتهم وكفرهم، وشفَى منهم الصدور، وأدرك منهم الإحَن؛ ونفّل المسلمين أموالَهم وذراريهم، وجعلهم لهم خَوَلا وعبيدا، وأورثهم أرضهم وديارهم، وأحلّ الله بهم من البأس والنقمة والجائحة

(١) أباخ النار : أطفأها .

والظهور والغلبة جزاءً من الله لمن أخلد إلى المعصية وأبتغى غيرَ سبيله المسلوكة . وكذلك يفعل الله بالقوم الظالمين، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون، إن الله لا يخلف الميعاد . ثم أنزل الله عزّ وجلّ من صار إلى الأمصار منهم هَرَبا، وأعتصم بالحصون، وتعوّذ بالجبال، ولاذ بالقِلَاع، ولجأ إلى الأودية، من صَيَاصيهم، وأمكن من نواصيهم، وأستخرجهم من أوزارهم ومعاقلهم ومتعوّذهم، وأُخذ أسيرا ذليلا منكوبا خائفا قد نخب الوجلُ قلبه وملأ الرُعب صدره، متوقعا أن يُنزل الله به من النّقمات والمُثُلات مالا مردّ له عن مثله من القوم الظالمين، وفشَتْ فى الكَفَرة الجِرَاحات، وعضّتهم السيوف، وشُرعت فيهم القَنَا، وهرّتهم نار الحرب، وغالهم النّزال، ومارسهم الأبطال، وأستحرّ فيهم القتل، فصبر لهم الأولياء أحسن صبر، فلم يُطيقوا بالموت مَرَاما ولا على الحرب مُقاما .

فى صفة الخالعين

الناصبين لدين الله، المكذّبين بآياته، الجاحدين رسله، الجاعلين معه إلها، لا إله إلا هو، لطول مدّتهم، وشدة شوكتهم، وصعوبة مرامهم، وقطعهم السُّبُل وأنتهاكهم المحارم وسفكهم الدماء التى أوجب الله على مَنْ سفكها بغير حلّها وأقترف وأحتمل وِزْرها، أليمَ العذاب وشديد العقاب، فأبوا إلا تماديًا فى ضَلَالتهم، وعُتُوا فى طُغيانهم، وثبوتًا على عصيانهم، ومُقاما على كفرهم، لأحداثه السالفة، وغوائله المتقدمة، وبوائقه المُشجية، فوقف مميلا بين نكل التقدم وحقيقة الأصطلام فى التأخر، دعاهم إلى الفَيْئة والمراجعة والإنابة وقبول الأمان والدخول فى الطاعة، أستظهارا بالحجة عليهم، ورجاءً لصنع الله فيهم . فلما بلغهم نزولى فيمن معى، جمع أصحابه، وضمّ جنده، وتحرز فى معسكره، وخندق على منزله، وأحترس بجُهده، فأقمت معَسْكرى، وأنا مع ذلك فى كل يوم أوجّه رُسُلى وأدعوه إلى حظّه، من طاعة أمير المؤمنين والدخول فى أمانه، وأعلمه أن له نظراء ممن غَمَط الطاعة، وسفه الجماعة، وقد ركضوا فى الفتنة عمرهم وسعَوْا فيه دهرهم، فأنتشر خبرهم، وكثر تبعهم، وكَبُر وِزْرهم، وثقل وَقرهم، ثم أذعنوا لطاعتهم، وأستقلوا

ناهضين من عَثْرتهم، ومنتعشين من زَلّتهم، فغُفِرتْ ذنوبهم، وقُبلت توبتهـم، وفُسِح لهم في أمانهم، وشَرُفت منزلتهـم، وآستبدلوا بالخوف أمنا وبالذل عزّا؛ فأبى به ميل الهوى، وغَلَبَة الشِّقْوة، ومستعلى الغَواية، والقدر المحارِب، والقضاء المحتوم . وتقدّمتُ في موافقتهم وترغيبهم، والأخذ بالمخنق منهم، من غير قتال، ولا تناول سلاح، ولا تناوش صِيال(١)، وعرضتُ عليهم التوبة ، ودعوتهم إلى الإنابة، وأعطيتهم الأمان، وأعلمتهم أنهم إن قبلوا حِمدتهـم وأخمدتُ نار الحـرب بيني وبينهم، وإن أبَوْا إلا تماديا في غيّهـم ونكوصا على شقائهم ، وَلِيتُ مناجزتَهم وعرفتُ من الله الخيَرة في محاربتهم، وآستعنتُه عليهم وآستكفيتُه أمرهم، ورجوت حسن عادته عند أمير المؤمنين في أمثالهم . ثم وجّهت الأولياء فنفذوا نحو عسكرهم ليلا وهم متفرّقون في رحالهم، مغترّون في أوطانهم، قد أَمِنوا خدعَ الحـروب ومكرَها ومكيدتها ، ووقعـةَ البَيَات وهَوْلهـا ، إلا طائفة منهـم أهل عدد وعُدّة، وبأس في أنفسهم وقوة، اتخذوا الليـل جملا، وسَرَوْا نحوَنا يرجون غِرّتنا ويأمُلون غفلتنا، فوقف جندنا بمكانهم آخذين أُهْبتهم، متمسكين بالطاعة فيما به إمْرتهم، فأسرعتْ إليهم من أعدائهم طائفةٌ فدفعوهم عن أنفسهم، ونالوهم بجِرَاحات مع قتلى منهم عند تناوشهم، ثم نكصوا على أدبارهم ، ورجعوا القهقرَى على أعقابهـم إلى الباقين من سريّتهم، فاسـتجاشوهم فجاءهم بالمكانفة والمؤازرة، وأقبـلوا بحمّيتهم وحَنَقهم حتى حملوا حملةَ رجلٍ واحد، وضاق الفضاء وطارت أفئدة جندنا رُعبا من حَمْلتهم ، وبلغت القلوبُ الحناجرَ منهم، إلا طائفة قليلة من لواقح الحـرب ومواضى رواسخها وأشبال لِبْدتهـا ، تزيّنوا بالطاعة فأمّوا حسن العاقبـة، ونصروا الدين، فوثقوا بالتمكين، آنتدبوا إليهم، ووقفوا لهم، وآزدادوا بصيرة في أمرهم، ونفاذا وجِدّا في آجتهادهم ومجاهدتهم ، فثبتوا قائمين بالقسط في أحوالهم ، قائلين بالعدل في أملائهم، يسألونهم الكرّة بعد الكرّة، ويَعِدونهم الغَلَبة، ويُمنّونهم السلامةَ، ويضمنون لهم الغنيمة ؛ ففاءوا إليهـم، ورجعوا إلى الحق لله عز وجل عليهم ، فشافعوا ساعة بالقنى

(١) الصيال مصدر صال على قرنه : سطا عليه .

بعد ترامیهم إرشاقا . بالسهام فلما رأى أعداء الله جِدّهم، وعرفوا صدقهم، وخافوا حدّهم، نكصوا على أعقابهم، يريدون اللّحاق بمعسكرهم، وتحرّك أصحابنا فى طلبهم، ورجَوْا سُوء الصباح لهم، فأمعنوا فى أثرهم؛ فلما أحسوا الفساق أعطوهم الضمة وولّوا إلىٰ ديارهم لا يلوى قريب على قريب، ولا ذو رحم على حبيب؛ ونالتهم القُنِىّ فلسرتهم، وعضّت هامَهم السيوف فكَلَمتْهم، وحِيلَ بينهم وبين الدخول من باب عسكرهم، فأخذوا فى غير طريقه منهزمين، قد فلّ الله حَدّهم، وقلّل كثرتهم، وقتل عامّتهم؛ ورجع أصحابنا إلى معسكر أعدائهم بعد التشريد والتفريق بجماعتهم، فأحاطوا بهم فى آخر ليلتهم، فلما رأَوْا غفلتهم، وأَمِنوا غِرّتهم، وانتهزوا مكان الفرصة منهم أحاطوا بهم وهم نائمون، قارّون غافلون متفرقون، فوضعوا السلاح فيهم، ضرباً بالسيوف، وطعنا بالرماح، وضربا بالأعمدة، وذبحا بالشِّفار، لا يشوون من جرحوا، ولا يُبقون من كلموا، غير مدفوعين ولا ممنوعين، حتى انثنت السيوف، وتحطمت القُنِىّ وانْدقّت الأعمدة، وكَلّت الشِّفار، وبقيت منهم عدّة يسيرة وشرذمة قليلة ممن لم ينله القتل، فأخذوا أسرى، وأُوثِقوا حديدا، وكُبِّلوا قيودا، وكان أوّل رأس أتانى بخبره[1] بشيرهم وأسرع به إلىّ ذو المعرفة منهم رأس[2] عدوّ الله المارق الباغى، الشاقّ لعصا المسلمين، ملأنى رئيس ضلالتهم، وقائد جهالتهم، ومستغوى جماعتهم، فعرفته بحليته ونعته وصفته فى عدد كثير من رءوس قوّاده وأهل الفتنة وأئمة البِدْعة، فلم يلبثوا إلا ريثما تصدّعوا فى كل جبل وخَمَر، منهزمين هاربين، لا يستطيعون لما أتاهم من عذاب الله دفعا ولا منعا بأيد ولا قوة؛ ولا يلجئون إلى ركن وعصمة، قد تشتّت بهم نظامهم، وفارقهم وجوهُهم وأعلامُهم، فأخذهم أسرا قَسْرا قدمنهم النصب، وملأ قلوبَهم الرعب وتخرّمتهم الوقائع، ونخبتهم الهزائم، وتحيفهم القتل، وغلب الله عزّ وجلّ لأمير المؤمنين على حصنه الذى كان مُناف عزّه، وموضع مَنَعَته فى نفسه، ومجتمع عدّته، ومادّة قوّته، فقوضوا عساكرهم، وأُقشِعوا عن حصنهم يتبع آخرهم أوّلهم، متحيرين متلدّدين،

(١) فى الأصل : «بخبرهم» . (٢) فى الأصل «برأس عدوّ الله» .

أذلة خاسرين، فتفرّقوا لا نظام لهم ولا جامع لشتاتهم . فلمـا آستحرّ القتل فيهم، وفَشَت الجِرَاحات فى عامتهـم، وطحنتهم الحرب بكَلكلها، وألموا وقع حديد أنيابها ومساعرها، قذف الله الرّعب فى قلوبهم وزلزل بهم أقدامهم، فولّوا منهزمين مغلولين، ورَكِب المسلمون أكتافهم، يقتلونهم فى رءوس جبالهم، وخلال غِياضهم، وبطون أوديتهم، ومقاصى تِلاعهم، وفى كل ناحية من نواحيهم، حتى عجز الليل دونهم، وأعجزوهم هربا فى معاقلهم.

وفى العصـاة

حتى إذا ظن أن قد عزّ بضلاله، وتحصن بمعاقله، وآسـتكمل قُواه، وكَثُف تدبيره، ولجأ إلى مانع منـه ودافع عنه، عطفت عليـه عواطفُ الحق بأولياء الحق وأنصـاره، ناقضين ما أبرم، ومتداولين ما سدّ، ومتوغّلين إلى غيّه ببصائرهم، وإلى باطله بحقهم، فاسْتُنزِلَ عن موضع عزّه قسرا، وأمكن الله أولياءه أسرا، سنة الله فيمن عَنَـدَ عن سبيله، وألحد فى دينه، ومَرَق عن الطاعة ووثائقها، وآستبدل بالحق ومنهاجه، ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا، ولن تجد من دونه مُلْتَحَدا ولا نصيرا؛ حتى إذا تراءى الجمعان تبرأ الشيطان من حزبه، وأرهق الله باطلهم بحقه، وجعل الفلَج والظفرَ لأَوْلى الحزبين به، بذلك جرت سنة الله فى الماضين من خلقه، وذلك ما وَعَد من تمسّك بأمره وطاعته .

وفى مدح قوّاد الجيوش وصفة الأولياء فى أحوالهم

لمـا بَلا من طاعتـه، وآختبر من نصيحته، ويُمْن نقيبته، وشـدّة شكيمته، وصحـة عزيمته، وصدق نيته، وثِقل وطأته على أعداء الله وأعداء الدين والمسلمين، وعلمه بمراوضة الحرب وممارستها، ومكايدة الأعداء ومواقفتهم فيها، فشمّر تشمير أهل الحِسْبة وحسن الظن بالله من غير ونْيـة ولا فترة ولا بقاء جدّ ولا آجتهاد، راجيا أن يُنجح الله سـعيه، ويُفْلِج حجته، ويظهره على عدوّه من الآستقلال الذى حمله، والاضطلاع بما أسند إليه، والآمتثال لسيرته، والآنتهاء إلى أمره، والقبول لأدبه، والخفوف بما يستنهضه له من حروبه وأموره مثل الذى جعل عند فلان : يفضُلهم بطوله، ويطولُهم بمحاسنه، ويتقدّمهم بحسن بلائه وغَنائه،

ومواقفه ومساعيه، لم يختبره أمير المؤمنين فى جميع خصاله إلا وجده عند الاختبار والتحصيل سالكا لمناهجه، قابلا لأمره، متبعا لأثره، ساميا بهمته إلى أقصى الغايات وأعلى الدرجات، حتى صار عند أمير المؤمنين مقدَّما فى القَدْر والرتبة، مخصوصا بالمنزلة والرفعة، يرى ذلك قليلا فى كثير ما وجب بطاعته ونصيحته، فبارك الله عليه وليا ظهيرا . فأقدَموا متوكّلين على الله مسلِّمين لأمره صابرين على ما نالهم من اللأْواء والجَهْد والتعب وكَلَب الشتاء وحمَارَّة القيظ، وصعوبة المَرام من أعداء الله الكَفَرة، يرجون نصر الله وتَنَجُّز ما وعد الصابرين والمجاهدين فى سبيله من الظَّفَر والنصر والغلبة على عدوّهم، توحَّد به من نصرهم وإعزازهم أن كان الله عز وجل تكفّل لأوليائه بالنصر والعزّ والحَيطة، وجعل حسن العاقبة لهم، وكَبَت من حادّهم وأخلد الى المعصية والكفر والأسر، ليكونوا بذلك عظَة ونَكالا لمن أمهله الله منهم، ولتكون كلمة الله هى العليا وكلمةُ الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم؛ أعظمهم غَناءً، وأحسنهم بلاء، وأشدّهم صولة، وأقساهم نِكاية، وآمنهم سريرة، وأمضاهم عزيمة، وأربطهم جأشا، وأصدقهم بأسا، وأملأهم للأقران، وأرعاهم لوثائق الإيمان، وأشدّهم تحدّبا على السلطان، فآزره بهم، وحصّن أطراف خلافته بأيديهم، فكَفَوْه المهم وقاموا دونه بالمُلِمّ، غير مستطيلين بغَناء، ولا متعرّضين لطلب جزاء، قد تعبّدهم الوفاء، وغَنُوا بقربة الولاء؛ فإن الله جعل آباءه أعلاما فى الطاعة يَهدون اليها وأَوَّلِيّته قادة الى سبيل النصيحة يتمسك المناصحون بآثارهم فيها، باقيا على كرّ الأيام ذكر مساعيهم، وزائدة على تصرّف الأيام حقوقهم، وباديا للعيون حميد أفعالهم، لا تنصرم الأخبار عن سالف لهم إلا وَصَلوه بحادث، ولا يتقادم لهم من بلائهم أوّل إلا أتْبعه آخر. ففلان يجرى فى أمره على منهاج قد أوضحوه له، ويسلك فى الطاعة طريقا قد سهّلوا له مذاهبه، ويتمسك بعُرًا وثيقة قد رأى آثارها على من تقدّمه، والله محمود . ولم يزل الله يعرّف أمير المؤمنين فى كل ما أسنده الى فلان من أعماله وقلّده من أموره، المبالغة فى قضاء الحق عليه ويُمْن النقيبة فيما يتولّاه، والاجتهاد فى كل ما قرّبه من الله وخليفته . وأمير المؤمنين يَحمَد الله على ما يخصّه

به من نعمتـه، و إياه يستعين على قضاء حقّه، إنه سميع قريب . فإن كتابك ورد على أمير المؤمنين بما لم يزل يتطلّع اليه منك ويؤمّله عندك، و يرجو أن يوفّقك الله فيه لرشدك، ويُؤثرك منـه بحظّك ، للذى كان يبلغـه وينتهى اليـه من خبرك، فى أحوالك وتصرّفك فى خصال الخير، وتنقّلك فى درجتها ، مساميا لاهـل الفضل فى مراتبهم، متزيّنا بصالح أفعال الملوك فى قصد سيرتهم ، وحسـن طريقتهم، ولين أكنافهم . فحقّق الله ظنه بك ، وأجاب دعاءه لك ، وبلّغ بك أمنيته، وأعطاه فيك رغبته . وكنت فيما هُديتَ له بانقيادك إليه راغبا، ودخولك فيه محتسبا، مستوليا على أسنى الأمور مؤونة، وأفضلها ذخيرة، وأعلاها درجة، وخيرها عاقبـة، وأعمّها سلامة ، وأمنعها كهفا، وأبقاها شرفا، وأعدلهـا حكما، وأطولها سلما، مستحقا بذلك على الله عز وجل زيادة المُلك فيها، وبهاء الثروة، وآنبساط القدرة ، وآتساع المملكة، وظهور الغَلَبـة وعزّ التمكين، والنُصرة فى الدار التى حُبيت فيها بقليل ما ترجو أن تصير اليـه من ثواب الله عز وجل وحسن مجازاته بالنعيم المقيم فى دار الأمَد، ومحلّ الأبد، بمـا لا يَبلغه إحصاء ، ولا يكون له آنتهـاء ، وملاءه فرحا وآبتهاجا، وسرورا وجذلا ، ورجاء لك من الله عز وجل حسن عونه وتوفيقـه أن يغلب لك على حظّك، وأن يأخذ إلى تقواه بقلبك ويجعل فيما عنده رغبتك . والى ذلك سموّك وهمّتك . وليس ينفكّ أمير المومنين مقتفرا فيك أثرا يَحمَده ، ومتصفّحا بخبر يَبْهجه ، ومستحدثا نعمةً من الله عز وجل يرجو آتصالها وآتساقها لديه بك، حتى يتناهى الى الدرجة العليا، والغاية القصوى، فيما [يبتغيه] (١) من آجتثات أُرومة الفَسَقة وقطع دابرهم . و بالله الثقة والحول والقوّة، متعرّفا من الله فيما فارقه من جهاد عدوّه أتمّ مصادق وعد القائمين بحقه، الصابرين فى جنبه، وأحسن ما أبلى، ذائدا عن حريم، ومحصّنا لبيضـة، ومدافعا عن ملة ، فشـمر شاريا لله نفسه، طارحا عنه لباس الغفلة ، متجافيا عن مِهاد الوطأة ، وليس تدخله الخلّة والوحشة على من كنت قريبا منه، ولا يمتنع لأمير المؤمنين طَرَف أنت فيـه ، ولا أمر يُعين عليـه ويمسك بسبب من أسبابه .

(١) بياض فى الأصل والسياق يقتضى ما أثبتناه .

وصف الأولياء فى الكتب

وصار أهل السُّمُوّ الى الدرجة العليا، والاعتصام بالعروة الوُثقى، من أولياء أمير المؤمنين وشيعته، مُنْشرحةً صدورُهم بمكانفته، مُنبسطةً أيديهم بمعاونته؛ وقيم لأمير المؤمنين من أولياء دينه وأنصاره، قومٌ آزرهم بالنصر، وكَنَفَهم باليقين، وألّف بصائرهم على الحق، وأيّدهم بمُؤيّدات التقوى؛ فلمّا أمرَهم أطاعوا أمرَه، ولمّا فرَضوا فى ذات الله طاعتَه، فرض الله نصرهم وتمكينَهم، بجاهد مُجاهدُهم مُستَبْصِرًا مُحتَسِبا، وقام قائمُهم بالحق عليه مُخْلِصا مُجْتَهِدا؛ وقادتْهم طلائعُ الدين ودواعيه أرسالا قُدُما، فاتّبَعوا سبيله لا ناكلين عن إقدام، ولا مُتوقِّفين عن ارتياب، ولا مُتهيّبين، مع دخائلهم وبصائرهم، عدوا ولا عنادا؛ طالبين بثأر الدين بُغاتَه، وبطوائل الإسلام عداتَه: من صنوف أمم الكفر ومَرَدة النفاق وأئمّة المُلحدين؛ متقلّدين للحق ونُصرته، ولئن تمّمَ الحقّ بهم ومضى، وإنّ مع الحق مَن نكث عنه بألسنتهم وأيديهم، حتّى فتح الله عزّ وجلّ لأمير المؤمنين معاقلَ الشِّرْك وأئمّه، وأناخ الباطل وأركانَه، وأعلامَ البِدَع وأتباعها، فَضْلًا من الله ونِعْمةً، والله عليمٌ حكيم؛ إن هززْتَهم قطعوا قَطع الحُسام، وإن أجريتهم فى عظيمةٍ وقعوا وقعَ الجياد، وإن استغنيت ودام الغناء لك عن جميع العاملين، كانوا رصدًا لك فوق أعناق الحاسدين.

ما يُقرّظ به أميرُ المؤمنين فى أواخر الكتب

لِيعرفوا موقعَ نعم الله عند أمير المؤمنين، يَحوطه به فى أوليائه، من النصر والتمكين، وعلى أعدائه من الوَقْم(١) والتوهين؛ ويشكر الله على النعمة فى ذلك، إن الشكر مُحَصِّن للنعم، وأمانٌ من الغِيَر، لِتخلُوَ مواقعُ النعمة عليهم، فيما يجمع الله بأمير المؤمنين من كلمتهم، ويَحُوط من حَريمهم، ويُحِلّ من بأسه ونقمته بمن صدف عن سبيله وحاول تشتيت جماعتهم وتوهين حقّهم، ويقابلون ذلك بما تُرْتَبط به نعمُه، ويُستدرّ مَزيدُه.

---

(١) الوقم: القهر والذلة.

سعيد بن حُمَيد

ليشكروا الله على ما منح خليفته من هؤلاء المُرّاق الخارجين من جماعة المسلمين، فإن الشكر أمان من الغير ومادة للمزيد .

٣ — التحاميد فى أواخر الكتب

تحميد لسعيد بن نصر فى آخر كتاب فتح له

الحمد لله المعز لدينه ، المُظهر لحقه، المؤيد لأوليائه ، الصانع للإسلام وأهله ، الناصر لخليفته ، الحافظ لما آستحفظه، المتوحد بالنعمة عليه فيما حمله .

تحميد لإبراهيم بن العباس فى آخر كتاب فتح

فالحمد لله المُزيل لما يمهّد المبطلون، و يمكر به الماكرون، ويكيد به الملحدون، تمكينا لعبده وخليفته، وذَبًّا عن دينه وحقه، و إظهارا لأوليائه وحزبه، و إمضاءً لعزائمه وقدرته ، منعما قادرا، ومُمْليا ممهلا، عدلا اذا آستدرج، متفضّلا اذا أنعم، حمدا يُستنزَلُ به نصرُه، ويُبْلَغ به رضوانه، و يُمتَرَى بمثله فواضل مَزيده .

تحميد فى فتح لإبراهيم بن العباس

والحمد لله بجميع مَحامده التى حُمد بها، على جميع آلائه وجميل بلائه، فيما ولى به خليفته، ونصر به دينه ، وأقام به حقه، وأعزّ به وليّه، وقمع به من ألحدَ عن سبيله ، حمدا يؤدّى حق نعته ، و يوجب به أفضل مزيده بمنه وطَوْله .

تحميد لأبى عبيد الله فى آخر كتاب

فالحمد لله على ما يحدث لأمير المؤمنين فى دولته وسلطانه، ولعامة المسلمين من صنعه وكراماته، فى جسيم الأمور ولطيفها، وخاصها وعامها، بما يجعله للنعمة تماما، وعلى ما يحل بعدوّه من بأسه وقوارعه، ويوقع بهم من جوائحه وآستئصاله ، ما يكون لموعوده إنجازا، حمدا يبلغ رضاه ويستوجب مزيده .

تحميد آخر

الحمد لله الذى تمّم لأمير المؤمنين نعمته، وأكمل دعوته، وجعل العاقبة فيه لمن اختاره لخلافته. وردّ اليه من شذّ عنه من رعيته، وأتى أمير المؤمنين بصنعه على حدّ نيته وقدر أمنيته، ولم يُفِل رأيه ولم يُخلف ظنه، حمدا كثيرا دائما بما يزكو عنده فيتقبله، ويرفع اليه فيبلغ رضاه؛ حمدا يكون لأسبغ نعمه جزاء، ولأفضل إحسانه كِفاء، وللمزيد من فضله وإحسانه موجبا، والى أعلى الدرجات عنده مؤدّيا، وللخلود فى جنته وسيلة وسببا.

آخــر :

الحمد لله الذى جمع لأمير المؤمنين ما حَبَاه بمزية نصره وتمكينه وإعزازه وتأييده، وإظهاره على من ناوأه وصدّ عن حقه، وصدف عن طاعته، ووفّقه لاختصاص فلان بما وكَلَه اليه وعصبه به من أعباء أموره وجلائل أعماله، وأجرى بفلان وعلى يديه وبركته وسعادة جَدّه ويُمْن طائره، من تتابع الفتوح، وتواتر النصر، وإقبال الصنع، وإعلاء الحق وإنارته، وإزالة الباطل وإبادته، حمدا يؤدّى حقه، ويرى عزه، ويمير من أحسن(1) مزيده، بكرمه وجوده .

آخــر :

الحمد لله الذى أكرم أمير المؤمنين بالخلافة، وخصّه بالإمامة، وقلّده من أمور عباده وبلاده ما تولّاه بكفايته وكلاءته وتأييده وحياطته. حمدا يوجب المزيد من فضله .

ولإبراهيم بن العباس

الحمد لله الذى أنجز وعده، ونصر عبده، وأيّد جنده، وجعل فتوح أمير المؤمنين شرقا وغربا مشفوعة بين اقامة حق وإدالة باطل وإزالة عائد وإبادة عائد وإقالة(1) مستقيل . ويسأل الله أمير المؤمنين، مسألة العبد سيده ومولاه رغبة اليه متذللا له أن يصلّى أفضل صلواته عنده على أكرم أنبيائه .

(1) سقطت فى الأصل كلمات فاثبتنا ما يقوم مقامها .

دعاء أمير المؤمنين فى الكتب والدعاء له

وأمير المؤمنين يسأل الله ربه ووليّه ، أن يكنفه فيما حبّاه وٱستحفظه عليـه بأفضـل تأييـده وأعزّ نصره، وأن يهب له مع كل نعمة يجدّدها له حارسا من شكرها، يتابع به أفضل مزيده، فإن النعمة منه، والشكر بتوفيقه، والمزيد لمن شكره .

وأمير المؤمنـين يسأل الله ربه وربكم وولىّ النعم عليه وعليكم، أن يُلهمه وإياكم أداء حقّه وشكر نعمته وحمده عليها، ويطوّقه وإياكم أفضـل الأعمال وأرضاها عنـده وأشدّها ٱستيجابا لمـا وعد الشاكرين من مزيده؛ إنه سميع قريب .

وأمير المؤمنين يسأل الله الذى ولّاه خلافته وأعلاه بهـا، أن يطوّقه ما حمله، ويلهمه العـدل بين رعيته ، ويلهمهم نصيحته وطاعته ، ويُصلح أمرهم به فى ولايته وخلافته . ويرغب الى الله الذى أيّده بنصره ومكن له بغير حول منه ولا قوة ، أن يلهمه وإياكم شكره وذكره وخشيته، ويشـمله وإياكم بطاعتـه ومَرْضاته ومحبته، وأن يعرّفه وإياكم الزيادة فى نعمه والنصر على عدوّه والتمكين فى بلاده؛ إنه ذو فضل عظيم .

والى الله يرغب أمير المؤمنين فى إعانته على نيته وتبليغه منتهى سؤله وغاية همته وإعزاز دينه وإذلال من صدّ عن سبيله؛ إنه سميع قريب . وأمير المؤمنين يسأل الله الذى دلّ على الدعاء تطوّلا وتكفّل بالإجابة حتما، فقال : ﴿ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أن يجمع على رضاه أُلفتكم وأن يصل على الطاعة حبلكم، وأن يمتعكم بأحسن ما عوّدكم من منّته ، ويُوزِعكم عليها من شكره ما يواصـل لكم به مزيده ، وأنْ يكفيكم كيـد الكائدين، وحسد الباغين؛ ويحفَظ أمير المؤمنين فيكم، أفضلَ ما حفِظ به إمام هـدًى فى أوليائه وشيعته؛ ويحمل عنـه ثِقلَ ما حمّله من أمركم؛ وبالله يستعين أمير المؤمنين على ما ينوى من جزائكم بالحسنى، وحَمْلكم على الطريقة المُثلَى، وبه يرضى لكم ناصرا ووليّا، وكفَى بالله وليّا وكفى بالله نصيرا .

ويسأل اللهَ أميرُ المؤمنين، أن يُحْسِن على صلاح نيته عونَه، وأن يتولّاه فيما ٱسترعاه، ولايةً جامعة، لصلاح ما قلّده، إنّه سميع قريب .

ويسأل اللهَ أميرُ المؤمنين الذى بيــده مفاتيح مقاديره وفواضــله ، أن يُصلّى أفضل صلواته على أفضل أنبيائه، وأنْ يجعل ما ادّخر لأمير المؤمنين الى دولته وخلافته، وحباه به من وسائل الخير عنده ، أن يجمع الى أحسن توفيقه لمــا يرضَى من شــكره وحسن معونته على ما أصلح له ربه ،فإنّه شاكر يحبّ من شكره ويوجب لمن وُفّق لشكره مزيدا بمنه وطَوْله وفضله وإنعامه، إنّه جواد كريم .

ويسأل اللهَ أميرُ المؤمنين مُبْتدئا ومُعَقّبا وأوّلا وآخرا، وقبل كلّ مسألة، وأمام كلّ رغبة ومُقدِّمةً كلّ طِلْبة ، أن يصلىّ على صفوته من عباده وخير خلقه وخاتم أنبيائه ورسله ، محمد عبده ورسوله ، أفضلَ صلواته، ويباركَ عليه أكثرَ بركاته ؛ وأن يديم له كرامته ، ويُجْرِىَ عنده على أجمل عاداته، وأن يتمّ له ما آختصّــه به من إحسانه ، حتّى يملأ الأرض عَدْلا وقِسْطا، والإســلام تأييدا وعزّا ، والشرك ذُلّا وقمْعا، إنّه ولىّ نعْمته ومُنْتهى كلّ رغبة، وغايةُ كلّ حاجة، وهو على كلّ شىء قدير .

وأمير المؤمنين يقول : الحمد لله طاعةً لأمره، وآعتصاما من الفتنة بشكره ، وآستدامةً لنِعَمه المترايدة عنده (١)، إنّه سميع قريب .

وأمير المؤمنين، يسأل الله السامعَ كلام مَن جهرَ، والعالم بغيب من أسرّ، المطّلــع على ضمائر العباد ووسوستهم ، والمُسْتَنْقِذَ مَن يشاء برحمته، والمُمْتَنّ على من يشاء بقدرته، أن يجمع على الحقّ أهواءكم وينصركم على أعدائكم ويُصْلِحَ ذاتَ بينكم ولا يَكلَكم فى مَوْطن من مواطن اللقاء، والتحاكم والتناجز، إلى أنفسكم، ويكفيَكم ويكفىَ بكم إنّه سميع قريب .

الدعاء لأمير المؤمنين فى أواخر الكتب

ونسأل الله أن يهْنأ أميرَ المؤمنين ما صــنع له، ويُعينَه على شــكر ما أولاه ، إنّه ولىّ ذلك وإنّا اليه فيه راغبون والسلام .

(١) فى الأصل المتازل، وما أثبتناه صحيح .

ولـــه :

ونسأل الله أن يَهْنأ أميرَ المؤمنين الكراماتُ التى يُتابعها ، والنعمُ التى يظاهرها عليـه ، والفتوحَ التى جعلها فى خلافته ، وولايته ودولته ، ويهب له من المعرفة بحقّه فى ذلك والشكر له بحسن بلائه فيـه ، ما يبلغ أعظم رغبة وأقصى أمنية ، من ذخائر الخير وفضيلة الأجر وحسن الثواب فى الدنيا والآخرة .

أسأل الله لأمير المؤمنين فى غابر أموره ، أحسنَ ما عوّده فى سالفها ، من السلامة التى حرسه بهـا من المكاره ، والعزِّ الذى قهر له به الأعداء ، والنصرِ الذى مكّن له فى البـلاد ، والهـدى الذى وهب له به المحبّـة ، والرفقِ الذى أدرّ له به الحلَب ، والاستصلاح الذى آتسقت له به الرغبة ، حتّى يكونَ بمـا أعطاه من ذلك ، وما هو مُستقبَل به ، أبعدَ خلفائه ذِكرا ، وأبقاهم فى العدل أثرا ، وأطولَهم فى العمر مُدّة ، وأحسنَهم فى المَعاد مُنْقلَبا .

أسأل الله لأمير المؤمنين نِعْمة لا تزول ، وكرامةً لا تنفَد ، وعزًا لا يضام ، ونصرا لا يغلب ، وكفايةً ينتظم بها جميع الصلاح ، حتّى لا يكون بأوّلَ من ذلك أسعدَ منه بآخر ، ولا بماض أسرَّ منه بمستقبَل .

أسأل الله لأمير المؤمنين فى عاقبة كلّ نِعمة أفضلَ ما وهب له فى عاجلها ، حتّى يجعل كلّ نعمة أنعم بها عليه ، وكرامةٍ حازها له ، موصولةً بالتمام ، محوطةً بالحفظ ، مكلوءةً من الغِيَر ، ممـدودةً الى طول غايات البقاء ؛ لا يشوب صفوَها كدر ، ولا سلامتَها غيرَ ، ولا سرورها تنغيص ؛ وهَنأ الله أميرَ المؤمنين الظفَر ، وأدام له عادةَ النصر والتمكين الموضحَ ، وحُجتـه المُدْحِضَة لحجـة أعدائه ، والغَلَبة المُظْهِرة لحقه ، المُجتاحةَ لمن خالفه ؛ ثم لا برِحت نعمة الله راهنة بمثله فى الأولياء نَصْرا ، وفى الأعداء إباحة ، وفى الناكثين تنكيلا .

سر الله أميرَ المؤمنين بمـا أهدَى له من كِفايته ، وحاطه به من منَعته ، وأيده به من نصره ، وجعله وما استرعاه من دِينه وسُلطانه ، فى كَنَفه الذى لا يُسْتَباح وتحت يده المـانعة وجَناحه المحفوظ .

أدام الله لأمير المؤمنين السرور بما يُقذى به عيون أعدائه فى تمكينه وتوهينهم، ونَصْرِه وخِذْلانهم، وإعزازه والمجاهدة لهم، ولا زالت نِعمَةُ الله تَزيده فى قوة الظفَر، وعزّةِ النصر، وتَفِـد من آفاق الأرض بالبشارات والفتوح، حتّى تملأ له ما بين طرفَىْ مُلكه أمْنا وعزا، ويملأ به قلوب أعدائه خوْفا ورعبا، ويَعِدهم على خلافه سطوة وتنكيلا .

أحمـــد بن يوسف

وهنّأ الله أمير المؤمنين نِعَمه، وملأه كرامته، وأوْلى له فُتوحه، وأدام إعزازه، وتولّى حِياطته وكِفايته، فيما دَنا منه وما غاب عنه، وأطال بقاءه والامتناع به .

مختار ما كتب من باب التهانى فى كلّ فن

تهنئة خليفة بظفَر

الحمد لله الذى جمع لأمير المؤمنين مع الغَلَبة الحُجّة، ومع الظفَر المعذرَة، وجمع لعدوّه مع الذل السطْوَة، ومع دُحوض الحُجّة النَّكال، فلم يجمعه والناكثين مَوْطِنٌ من مواطن الصبر، إلّا جعل الحُجّة عليهم فيه، ولسانَ العذر فيه معه، ويَدَ الظهور فيه له، ثم وهب له عند الظفَر من الشكر، وعند الفلَج من التواضع، وعند القدرة من العفو، ما جعله مُسْتوْجِبا لما أصْفاه به، مُعترفا بأنّ العذر مُنْقطع ممن نكبه، وأنّ مُسْتراد الحُجّة ومَطْلب السلامة، فى التمسك بطاعته ومناصحته، والمُجاهدة دُونه .

وفى مثـــله :

أدام الله لأمير المؤمنين السرور بما يُقْذى به عيون أعدائه .

وكتب ابراهيم بن المهدىّ الى المعتصم يهنّئه بخروجه عن أرض الروم بعـــد فتح عَمُّـــوريّه

الحمد لله الذى تمّم لأمير المؤمنين غَزْوته، فأذلّ بها رقاب المشركين وشفَى بها صدور قوم مؤمنين، ثم سهّل الله له الأَوْبة سالما غانما، وكذا وكذا، وليهْنئه ما كتب الله له، مما

أحصاه فلا ينساه، ليقفه به موقفا يرضاه، فإنه عز وجل يقول: ﴿إنّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ الآية ، فطوى الله لأمير المؤمنين نازح البُعْـد برّا وبحرا، ووقاه وَصَب السفر سهلا ووعْرا، وحاطه بحراسته كالئا، ودافع عنه بحفْظه راعيا؛ حتى يؤدّيه الى المحلّ من داره، والوطن من قراره؛ وجزاه عن الإسلام خاصّة، وعن رعيّته كافّة، بتخيّره مُسْتخلَفا عليهم، وقائما مُقامه فيهم هرونُ ابنُ أمير المؤمنين؛ فقد آستخلفه رفيقا شفيقا، حليما وَقُورا، يقظانَ ساكنا؛ لم يُشَذّب عليه أمر، ولم ينْتشر عليه طرْف، ولم يَضِع معه سبيل، ولم يُسْخِط وليّا مُكانفا، ولا عدوّا مخالفا، بلا سيف أشرعه، ولا سور أقرع به؛ فمثّل جزاء أمير المؤمنين فى تخيُّره إيّاه، بجزاه الله على ما حفِظ من وَصاته، على محمود مُقامه، إنه مجيب الداعى .

وكتب أحمـــد بن يوسف الى عبد الله بن طـاهر

يهنّئـــه بظفَر

بلغنى — فتح الله عليك — خروجُ آبن السرىّ اليك، فالحمد لله الناصر لدينه المعِزّ لوليّه وخليفته على عباده، المُذِلّ لمن صد عن حقّه ورَغِب عن طاعته ؛ ونسأل اللهَ أن يُظاهر النِّعَمَ ويفتح بُلدان الشِّرْك به؛ والحمـد لله على ما وَالاك منـذ ظعنتَ لوجهك، فإنّا نتذاكر سِيرَتك فى حَربك وسِلْمك، ونُكثِرُ التعجُّبَ لمـا وُفِّقتَ له ، من وَضْع الشـدة واللّيان بموضعهما، ولا نعلم سائر جُنْد ولا رَعيّة عُدِل بينهم عدلك، ولا عفا بعد القدرة عمّن آسفه وأضغنه عفوك .

تهنئة خليفة بحجّ

أصـلح الله أميرَ المؤمنين وأراه من الزِّيادة فى نِعَمِه، ما يكون تماما لمـا ابتدأه به من فضله ؛ والحمـد لله على ما خَصّ به أميرَ المؤمنين من كرامته، وأعطاه من الفضل فى نيّته، وجعله يستعين على دِينه ، بما بَسط له فى دنيـاه، ويَحمِل على بدنه النَّصَبَ فيما يتقرّب به اليه؛ فيجْفو عن دَعَته على لينها، ويشخَص عن طُمأنينته على فضلها، إيثارا لآخرته، وأداء لحقّ ربّه؛ بادر له بذلك ليُكْرمه به ، ثم يستعمِل فيه نفســه، تقربا اليه، فيسعْده بالإذن

فى ذلك حين كان منّ الله له ، وبالعمل فيــه حين كان لله منــه ؛ فيكون قبوله الخير حين يعرضه له ، دليــلا على قبوله الخير عنه حين يعمَــل لربّه ؛ وكان من ذلك ما أذِن الله لأمير المؤمنين فى زيارة نبيّه صــلى الله عليه وسلم العامَ ، وموافاةِ مَشاعره العظام ، فى وقتها من الأيام ، التى لا توافَى إلّا معها . ولا تكون مناسكة إلّا فيها ؛ فكتب الله له فى ذلك الآثار الصالحة والأعمال المبرورة ، فدخل فى الإحرام له بتعظيم حقّه ، وخرج منه بقضاء نُسُكه ، أجرا عَقَدَه الله عليه فى ٱبتدائه ، ثم أتمّه له باستيفائه .

ولمحمد بن مكرم تهنئةٌ لحاجّ

بَلَّغَكَ الله الرِّضا فى أَمَلك من نُجْح كلّ حاجــة وإبلاغ كلّ أُمْنِيَة ، وتَقَبُّــل كلّ دعوة خَصَصْتَ بها نفســك أو عَممت بها أحدا من أهلك ، فى مجامع وفوده ، ومُعْتَرَل قراره ، فكنت شافعَ مَنْ شاهدك ، ووافِدَ مَنْ غاب عنك ، يَسْتفتح بدعائك ، ويُرَجَّى بركةَ مَحْضَرك ، والقُرْبة الى الله عزّ وجلّ بفضل جاهك .

تهنئـــة بولاية

نرى ما أحدث الله لك من الولاية ، لنا خاصّا وإلينا واصلا .

آخــــر :

ولم تَتَخَطّنى النعمةُ إذ أصابتك ، ولم تَتَعدّنى إذ دَخَلتْ بك ، ولم أخلُ من لازم شُكْرها ، وما يَنْفَكُّ الله منها ، إذ قُلِّدتها ، اعتــدادا بكل ما طُوِّقتُ من المِنَن ، وإيجــابا على نفسى ما حملت من الشكر .

ولسعيد بن حُمَيد الى بعض إخوانه

سرَّك الله بتتابُع نِعَمه ، وترادُف إحسانه ، وزادَكَ من فواضل أقسامه . بلغنى — أكرمك الله — ما وهب الله لك من سُلطانك ، فقوّاك الله على ما استرعاك . ورزقك الشكر على ما أولاك .

وفى مثل ذلك :

أكمل الله لك السعادة ، وزادك فى الكرامة ، وخصَّــك بدوام النعمة . بلغنى ما وهب الله لك من سلطانك ، فسُررت به ، وسألتُ الله إتمام نِعَمه عليك فيه بتأييدك ، وتوفيقك للعدل فى سيرتك ، وغَرْس المحبّة لك فى قلوب رعيّتك ، وأن يُعينك عليه ، ويرزقك السلامة فى الدين والدنيا .

وله فى مثله :

أَنَا أُهَنِّئُ بك العمل الذى وُلِّيته ، ولا أهنّئك به ، لأنّ الله أصاره الى مَن يُورده موارد الصواب ، ويصــدره مصادر الحجة ، ويَصُونه من كل خَلَل وتقصير ، ويُمضيه بالرأى الأَصِــيل ، والمعرفة الكاملة ، قرن الله لك كل نعمة بشكرها ، وَأَوْجب لك بطَوْله المَزِيدَ منها ، وأوزعك من المعرفة بها ما يَصُونها من الفِتَن ، ويَحُوطها من النقص .

آخـــر :

قد وُلِّيتَ من العمل ما أسأل اللهَ عزّ وجل أن يرزقك بركةَ بدئه وعاقبتــه ، ويُعطيك الرضا ممن وَلِيت له وعليه .

آخـــر :

هَنَأَكَ اللهُ هذه النعمةَ المقبلة ، الدالّ أوّلها على تمامها ، واوزعك شكرها .

آخـــر :

أســعدكَ اللهُ بهذه الولاية وجعلها مباركة ، تنتقل بظلّ السلامة منها ، ونَيْل الكفاية فيها الى أَمَلك بنهايته ورجائك بغايته ، ورزقك السلامة ممن وَلِيتَ له وعليه .

آخـــر :

سرَّك الله بما جدَّد لك من هذه المنزلة ، ونَفَعك بهذه الولاية ، وأرضى عنك من وَلِيتَ له ومن وَلِيتَ عليه .

وكتب محمد بن مكرم الى أحمد بن دِينَار :

نحن من السرور أيها الأمير بما قد استفاض من جميل أثَرك فيما تلي من أعمالك ، وزمّك إياها بحزمك وعَزْمك ، وآنتياشك أهلَها (١) من جَوْر مَنْ وليهم قَبْلك ، وسرورهم بتطاوُل أيّامك والكَوْن فى ظلّ يدك وجَناحك ، فى إعانة مَنْ تَخُصّه وتعمّه نعمتك ، وتحـول به الحِوَلُ حيث حالت بك ؛ فالحمد لله الذى جعل العاقبة لك ، ولم يرُدد علينا آمالنا فيك منكوسة ، كما ردّها على غيرنا فى غيرك . ولَوَدِدْتُ أنّ أباك كان عاين آثارك هذه ومناقبك ، وإن كان الآفتراق لم يقع بينكما حتى علم أنك خَلَفُه ، وألق اليك بأمره ومعاقد ثقته ، وجعلك مَوْضع آختصاصه وأَثَرَته ، وصَرَف ذلك عمّن كان لا يستحقّه ، وذمّ سالف رأيه فيك وفيه وحَمِدَ آخره ، ثم نعمة آتصلت لك بما قَبْلها ، انتظمت بها أمورُك فاعتدلت ، وتلاحمتْ عليها وآتّسقت ، ما منحت فى كاتبك ، ومُستقرّ ثقتك ، وحامل أعبائك ، من الكفاية والنصيحة ، ووضعه عن قلبك مؤونة التهمة والقصّ لأَثَره ، وإدخاله راحة الطُّمَأْنينة اليه وروح الثقة به ، لا كما ابتُلِيَ أخوك ، فإنّه صحبه فخلط عليه أمرَه ، وأفشى أسراره الى صاحب بَريده ، فأنغل ذلك بينهم ، وقَطّع حِبالهم ، حتى هَجُنت آثاره مع حُسْنها ووضوحها ، وصَفِرتْ يده من حظّ عمله ، ولَزِمه الذمّ من أهله ؛ فهذه كُتُبه إلىّ ، فى آطّراح نصيحة له كانت فيه ، ويسألنى أن أُشخِص اليه كاتبا يَحْمل ثِقَله ، ويفتح له ما أرتجه من أمره . وهذا من سعادة جَدّك ، ويُمْن طائرك ، وإقبال الأمور اليك ، وسَعْيها على طريق مُوافقتك ، وهنيئا هَنأكَ الله نعمَه خاصّها وعامّها ، وأوْزَعك شكرها ، وأوجب لك بالشكر أحسنَ المَزِيد فيها .

تهنئة بعزل

كَتَب رجلٌ الى مالك بن طوق لمّا عُزِل عن عمله :

أصبحتَ والله فاضحا مُتْعِبا : أما فاضحا فلكلّ والٍ قَبْلك بحسن سيرتك ؛ وأما مُتعبا فلكلّ والٍ بعدك أن يلحقك .

(١) انتياشك أهلها : استنقاذهم .

فصـــــل

سواء علينا أُولِيت أم صُرفت، إنّا لنشهد بك الولاية ، بمـا بَسَط الله من يدك ببذْل العُرْف ، ونهتك بالعَرْف بما يلحقك من ثناء ما أسلفت من الجميـل ؛ ولا نخاف عليك أن تفارق عمـلا وأنت محلٌّ له ، ولا أن تَصْحبه وليس به فاقةٌ اليـك . فهنّأك الله النعمة ، وأعانك على الشكر، وأيّدك بالمزيد .

تهنئة بعـــزل عامل عن عمـله

بلغنى صَرْفُك، نخارَ الله لك، وهَنَاك لطيفَ نظره وجليـلَ إحسانه، فإنى أرى الرجلَ عند خروجه من العمل سالمـا نقيّا من مأثمه ودَنَســه، أَوْلَى بالتهنئة منه عند دخوله فيه ، وأرى الدعاء له عند بدء تَلَبُّســه به بالخلاص منه معْصوما بَريئا من تَبِعَاته ورواجع آثامه، أولى بمن عُنِىَ به وأحبّ صلاحه، ولذلك قدمتُ تهنئتك .

ولسَعيد بن حُمَيد فى مثله الى بعض إخوانه :

حَفظك الله بحفظه، وأسبغَ عليك كرامته، وأدامَ اليك إحسانه . إنّ سرورى بصرفك، أكثرُ من سرور أهلِ عَمَلك بما خُصّوا به من ولايتـك . وقد كنتَ ــ أعزّك الله ــ فيما يُرْبأ بك عنه ، بما أنت عليه فى قَدْرك وآستئهالك؛ ولكنّا رَجَوْنا أن يكون سببا لك الى ما تستحق، فطِبْنا نفسا بالذى رجونا . فالحمد لله الذى سلّمك منه، ونسأله تمامَ نِعَمه عليك وعلينا فيـك، بتبليغك أَمَلَك وآمالَنا فيـك، وشــفاع ما كان من ولايتك بأعظم الدرجات وأشرف المراتب؛ ثم خصّك الله بجميل الصُّنع، وبلّغك غاية المؤمِّلين . إنّ من سعادة الوالى ــ حفظك الله ــ وأعظم ما يُخَصّ به فى عمله وولايته السلامة من بوائق الإثم، ونوائب الدنيا وشرّها، والعاقبة ممـا يُخَاف منهـا؛ وقد خصّــك الله منهـا بمَنّه وطَوْله ما نرجو أن يكون ســببا لك الى نَيْل ما تستحِقّ من المراتب . والله نسأل إيزاعك شُكر ما منّ به عليك، وتبليغَك غايةَ أملك فى جميع أمورك، برحمته وفضله .

آخـــر :

ما أحسنَ ما كَشَفَتْ عنك الولاية، وأجملَ ما أبرز منك العمل ، قد كسبك الله حَمْد ولايتك وعَزَل عنك لائمتها، بما آنتشر عنك من عَدْلك، وظَهر من معروفك ، فاذا ساءك هذا فَلْيَسْرُرْك .

وكتب محمد بن مكرم الى ابراهيم بن المدبر :

الحمـد لله رب العالمين حَمْدا يجُوز حمدَ الحامدين ، الذى جعل قضاءه خِيرة لك ؛ فإن زادك نعمة وفَّقك لشكرها ، وإن آمتحنك ببلْوَى من نَفْث حاسـد أو كَيْـد كائد ، أنار برهانك وأفلج حُجَّتـك وجمع بين وليّك وعدوّك فى الشهادة لك؛ وإن نَقَل أمرا عن يدك ، فربّما يَرْجعه اليك مختلّا لفقدك . هذا الى ما جعل عندك من خواصّ النعم التى إن ذكرناها فأطنبنـا أو تجوَّزنا فقصّرنا ، كان غايتنا الى الحُسُور دون مَدَى غايتك . وقد زادك الله بهذا الحادث فضـلا عظيما، لمـا ظهر من وَلَه العامة اليـك وتطلّعها الى ما كانت فيه : من لِين إنصافك وكريم أخلاقك ، ووَحْشـةِ الخاصّة لمـا فَقَدَتْ من حُسن مُعاملتك وكثير تفضّـلك . وأيقنَ أهلُ الرأى والتأمّل لصفَحات الأمور ، أنّ كلّ ما خَرج عنـك فعـائد اليـك ومتصل به غيرُه ، حتى تستقرّ فى يدك عُرَا الأمور ومعاقدها ، وتُفتح برأيك وتدبيرك أبوابُها ومغالقُها ، فَلْيَهْنِك أنّ كلّ ما زاد غيرك نقصا زادك فضلا ، وكلّ ما نقص من الرجال وحطّها ألحقَ بك شرفا . فزادك الله وزادنا منـك ، وجعلنا ممن يَقْبَلُه رأيك ، ويقدّمه آختيارُك ، ويَقَعُ من الأمور بموافقتك ، ويجرى منها على سبيل طاعتك .

وكتب سعيد بن حميد الى بعض إخوانه :

جعلنى الله من السوء والمكروه فِداءك ، وأطال فى الخـير والسرور بقاءك ، وأتمّ نِعَمه عليك ، وأحسنَ منها مَزِيدَك ، وبلّغك أقصى أُمْنِيّتك ، وقدّمنى أمامك ، وقد بلغنى ما آختار الله لك ، فسُررتُ من حيث يغتمّ لك مَنْ لا يعرف قدرَ النعمة عليك ، ولا يراك بعين آستحقاقك .

ولئن ساءنى ما ساء إخوانَكَ من عزْلك، لقد سرّنى ما يَسَّر الله لك . والحمد لله الذى جعل انصرافك محمودا، وقضى لك فى عاقبتك الحُسْنَى، وأقول :

لِيَهْنِك أَنْ أَصْبحتَ مُجْتَمعَ الحمد * ورَاعِى المعالى والمُحَامى عن المجدِ
وأنّك صُنتَ الأمرَ فيما وَلِيتَـه * ففرقتَ ما بين الغَوَاية والرُّشْـد
فلا يَحْسَبِ الباغونَ عَزْلك مَغْنَما * فإنّ الى الإصـدار عاقبةَ الوِرْد
وما كنتَ إلّا السيفَ جُرِّدَ للوَغَى * فأُحْمِدَ فيهـا ثم رُدّ الى الغِمْـد

وقد قال الأوّل :

فمن يكنْ بورود العَزْل مُكتئبا * فإننى بورود العَـزْلِ مسرورُ
بعدَ الولاية عَزْلٌ يسـتبين به * طَوْلُ الوُلاة وبعدَ العزْلِ تأمير

أما ما عنـدى مع تصوّر العاقبـة لك فى نفسى ، فيَمَسّنى فى أمرك فى حال المحنـة ما يخصُّنى منه فى وقت تجدّد النعمة . وبحسب ضميرك الشاهد على ما عندى ما أجده لك فى نفسى . فلا زلتَ فى نِعَمٍ متتابعة متجدّدة، ولا عَدِمتَ الثروة والزيادة، وبلّغك الله أقصى أملك ، وأمل أخيـك لك ، وكَبَتَ أعداءك ، وجعلنى وِقاءك المقدّم عنـك . أحبّ أن تشرح لى صـورة الأمر إلامَ تأدّتْ ، وكيف كان الابتـداء، فإنى لا أشـكّ أنها حيلة ونيّة من عزّ الصاحب الجليل القدر، ولها عاقبةٌ منه إن شاء الله محمودة، وتُفضى من ذلك الى ما تسكن اليه نفسى، إن شاء الله .

تهنئة بتزويج وبناء بأهل

بطائر اليُمْن فليكنْ هذا البِناء، وبأسباب السعادة فليتصّل عِقدُ هذا الاجتماع، وبكلّ ذكاء الولد، وثَرْوة العدد، فلْتجر لك الأقدار، وفى أطول غايات البقاء فلتدُمْ هذه الغِبْطة والسرور .

تهنئـــة بتزويج

بلغنى تزوُّجُك من فلانة ، فبالرفاء والبنين، تهنئةَ السَّلَف الصالحين، ومبلغ سُنّة المجتهدين المتبحرين، ونَقُولُ على يُمْن الطائر، وسعادة الجَدّ، ونَمَـاء العَدَد، واتّفاق الهوى، وطيبِ

المناسمة، واجتماع الشَّمْل، وثبات الرَّبع، وتَمَلِّي النِّعَم . أسأل الله الذى قضاها أن يجعلها لك سَكَنًا ويجعلك لها شَجَنًا، وأن يُؤَخِّر حِمَامها الى انتهاء نَفَسك عنها، وجعلك جائزا تُرْبها، وَوَلِيتَ المال وهناءة العيش وملاهاة الغوانى بعدها .

تهنئة لغسّان بن عبد الحميد بتزويج

قد بلغنى جَمْعُ الأمير أهلَه على الحال التى جمعهم عليها من نعمة الله عليه . فالحمدُ لله على كل ما يرى الأمير فيما له فيه نعمة . فأسأل الله أن يجعل الطائر فى ذلك مَيْمونا، والشَّمْلَ مجتمعا، والبركةَ عظيمة، والأُمورَ سليمة؛ وكذلك فقد عَظَّم الله القَسْم منه لزَوْجه، جَعَلَ الأمير سَكَنًا لها، وأجرى المودّة والرحمة بينهما، فإنه يقول عزّ وجلّ : ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ . فلما كان الأميرُ هو المنظور اليه، وهى المنظور اليها، اختارها الأمير لنفسه واختار نفسه لها، وأراد الله عزّ وجل أن يزيدها مع فَضْلها فى نفسها فَضْلا باختيار الأمير إيّاها، وباختصاص الله لها بالأمير دون غيرها؛ فكان ذلك فضلا من الله زَيَّنه بفضل، وكرامةً من الله وَصَلَ بعضَها ببعض. فنرغب الى الله عزّ وجل فى أن يزيد الأمير فى كلّ سَعَة مبسوطة، ونعمة مقسومة، ويعطيه فى ذلك شكرا يكون لرضاه مُوجِبا، كما أعطاه فضلا كان الشكر له به واجبا؛ ثم يُمَلِّي الأميرَ ذلك بأحسن ما مَلَّى أحدًا من خَلْقه كرامةً اصطنعها عنده .

تهنئـــة بمولود

كتب العباس بن الحسن الطالبى الى المأمون يهنئه بمولود له :

قد كان أجذلنى ما أحدث الله لأمير المؤمنين من المَوْهَبة التى ليس، وإن كان أولى بها من غيره، بأعظم فيها حظًّا من رَعِيّته . فعمّر الله لك ياأمير المؤمنين قلوبهم بنور الحكمة وأبصارهم حتى يَشُدّ بهم عَضُدك، ويَسُدّ بهم ثُلْمَتك، ويُبَلِّغهم الغاية المأمول لهم بلوغُها بعدك، غير مُقْعَد بك مَهَل، ولا مُحَل بك أَجَل، ولا مُكَذِّبك أَمَل، ولا مُنْقَطعة أيامك، حتى تُخْتَرم أنفسُنا قبلك .

وكتب أحمد بن يوسف الى بعض إخوانه يهنئه بمولود له :

بارك الله فى مولودك الذى أتاك، وهَنَّأك نعمته بعطيتــه ، وملَّاك كرامتــه بفائدته ، وأدام سرورك بزيادته ، وجعله بارًّا تقيًّا، ميمونا مباركا زكيا، ممدودا له فى البقاء، مُبَلَّغا غاية الأمل، مشدودا به عَضُدُك، مُكَثَّرًا به ولدُك، مُداما به سرورك، مدفوعا به الآفات عنك، مشفوعا بأكثر العدد، من طَيِّب الولد .

وله فى مثل ذلك :

هَنَأك الله هذه الفائدة التى أفادكها، وبارك الله فى الهبة التى رزقكها، وشفعها بإخوة متواترين ، يَسُرّونك فى حياتك ويَخْلُفونك فى عَقِبك .

تهنئـــة بمولود

كتب رجل الى رجل يهنئه بمولود :

جُعِلْتُ فداءك. للبقاء مولودك، فى السناء نباته، وفى اليُمْن شبابه، وعلى البركة ميلاده .

تهنئـــة بمولود

كتب الحسن بن سهل الى ذى الرياستين :

إنه ليس من نعم الله، وفوائد قِسَمه ــ وإن خُصّ موقعها ووجب شكرها ــ نعمةٌ تعدل النعمة فى الولد، لنمائها فى العدد، وزيادتها فى قوة العضد، وما يُتَعجّل به من عظيم بهجتها، ويُرجى من باقى ذكرها فى الخُــلُوف والأعقاب، ولاحق بركتها فى الدعاء والاستغفار. وإنّ الله قد أفادك وأنالك غلاما سَريًّا، سَمَّيته فلانا، فكان ميلاده عند فتح الله على أمير المؤمنين. فرجوتَ أن تكون موافاته بالنصر الذى أظهرَنا الله به على عدوّ الدين والمسلمين من دلائل بركته ويُمْنه ، وشواهد سعادته والسعادة به . فبارك الله لأمير المؤمنين فى طارف نعمه وتالدها ، وشَفَع له قديم منته بحادثها، ورزقه ذكورا طيِّبين مهذَّبين ، يأنس بهم ربعُه، ويتصل بهم نجاحه، ويجعلهم ذرّية زاكية، وبقية صالحة .

آخـــر :

بلغنى الذى وهب الله لك، جعله الله ذُخرا سنيّا، وعَقْبا كريما .

عَمْرو بن مَسْعَدَة الى الحسن بن سهل

أما بعد، فانّ هبةَ الله لك هبةٌ لأمير المؤمنين، وزيادته إياك فى عدده لمحلّك عنـده ومكانك فى دولتك من دولته . وقد بلغ أمير المؤمنين أن الله وهب لك غلاما سَرِيّا، فبارك الله لك فيه، وجعله بارّا تقيّا، مباركا سعيدا زكيّا .

تهنئـــة بمولود

الحمدُ لله الذى رضى منّا بيسير القول عنـد عظيم النعمة، حمدًا نستوجب به بقاء هذه المَوْهَبَـة للنَّماء والفائدة؛ فإنّ نعمة الله وإن كانت لم تزل متتابعة، فقد كان ما يَقبض الأمل منا ذكر ٱنفراد الأمير بنفســه وقلّة نَسْله، وما لا يؤمن من ٱنقطاع الذكر بفوات الأجل، ومن دُثُور الأنام، بواقع الحِمَام، وقد أصبحنا من الله من يدين فى فُسْحَة المهـل، ومدّه مواقع الأجل، لمن أراد فيه مَوْضع أملنا فى حسن الخلافة من الأمير وإحياء ذكره .

تهنئـــة بمولود

سرورُك سرورٌ يَخُصّنى منه ما يَخُصّك، وتَلْبَسنى فيه النعمة ما تَلْبَسك، والحمدُ لله على النعمة فيك وعندك .

كتب أحمد بن يوسف الى بعض إخوانه يهنّئه بمولود :

أما بعـد، فقد بلغنى من متجدّد نعم الله عزّ وجلّ عليك، وإحسانه اليك فيما رَزَقَك من الهِبة ما ٱشتدّ جذلى به، وسألت الله أن يشفعه بأمثاله؛ ولذلك أقول :

قد شُفِـع الواحد بالوافد * وأُرْغِمَ الأنفُ من الحاسدِ
أبا حُسَـين قرّعينًا بمـا * أُعْطِيته من هِبَةِ الماجدِ

قد قلتُ لمـّا بشّروني به * بُورك في المـولود للوالدِ
إنّا لنرجـو وافدا مثـلَه * والطائرُ الميـمون للوافدِ

وله الى بعض إخوانه يهنئه بمولود :

أما بعد، فإنه ليس من أمر يجعل الله لك فيه سرورا وفرحا، إلّا كنتُ به بَهِجًا، أعتدّ فيه بالنعمة من الله الذى أوجب عليّ من حقّـك وعرّفني من جميـل رأيك . فزادك الله خيرا، وأدام إحسانه اليك . وقد بلغني أنّ الله وَهَبَ لك غلاما سَرِيًّا، أكمل لك صُورته، وأتمّ خلقه، وأحسن البلاء فيه عندك، فاشتدّ سروري بذلك، وأكثرت حمد الله عليـه . فبارك الله فيه، وجعله بارًّا تقيًّا، يَشُدّ عَضُدَك، ويُكثر عَدَدَك، ويُقِرّ عينك .

وكتب إسحاق بن يحيى الى بعض إخوانه يهنئه بابنة له :

رُبَّ مكروهٍ أعقب مَسَرّة، ومحبوب أعقب مَعَرّة . وخالقُ المنفعة والمضرّة، أعلمُ بمواضع الخِيَرَة .

كتب ابن المقفع الى صديق له ولدت له جارية :

بارك الله لك في الأبنـة المستفادة ، وجعلها لكم زينـا ، وأجرى لكم بها خيرا ، فلا تكرهها؛ فإنهنّ الأمّهات والأخوات، والعمّات والخالات، ومنهنّ الباقيـات الصالحات؛ وربّ غلام ساء أهلَه بعد مَسَرّتهم، وربّ جارية فرّحت أهلها بعد مساءتهم .

وكتب عبد الحميد بن يحيى الى أخ له في مولود ولد له وهو أول مولود كان :

أمّا بعـد، فإن ممـا أعترف من مواهب الله، نعمةً خُصصتُ بمزيّتهـا، واصطفيتُ بخصّيصتها، كانت أمرّلي من هبة الله ولدا سميتُه فلانا، وأمّلتُ ببقائه بعدى حياةً وذكرى، وحُسن خلافتي في حُرَمي، وإشراكه إيّاي في دعائه، شافعا الى ربه عند خلواته في صلاته وحجّه ، وكلّ مَوطن من مواطن طاعته، فاذا نظرتُ الى شخصه تحرّك به وجدي وظهر به

سروري، وتعطّفت عليه منه أنه الولد، وتولّت عنّي به وَحْشة الوَحدة، فأنا به جَذِل في مَغيبي ومشهدي، أُحاول مسّ جسده بيدي في الظُّلَم، وتارة أُعانقه وأرشفُه، ليس يَعدِله عندي عظيات الفوائد، ولا منفسات الرغائب. سرّني به واهبه لي على حين حاجتي، فشدّ به أَزْري، وحمّلني من شكره فيه ما قد آدَني بثقل حمل النعم السالفة اليّ به، المقرونة سَرّاؤها في العجب بقدر ما يدركني به من رقّة الشفقة عليه، مخافة مجاذبة المنايا إياه، ووَجَلا من عواطف الأيام عليه. فأسأل الله الذي آمتنّ علينا بحسن صُنْعه في الأرحام، وتأديته بالزكاء، وحَرْسه بالعافية، أن يرزقنا شكر ما حَمَّلنا فيه وفي غيره، وأن يجعل ما يَهَب لنا من سلامته والمُدّة في عمره موصولا بالزيادة، معروفا بالعافية، محوطا من المكروه، فإنّه المنّان بالمواهب والواهب بالمنى، لا شريك له. حَمَلني على الكتاب اليك لعلم ما سُررتُ به علمي بحالك فيه وشركتك إياي في كل نعمة أسداها اليّ وليّ النعم. وأهل الشكر أولى بالمزيد من الله جلّ ذكره. والسلام عليك.

تهنئة بنقلة الى دار جديدة

تناهي اليّ نُقلتك الى الدار التي أرجو أن يجعلها الله نُقلة المكروه عنك، ونُقلة السرور اليك، ودوامَ نعمة الله عليك. جعلها الله لك أيمن دار وأعظمها بركة، ووصل نعمه فينا عندك ونعمه عندنا فيك.

تهنئة لمحمد بن مكرم الى نصراني أسلم

أنا أقول الحمد لله الذي وفّقك لشكره، وعرّفك هدايته، فطهّر من الآرتياب قلبك، ومن الآفتراء عليه لسانك. وما زالت مخايلك مُمَثّلة لنا جميل ما وَهَب الله لك، حتى كأنك لم تزل بالإسلام مَوْسوما، وإن كنت على غيره مقيما، وكنّا مؤمّلين لما صرتَ اليه، مشفقين لك مما كنتَ عليه، واذ كاد إشفاقنا يستعلي رجاءنا، أتت السعادة بما لم تزل الأنفس تعد منك. فأسأل الله الذي نوّر لك في رأيك وأضاء لك سبيل رُشْدك، أن يوفّقك لصالح العمل، وأن يؤتيك في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ويَقيكَ عذاب النار.

باب المنظـــــوم

١ – أبو نواس (١)

كان أبو نُوَاس ينادم ولدَ المهديّ ويلازمهم فلم يُلْفَ مع أحدٍ من النـاس غيرِهم ، ثم نادم القاسمَ بن الرشيد ولقى منه أشياءَ كرهها وكُرِهَتْ له ، ففارقه .

(١) هو أبو على الحسن بن هانئ ، الشاعر المتفنن ، الجاد الماجن ، صاحب الصيت الطائر ، والشعر السائر ، ورأس المحدثين بعد بشار . وهو فارسى الأصـل . ولد بقرية من كورة خوزستان سنة ١٤٥ هـ ونشأ يتيما فقدمت به أمه البصرة بعد سنتين من مولده ، فتعلم العربية ورغب فى الأدب ، فلم تعبأ أمه بحاله وأسلمته الى عطار بالبصرة ، فلبث عنده لا يفتر عن معاناة الشعر والاختـلاف الى الأدباء والمجان ، الى أن صادفه عند العطار والبة بن الحباب الشاعر الماجن الكوفى فى إحدى قدماته الى البصرة ، فأعجب كل منهما بالآخر ، فأخرجه والبـة معه الى الكوفة ، فبق معه ومع ندمائه من خلعاء الكوفة وتخرج عليهم فى الشعر وفاقهم جميعا . وقدم بغداد وقد أربت سـنه على الثلاثين ، فاتصل ببعض الأمراء ومدحهم ، وبلغ خبره الرشيد فأذن له فى مدحه ، فدحه بقصائد طنانة وحبسه مرة على هجوه مضر .

وكان يقصد بعض عمال الولايات ويمدحهم ومنهم الخصيب عامل مصر ، ثم انقطع الى مدح محمـد الأمين ، وثبت عنده بعض ما يوجب تعزيره فسجنه ، ولم يلبث بعد خروجه من السجن أن مات ببغداد .

وكان أبو نواس جميل الصورة ، فكه المحضر ، كثير الدعابة ، حاضر البديهة ، متينا فى اللغة والشعر والأدب ، متعصبا لليمانية على المضرية . وأجمع أكثر علماء الشعر ونقدته وفحول الشعراء على أن أبا نواس أشعر المحدثين بعد بشار وأكثرهم تفننا وأرصنهـم قولا وأبدعهم خيالا مع دقة لفظ وبديع معنى ، وأنه شاعر مطبوع برّز فى كل فن من فنون الشعر .

وامتاز عن كل الشعراء بقصائده الخمريات ومقطعاته المجونيات ، وكان شعره لقاح الفساد والقدوة السيئة ، لنقله الغزل من أوصاف المؤنث الى المذكر والخروج بذلك عن مألوف العرب وآدابهم إذ لم يكن ذلك معروفا قبـله وقبل شيطانه والبه . وزاد على ذلك انفراده بالإبداع فى وصف الخمر ، فكان نموذج سوء لمن تأخر ، فافتتن بشعره الشبان فى زمانه وبعـده وحاكوه وغلب عليهم هذا المذهب حتى صار الشاعر لا يعـد ظريفا إلا اذا مزج شعره بشىء من ذلك وإن لم يقع فى محظوراته .

ووصفه عبـد الله الجماز فقال : كان أظرف الناس منطقا ، وأغزرهم أدبا ، وأقدرهم على الكلام ، وأسرعهم جوابا ، وأكثرهم حياء ، وكان أبيض اللون ، جميـل الوجه ، مليح النغمة والاشارة ، ملتف الأعضاء بين الطويل والقصير ، مسنون الوجه ، قائم الأنف ، حسن العينين والمضحك ، حلو الصورة ، لطيف الكف والأطراف ، وكان فصيح اللسان ، جيد البيان ، عذب الألفاظ ، حلو الشمائل ، كثير النوادر ، وأعلم الناس كيف تكلمت العرب ، =

ثم جلَس أبو نواس الى الناشئ الراوية فقرأ عليه شـعرَ ذى الرُّمة، فأقبـل الناشئ على أبيه هانئ وقال له : إن عاش ابنُك هذا وقال الشعرَ لَيقُولَنّه بلسانٍ شَتُوم .

ثم اتصل بوَالِبَةَ بن الحُبَاب الأسـدىّ ، لقيـه بدار النَّجَاشِىّ الأسدىّ والى الأهواز للنصور، فقال له والبة: إنى أرى فيك مخايِلَ فلاح، وأرى أنك لا تضيعها، وستقول الشعر وتعلو فيه، فاصحَبْنى حتى أُخَرِّجك؛ فقال : ومن أنت؟ قال : أبو أُسَامةَ؛ قال: والبة؟ قال: نعم؛ قال: أنا والله جُعِلتُ فِداكَ فى طلبك، وقد أردتُ الخروجَ الى الكوفة والى بغدادَ من أجلك؛ قال: ولمـاذا ؟ قال؛ شهوةً للقائك ولأبياتٍ سمعتُها لك؛ قال : وما هى؟ فأنشده :

ولهـا ولا ذنبٌ لهـا * حبٌّ كأطرافِ الرِّماحِ
جرحتْ فؤادى بالهـوى * فالقلبُ مجروح النواحى
سلَّ الخليفــةُ صـارمًا * هو للفساد وللصـــلاحِ
أجـداه كفُّ أبى الوليـــ * ـــد يداً مُبَـارِيةَ الرياحِ
ألــقِ بجـانب خَصْره * أمضَى من الأجل المُتَاحِ
وكـأ نمـا ذَرّ الهبـا * ءَ عليـه أنفـاسُ الرياحِ

فمضى معه، ثم سأله أن يخرج الى البادية مع وفد بنى أسد ليتعلم العربية والغريب، فأخرجه مع قوم منهم، فأقام بالبادية سنةً؛ ثم قدم ففارق والبةَ ورجع الى بغداد .

وكان أبو نواس متكلما جَدِلًا راوية خلا، رقيقَ الطبع ثابت الفهم فى الكلام اللطيف. ويدل على معرفته بالكلام أشياءُ من شعره، منها قوله :

وذاتِ خــدٍ مــورَّدْ * فِضِّيَّـــة المتجــرَّدْ
تأمّل العينُ منهـا * محاسـنًا ليس تنفَــدْ

= راوية للأشعار ، علامة بالأخبار ، كأن كلامه شعر موزون . توفى سنة ١٩٩ هـ . وتجد ترجمته وأخباره وأشعاره فى كتاب خاص باسم « أخبار أبى نواس » لابن منظور طبع مصر سنة ١٩٢٤ والأغانى (ج ١٨ ص ٢) و(ج ٦ ص ١١٠ ، ١٧٠ ، ١٨٦) و(ج ١٦ ص ١٤٨) وابن خلكان (ج ١ ص ١٣٥) وطبقات الادباء (ص ٩٦) والشعر والشعراء (ص ٥٠١) والفهرست (ص ١٦٠) والعقد الفريد (ج ٣ ص ٣٣٧) .

فبعضــه قد تنــاهى * وبعضــه يتــولّد
والحسن فى كل شىء * منهــا مُعــاد مردّد

ومنها قــوله :

يا عاقدَ القلب عــنّى * هــلا تذكرتَ حلَّا
تركتَ غنّى قليــلًا * من القليــل أقلَّا
يكاد لا يتجــزَّى * أقــلَّ فى اللفظ مِنْ لا

ومنها قوله فى آمرأة آسمها حُسْن :

ان اسم حُسْنٍ لوجهها صفــةٌ * ولا أَرَى ذا فى غيرها جُمِعَــا
فهى اذا سُمِّيت فقد وُصِفتْ * فيجمعُ الإسم معنيينِ معَا

ومن قوله فيما يتعلق بالحكمة :

قــل لزُهَير اذا حدَا رشَــدًا * أقلِلْ أوَ آكثِرْ فأنت مِهْــذارُ
سَخُنْتَ من شــدّة البرودة حــتّى * صرتَ عنــدى كأنّك النارُ
لا يعجَبِ السامعون من صفتى * كذلك الثلجُ باردٌ حارُ

هذا شىء أخذه أبو نواس من مذهب حكماء الهند، فانهم يقولون: إن الشىء اذا أفرط فى البرودة انقلب حاراً، وقالوا: إن الصَّنْدل يحكّ منه اليسير فيبرد، فاذا أكثر منه سخن .

قالوا : كان أبو نواس دعيًّا يخلط فى دعوته . فمن ذلك قوله يهجو عربَ البَصْرة :

ألا كل بصرىّ يرى أنمــا العُلا * مُكَمَّهَة سُحْــقٌ لهنّ جَرِينُ[1]
فان تغرسُــوا نخلًا فان غِرَاسَنا * ضِرابٌ وطعنٌ فى النحور سَخِينُ
فان أكُ بصريًّا فإن مُهــاجَرى * دِمَشْقُ ولكنّ الحــديثَ فنونُ
مجاورَ قوم ليس بيــنى و بينهم * أواصرُ إلا دعــوةٌ وظنــونُ
اذا مادعا باسمِى العريف أجبتُه * الى دعــوة ممــا علىّ تَهُون

(١) المكهة : الفراس الكثيرة . والسحق : الطويلة، يريد النخل . والجرين هنا : موضع تجفيف التمر .

ثم هجا اليمن فى هذه القصيدة بقوله :

لأزْد عُمَـانٍ بالمهلّب نَزوةٌ * اذا افتخر الأقـوام ثمّ تلينُ
وبكر ترى أن النبـوّةَ أُنزلَت * على مِسْمَعٍ فى الرَّحْم وهو جنينُ
وقالت تميمٌ لا نرى أن واحدا * كأحنفنا حتّى الممـاتِ يكونُ
فـما لُمتُ قيسًا بعدها فى قُتيبة * ونخـرٍ به إن الفخار فنونُ

وإنما نشأ أبو نواس بالبصرة وليس له بدمشق قبلٌ ولا بعدٌ .

ومما هجا به اليمَنَ أيضا قوله لهاشم بن حُديج :

وردنا عـلى هاشم مصرَهُ * فبـارت تجارتنـا عِنـدَهْ

يقـول فيها :

رأيتـك عنـد حضور الخوا * ن شديدا على العبد والعبـده
وتحتـدُّ حتى يخـافَ الجليُ * ـس شَذاك عليـه من الحدّه
وتختـم ذاك بفخرٍ عليـه * بكِنْدةَ فاسلَخْ على كنده
فإن حُديجـا له هجـرةٌ * ولكنّهـا زمنَ الردّه
وما كان إيمـانكم بالرسول * سـوى قتلكم صهره بعـدَه
تعُـدّونهـا فى مسـاعيكمُ * كعدّ الأهـلّة معتـدّه
وما كان قاتـلُه فى الرجال * بجمل لطهـر ولا رِشـده
فلو شهـدته قـريشُ البطا * ح لمـا محَشت نارُكم جِـلدَه (١)

وقوله أيضـا :

ما منك سلمى ولا أطلالهـا الدُّرُسُ * ولا نواطـقُ من طـير ولا خُرُسُ
يا هاشمُ بنَ حـديج لو عددتَ أبا * مثـلَ القَلَمّس لم يعلَق بك الدّنَس
إذ أصـبح الملكُ النعمانُ وافـدَه * ومن قُضاعَة أَسْرى عنـده حُبُس

(١) المحش : قشر الجلد عن اللحم .

فابتاعهم بإخاء الدهـــر ما عمِـــروا * فلم ينل مثلَها من مثلهـــم أَنَسُ
أو رحت مثـــلَ حُوَىٍّ فى مكارمه * هيهات منـــك حُوَىّ حين يلتمس
أو كالسَّـــموءل اذ طاف الهمام به * فى جحفل لجب الأصوات يرتجس
فاختار ثُكْلًا ولم يَغْـــدِرْ بذمتـــه * إذ قيل أشرف تر الأوداجَ تنبجسُ
ما زاد ذاك على تيـــهٍ خُصِصتَ به * وكيف يَعْـــدِل غيرَ السوءة الغَرَسُ

وقـــوله :

يا هاشمُ بنَ حُدَيج ليس فخـــرُكمُ * بقتل صهرِ رسول الله بالسَّـــدَدِ
أدرجتمُ فى إهاب العَـــيْرِ جثتَـــه * فبئسَ ما قدَّمتْ أيديكُم لغـــدِ
إن تقتلوا ابنَ أبى بكر فقـــد قَتَلتْ * حُجْرًا بدارة مَلْحوبٍ بنو أســـدِ
وطـــرَّدوكم الى الأجبال من أَجَأٍ * طردَ النَّعام اذا ما تاه فى البـــلدِ
وقد أصـــاب شَرَاحيلا أبو حَنَشٍ * يومَ الكُلاب فما دافعـــتمُ بيدِ
و يوم قلـــتم لزيدٍ وهو يقتلكـــم * قتل الكلاب لقد أبرحتَ من ولدِ
وكلّ كِنْديّةٍ قالت لجـــارتهـــا * والدمعُ ينهلّ من مَثْنى ومنفـــردِ
أَلْهَى امرأَ القيس تشبيبٌ بغانية * عن ثأره وصـــفاتُ النُّوْء والوتدِ

وقد رثى أبو نواس خَلَفًا الأحمرَ بعد موته بقصائدَ من شعره، منها قصيدتُه التى أوّلها قـــوله :

لو كانَ حىٌّ وائـــلًا(١) من التَّلَفْ * لو ألتْ شَـــغْواءُ فى أعلى شَعَفْ
أمّ فُـــرَيخٍ أحرزتْه فى لجَفْ(٢) * مُزَغَّبَ الألْغادِ لم يأكلْ بكفّ
كأنه مستقعِدٌ من الخَـــزَفْ * هاتيـــك أو عَصْماء فى أعلى شرفْ
تَرُوغ فى الطُّبَّاقِ(٣) والنَّزْع الألفْ * أَوْدَى جِمَاعُ العلم مُذْ أودَى خَلَفْ

---

(١) وائلا : ناجيا . ووألت : لجأت . والشغواء : العقاب . والشعف : رءوس الجبال .

(٢) اللجف : الغار فى الجبل . ومزغب : صار ذا زغب، والزغب صـــغار الريش . والألغاد جمع لغد بالضم وهو لحمة فى الحلق .   (٣) الطباق والنزع : نوعان من الشجر .

من لا يَعُدّ العلمَ إلا ما عرَف * قَلَيْذَمٌ (١) من العَيالِمِ الخُسُف

كَلَّا متى نشاءُ منه نغترِفْ * روايةً لا تُجتنى من الصحف

ومنها قوله يرثيه :

لا تَئِلُ العُصْمُ فى الهضاب ولا * شَغواء تَغذُو فرخَين فى لَجَف

يُكِنُّها الجوُّ فى النهار ويُؤ * ويها سَوادُ الدُّجَى الى شَرَف

تحنو بجُؤْشُوشِها (٢) على ضَرِم * كقِعْدة المنحنِي من الحَرَف

ولا شَبُوبٌ (٣) باتتْ تؤرّقه النَّثْرةُ منها بوابِلٍ قَصِف

دانٍ على الأرضِ والوَصيد وفى * بَهْوٍ أمينِ الإيادِ ذى هَدَف (٤)

ديدنُه ذاك طولَ ليلته * حتى اذا انجاب حاجبُ السَّدَف

غدا كوَقْف الهَلُوك ينهفتُ الـ * ـقِطْقِط (٥) من مَنْبِتيه والكَتِف

كأن شَذْرًا وهتْ معاقدُه * بين صَلاه فملعَب الشَّنَف

وأخدرىٌّ صُلْب النَّواهق صَلْـ * ـصالٍ أمينِ الفُصُوص والوُظُف

منفرد فى الفَلاة تُوسِعه * ريًّا وما يَختليه من عَلَف

ما ترك الموت من أولى شَبَحًا * بادتْ بتلك القِلال و الشَّعَف

لما رأيتُ المنونَ آخذةً * كلَّ شديدٍ وكلَّ ذى ضَعَف

بتُّ أُعزِّى الفؤادَ عن خَلَف * وبات دمعى ألا يفض يكِف

أنسى الرَّزايا ميتٌ فُجِعتُ به * أمسى رهينَ التُّراب فى جَدَف

---

(١) القليذم : البئر الغزيرة . والعياليم : جمع عيلم وهو البئر الكثيرة الماء . والخسف جمع خسيفة وهى البئر التى حفرت فى حجارة فنبع منها ماء غزير لا ينقطع .

(٢) الجؤشوش : الصدر . والضرم : فرخ العقاب .

(٣) الشبوب : الشاب من الثيران والغنم . والنثرة : منزلة من منازل القمر .

(٤) الوصيد : بيت كالحظيرة يتخذ من الحجارة للمال أى الغنم وغيرها فى الجبال . والإياد : التراب يجعل حول الحوض أو الخباء يقوى به أو يمنع ماء المطر . والهدف : كل مرتفع من بناء أو كثيب رمل أو جبل .

(٥) ينهفت : يتساقط ويتخفض . والقطقط : المطر الصغير أو المتتابع العظيم القطر وقيل هو دون الرذاذ وقيل البرد أو صغاره .

كان يُسَـــنِّى[1] بِرِفقـــه غُلُقًا * فى غـــيرِ عِيٍّ منـــه ولا عُنُف
يجوبُ عنـــك التى غُشِيتَ بهـــا * من قبـــلُ حتى يَشفيك فى لَطَف
لايبهـــم الحاءَ فى القـــراءة بالخا * ء ولا لامَهـــا مـــع الألـــف
ولا يُعَـــمِّى معـــنى الكلام ولا * يكون إنشادُه عن الصُّحُف
وكان ممن مضى لنـــا خَلَفـــا * فليس منه إذ بان من خَلَف

واختلف أبو نواس الى أبى زيد فكتب الغريب من الألفاظ، ثم نَظَر فى نحو سيبويه، ثم طلب الحديث فكتب عن عبد الواحد بن زياد ويحيى القطان وأزهر السَّمّان وغيرهم، فلم يتخلّف عن أحد منهم، وأدرك الناس فعلم، ثم قدم بغداد بعد ذلك .

وكان أيضا يَتَنَزَّر ويُدعى للفرزدق . ثم وقع بينه وبين الحكم بن قَنْبَر المـازنى، فهجاه الحكم وذكر بَرْبَه العودَ وبَغَى عليـــه ونَكَبه . ولمـا قال أبو نواس قصيدته التى يهجو بهـا خِنْدِف، وهى :

أَلم تَربَعْ عـــلى الطَّلَل الطَّاس[2] * عَفَـاه كل أسحم ذى ارتجاس
وذارِى التُّرب مُرْتكِمٍ حَصَـاه * نسيج المِيث مِعْتَقَـة الدَّهَاس[3]
ســـوى سُفْع أعارتها الليـالى * سوادَ الليل من بعد اْغبساس[4]
وأورقَ حالف المَثْـــواةَ هابٍ * كضاوىّ الفراخ من الهُلاس[5]
منازلُ من عُفَـــيْرَة أو سُلَيْمى * أو الدهماء أختِ بنى الحَماس
كأنّ معاقـــدَ الأوضاح منهـــا * بجيـــدِ أغنَّ تُوم فى الكِنَاس
وتَبْسِمُ عن أغرّ كأنّ فيـــه * مُجاجَ سُـــلافة من بيت راس[6]
فمَنْ ذا مبلغٌ عمـــرًا رســـولًا * فقـــد ذَكَّرْتَ وُدَّكَ غيرَ ناس

---

(١) سناه تسنية : سهله وفتحه . (٢) طاس بالكسر : دارس . والأسحم : السحاب . والارتجاس : الرعد . (٣) المعتقة : حبل فى الرمل .
(٤) الاغبساس : بياض فيه كدرة . والسفع : يريد بها الأثافى . (٥) الهلاس : الضمور وهاب : لونه لون الهباء . (٦) بلدة بالشأم تنسب اليها الخمر .

فلم أهجُرك هجـــرقلّى ولكن * نوائبُ لا تزالُ لهـا تُقـاسى
نوائبُ تعجـــزُ الأدباءُ عنهـا * ويَعْيَا دونَهـا اللقن النِّطاسى
وقد نالحتُ عن أحسابِ قومٍ * هُمُ وَرَثوا مكارمَ ذِى نُوَاس
فإن تكُ أُوقدتْ للحـــرب نارٌ * فما غَطَّيتُ خوفَ الحرب راسى
سأُبلِى خـــيرَ ما أبلَى مُحَـامٍ * اذا ما النَّبْـــل أُلحِمَ بالقياس (١)
وسَمتُ الوائلِينَ بفاقِراتٍ * بهنّ وسَمْتُ رهطَ أبى فِرَاس
وقالت كاهــلٌ وبنـــو قُعَيْنٍ * حَنَـانَكَ إننـا لسنا بنـاس
فما بالُ النِّعاج ثَغَتْ بِشَتْمِى * وفى زَمَعَاتِهن دمُ الفـــراس
وما حامتْ عن الأحساب إلا * لـــترفع ذكرَها بأبى نواس

عارضه الحكم وهجاه، فانقلب على النِّزارية وادّعى أنه من حاء وحكم؛ فزجره يزيد بن منصور الحميرىّ خال المهدى وقال له: أنت خوزى، فمالك ولحاء وحكم! فقال له: أنا مولًى لهم، فتركوه، وقال بعضهم لبعض: إنه لظريف اللسان غزير العلوم فدعوه، وبهذا الولاء يتعصَّب لنا و يكايد عنا ويهجو النزاريَّة؛ فكان كما قالوا وكما ظنوا، فانقلب الى اليمن وعَدَل عن كنيته بأبى فراس واكتنى بأبى نواس، تشبُّها بكنية ذى نُوَاس كما كانت اليمن تكتنى، وندم على هجاء اليمن، ووجدَهم له أنصرَ ولدعوته أقبلَ، فاعتذر الى هاشم بن حُديج الكندى من هجائه، ومدَح اليمن فقال:

أهاشمُ خذْ منّى رضاكَ وإن أَتَى * رضاكَ على نفسى فغـــيرُ ملُوم
فأُقسمُ ما جاوزتُ بالشتم والدِى * وعِرضى وما مزّقتُ غيرَ أديمى
فعُـــذتُ بحَقْوَىْ هاشمٍ فأعاذنى * كريمٌ أراه فـــوقَ كلّ كريم
وإنّ آمرأً أَغْضَى على مثلِ زَلّتِى * وإن جَرحتْ فيــه لجَـــدٌّ حليم
تطاولَ فوقَ النـاس حتّى كأنّمـا * يَرونَ به نجمـا أمامَ نجـــوم

(١) جمع قوس.

اذا آمتازتِ الأحسابُ يوما بأهلها * أناخَ الى عاديّــةٍ وصَمِـيم
الى كلّ مَعصُوبٍ به التّاجُ مِقوَلٍ * اليــه أيادى عامرٍ وتَمِـيم

وكان قبل أن ينتمِى لليمن ويدعَى لنزار يتعاجم فى شعره، فمن ذلك قوله :

فاسقنيها وغنِّ صَو * تًا، لك الخـيرُ، أعجما
ليس فى نعتِ دِمْنــةٍ * لا ولا زَجْـر أشأما

وكان الجاحظ يقول : ما أعرف لأبى نواس شعرا يفضُل هذه القصيدة وهى :

ودارِ نَدامَى عطّلوها وأدلَجــوا * بهــا أثرٌ منهــم جديدٌ ودارسُ
مَساحِبُ من جرّ الزِّقاق على الثّرى * وأضغاثُ ريحانٍ جـنىٌّ ويابسُ
حبستُ بها صَحبِى فجدّدتُ عهدَهم * وإنّى عــلَى أمثال تلك لحابسُ
ولم أدر منهم غيرَ ما شهِــدتْ به * بشَرقىّ ساباطَ الديارُ البسابسُ
أقمنــا بهــا يومًا ويوما وثالثــا * ويوما له يومُ الــترحُّل خامسُ
تُــدار علينــا الراحُ فى عَسجديّة * حَبَتهــا بأنواع التّصــاوِير فارس
قَرارتُهــا كسرَى وفى جَنباتها * مَهًا تدَّريها بالقِسىّ الفــوارسُ
فللخمر ما زُرّت عليــه جُيوبُها (١) * وللمــاء ما دارتْ عليــه القَلانسُ

وقوله يصف كَرمة وعبّر عنها بالهَجْمة وهو يريد الدِّنان :

لنــا هَجمةٌ لا يُدرك الذئبُ سَخلَها * ولا راعَها زَوُ الفِحالة والخطـــر
اذا امتُحنت ألوانُها مالَ صفوُها * الى الكُمْت إلا أن أوبارَها خُضرُ
وإن قام فيها الحالبون أتقتهمُ * بنَجــلاء ثقب الجوف دِرّتُها الخمرُ
مَسارحها الغربىُّ من نهر صَرصَر * فقُطْــرَ بُلٌّ فالصّالحيّــةُ فالعَقْــرُ

(١) يعنى أن الخمر مصبوب فيها الى حلوق الصور صرفا . وقوله : وللمـاء، يعنى انهم صبوا المـاء فى مزجها حتى علا رءوسها .

تُراثُ أبى ساسانَ كسرى ولم تكن * مواريثَ ما أبقت تميمٌ ولا بكر
قَصرتُ بها ليلى وليلَ ابنِ حُرّة * له حسبٌ زاكٍ وليس له وَفرُ

وفى تَعاجُم أبى نواس فى شعره يقول الرقاشىّ يهجوه :

نَبَطىّ فاذا قيل له * أنت مولَى حَكَمٍ قال أجَل
هو مولَى الله اذ كان به * لاحقًا فالله أعلَى وأجلّ
واضعا نسبتَه حيثُ اشتهىَ * فاذا ما رابَه ريبٌ رَحَل

فقال أبو نواس يهجوه :

هجوتُ الفضلَ دهرى وهو عندى * رَقَاشىٌّ كما زعم المسولُ
فلما سُوئلتْ عنه رقَاشٌ * لنعلم ما تقول وما يقول
ولمّا أن نَصَصناه اليها * لتعلم ما يُقال وما نقولُ
وجدنا الفضلَ أبعدَ من رقاش * من الأُتُن ادّعت فيها الفُيول
وجدنا الفضلَ أكرمَ من رقاش * لأنّ الفضلَ مولاه الرسولُ

يريد بذلك قولَه صلّى الله عليه وسلّم : «أنا مولَى من لا مولَى له» .

وقال أيضا يهجوه :

قل للرّقاشىّ اذا جئتَه * لو متَّ يا أحمقُ لم اهجُكا
لأنّنى أكرِم عِرْضى ولا * أقرُنه يومًا الى عِرْضكا
إن تهجُنى تَهْجُ فتى ماجدا * لا يرفع الطَّرْفَ الى مثلكا
دونَك عِرضى فاهجُه راشدًا * لا تَدْنَس الأعراضُ من هجوكَا
والله لو كنتُ جريرًا لما * كنتُ بأهجى لك من أصلكا

وقال أيضا يهجوه :

يا عربيًّا من صَنْعة السُّوقِ * وصنعةُ السُّوق ذاتُ تشقيق
ما رأيكم يانزارُ فى رجل * يدخُل فيكم من خَلْق مخلوق

ويحمـل الوَطْبَ والعِـلابَ ولا * يصـلُح إلّا لحمـلِ إبريق
لقد ضربنـا بالطبـل أنك فى الـ * ـقوم صحيـحٌ وصِيَح فى البُـوق
قـد أخذ اللهُ من رقَاش على * تركهمُ المجـدَ بالمواثيـق
فالناس يسعَون للعلا قُـدُمًا * وهم وراءً مكسَّرو السُّوق
هـذا كذا كم وفى الهيَـاج اذا * هيجَ فما شئتَ من بوَاشيق (١)

وقال أيضا يهجوه :

أصبح الفضـلُ ظاهرَ التِّيهِ * وذاك مذ صِرتُ أُهاجيـهِ
لله شـعرى، أىّ مفـوَاهةٍ * لكلّ من دونى قوافيـهِ
كم بين فضلٍ منذ هاجيتُه * وبينَـه قبـلَ أُهاجيـهِ
فالحمـد لله وإن كنتُ لم * أحفِـلْ بقومٍ نَصَحوا فيـه
رَضيتُ أن يشـتمنى ساقطٌ * شِسْعِىَ خيرٌ من مَواليـه

وكان أبو نواس فى دعاويه يتماجَنُ ويعبَث ويُخفى نسبه واسمَ أمّه لئلا يُهْجَى ، وذلك مشهور عنه . ولو غضب هو نفسه على أبيه لهجاه ولم يَحْتشِم. والمذكور من أمره أنه كان مولى الحَكَميّين، يفتخر باليمن ويمدحهم لذلك، ويمدح العجم ويذكرهم لأنه منهم، فلذلك قال فى العجم ما قال.

قال ابو الفرج الأصفهانى : كان أبو عُبَيدة يقول : ذهبتِ اليمنُ بجِدّ الشعر وهزله : امرؤ القيس بجدّه ، وأبو نواس بهزْله . وكان يقول : ذهبت اليمنُ بجيـد الشعر فى قديمه وحديثـه : امرؤ القيس فى الأوائل، وأبو نواس فى المَحدثين. وكان يقول : شعراء اليمن ثلاثة : امرؤ القيس وحَسّان بن ثابت وأبو نُوَاس . وقال أيضـا : أبو نواس فى المحدثين مثل امرئ القيس فى المتقدمين ، فتحَ لهم هـذه الفِطَنَ ودلّهم على المعـانى وأرشدهم الى طريق الأدب والتصرف فى فنونه . وكان يقول : يعجبنى من شعر أبى نواس قوله :

(١) جمع باشق وهو اسم طائر، أعجمى معرّب .

بَنَينا على كسرى سماءَ مُدامةٍ * مكلّلة حافاتُها بنجوم
فلو رُدّ فى كسرى بن سَاسَان روحُه * إذًا لاصطفانى دونَ كل نديم

وسئل يعقوب بن السِّكّيت عما يختار روايتَه من أشعار الشعراء، فقال: اذا أردت من الجاهليين فلامرئ القيس والأعشى، ومن الإسلاميين فلجَرِير والفرزدق، ومن المحدَثين فلأبى نواس فحَسْبُ. وقيل: للعُتْبِي من أَشْعَرُ الناس؟ قال: عند الناسِ أم عندى؟ قيل عند الناس؟ قال: امرؤ القيس؛ قيل: فعندكَ؟ قال: أبو نواس.

وقال عبد الله بن محمد بن عائشة: من طلب الأدب فلم يَرْوِ شعرَ أبى نواس فليس بتامّ الأدب. وسئل: من أشعرُ المحدَثين؟ فقال: الذى يقول:

كأنّ ثيابَه أطلعـ * ـن من أزراره قمرَا
يزيدك وجهُه حسنًا * اذا ما زدتَه نظرا
بعين خالط التفتيـ * ـرُ من أجفانها الحوَرا
ووجهٍ سابِرِىٍّ لـو * تصوَّب ماؤه قطَرا
وقد خطّت حواضنُه * له من عنبرٍ طُرَرَا

وقال ابراهيم بن العباس الطويل: اذا رأيت الرجلَ يحفظ شعر أبى نواس علمت أن ذلك عنوانُ أدبه ورائدُ ظَرْفه.

وكان أبو نواس يقول عن نفسه: سَفُلْتُ عن طبقة من تقدّمنى من الشعراء وعلوت عن طبقة مَنْ معى ومن يجىء بعدى، فأنا نسيجُ وَحْدِى.

وحدّث جماعة من الرواة ممن شاهد أبا نواس قالوا: كان أقلُّ ما فى أبى نواس قولَ الشعر، وكان فحلا راويةً عالما.

وقال أبو عبيدة: بلغنى أن أبا نواس يتعاطى قَرْضَ الشعر فتلقّانى وهو سكرانُ ماطَرٌّ شاربُه بعدُ، فقلت له: كيف فلان عندك؟ فقال: ثقيلُ الظل، جامد النسيم؛ فقلت: زِدْ؛ فقال: مظلم الهواء، منتنُ الفناء، فقلت: زد، فقال: غليظ الطبع، بارد الشكل،

قلت : زد ، فقال : وَخْم الطَّلعة، عَسِر القَلْعة، قلت : زد، قال : نَاتِئُ الجَنَبات ، بارد الحركات، قال : خَفِّفْتُ عنـه ، فقال : زدنى سؤالا، أزدْك جوابا، فقلت : «كفى من القلادةِ ما أحاط بالعنق» .

وقال سليمان بن أبى سَهْل لأبى نواس : ما الذى استُجيد من أجناس شعرك ؟ فقال : أشعارى فى الخمر لم يُقَل مثلُها، وأشعارى فى الغزل فوق أشعار الناس، وهما أجود شعرى إن لم يزاحم غزلى ما قلته فى الطَّرْد .

وكان يقول : ما قلت الشعر حتى رَوَيتُ لستين امرأة من العرب منهن الخَنْساء وليلى، فما ظنك بالرجال ؟ وانى لأروى سبعمائة أُرْجوزة ما تُعرف .

وكان قد استأذن خَلَفًا فى نظم الشعر،فقال: لا آذَنُ لك فى عمل الشعر إلا أن تحفظَ ألفَ مقطوع للعرب ما بين أرجوزة وقصيدة ومَقْطوعة ، فغاب عنه مدةً وحضر اليه فقال له :قد حفظتُها، فقال : أنشدْها، فأنشده أكثرَها فى عدة أيام، ثم سأله أن يأذن له فى نَظْم الشعر، فقال له :لا آذنُ لك إلا أن تنسى هذه الألفَ أرجوزة كأنك لم تحفظْها، فقال له : هذا أمر يصعُب علىّ فإنى قد أتقنت حفظَها،فقال له :لا آذن لكَ إلا أن تنساها،فذهب الى بعض الدِّيرة وخلا بنفسه وأقام مدة حتى نسيها ، ثم حضر فقال : قد نسيتُها حتى كأنْ لم أكن قد حفظتُها قطّ، فقال له : الان فانظم الشعر .

وكان أبو نواس يقول : لا أكاد أقول شعرًا جيِّدا حتى تكون نفسى طيبة، وأكونَ فى بستان مونق، وعلى حال أرتضيها من صلةٍ أُوصَل بها أو وعدٍ بصلة، وقد قلت وأنا على غير هذه الحال أشعارًا لا أرضاها.وكان يعمل القصيدة ثم يتركها أياما، ثم يَعرِضها على نفسه فيُسْقِط كثيرًا منها و يترك صافيَها ، ولا يسرُّه كلُّ ما يَقْذف به خاطرُه . وكان يهمُّه الشعرُ فى الخمر فلا يعمله إلا فى وقت نشاطه . ولم يكن فى الشـعر بالبطىء ولا بالسريع بل كان فى منزلة وُسْطَى .

وكان الأصمعي يقول : يعجبنى من شعر الشاعر بيتٌ واحد قد أجاد قائلُه وهو :

ضعيفَةُ كَرِّ الطَّرْف تحسَب أنها * قريبةُ عهدٍ بالإفاقة من سُقْمِ
وإنّى لآتِى الأمرَ من حيث يُتَّقَى * ويعلَم سَهْمِى حينَ أَنْزِع مَنْ أَرْمِى

قال العَتَّابىّ لرجلين تناظرا فى شعر أبى نواس : والله لو أدرك الخبيثُ الجاهليةَ ما فُضِّل عليه أحد .

وقال أبو عمرو الشَّيْبانى : أشعرُ الناس فى وصف الخمر ثلاثة : الأَعْشى والأَخْطل وأبو نُوَاس .

قال محمد بن عمر : لم يكن شاعرٌ فى عصر أبى نواس إلا وهو يحسُده لميل الناس اليه وشهوتهم لمعاشرته، وبُعْدِ صِيتِه وظَرْف لسانه .

وقال أبو حاتم : سئل أبو نواس عن شعره فقال : اذا أردتُ أن أَجِدَّ ، قلتُ مثل قصيدى « أيُّها المنتابُ عن عُفُرِهْ » ، واذا أردت العبثَ قلت مثل قصيدى : « طاب الهوى لعميده » ، فأما الذى أنا فيه وحدى وكلُّه جيدٌ فاذا وصفت الخمر .

وقال أبو ذَكْوانَ : كنا عند التَّوَّزِىّ فذكرتُ عنده أبا نواس ، فوضع منه بعضُ الحاضرين ؛ فقال له التوزى : أتقول هذا لرجل يقول :

يخافُه الناسُ ويَرْجُونه * كأنه الجنةُ والنارُ

ويقول :

فما جازه جودٌ ولا حلّ دونَه * ولكن يصير الجودُ حيث يصيرُ

ويقول :

فتَمَشَّتْ فى مَفَاصلهمْ * كتَمَشِّى البُرْءِ فى السَّقَمِ

قال ابن الأعرابى يوما لجلسائه : ما أشعرُ ما قال أبو نواس فى الخمر؟ فقال بعضهم :

اذا عَبّ فيها شاربُ القومِ خلتَه * يُقَبِّل فى داجٍ من الليل كوكبا

وقال آخر :

كأن كُبْرَى وصُغْرَى من فَقَاقعها * حصباءُ دُرٍّ على أرضٍ من الذَّهَبِ

وقال آخر :

تَرَى حيث ما كانتْ من البيت مَشْرِقاً * وما لم تكن فيـــه من البيت مَغرِبا

وقال آخر :

فكأنّ الكؤوسَ فينا نجومٌ * دائراتٌ بروجُها أيدينــا

وقال آخر :

صفراءُ لا تنزلُ الاحزانُ ساحتَهــا * لـــو مَسَّها حَجَـــرٌ مسته سَرّاءُ

فقال ابن الأعرابى : إن هــذا كله لشاعر انفرد بالإحسان فيه ، وتقدّم من سبقه ومن تأخر عنه، ولكنه أشعر من هذا كله فى قوله :

لا ينزلُ الليـــلُ حيث حَلّتْ * فـــدهرُ شُـــرّابهــا نهــارُ

قال مسلم بن بهرام : لَقِيتُ أبا العَتاهِيَةِ فقلت له : من أشعرُ النــاس ؟ قال : تريد جاهليًّا أو إسلاميًّا أو مولّدها ؟ قال : كُلًّا أُريد، قال : الذى يقول فى المديح :

اذا نحن أثنينــا عليــك بصــالحٍ * فأنت كما نُثْنى وفـــوق الذى نُثْنى

وإن جرَتِ الألفاظُ يومًا بمدحةٍ * لغـــيرك إنساناً فأنت الذى نَعني

والذى يقول فى الزهد :

ألا ربّ وجهٍ فى التُّراب عَتِيـــقِ * ويارُبّ حُسْنٍ فى التراب رقيـــقِ

ويارُبّ حزمٍ فى التراب ونَجْـــدةٍ * ويارُبّ رأيٍ فى التراب وَثِيـــقِ

فقـــل لقريب الدار إنك راحلٌ * الى منزلٍ نائى المَحَـــلّ سَحيـــقِ

وما النــاسُ إلا هالكٌ وابنُ هالكٍ * وذُو نَسَبٍ فى الهـالكين عريقِ

اذا امتحن الدنيا لَبِيبٌ تَكَشّفتْ * له عن عدوٍّ فى ثيــاب صـــديقِ

وكان يقول : سبقني أبو نواس الى ثلاثة أبيات وَددتُ أني سبقته اليها بكل ما قلتــه فإنه أشعر الناس فيها، منها قوله :

يا كبيرَ الذّنب عفوُ اللّـ * ـه من ذنبــك أكبرْ

وقـــوله :

مَنْ لم يكن لله متّهما * لم يُمْسِ محتــاجًا الى أحَدِ

وقـــوله :

اذا آمتحن الدنيا لبيبٌ تكشّفتْ * له عن عدوٍّ في ثيــاب صــديقِ

ثم قال : قلت في الزهد ستة عشر ألف بيت وَددتُ أن أبا نواس له ثلثُها بهذه الأبيات .

وقال الجاحظ : سمعت النَّظَّام يقول ، وقد أنشد شعرًا لأبي نواس : كأن هذا الفتى جُمِـع له الكلامُ فاختار أحسنَه . وقال بعضهم : كأن المعانى حُبِستْ عليه، فأخذ حاجتَه وفَرّق الباقي على النــاس . وقال أبو حاتم : كانت المعانى مدفونة حتى أثارها أبو نواس .

حدّث الحسين بن الخصيب الكاتب، قال : قال أحمد بن يوسف الكاتب : كنتُ أنا وعبــدُ الله بن طاهر عند المأمون، وهو مستلقٍ على قفاه، فقال لعبــد الله بن طاهر : يا أبا العباس، مَنْ أشعرُ مَنْ قال الشعر في خلافة بني هاشم ؟ فقال : أميرُ المؤمنين أعرفُ بهــذا وأعلى عينا ، فقال له المأمون : على ذلك فَقُــلْ ، تكلم أنت يا أحمــد بن يوسف، فقال عبد الله بن طاهر : أشعرُهم الذي يقول :

ويا قبرَ معنٍ كنت أوّلَ حُفْرة * من الأرض خُطّت للسّماحة منزلا

قال أحمد بن يوسف الكاتب : فقلت : بل أشعرُهم الذي يقول :

أَشْبهتِ أعدائى فصرتُ أُحِبُّهــمْ * إذ كان حَظِّي منــك حَظِّي منهُمُ

فقال المأمون : يا أحمد أبيتَ إلا غَزَلا ! أين أنتم عن الذي يقول :

يا شقيقَ النّفْس من حَكَمِ * نِمْتَ عن ليْــلِي ولم أنَمِ

فقلنا : صدقتَ يا أمير المؤمنين .

وكان المأمون يقول : لو سُئلت الدنيا عن نفسها فنطقت ، لما وصفتْ نفسَها كما وصفها أبو نواس فى قوله :

اذا امتحن الدنيا لبيبٌ تَكَشّفتْ * له عن عدوٍّ فى ثياب صـــديق

وَرَد على العتابى بحَلَب عِدّةٌ من الكِبَار من أهل قِنَّسْرِين،فدخلوا وسَلّموا، وكان فى يده رُقْعـة ينظر اليها، فقال لهم : لقد سَلَكَ صاحبُ هـذه الرُّقعة وادياً ما سلكه أحدٌ قبله ؛ فنظروا فاذا هو شعر أبى نواس فى جِنان جارية آل عبد الوهّاب الثقفىّ، وهو قوله :

رَبْعُ الكَرَى بين الجفـون مُحِيــلُ * عَفّى عليـه بُكًى عليـك طويلُ
يا ناظـرًا ما أقلعتْ لحظـاتُه * حـتى تشحّط بينهن قتيــلُ
أحللتُ قلبى من هـــواكَ محِـلّةً * ما حلّهـا المشروبُ والمأكولُ
بكمال صـــورتك التى من دونهـا * يتحـيّر التشبيـــهُ والتمثيــلُ
فـــوقَ القصيرةِ والقصيرةُ فوقَها * دون السِّمين ودونَها المهـــزولُ

ومما أنشده العتابى لأبى نواس فقال أحسن وأجاد :

متتـائِهٌ بجمـاله صَــلِفٌ * لا يســتطاع كلامُـه تيهـا
للحسن فى وَجَنـاته بِدَعٌ * ما إن يَمَــلُّ الدرسَ قاريهـا
لو كانت الأشـــياءُ تعقـله * أَجْللنَــه إجــلالَ باريهـا
لو تستطيع الأرض لانقبضت * حـــتى يصـــير جميعه فيهـا

وقـــوله :

إن السحابَ لتستحيى اذا نظـــرتْ * الى نـــداك فقاســـتْه بمـا فيهـا
حـــتى تَهُــمّ بإقـــلاعٍ فيمنعُها * خوفٌ من السُّخْط من إجلال منشيها

قال محمد بن صالح بن بَيْهَس الكَلَابى : لما دخلتُ العراقَ صرتُ الى مدينة السلام فسألت عمّن بها من الشـعراء المحسنين ، وذلك فى أيام خلافة الأمين أو عنـد موته قبل دخول المأمون بيسير، فقيل لى : قد غلب عليهم فتًى من أهل البصرة يقال له الحسن

ابن هانئ و يعرف بأبى نواس ، وقد كنت سمعتُ شيئا من شعره، فأتانى فتى كان من أهل الأدب، فقلت له : هل تروى لأبى نواسكم هذا شيئا؟ قال : أروى له أبياتا فى الزهــد وليس هو من طريقته، فقلت أنشدنيها، فأنشدنى :

أخى ما بالُ قلبِــك ليس ينْـقَى * كأنك لا تظُنّ المــوتَ حَقّا
ألا يا بنَ الذين فَنُــوا وبادوا * أما والله ما ذهبُــوا لتَبْــقَى
وما للنفس عنــدكَ من مُقَــام * اذا ما آســتكملتْ أَجَلًا ورزْقا
وما أحدٌ بزادك منــك أَحْظَى * ولا أحدٌ بذنبــك منك أَشْقَى
ولا لكَ غيرَ تقــوى الله زادٌ * اذا جعلتْ الى اللّهَــوات تَرْقَى

فقلت له : أحسن والله ! قال : أفلا أنشــدك أحسنَ من هذا؟ قلت بلى، فأنشــدنى فى رثاء محمد الأمين :

طوى المــوتُ ما بينى وبين محمد * وليس لمــا تَطْوِى المنيــةُ ناشرُ
فلا وصــلَ إلا عَبْرةٌ تســتديمُها * أحاديثُ نفس مالها الدهرَ ذاكرُ
لئن عَمَرتْ دور بمن لا أوده * لقــد عَمَرتْ ممن أحبُّ المقــابرُ
وكنتُ عليه أحذرُ الموتَ وحدَه * فلم يَبْــقَ لى شيءٌ عليــه أُحاذرُ

فقال : بحقٍّ ما غلب هذا على أهل الأدب وقدّموه على غيره .

قال محمــد بن جعفر الأَصَمّ : كنا عند أبى نُعَيم ، فتــذاكرنا قول عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها حين ذكرتْ شعرَ لَبِيد يرثى أخاه أربد :

ذَهَبَ الذين يُعــاشُ فى أكنافهم * وبَقِيتُ فى خَلَفٍ كجِــلد الأجربِ

ولقد أنشدنى أبو نعيم أبياتا، قلنا : أنشِدْناها، فقال :

ذهبَ النــاسُ فاستقَلُّوا وصِرْنَا * خَلَفًــا فى أراذل النّســاسِ
فى أُناسٍ نَعُــدُّهم من عديد * فاذا فُتِّشُــوا فليســوا بنــاس

كلما جئتُ أبتغى الفضلَ منهم * بَدَرُونى قبــل السؤالِ بيـاس
وبَكَوْا لى حتى تمنّيتُ أنّى * مُفْلتٌ عنـــد ذاك رأسًا براس

ثم قال : أتدرون لمن الشعر ؟ قلنا : لا ، قال : للحسن بن هانىء .

قال أبو عبد الرحمن الضَّرير : رأيتُ مسلم بن الوليد بجُرجان وهو يتولّاها ، فسألنى عمن خَلَّفتُ من الشعراء ، فقلت له : أما من الكوفيّين فأبو نواس ، وهو مقدّم عندهم ، فقال : ويحك ! كيف يتقدّم وهو يقول : رُوَيْدَكَ يا إنسانُ لا أنت تَقْفِزُ أرأيتَ قوله : « تقفز » خرجتْ من بين فَكّىْ شاعرٍ قط ! ثم قال : ويلك ! وكيف يكون كذلك وهو يُحيل ويتخطّى من صفة المخلوق الى صفة الخالق ؟ فقلت : مثل ماذا من قوله ؟ قال : أما فيما أحال فكقوله :

وأخفتَ أهــلَ الشّرْكِ حتى إنه * لَتخافُك النُّطَفُ التى لم تُخْـلَقِ

وهــذا من الإغراق المستحيل فى العقول ومـما ليس على مذهب القوم ؛ وأما فى تخطّيه بصفة المخلوق الى صفة الخالق فكقوله :

يَجِــلّ أن تلحقَ الصفاتُ به * فكلّ خُلْقٍ لخُلْقــه مثـــلُ

وكقـــوله :

* برىءٌ من الأشباه ليس له مثل *

ومما قيل عن أبى نواس إن الشعر إنما هو بين المدح والهجاء وأبو نواس لا يُحسنهما ، وأجودُ شعره فى الخمر والطَّرْد ، وأحسنُ ما فيهما مأخوذ ليس له وإنما سَرَقه ، وحُسْبُك من رجل يرد المعنى ليأخذَه فلا يُحسن أن يَبْنى عليه حتى يجىءَ به قبيحا ، مثل قوله : « وداوِنى بالتى كانت هى الداءُ » أخذه من قول الأعشى : « وأخرى تداويتُ منها بها » والذى أخذه منه أحسن . ومنها أيضا قولُه : « إن الشّبابَ مطيّةُ الجهلِ » أخذه من قول النابغة الجَعْدىّ : « فإنّ مطيّةَ الجهلِ الشّبابُ » . وقوله : « كطلعة الأشمط من إهَابه » أخذه من قول أبى النجم : « كطلعة الأشمط من كِسائه » . ولكن رُزِق أبو نواس فى شعره أن سار وحَمَله الناسُ وقدّمه أهلُ عصره ، وإن له على ذلك لأشياءَ حِسانًا لا يدفعها ولا يطرَحها إلا جاهلٌ بالكلام أو حاســـد .

ومن أحسن مدائح أبى نواس قوله من أرجوزته التى يمدح بها الفضل بن الربيع وهى :

وبلدةٍ فيها زَوَرْ * صَعْواءَ تَخطَى فى صَعَرْ
مَرْتٍ (١) اذا الذئبُ اقتفرْ * بها من القومِ الأثرْ
كان له من الجَزَرْ * كُلُّ جَنِينٍ ما اشتَكَرْ (٢)
ولا تَعَلَّاه شَعَرْ * مَيْتُ النَّسَا حَىُّ النَّفَرْ
عَسَفْتُها (٣) على خَطَرْ * وغَرَرٍ من الغَرَرْ
ببازلٍ حين فَطَرْ * يَهُزُّه جِنُّ الأشَرْ
لا مُتَشَكٍّ من سَدَرْ (٤) * ولا قريبٍ من خَوَرْ
كأنّه بعد الضُّمُرْ * وبعدَ ما جال الضُّفُرْ (٥)
وأتمحَ فى خَسْرٍ : * جَأْبٌ (٦) رَبَاعُ المُثْغَرْ
يَحْدُو بُحُقْبٍ كالأُكَرْ * ترى بأثْباجِ القَصَرْ (٧)
منهنّ تَوْشيمُ الجَدَرْ * رَعَيْنَ أبكارَ الخُضَرْ
شَهْرَىْ رَبيعٍ وصَفَرْ * حتى اذا الفحلُ جَفَرْ (٨)
وأشبه السَّفَى الإبَرْ * ونَشَّ أذْخَارُ النُّقَرْ (٩)
قُلْنَ له : ما تأتمِرْ ؟ * وهنّ إذ قُلْنَ : أَشِرْ
غيرُ عَوَاصٍ ما أَمَرْ * كأنّها لمن نَظَرْ
رَكْبٌ يَشِيمُونَ مَطَرْ * حتى اذا الظِلُّ قَصُرْ

---

(١) المرت : الأرض لا نبات فيها ، واقتفر الأثر : اقتفاه وتبعه . (٢) الجزر (بفتحتين) : ما يذبح من الشاء ذكرا كان أو أنثى . واحدته : جزرة . وما اشتكر : لم يثبت له الشكر وهو الضعيف من الشعر الذى لا يكاد يظهر . (٣) عسفها : سلكها متخبطا ، والغرر : الخطر . (٤) السدر : التحير .

(٥) الضمر (بالضم وبضمتين) : الهزال . والضفر : جمع ضفار (بالفتح) وهو ما يشدّ به البعير من شعر مضفور .

(٦) الجأب : الحمار الغليظ من حمر الوحش . (٧) الأثباج جمع ثبج وهو وسط الشىء ، والقصر جمع قصرة وهى أصل العنق . (٨) جفر : امتنع عن الضراب .

(٩) السفى : كل شجر له شوك ، ونش : نضب ، والنقر : جمع نقرة وهى الوهدة المستديرة من الأرض .

يَمَّمْنَ من جَنْبَيْ هَجَرْ * أخضرَ طَامَّ العَكَرْ
وبين أحْقافِ القَتَرْ * سَارٍ وليس للسَّمَرْ
ولا تِلاواتِ السُّوَرْ * يمسَحُ مِرْنَانًا يَسِرْ (١)
زُمَّتْ بمشْزُورِ المِرَرْ * لَأْمٍ كحُلْقومِ النُّغَرْ (٢)
حتى إذا اصْطَفَّ السَّطَرْ * أهدَى لها لو لم تُجَرْ
دَهْياءَ يحْدُوها القَدَرْ * فتِلْكَ عَنْسٌ لم تُدَرْ
شَهْبَا إذا الآلُ ظَهَرْ * إليكَ كلّفْنا السَّفَرْ
خُوصًا يُحاذِبْنَ النَّظَرْ * قد انطوتْ منها السُّرَرْ
طَيَّ القَرارِيِّ الحِبَرْ (٣) * لم تتقعّدْها الطِّيَرْ
ولا السَّنِيحُ المزدَجَرْ * يافَضْلُ للقوم البَطَرْ
إذ ليس فى الناس عَصَرْ * ولا من الخوف وَزَرْ
ونزلتْ إحدى الكُبَرْ * وقيلَ صَمَّاءُ الغِيَرْ
فالناسُ أبناءُ الحَذَرْ : * فرَّجْتَ هاتيكَ الغُمَرْ
عنّا «وقد صابتْ بقُرّ» (٤) * كالشمسِ فى شَخْصِ بَشَرْ
أعيا مُجارِيكَ الخَطَرْ * أبوكَ جَلّى عن مُضَرْ
يومَ الرِّواقِ المحتضَرْ * والخوفُ يفْرِى ويَذَرْ
لما رأى الأمرَ اقمطَرّ (٥) * قام كريمًا فانتصَرْ
كهَزّةِ العَضْبِ الذَّكَرْ * ما مسّ من شىء هَبَرْ (٦)

---

(١) المرنان : القوس . (٢) زمت : شدّت ، ومشزور : مفتول ، والمرر : جمع مرة وهى قوة الفتل ، واللأم : الشديد ، والنغر : كصرد البلبل . والعرب تشبه الدقيق بالأوتار وحلاقيم النغران . (٣) القرارى : الخياط
(٤) القر : القرار ، يقال اذا وقع الأمر موقعه : صابت بقر ووقعت بقر . قال طرفة بن العبد البكرى :

كنت منهم كالمغطى رأسه * فانجلى اليوم غطائى وخمر
سادرا أحسب غيي رشدا * فتناهيت وقد صابت بقر

(٥) اشتد . (٦) هبر : قطع .

وأنت تَقْتافُ الأثَــر * من ذى حُجُول وغُرَرْ
معيــد وِرْدٍ وصَــدَر * وإن علا الأمرَ اقتــدر
فأين أصحابُ الغَمَــر * اذ شَرِبوا كأس المَقــر (١)
وقُصِروا فيمن قُصِر * هيهات لا يخفَى القمر
أصحرتَ اذ دَبّوا الخَمَــر (٢) * شكرا ، وحُرٌّ مَنْ شَــكَر
فالله يُعطيك الشَّبْر (٣) * وفى أعاديك الظَّفَــرْ
والله مَنْ شاء نَصَر * وأنت إن خِفْنا الحَصَر (٤)
وهَرَّ دهرٌ وكَشَرْ * عن ناجِذَيْه وبَسَر (٥)
أغنيتَ ما أغنَى المَطَرْ * وفيــك أخلاقُ اليَسَر
فانْ أبَوْا إلا العَسَرْ * أمررتَ (٦) حبـلًا فاستمرّْ
حتى ترى تلك الزُّمَر * تهـوى لأذقان الثُّغَــر (٧)
من جذبِ ألْوَى (٨) لو نتر * اليــه طَوْدًا لأنأطَــرْ (٩)
صعبٍ اذا لاقى أبَــرْ * وإن هفَا القومُ وقَرْ
أو رَهِبُوا الأمرَ جَسَرْ * ثم تَسَامَى فَفَغَــرْ
عن شِقْشِقٍ ثم هَــدَرْ * ثم تَنَاجَى فخَطَــرْ
بذى سَبِيبٍ (١٠) وعُــذُرْ * يمضع أطـرافَ الوَبَرْ
هــل لك والهَــلْ خِيَرْ (١١) * فيمن اذا غبتَ حَضَرْ
أو نالكَ القــومُ ثأَرْ * وإن رأى خيراً شَــكَرْ
* أو كان تقصيرٌ عَذَرْ *

---

(١) المقر : المر . (٢) أصحرت : برزت الى الصحراء . ودبوا الخمر : مشوا مختفين . والخمر : ما سترك من شجر أو بناء أو نحوه . (٣) الخير والقوة . (٤) الضيق . (٥) كشر أبدى عن ناجذيه ، و بسر : عبس . (٦) أى أحكمت فتله . (٧) جمع ثغرة وهى نقرة النحر . (٨) الألوى : الشديد الخصومة . (٩) اعوج وانثنى . (١٠) السبيب : شعر الذنب والعرف والناصية ، والعذر جمع عذار . (١١) قصد لفظ هل الاستفهامية فأدخل عليها الألف واللام .

ولمـا عمل أبو نواس القصـيدة التي أولها : * ومستعبد إخوانه بثرائه * بلغت الأمينَ، فبعث اليه، وعنده سليمان بن جعفر . فلما دخل عليه قال له : يا عاضَّ بَظْرِ أمّه العاهرة ، و يامدّعىَ ولاء حاءَ وحَكَم ! أتدرى يابنَ اللَّخْناء من توليك والى من ادّعيتَ ؟ الى ألأم قبيلتين فى اليمن ، عُلُوج باغين . أنت تكتسب بشعرك أوساخ أيدى الناس اللئام ، وتقول : * ولا صاحب التاج المحجَّب فى القَصْر * أما والله ما نلتَ منّى شيئًا بعد ذلك أبدا! فقال له سليمان بن أبى جعفر : إى والله! نعم هو مع هذا من كبار الثَّنَوِيَّة[1] (وكان يُرمى بذلك) ؛ فقال له محمد الأمين : وهل يشهد عليه شاهد بشىء من ذلك؟ فأتاه سليمان بعدّة نَفَر ، فشهدوا عليه أنه شرب فى يوم مَطِير فوضـع قدحَه تحت السماء فى المطر فوقع فيـه المطر ؛ فقالوا له : ما تصنع بذلك وَيْحَك ؟ قال : أنتم تزعُمون أنه ينزل مع كل قطـرة ملكٌ، فكم ترانى أشرب من الملائكة ! ثم شرب ما فى القـدح ؛ فغضب محمد ، وأمر به الى السجن . فذلك قول أبى نواس :

يارِبِّ إنَّ القومَ قد ظلَمُونى * وبلا اقترافِ معطِّلٍ حبَسُـونى
و إلى الجحود بمـا عرفتَ خلافَه * ربِّى إليـك بكذْبِهم نَسَبُونى
ما كان إلّا الجَرْىُ فى مَيْـدانهم * فى كلّ خِزْى والمَجَانةُ دِينِى
لا العذرُ يُقبَل لى ويَفْرق شاهدى * منهم ، ولا يرضَوْن حَلْفَ يمينِى
ما كان ــ لو يدرون ــ أولَ مَخْبأ * فى دار مَنْقَصة ومنزل هُونِ
أما الأمـينُ فلستُ أرجو دفعَـه * عنّى، فمن لى اليـومَ بالمأمون

فبلغت أبيـاتُه المأمونَ ، فقال : والله لئن لحقتُه لأُغنينّه غِنًى لا يؤمّله . فمات قبل دخول المأمون بغداد .

لمـا وصلت الخلافةُ الى محمـد الأمين وولّى الفضـلَ بن الربيع الوزارة ، تفرّغ محمدٌ للّهو والصيد والنزهة، وكان لا يخرج إلا لصيد أو لنزهة . فخرج ذات يوم وقد أمر الجندَ

(١) الثنوية أصحاب الاثنين الأزليين وهم الذين يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان ، بخلاف المجوس فانهم قالوا بحدوث الظلام .

والقوادَ فركبوا، ولبس ثيـابَه وتقلد سـيفه ، وأُعِدّت الحَـرّاقات(١) والزَّلّاجاتُ فى دِجْلة ؛ فقال له اسماعيلُ بنُ صُبَيْح ــ وكان كاتبَ سِرّه ــ : يا أمير المؤمنين ان قوادَك وجندَك وعامّة رعيتك قد خُبِثَتْ نفوسُهم ، وساءت ظنونُهم ، وكَبُر عنـدهم ما يرَوْن من احتجابِك عنهم ، فلو جلستَ لهم ساعة من نهار فدخلوا عليك ! فإن فى ذلك تسكينا لهم ومراجعـة لآمالهم ! فجلس فى مجلسه وأذن للناس عامةً فدخلوا على مراتبهم ومنازلهم ، وقام الخطباء فخطبـوا ، والشعراء فأنشدوا ، فلم يكن أحد منهم يتعدّى الى الاطناب والتطويل ، الا أُمِر بالسكوت ومُنِـع من القول .

وقام فيمن قام أبو نواس ، فقال : يا أمير المؤمنين ! هؤلاء الشعراء أهل حَجَر ومَدَر ، وإبل ووصـفِ للبقر وبيوت الشَّـعَر ، قد جَفَتْ ألفاظُهم ، وغلُظتْ معانيهم ، ليس لهم بَصَر بمدح الخلفاء ونَشْر مكارمهم ، فان رأى أميرُ المؤمنين أن يأذن لى فى إنشاده فليفعل ، فأذن له فأنشده :

أيا دارها بالمـاء حتى تُلينَها * فلن تُـكرم الصَّهْباءَ حتى تُهينَها
أُغالى بها حتى اذا ما ملكتُها * أهنتُ لإكرام الخليل مَصُونَها
وصفراءَ قبل المَزْج بيضاءَ بعده * كأنّ شعاع الشمس يلقاك دونَها
ترى العينَ تستعفيك من لمَعانها * وتحسُرُ حتى ما تقِـلّ جفونَهـا
نَزُوعٌ بنفس المـرء عما يَسُوءه * ويُحْسِـنُه ألّا يزالَ قرينَهـا
كأنّ يواقيتا رواكدُ حولَهـا * وزُرْقَ سَـنانِير تدير عيونَهـا
وشَمطاءَ حلّ الدهرُ منها بنَجْوة * دلفتُ اليهـا فاستللتُ جَنينَها
كأنّا حُلولٌ بين أكنافِ روضةٍ * إذا ما سلَبْناها مع الليل طِينَها

الى أن أكمل القصـيدةَ . فقال له محمـد : ألم أَنْهَـكَ عن شربِ الخمر ! قال : بلى يا أمير المؤمنين ، والله ما شربتُها منذ نهيتَنى عنها ومنعتنى من شُرْبها ، وأنا الذى أقول :

(١) الحراقات : ضرب من السفن فيها مرامى نيران يرمى بها العدو فى البحر .

أيُّها الرائحان باللوم لُوما * لا أذوق المدامَ الا شَميمَا
نالنى بالمَـــلامِ فيهـا إمامٌ * لا أَرَى لى خِلافَه مستقيمَا
فاصرِفاها الى سِـــواىَ فإنّى * لستُ الا على الحديثِ نديمَا
كبرُحظّى منها إذا هى دارتْ * أن أَرَاها وأن أشمَّ النسيمَا
فكأنّى وما ازيِّن منهـا * قَعَـــدِىٌّ يُحَسِّن التحكيمَا (١)
كلَّ عن حملِه السلاحَ الى الحر * ب فأَوصَى المُطيقَ ألاّ يقِيمَا

فتبسّم محمد، وقال له : أحسنتَ ! وقام بعضُ الشعراء فأنشد :

ترقَّ فى فضـائله الامينُ * وزايلَه المُشَاكِلُ والقَـرِينُ
وأورق زَهْرَةُالتقوى وعَزّتْ * خلافتُـه وصُـدِّقت الظُّنُونُ
تَمَسُّ منـابرَ الخلفاء منــه * يدٌ بخلاف طاعتِها المَنُونُ
يخاف الخوفُ صولتَه و يرجو * نداه الجـودُ فهو له خَدِينُ

فقال عِدّة ممّن حضر : قد أوجز وأجاد، أكرم الله أميرَ المؤمنين! فقال أبو نواس : أشعر منه يا أمير المؤمنين الذى يقول :

ألا يا خيرَ من رأتِ العيـونُ * نَظِـيرُك لا يُحَسُّ ولا يَكُونُ
وفضلُك لا يُحَـدّ ولا يُجَارَى * ولا تَحْوِى حيازتَه الظنونُ
فأنت نَسِيجُ وحْدِك لا شَـبِيهٌ * نُحَاشِيه عليـك ولا خَدِينُ
خُلِقتَ بـلا مشاكلة لشىء * فأنت الفَـوقُ والثقـلان دُونُ
كأن الملكَ لم يَكُ قبـلُ شيئًا * الى أن قام بالملكِ الامينُ

قال : ففضّله محمد وأحسن جائزتَه . و يقال : إنه قالها بديهًا .

---

(١) القعدى من الخوارج : الذى يرى رأى القعدة الذين يرون التحكيم حقا، غير أنهم قعدوا عن الخروج على الناس .

ثم نهض محمد من مجلسه ذلك، فركب الحَرَّاقةَ الى الشَّماسيَّة، واصطفَّتْ له الخيل وعليها الرجال على شاطئ دجلة، وحُمِلتْ معه المطابخُ والخزائن . وكان ركو به حَرَّاقةً(١) على مثال الأسد . فما رأى الناس منظرًا كان أبهى ولا مسيرًا كان أحسن من ذلك المنظر والمسير . وركب أبو نواس معه يومئذ وهو ينادمه، فقال :

سخَّر اللهُ للأمين مطايا * لم تسخَّر لصاحب المحراب(٢)
فاذا ما ركابُه سِرْنَ بحرًا * سار فى الماء راكبًا ليثَ غاب
أسدًا باسطا ذراعيه يعدو * أَهْرَتَ الشِّدْقِ(٣) كالحَ الأنياب
لا يعانيه باللِّجام ولا السَّو * طِ ولا غَمْزِ رجلِه فى الرِّكاب
عَجِب الناسُ إذ رأوْك على صو * رة ليثٍ تمرُّ مَرَّ السحاب
سبَّحوا اذ رأوك سرتَ عليه * كيف لو أبصروك فوقَ العُقاب
ذات زَوْر ومِنْسِر وجناحـ * ـين تشُقُّ العُبَاب بعد العُبَاب
تسبِق الطيرَ فى السماء اذا ما اسـ * ـتعجلوها بجَيْئةٍ وذهاب
بارَك الله للأمين وأبقا * ه وأبقى له رداءَ الشباب
ملك تَقْصُر المدائحُ عنـه * هاشمىٌّ موفَّق للصواب

ويقال : ان هذا الشعر قاله أبو نواس فى محمد ، وقد ركب حراقتَه الدُّلْفِينَ ؛ فقال له شيخٌ الى جانبه : اِتَّقِ الله يا هذا ! فقال له أبو نواس : يا شيخ، إن الله لم يسخِّر لصاحب المحراب الدُّلْفين، وقد سخر له ما هو خير من الدلفين، فأى شئ تنكر من هذا ؟

قال ابن حبيبَ : كنت مع مؤنس بن عِمْران، ونحن نريد الفضلَ بن الربيع ببغداد ، فقال مؤنس : لو دخلنا على أبى نواس فى السجن فسلَّمنا عليه ! ففعلنا ؛ فقال أبو نواس

---

(١) وذلك أنه كان للامين ثلاث من السفن المعروفة بالحراقات لركو به خاصة ، وهى الليث والعقاب والدلفين . (٢) صاحب المحراب هو سليمان بن داود عليه السلام لأنه بنى بيت المقدس .
(٣) أهرت الشدق : واسعه . وكالح الأنياب : كاشرها .

لمؤنس: أين تريد ؟ فقال : أريد أبا العباس الفضلَ بن الربيع ، قال فبلِّغه رقعةً أعطيكها ، قال : نعم ، فأعطاه رقعة فيها :

ما من يدٍ فى الناس واحدةٍ * كيدٍ أبو العباس مَوْلاها
نام البُغَـاةُ على مضاجعهم * وسَرَى الى نفسى فأحياها
قد كنتُ خِفْتُكَ ثم أمّننى * من أن أخافك خوفُكَ الله
فعفوتَ عنّى عفوَ مقـتدر * وَجَبَتْ له نِقَـمٌ فألغاها

فكانت هذه الأبيات سبب خروجه من السجن .

اِنصرف أبو نواس من بعض المواخير سكرانَ ، فمر بمسجد قد حضرت فيه الصـلاة ، فدخل فقام فى الصف الأوّل ، فقرأ الأمام : ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الكَافِرُونَ﴾ فقال أبو نواس من خلفه : لبَّيكَ ، فلمـا قضيت الصـلاة لَبَّبُوه[1] وقالوا له : يا كافر نشهد عليك بالكفر ودفعوه . فبلغ خبره الرشيد ، فدعا لَه حَمْدُويه صاحب الزندقة ، وأحضر أبا نواس فقال له حمـدويه : يا أمير المؤمنين ، إن هـذا ماجن ، وليس هو بحيث يُظَنّ ؛ فقال له الرشيد : وَيْحَكَ ! إنه وقع فى نفسى عنه شىء ، فامتحنْه . قال : خَطَّ له صورة مانى[2] ، وقال له : أبصُق عليها ، فأهوى أبو نواس بفيه ليبَق عليها ، فقال له حمدويه : قد قلت لك يا أمير المؤمنين إنه ماجن . قال : ودعا برجل من الزنادقة مشهور ، وقال له : ابصق عليها ، فقال : وما معنى البُصَاق ! إنه من أخلاق الشِّرْك ولا أفعـله ، وأبى أن يفعل . فقال الرشـيد لبعض خدم القصر : اِمض بهذا (يعنى أبا نواس) الى السِّنْدى ، فقل له : أدِّبْه وأطلقه ،

(١) لببوه : أخذوا بلبيه ، وهو موضع القلادة فى الصدر . (٢) هو مانى بن فاتك الحكيم ، الذى ظهر فى زمن سابور ذى الاكتاف بن أزدشير ، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور ، وذلك بعد عيسى عليه السـلام . اتخذ له دينا بين المجوسية والنصرانية . وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام ، ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام . حكى محمد بن هارون المعروف بأبى عيسى الوراق ، وكان فى الأصل مجوسيا عارفا بمذاهب القوم ، أن الحكيم مانى زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين : أحدهما نور والآخر ظلمة ، وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا ، وأنكر وجود شىء الا من أصل قديم ، وأنهما لا يزالان قويين حساسين سميعين بصيرين ، وهما مع ذلك فى النفس والصورة والفعل والتدبير متضادتان ، وفى الحيز متحاذيتان تحاذى الشخص والظل .

(انظر الملل والنحل للشهرستانى) .

وبهـذا (يعنى الزنديق) فقل له : احبسـه قِبَلك الى أن تستتيبَه، فان تاب وإلا قتلناه . قال : فمضى بهما الخـادم ، فلما صار فى آخر الصحن ، قال أبو نواس للخـادم : الى أين تذهب بنا ؟ قال : الى السـندى؛ قال : فمـا تقول له ؟ قال : أقول له : يحبسك قِبَلَه حتى تُستتاب أو تُقتل، ويؤدّب هذا ويطلقه . قال : فرفع أبو نواس يدَه ولطَمه، وقال له : يابن الزانية، من الساعة نسيتَ ! . وبَصُر بهم الرشيدُ، فقال : رُدّوهم ؛ فقال لأبى نواس : ما هـذا الذى رأيتُ منك ؟ قال : أراد والله أن يُهْلِكَنى ويطرحنى بحيثُ أُنْسَى أبدا أو أبقى مخلَّدا ، سَـلْه يا أمير المؤمنين عن الرسالة، فاذا هو قد غيّرها ؛ فضحك من أبى نواس وأطلقه .

قال رُزَيْن الكاتب : اجتمعنا يوما أنا وأبو نواس وعلىّ بن الخليـل فى سوق الكَرْخ، وكنّا نجتمع ونتناشد الأشعار ونتذاكر الأخبار ونتحـدّث بها . فقال أبو نواس : أَدْبَرَ مَنْ كان فى نفسى وكان أسرعَ الخلق فى طاعتى، فما أدرى ما أحتال له ؟ فقال على بن الخليل يمازحه : يا أبا على، سَلْ شيخَك وأستاذَك يُعْطِفه عليك؛ فقال له أبو نواس : من تَعْنى ؟ قال : من أنت فى طاعته ليلَك ونهارَك (يعنى ابليس) فان لم يقض لك هذه الحاجة ، فما ينبغى لك أن تساله مسألة ولا أن تُقرّ عينه بمعصية؛ فقال: هو أسَدُّ لرأيه من أن يُخِلّ بى أو يَخْذُلنى؛ وانقضى مجلسنا ذلك . فلما كان بعدَ أيام اجتمعْنا فى ذلك الموضع، وأخذنا فى أحاديثنا، فضحكَ أبو نواس؛ فقلنا له : ما أضحكك؟ فقـال : ذكرتُ قول على بن الخليل يومئذ : سَلْ شيخَك يعطفه عليك . حينئذ قد سألتُـه يا أبا الحسن فقضى الحاجة، وما مضت والله ثالثـةٌ حتى أتانى من غير أن أبعث اليـه ومن غير أن أستريه ، فعاتبنى واسترضانى، وكان الغضب منه والتجنّى، وأحسب الشيخَ (يعنى ابليس) كان يتسمّع علينا فى وقت كلامنا؛ وقد قلت أبياتا فى ذلك؛ فقلنا : هاتها، فأنشد :

لمـا جفانى الحبيبُ وامتنعتْ * عنّى الرسالاتُ منـه والخبرُ
واشـتدّ شوقى فكاد يقتلُنى * ذكرُ حبيبى والهمُّ والفِكَرُ

دعوتُ إبليسَ ثم قلتُ له * فى خَلْوة والدموع تحـــدر:
أما ترى كيف قد بُليتُ وقد * أقرح جَفْنى البكاءُ والســـهرُ ؟
إن أنت لم تُلْقِ لى المودةَ فى * صـــدر حبيبى وأنت مقتدر
لا قلتُ شـعرا ولا سمعتُ غِنًا * ولا جرى فى مفاصِـلِى السَّكَرُ
ولا آزالُ القرآنَ أدرُسُه * أروح فى درسِـه وأبتكِرُ
وألزم الصـومَ والصـلاةَ ولا * أزال دهرى بالخـير آتمـرُ
فـا مضتْ بعـد ذاك ثالثةٌ * حتى أتانى الحبيبُ يعتـذرُ
ويطلب الودَّ والوِصَالَ على * أفضلِ ما كان قبلَ يهتجرُ
فيالهـا مِنَّةً لقـد عظُمتْ * عنـدى لإبليس ما لهـا خَطَرُ

لما قَدِم أبو نواس على الخَصِيب[1] بمصر أذن له وعنده جماعة من الشعراء فاستنشده ، فقال له : هنا جماعة من الشعراء هم أقدم منّى وأسنّ ، فأذَنْ لهم فى الإنشاد ، فان كان شعرى نظيرَ أشعارهم أنشدتُ و إلا أمسكتُ ، فاستنشدهم الخصيبُ ، فأنشدوا مديحا فى الخصيب ، فلم تكن أشعارهم مقاربةً لشعر أبى نواس ، فتبسّم أبو نواس ثم قال : أُنْشِدُك أيها الأمير قصيدةً هى بمنزلة عصا موسى تلقَّفُ ما يأفِكُون؟ قال هات ، فأنشده قصيدته التى أولها :

أجارةَ بيتَيْنا أبوكِ غَيُــورُ * ومَيسورُ ما يُرْجَى لديكِ عَسِيرُ

حتى أتى على آخرها ، فانفضّ الشعراءُ من حوله .

ويقال : إن أبا نواس كان خرج الى مصر فى زِىّ الشُّطّار[2] وتقطيعِهم بطُرّة قد صَفَّفها وكُمَّين واسعين وذيل مجرور ونعـل مطبق ، وكان خروجه مع سليمان بن أبى سهل ؛ فلمـا دخل على الخَصيب بهذه الصورة ازدراه واستخفّ به ، وكان تُورد عليه كتبُ الجِلّة من

(١) هو الخصيب بن عبد الحميد العجمى أمير مصر على الخراج . واليه تنسب منية الخصيب بالوجه القبلى وليس بابن صاحب نهر أبى الخصيب ، ذاك عبد المنصور يقال له مرزوق . وكان هـذا رئيسا فى أراضيه . فانتقل الى بغداد وصار كاتب مهرويه الرازى ، ثم انتقل الى الامارة .

(٢) الشطار : جمع شاطر وهو من أعيا أهله خبثا .

بباب السلطان، ووردت كتب أبى نواس فيها فقرأها ولم يستنشده، فانصرف مهموما .

وجاءه أهل الأدب فاستمعوا شعره وكتبوه وأنشدوه للخصيب؛ فاستحضره فأنشده :

أجارةَ بَيْتَيْنا أبوكِ غيورُ * وميسورُ ما يُرْجَى لديك عسيرُ
فان كنتِ لا خِلْما (١) ولا أنت زوجةٌ * فلا بَرِحَتْ دونى عليكِ سُتُورُ
وجاورتُ قوما لا تزاوُرَ بينهم * ولا وصلَ الّا أن يكون نُشُورُ
فما أنا بالمشغوفِ ضربةَ لازِبٍ * ولا كُلُّ سلطانٍ علىَّ قديرُ
وانّى لطَرْفِ العينِ بالعينِ زاجرٌ * فقد كدتُ لَا يَخْفَى علىَّ ضميرُ
كما نظَرتْ والريحُ ساكنةٌ لها * عُقابٌ بأرساغ اليدين نُدُورُ (٢)
طوتْ ليلتين القوتَ عن ذى ضرورةٍ * أُزَيْغِبَ لم ينبُتْ عليه شَكِيرُ (٣)
فأوفتْ على علياءَ حين بدا لها * من الشمس قَرْنٌ والضَّرِيبُ يمورُ (٤)
تقلِّبُ طرفًا فى حِجَاجَىْ مغارةٍ * من الرأسِ لم يدخُل عليه ذَرُورُ (٥)

ولما قال أبو نواس :

تقول التى من بيتها خَفَّ مركبى : * عزيزٌ علينا أن نراك تَسيرُ
أما دون مصر للغنى متطلَّبٌ ؟ * بَلَى إن أسباب الغنى لكثير
فقلتُ لها واستعجلتْها بوادرٌ * جرتْ فجَرى فى جَرْيِهن عَبيرُ
ذَرِينى أُكثّر حاسديك برِحْلة * الى بلدٍ فيه الخَصيبُ أميرُ

قال له الخصيب : اذًا يكثُر حسادها وتبلغ أملَها، وأمر له بألف دينار .

---

(١) الخلم : الصديق . (٢) الندور : خروج العظم من موضعه أو زواله وفى البيت من سوء التركيب ما فيه، والتقدير فيه كما نظرت عقاب لها بأرساغ اليدين ندور والريح ساكنة . (٣) أزيغب تصغير أزغب وهو الفرخ ذو الزغب أى الريش الدقيق اللين . والشكير : الريش أوّل ما ينبت . (٤) الضريب : الثلج أو الجليد . ويمور : يتحرك أو يجىء ويذهب أو يسيل على وجه الأرض . (٥) الحجاجان مثنى حجاج وهو العظم الذى ينبت عليه شعر الحاجب . والذرور : ما يذر فى العين من الدواء .

وتمامها :

اذا لم تَزُرْ أرضَ الخصيب ركابُنا * فأىّ فتًى بعـــدَ الخصيب تزور!
فما جازه جـودٌ ولا حَلّ دونَه * ولكن يصير الجودُ حيث يصير
فتًى يشترى حسنَ الثناء بمـاله * ويعـــلم أن الدائراتِ تَدُورُ
ولم تَرَ عينى سُودَدًا مثـــلَ سُودَدٍ * يحــلُّ أبو نصــرٍ به ويسير
وأطـرق حيّات البلاد لحيّـــةٍ * خَصيبيّةِ التصميم حين تَسُورُ(١)
سموْت لأهل الجور فى حال أمنهم * فأضحَوْا وكـلٌّ فى الوَثاقِ أسيرُ
اذا قام غَنّته على الساق حِلْيـــةٌ * لها خَطْوُه عنـــد القيام قصيرُ
فمن يكُ أمسى جاهلًا بمقَـالتى * فانّ أميرَ المؤمنين خَبِـيرُ
فما زلتَ تُولِيه النصيحةَ يافعًا * الى أن بدا فى العارضَيْن قَتـيرُ(٢)
إذا غاله أمرٌ فإمّا كفيْتَه * وإما عليـــه بالكفاءِ تُشيرُ
إليك رمت بالقوم هُوجٌ كأنما * جماجمها تحت الرِّحال قبـــور
رحلْنَ بنا من عَقْرقُوفٍ(٣) وقد بدا * من الصبح مفتوقُ الأديم شَهيرُ
فما نَجدتْ(٤) بالمـاء حتى رأيتُها * مع الشمس فى عينىْ أَبَاغَ تغُورُ
وغُمّـرْنَ من ماء النقيب بشَرْبةٍ * وقد حان من ديك الصباح زَميرُ
ووافَيْنَ إشراقا كنائسَ تَدْمُرٍ * وهنّ الى رَعْنِ المدخّن صُورُ(٥)
يؤمّمْن أهلَ الغُوطتين كأنما * لها عنـد أهل الغُوطتيْن تُؤورُ
وأصبحْنَ بالجولان يَرْضَخْنَ(٦) صخرَها * ولم يبق من أجراحهن شُـطُورُ
وقاسيْنَ ليلا دون بَيْسانَ لم يكد * سَنَا صبحه للناظرين يُنيرُ
وأصبحن قد فوّزْنَ من نهر فطرسٍ * وهنّ عن البيت المقـــدّس زُورُ(٧)

(١) تسور : تثب . (٢) القتير : الشيب . (٣) عقرقوف : اسم موضع .
(٤) نجدت : عرقت .
(٥) صور : مائلات . (٦) يرضخن : يكسرن . (٧) زور : جمع زوراء بمعنى مائلة .

طوالب بالركبان غرة هاشم * وفى القرما من حاجهن شقور(١)
ولما أتت فسطاط مصر أجارها * على ركبها أن لا تزال مجير
من القوم بسام كأن جبينه * سنا الفجر يسرى ضوءه وينير
زها بالخصيب السيف والرمح فى الوغى * وفى السلم يزهو منبر وسرير
جواد اذا الأيدى كففن عن الندى * ومن دون عورات النساء غيور
له سلف فى الأعجمين كأنهم * إذا استؤذنوا يوم السلام بدور
وإنى جدير اذ بلغتك بالمنى * وأنت بما أملت منك جدير
فان تولنى منك الجميل فأهله * وإلا فإنى عاذر وشكور

وقال يمدح العباس بن الفضل بن الربيع وأجاد :

ساد الملوك ثلاثة ما منهم * إن حصلوا إلا أغر قريع
ساد الربيع وساد فضل بعده * وعلت بعباس الكريم فروع
عباس عباس اذا احتدم الوغى * والفضل فضل والربيع ربيع

وقال يعاتب عمر الوراق :

يا من جفانى وملا * نسيت أهلا ومهلا
ومات مرحب لما * رأيت مالى قلا
انى أظنك تحكى * فيما فعلت القرلى(٢)
تلقاه فى الشر ينأى * وفى الرخا يتدلى

وله فى عزة النفس :

ومستعبد إخوانه بثرائه * لبست له كبرا أبر على الكبر
اذا ضمنى يوما وإياه محفل * يرى جانبى وعرا يزيد على الوعر

(١) جمع شقر وهو الأمر الملتصق بالقلب المهم له .

(٢) القرلى : كان طير وكان لا يسمع لأحد شيئا إلا جاء اليه وداخله ولا يتخلف عن طعام لأحد ، واذا سمع بخصومة لم يقرب ذلك ، فضرب به المثل حتى قيل لطير من طيور الماء يولى عليه : القرلى .

أُخالفــه فى شكله وأجرّه * عليا لمنطق المبرور والنظر الشَّزْرِ
وقـد زادنى تيهًا على النـاس أننى * أرانِىَ أَغناهم وإن كنتُ ذا فقْرِ
فوالله لا يُبْـدِى لسانى لحَاجَةٍ * الى أحد حتى أُغَيَّب فى قـبرى
فلا يطمعَنْ فى ذاك منّىَ طامعٌ * ولا صاحبُ التاج المحجَّبُ فى القصر
فلو لم أَرِثْ فخـرًا لكانت صيانتى * عن الناس حَسْبِى من سؤالى من الفَخْرِ

دخل أبو نواس بعد ما نسك على قوم من إخوانه عندهم شرابٌ ومُغَنٍ، فعرضوا عليه الجلوسَ فأبى، وأخذ الدواةَ والقرطاس وكتب :

اذا لم تَنْـهَ نفسَك عن هواها * وتُحسِن صونَهـا فاليـكَ عنِّى
فانى قـد شبِعْتُ من المعاصى * ومن إدمانهـا وشبِعْنَ مـنِّى
ومن أسـوا وأقبح من لبيبٍ * يرى متطربًا فى مثـلِ سنِّى

ومن شعر أبى نواس :

عفَّى المصلَّى وأقوتِ الكُثُبُ * مِـنِّىَ فالمِرْبدانِ فاللَّبَبُ
منـازلٌ قـد عَمَـرْتُها يَفَعًـا * حـتى بدا فى عِذارِىَ الشُّهُبُ
فى فتيــةٍ كالسيوف هَزَّهُمُ * شَرْخُ شـبابٍ وزانَهـم أدب
ثم أرابَ الزمانُ فاقتسموا * أيدى سَبًا فى البـلاد فانشعبُوا
لن يُخْلِفَ الدهْرُ مثلَهـم أبدا * علىّ هيهـاتَ شأنُهـم عجبُ
لمـا تيقَّنْتُ أن رَوْحَتَهـم * ليس لهـا ما حييتُ منقـلَبُ
أَبْليتُ صـبرا لم يُبْـلِهِ أحد * واقتســمتْنِى مآربٌ شُـعَبُ
لذاك أنّى اذا رُزِئْتُ أخًا * فليس بيـنى وبينَـه نَسَبُ
قُطْرَبُّلٌ مَرْبَعِى ولى بقُـرَى الـ * ـكرخِ مَصيفٌ وأُمِّىَ العِنَبُ
تُرْضِـعُنى دَرَّها وتُلْحِفُـنى * بظلِّهـا والهَجِـيرُ يلتهبُ
اذا تَنَتْـه الغصونُ جلَّلَنِى * فَيْنَانُ[1] ما فى أَدِيمِـه جَرَبُ

(١) الفينان : الظل الكثيف ، والجرب ، أى لا خلل فيه .

تَبِيت فى مَأْتَم حَمَائمه * كما تَرَاءَى الفَوَاقِدُ السُّلُبُ
يَهُبُّ شَوْقِى وشوقُهن معًا * كأنما يَسْتخفُّنا الطَّرَبُ
فقمتُ أحْبُو الى الرِّضَاع كما * تحامَل الطفلُ مَسَّه السَّغَبُ
حتى تخيرتُ بنتَ دَسْكَرَةٍ * قد عجمتْها السِّنُون والحِقَبُ
هتكتُ عنها والليلُ معتكِرٌ * مهلهَلُ النَّسْج ماله هُدُبُ
من نَسْج خَرْقاء لا تُشَدُّ لها * أَخِيَّةٌ فى الثَّرَى ولا طُنُبُ
ثم توجَّأْتُ خَصْرَها بشَبَا الـ * إشْفَى بجاءتْ كأنَّها لَهَبُ
فاستوْسَقَ الشَّربُ للنِّدَام وأجـ * ـراها علينا اللُّجَيْنُ والغَرَبُ(١)
أقول لما تحاكيَا شبهًا * أيُّهما للتشابُهِ الذهبُ
هما سواءٌ وفَرْقُ بينهما * أنهما جامدٌ ومنسكِبُ
مُلْسٌ وأمثالُها محفَّرَةٌ * صُوَر فيها القُسُوس والصُّلُبُ
يَتْلُون إنجيلَهم وفَوْقَهُمُ * سماءُ خمرٍ نجومُها حَبَبُ
كأنَّها لؤلؤٌ تبدَّدُه * أَيْدِى عَذَارَى أَفْضَى بها اللَّعِبُ

ومن جيِّد شعره قولهُ لما منعه الأمين من شرب الخمر، وذلك أن المأمون أمر الخطباءَ بخراسانَ أن يَعِيبُوا الأمينَ بشعر أبى نواس و يقولوا هو جليسُه ونَدِيمُه وينشدوا على المنابر شعرَه، فمنعه الأمينُ فقال :

غنِّنا بالطلولِ كيف بَلِينَا * واسْقِنا نُعْطِك الثناءَ الثمينَا
من سُلَافٍ كأنه كلُّ طِيبٍ * يتمنَّى مخبَّرٌ أن يكونا
أكل الدهرُ ما تجسَّم منها * وتبقَّى لُبَابَها المَكْنُونَا
ثم شُجَّتْ فاستضحكتْ عن لآلٍ * لو تجمَّعْنَ فى يدٍ لاقتُنِينَا
واذا ما لَمَسْتَها فَهَبَاءٌ * تمنع الكفَّ ما تُبِيح العُيُونَا

(١) الغرب : الذهب .

في كؤوسٍ كأنهنّ نُجُــومٌ * جاريات بُرُوجُها أيدينَـا
طالعـاتٌ من السُّقَاةِ علينـا * فاذا ما غَرَبْنَ يَغْــرُبْنَ فينا
لو تَرى الشَّرْبَ حولَها من بعيدٍ * قلتَ قَــوْمٌ من قِرَّةٍ يَصْطَلُونا
وغزالٍ يُدِيرُها ببَنَــانٍ * ناعمَـاتٍ يزيدُها العُشْرُ لِينَـا
ذاكَ عيشٌ لو دام لي غيرَ أنّي * عِفْتُه مكرهًا وخِفْتُ الأمينَـا
أدِرِ الكأسَ حان أن تسْقِينا * وانْقُــرِ العُــودَ إنه يُلْهِينَا
ودَعِ الذكرَ للطُّــلولِ اذا ما * دارتِ الكأسُ يَسْرةً ويَمِينَـا

ومن قول أبي نواس يمدح العباس بن عبد الله بن جعفر بن أبي جعفر :

غرّد الديكُ الصَّــدُوح * فاسـقِني طاب الصَّبُوحُ .
اسـقِني حــتى تَرَاني * حَسَنًا عنــدي القبيحُ
قهــوةً تذكر نــوحًا * حين شاد الفلكَ نوحُ
نحن نُخْفيهـا ويأبَى * طيبُ عَرْفٍ فيَفُــوح
فكأن القــومَ نُهْــبَى * بينهــم مسكٌ ذَبِيــحُ
أنا في دنيا من العبـ * ـاس أغْــدو وأروحُ
هاشِمِـــيٌّ عَبْــدلِيٌّ * عنــده يَغْـلو المديحُ
علَم الجــودِ كتابٌ * بين عينيــه يلوحُ
كلّ جــودٍ يا أميري * ما خلا جُــودَك رِيحُ
إنمـا أنتَ عطـايَا * أبدا ما تســـتريحُ
بَحَّ صـوتُ المـالِ ممّـا * منــك يَشْكُو ويَصيحُ
ما لهـــذا أحدٌ فــو * قَ يــديه أو نَصِيــحُ
جُذْتَ بالأموالِ حــتّى * قيــل ما هــذا صحيحُ
فهْــو بالمــال جــوادٌ * وهــو بالعِرْضِ شَحِيــحُ
صُــوِّرَ الجــودُ مثالًا * وله العبـاسُ رُوحُ

قال محمد بن عُيَينة : لقيت أبا نُوَاسٍ بعسكرِ مُكْرَم فقلت له : أحبّ أن تنشدنى من شعرك شيئًا تَضَنّ به على غيرى، فأنشدنى :

يَكْفِى الكريمَ من الكلا * م لمن يحادثه أقَلُّه
والشىءُ شىءٌ لم يَزَلْ * بأدقّه يأتى أجَلُّه
إن لم يُصِبْكَ من الكرِ * م الحُرِّ وابلُه فطَلُّهْ
يُنْبِدى مكارمَه كما * يُبْدِى فِرِنْدَ السيفِ سَلُّهْ
والنذلُ يُوقِع نفسَه * متعمّدًا فيما يُذِلُّهْ
والحرُّ يكرِم نفسَه * بالصفح عمّن لا يُجِلُّهْ

وقال أبو نواس يمدح الأمين :

صببتُ على الأمين ثيابَ مدحى * فكلُّ الناس حسَّن وآستجادَا
ولولا فضلُه ما جاد شعرى * ولا أعطتْنِىَ الفِطَنُ القِيَادَا
وقالوا قد أجدتَ فقلتُ إنّى * وجدتُ القولَ يمكنُنى فجادا

ومن خمرياته :

ذكر الصَّبُوحَ بسُحْرةٍ فأرتاحا * وأمَلَّه ديكُ الصباح صِيَاحَا
أَوْفَى على شَرَفِ الجدار بسُدْفَةٍ * غَرِدًا يصفّق بالجناح جَنَاحَا
فادرْ صباحَك بالصَّبُوحِ ولا تكن * كَمُسَوِّفين غَدَوْا عليك شِحَاحَا
إن الصَّبُوحَ جِلَاءُ كل مُخَمَّرٍ * بدرتْ يَدَاه بكأسه الإصْبَاحَا
وخَدِينِ لَذّاتٍ معلّلِ صاحبٍ * تقتاتُ منه فكاهةً ومزاحَا
نبّهتُه والليلُ ملتبسٌ به * وأزحتُ عنه نُعَاسَه فأزاحَا
قال ابْغِنِى المصباحَ، قلت له آتّئِدْ * حَسْبِى وحَسْبُك ضوؤُها مصباحَا
فسكبتُ منها فى الزجاجة شَرْبةً * كانت له حتى الصباحِ صَبَاحَا

مِن قهوةٍ جاءتْك قبـــل مِزَاجِها * عُطُـلًا فألبسها المـــزاجُ وِشَاحَا
شَـــكَّ البِزَالُ فـؤادَها فكأنهـا * أهـــدتْ اليك بريحهـا تُفَّاحَا
صفراء تفترِسُ النفوسَ فلا ترى * منها بهنّ ســـوى السُّبَاتِ جِرَاحَا

ومنهـا :

لا تَبْـكِ لَيْـلَى ولا تطربْ الى هنـد * وَٱشربْ على الورد من حمراءَ كالوردِ
كأسًا اذا انحدرتْ فى حلقِ شاربهـا * أجدَتْه حمرتَهـا فى العينِ والخـدِّ
فالخمـــر ياقـــوتةٌ والكأس لؤلؤةٌ * من كف لؤلؤة ممشوقة القـــدِّ
تسقيك من طَرْفِها خمرا ومن يدها * خمرا فمـا لك من سكرَيْنِ من بُدِّ
لى نشـــوتانِ وللنَّـــدْمانِ واحدةٌ * شيءٌ خُصِصْتُ به من دونهم وَحْدِى

كان الأصمعى يفضل أبا نواس على شعراء زمانه بهذه القصيدة :

أما ترى الشمسَ حَلَّتِ الحَمَلَا * وطاب وقتُ الزمان واعتدلَا
وغَنَّتِ الطـــيرُ بعد عُجْمَتِهـا * واستوفتِ الخمرُ حوْلَهـا كَمَلَا
واكتستِ الأرضُ من زخارِفها * وَشْيَ ثيـابٍ تخـالُه حُلَلَا
فاشربْ على جِدّةِ الزمان فقد * أصبح وجهُ الزمانِ مقتبلا
من قهـوةٍ تُذْهِب الهمومَ فلا * أَرْهَبُ فيهـا المـلامَ والعذَلَا
كَرْخيةٍ تترك الطويلَ من العيـ * ـش قصـــيرًا وتبسُط الأملا
تَلْمَعُ لمعَ السرابِ فى قَدَحِ الـ * ـقوم اذا ما حَبَابُهـا اتصـلا
يقول صِرْفٌ اذا مزجتُ له * من لم يكن للكثير محتملا
فَسَـــقِّ هـــذا بقدرِ طاقته * وَٱحملْ على ذا بقدرِ ما ٱحتملا
عُجْنَا بشيئين من طبائعها * حسنٍ وطيبٍ ترى به المثَلَا

كان أبو نواس لا يُسْتَنشَد شيئا من شعره إلا أنشد هذه القصيدةَ :

وخَيْمَـةِ نَاطُـورٍ[1] برأس مُنِيفَـةٍ * تَهُمُّ يدًا منْ رامها بزَلِيـلِ[2]

اذا عارضَتْها الشمسُ فَاءَ ظلالُها * وإن واجهتْها آذنتْ بدُخُـولِ

حَطَطْنا بهـا الأثقـالَ فَلَّ هَجِيرةٍ[3] * عَبُـورِيةٍ تُذْكَى بغـير فَتِـيلِ

تأنَّتْ[4] قَلِيـلًا ثم فاءتْ بَمـذْقَةٍ * من الظلِّ فى رَثِّ الأَبَاءِ ضَئيـلِ

كأنّا لديْها بين عِطْفَىْ نعـامةٍ * جَفَـا زورُها عن مَبْرَكٍ ومَقِيـلِ

حلبتُ لأصحـابى بهـا دِرَّةَ الصِّبَا * بصَهْبـاءَ من ماء الكروم شَمُـولِ

اذا ما أتتْ دون اللَّهـاةِ من الفتى * دعا همُّـه من صدره برَحِيـلِ

فلما توقَّى الشمسَ جِنْحٌ من الدُّجَى * تضايبتُ واستجملتُ غيرَ جميلِ

وعاطيتُ من أَهْوَى الحديثَ كما بدا * وذلَّلتُ صعبًا كان غيرَ ذَلِيلِ

فغنَّى وقـد وسَّدْتُ يُسْرَاىَ خدَّه * ألا ربمـا طالبتُ غيرَ مُنِيـلِ

وأنزلتُ حاجاتى بحَقْوَىْ مساعدٍ * وإن كان أدنى صاحب وخليـلِ

وأصبحتُ أَلْحَى السكرَ والسكرُ محسنٌ * ألا رُبَّ إحسانٍ عليـكَ ثقيـلِ

كفى حَزَنًا أن الجـوادَ مقـتَّرٌ * عليـه ولا معروفَ عنـد بَخِيـلِ

سأَبْغِى الغنى إما جليسَ خليفـةٍ * يقـوم سـواء أو مَخِيفَ سـبيلِ

بكلِّ فـتًى لا يُسْـتطارُ جَنَـانُه * اذا نوَّه الزَّحْفانِ باسم قَتِيـلِ

لنَخْمِسَ مالَ الله من كلِّ فاجرٍ * أخى بِطْنَـةٍ للطيِّبات أَكُـولِ

ألم تر أن المـالَ عَوْنٌ على النَّدَى * وليس جـوادٌ مقـتَّرٌ كبخيـلِ

---

(١) الناطور : حافظ النخل والكرم والزرع وفى البارع : الناطر والناطور بالطاء المهملة حافظ الزرع ، من كلام أهل السواد وليس بعربى محض . (٢) الزليل مصدر كالزلل . (٣) أى منهزمى هاجرة ، وعبورية نسبها الى الشعرى العبور وأيام طلوعها أيام الحر الشديد . (٤) يعنى الشمس ، أى توقفت فى الجو عند زوالها . وفاءت بمذقة ، أى دخلت عليهم من تلك الخيمة الخلقة التى ثبتت على الأباء الضعيف من القصب الرث فلم تقو الشمس عليهم لم تمنعهم الخيمة بستر قوى فيصير ظلا ولكنه شمس وظل ، فشبهت بالمذوق من اللبن ، أى الممزوج .

فإن استُزِيد أنشدَ هذه القصيدةَ الأخرى :

كان الشبابُ مطيــةَ الجهــل * ومحسِّن الضحكاتِ والهَزْلِ
كان الجمــالَ اذا ٱرتديتُ به * ومشيتُ أخطِر صيِّتَ النعــلِ
كان البليــغَ اذا نطقتُ به * وأصاختِ الآذانُ لِلْمُمْــلِي
كان المشــفَّع فى مآربه * عنــد الفتــاةِ ومدرِكَ التَّبْــلِ
والآمرِى حــتى اذا عزمتْ * نَفسِى أعان يدىّ بالفِعْـــلِ
فالآنَ صرتُ الى مقــاربةٍ * وحططتُ عن ظهرِالصِّبا رَحْلِي
والراح أَهْـــواها وإن رَزَأتْ * بُلَغَ المعــاشِ وقلَّلتْ فَضْـــلِي
صـــفراء مجَّــدها مَرَازِبُهـا * جلَّتْ عن النُّظَــراءِ والمِثْــلِ
ذُخِرتْ لآدمَ قبـــل خِلقتِــه * فتقــدّمته بحُظْــوة القَبْـــلِ
فأتاك شيءٌ لا تلامِسُـــه * إلا بحسنِ غَريزة العقـــلِ
فترود منهـا العينُ فى بَشَرٍ * حُرِّ الصفيحة ناصعٍ سَهْــلِ
فاذا عـــلاها المــاءُ ألبَسها * حَبَبًــا شبيــهَ جَلاجلِ الحِجْلِ
حــتى اذا سكنتْ جَوَامحُها * خطَّت بمثــل أكارع النَّمْــلِ
خطَّيْن من شــتَّى ومجتمع * غُفْــلٍ من الإعجــام والشَّكْلِ
فاعـــذِر أخاك فإنه رجـــلٌ * مَرَنتْ مسامعُـــه على العَذْلِ

ومن طيب شعره، والشطر الأول من القصيدة لفظ ابن الدُّمَينة :

أعاذلَ ما على وجهى قُتُـــومُ * ولا عِرْضِى لأولِ مَنْ يَسُـــومُ
يفضُّ نى على الفتيانِ أَنّى * أَبِيتُ فـــلا أُلامُ ولا أَلُومُ
أعاذل إن يكن بُرْدَاىَ رَثًّا * فـــلا يَعْـــدَمْك بينهما كريمُ
شُقِقْتُ من الصبا واشْتُقّ منّى * كما اشْتُقّتْ من الكَرَمِ الكُرُومُ
فلست أَسُــومُ للذات نفسِى * ميــاومــةً كما دفع الغـــريمُ

ومتصلٍ بأسباب المعالى * له فى كل مكرُمةٍ قديمُ
رفعتُ له النداءَ بقُمْ نَخُذْها * وقد أخذتْ مطالعَها النجومُ
بتَفْديةٍ تزال النفسُ فيها * وتُمْتهن الخئولةُ والعمومُ
فقام وقمتُ من أخوينِ هاجا * على طربٍ وليلُهما بَهيمُ
أجرّ الزِّقَّ وهو يجرّ رجلا * يجور به النعاسُ ويستقيمُ
سَلِ النَّدمان ما أولته منها * وسَلْها ما احتوى منها الكريمُ
كلا الشخصينِ متصِفٌ ولكن * قضتْ وَطَرًا وذا منها سَقِيمُ

وقال :

إنّى صرفتُ الهوى الى قمرٍ * لم تبتذله العيونُ بالنظرِ
اذا تأملتَه تعاظمك آل * إقرارُ أنه من البَشرِ

ومن قوله :

يا شقيقَ النفسِ من حَكَمٍ * نمتَ عن ليلى ولم أنَمِ
فاسْقِنِى البكرَ التى آختمرتْ * بخِمَار الشيبِ فى الرَّحِمِ
ثُمَّتَ آنصاتَ الشبابُ لها * بعد ما جازتْ مَدَى الهَرَمِ
فهى لليومِ الّتى بُزِلتْ * وهى تِرْبُ الدهرِ فى القِدَمِ
عَتُقتْ حتّى لو آتصلتْ * بلسانٍ ناطقٍ وفَمِ
لآحتبتْ فى القوم ماثلةً * ثم قصّتْ قصّةَ الأمَمِ
فرعتْها بالمزاج يدٌ * خُلِقتْ للسيف والقلمِ
فى نَدَامَى سادةٍ زُهُرٍ * أخذوا اللذاتِ من أمَمِ
فتمشّتْ فى مفاصلهم * كتمشّى البُرْءِ فى السَّقَمِ
فعلتْ فى البيتِ اذ مُزِجتْ * مثلَ فعلِ الصبحِ فى الظُّلَمِ
فاهتدى سارى الظلام بها * كاهتداء السَّفْرِ بالعَلَمِ

ومن طَرْدِيّاتِ أبى نواس فى صفة الكلب :

أنعتُ كلباً أهــلُه من كَدِّهْ * قد سـعِدتْ جُدودُهم بجَــدِّهْ
فكلّ خيرٍ عندَهم من عِنْــدِه * وكل رِفْـد نالهم من رِفْدِهْ
يظَلّ مــولاه له كعبــدهْ * يبيتُ أَدنى صاحبٍ من مَهْدِهْ
وإن عرى جلّله بــبُرْدِهْ * ذا غُــرَّةٍ محجَّــلا بِزَنْدِهْ
تَلَذُّ منــه العينُ حسنَ قدِّهْ * يا حُسْنَ شِدْقَيْــه وطولَ قدِّه
تَلْقَ الظبــاءُ عنتّــا من طَرْدِهْ * يشربُ كأساً شدُّها من شَدِّهْ
* يا لك من كلبٍ نسيجِ وَحْدِهْ *

أبو نواس وجَنَــان

قال أبوالفرج: كانت جَنَانُ هذه جاريةَ آلِ عبدالوهاب بن عبد المجيد الثّقَفِى، وكانت حلوةً جميلةَ المنظر أديبةً، ويقال: إن أبا نواس لم يَصْدُق فى حبِّ امرأةٍ غيرِها، وقيل له يوما إن جنانَ قد عزمتْ على الحج، فكان هذا سببَ حجه وقال: أما والله لا يفوتنى المسيرُ معها والحجُّ عامى هذا إن أقامت على عزيمتها، وقال وقد حج وعاد :

ألم تر أننى أفنيتُ عمرى * بمطلبها ومطلبُها عســيرُ
فلمــا لم أجــدْ سببًا اليهــا * يقرِّبنى وأعيتْنى الأمــورُ
حججتُ وقلتُ قد حجَّتْ جنانٌ * فيجمعُنى وإياها المَســيرُ

قال مَنْ شهده حين حجّ مع جنان وقد أحرم: لمــا جَنَّهُ الليلُ جعل يلبِّى بشعر ويحْدُو به ويطرَب، فغنَّى به كلُّ من سمعه وهو قوله :

إلهنــا ما أعــدَلَكْ * مَليــكَ كلِّ من مَلَكْ
لبَّيْــكَ قــد لبَّيْتُ لكْ * لبيــكَ إن الحمــدَ لكْ
والملكَ لا شريكَ لكْ * والليــلَ لمــا أن حَلَكْ

والسابحات فى الفَلَكْ * على مَجَارِى المُنْسَلَكْ
ما خاب عبـدٌ أمَّلَكْ * انت له حيثُ سَلَكْ
لولاك يا ربِّ هلَكْ * كلُّ نبيٍّ ومَلَكْ
وكل مَنْ أهلَّ لكْ * سبَّح أو لبَّى فلَكْ
يا مخطئا ما أغفلك * عجِّل وبادرْ أجَلكْ
واختمْ بخيرٍ عملَكْ * لبَّيك ان الملكَ لَكْ
والحمدُ والنعمةُ لكْ * والعزُّ لا شريكَ لكْ

وفيها يقول :

جَفْنُ عينِي قد كاد يسـ * ـقطُ من طولِ ما اختلجْ
وفؤادى من حرّ حبـ * ـك والهجرِ قد نَضَجْ
خبِّرينى فدتك نفـ * ـسى وأهلى متى الفرجْ
كان ميعادُنا خرو * جَ زيادٍ فقد خرجْ
أنت من قتلِ عائذٍ * بك فى أضيقِ الحَرَجْ

قال الأصفهانى : قال محمد بن ابراهيم بن كثير الصُّوفى : دخلنا على أبى نواس نَعُوده فى علته التى مات فيها ، فقال له على بن صالح الهاشمى: يا أبا على،أنت فى أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا،و بينك و بين الله عزوجل هَنَاتٌ، فتُبْ الى الله عز وجل، فبكى ساعةً ثم قال : ساندُونى ساندُونى، ثم قال : أأُخَوَّفُ بالله عز وجل وقد حدثنى حماد ابن مسلم عن زيد الرَّقَاشِى عن أَنَس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل نبيّ شفاعةٌ وانى اختبأتُ شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى يومَ القيامة » أفترانى لا أكونُ منهم ؟

ومن قوله فى مرض موته :

دبَّ فيَّ السقامُ عُلْوًا وسُـفْلًا * وأرانِى أموتُ عُضْوا فعُضْوَا

ليس تمضِى من لحظةٍ بِىَ إلّا * نقصـــتنى بمَـــرِّها فىَّ جُزْوَا

ذهبتْ جِدّتِى بطـاعة نفسى * وتطلبتُ طاعةَ الله نِضْـــوا

لهَف نفسِى على ليـالٍ وأيا * م تجاوزتُهن لِعْبًا ولَهْـــوًا

قـــد أسأنا كلَّ الإساءة فالل * ـهمّ صفحًا عنـا وغَفْرا وعَفْوَا

ثم قال :

شِعْر حيٍّ أتاكَ من لفظ مَيْتِ * صار بين الحياة والموت وَقْفَـا

قد برتْ جسمَه الحوادثُ حتى * كاد عن عين الخـلائق يَخْفَى

لـــو تأملتَنِى لتُبْصِرَ وجهى * لم تبنْ من كتاب وجهىَ حَرْفَا

ولكرَّرْتَ طَرْفَ عينيكَ فيمن * قـــد براه السقام حتى تعَـفَّى

وكان عمر أبى نواس تسعا وخمسين ســـنة ، وكانت وفاته قبل دخول المأمون مدينـــة السلام بست سنين (سنة ١٩٨) .

٢ ــ العَتَّابى(١)

قال أحمد بن سَهْل: تذاكرنا شعرَ العتّابى فقال بعضُنا: فيــه تكلّف، وَنَصَره بعضُنــا، فقال: شيخ حاضر، ويحكم! أيقال إن فى شعره تكلّفا وهو القائل:

رُسُلُ الضَّميرِ اليكَ تَتْرَى * بالشوقِ ظالعةً وحَسْرَى

مترجِّيــاتٍ ما يَنِيـ(٢) * ـنَ على الوَجَامن بعدمَسْرَى

ما جَفَّ للعينينِ بعـ * ـدكَ ياقريرَ العينِ مَجْرَى

فاسْــلَمْ سَــلِمتَ مُبرَّأً * من صَبْوتى أبدا مُعَرَّى

(١) هو كلثوم بن عمرو بن أيوب العتابى التغلبى من ولد عتاب بن أسيد ثم من بنى تغلب بن وائل، شاعر مترسل بليغ مطبوع متصرف فى فنون الشعر مقدّم، من شعراء الدولة العباسية، وكان منقطعا الى البرامكة فوصفوه للرشيـد ووصلوه به، فبلغ عنده كل مبلغ وعظمت فوائده منه.

وكان حسن الاعتذار فى شعره ورسائله وله مصنفات فى المنطق والأدب واللغة وكان يقيم فى رأس عين بعيــدا عن دور الخلفاء والأمراء. وبلغ الرشيد قصيدة قالها فأعجب بها فطلب إشخاصه اليه فجاء وعليه قميص غليظ وفروة وخف، وعلى كتفه ملحفة جافية بغير سراويل، فلما رفع الخبر بقدومه إلى الرشيد أمر بأن تفرش له حجرة وتقام له وظيفة ففعلوا، فكانت المائدة إذا قدمت اليه أخذ منها رقاقة وملحا وخلط الملح بالتراب فأكلهما، فاذا كان وقت النوم نام على الأرض، والخدم يتفقدونه ويتعجبون من فعله. وسأل الرشيد عنه فأخبروه فأمر بطرده فخرج حتى أتى يحيى بن سعيد العقيلى وهو فى منزله فسلم عليه وانتسب له فرحب به وقال له «ارتفع» فقال «لم آتك للجلوس» قال «فما حاجتك» قال «دابة أبلغ عليها إلى رأس عين» فقال: يا غلام، أعطه الفرس الفلانى. فقال: لا حاجة لى فى ذلك ولكن تأمر أن تشترى لى دابة أتبلغ عليها: فقال لغلامه «امض معه فابتع له ما يريد» فمضى معه فعدل به العتابى إلى سوق الحمير فقال الغلام: إنما أمرنى أن ابتاع لك دابة: فقال له: انه أرسلك معى ولم يرسلنى معك فان عملت ما أريد والا انصرف: فمضى معه فاشترى حمارا بمائة وخمسين درهما وقال: ادفع اليه ثمنه: فدفعه اليه فركب الحمار عريا برمّحة عليه وبرذعة وساقاه مكشوفتان، فقال له يحيى بن سعيد «فضحتنى! أمثلى يحمل مثلك على هــذا!» فضحك وقال «ما رأيت قدرك يستوجب أكثر من ذلك» ومضى إلى رأس عين.

توفى سنة ٢٢٠ هـ وتجد أخباره فى الأغانى (ج ١٢ ص ٢) وفوات الوفيات (ج ٢ ص ١٣٧).

(٢) أى متبلغات بالقليل حتى يصلن اليك.

إنَّ الصبابةَ لم تدَعْ * منّى سوى عَظْمٍ مُبَرَّى
ومدامعٍ عَـــبْرَى على * كبِدٍ عليك الدهرَ حَرَّى

أو يقال إنه متكلّف وهو الذى يقول :

فلو كان للشكر شخصٌ يَبين * اذا ما تأمّـــله الناظرُ
لمثلتُـــه لك حتى تراه * لتعلم أنى أمرؤ شاكر

وَجِدَ الرشيدُ على العتّابىّ فدخل سِرًّا مع المتظلّمين بغير إذن، فمَثَل بين يدى الرشيد وقال له : ياأمير المؤمنين، قد آذتْنى الناس لك ولنفسى فيك، وردّنى أبتلاؤهم الى شكرك، وما مع تذكّرك قناعة بغيرك، ولنِعْمَ الصائنُ لنفسى كنت لو أعاننى عليك الصبر، وفى ذلك أقول :

أَخضْتِنِى المقامَ الغمْرَ إن كان غَرَّنى * سَـنَا خُلّبٍ أو زَلّت القَدَمانِ
أتتركنى جَـدْبَ المعيشـــة مُقْترًا * وكفّاك من ماء النـــدى تَكِفَانِ
وتجعلنى سهمَ المطامع بعـــد ما * بَلَلْتَ يمينى بالنـــدى ولســانى

فأعجب الرشيدَ قولُه ، وخرج وعليه الخِلَع ، وقد أمر له بجائزة .

كلّم العتّابى يحيى بن خالد فى حاجة بكلمات قليلة ، فقال له يحيى : لقد نَزُر كلامُك اليوم وقَلّ، فقال له : وكيف لا يقلّ وقد تكنفنى ذَل المسألة وحَيْرة الطلب وخوف الرّدّ؟ فقال : والله لئن قلّ كلامك لقد كثرت فوائدُه، وقضَى حاجَته .

قال يحيى بن خالد البرمكى لولده : إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم بن عمرو العتّابى فضلا عن رسائله وشعره ، فلن تَرَوْا أبدا مثلَه .

وقف العتّابى بباب المأمون يلتمس الوصولَ اليه، فصادف يحيى بن أكثم جالسا ينتظر الإذن، فقال له : إن رأيتَ أعزّك الله أن تذكر أمرى لأمير المؤمنين اذا دخلتَ فافعل، قال له : لستُ أعزّك الله بحاجبه، قال : فإن لم تكن حاجبا فقد يفعل مثلُك ماسألتُ، واعلم أن الله عز وجل جعل فى كل شى زكاة، وجعل زكاة المــال رِفْدَ المستعين، وزكاةَ الجاه إغاثة الملهوف ، واعلم أن الله عز وجل مقبِلٌ عليك بالزيادة إن شكرتَ ، أو التغيير إن كفرتَ .

و إنى لك اليومَ أصلحُ منك لنفسك، لأنى أدعوك الى ٱزدياد نعمتك وأنت تأبَى، فقال له يحيى: أفْعَلُ وكرامة، وخرج الإذن ليحيى، فلما دخل لم يبدأ بشىء بعد السلام إلا أن ٱستأذن المأمونَ للعتّابى، فأذن له .

وقيل له : لو تزوّجتَ، فقال: إنى وجدت مكابدة العفّة أيسرَ علىّ من الاحتيال لمصلحة العيال .

قال دِعْبِل : ماحسدتُ أحدا قطّ على شعر كما حسدتُ العتّابىَّ على قوله :

هَيْبَةُ الإخوانِ قاطعةٌ * لأخى الحاجات عن طَلَبِهْ
فإذا ما هِبتَ ذا أمل * مات ما أمّلتَ من سببهْ

كان العتّابى جالسا ذات يوم ينظر فى كتاب، فمرّ به بعضُ جيرانه، فقال : أيش ينفع العلمُ والأدبُ من لا مالَ له؟ فأنشد العتّابى قوله :

يا قاتَل اللهُ أقواماً اذا ثَقِفُوا * ذا اللبّ ينظر فى الآداب والحِكَمِ
قالوا وليس بهم إلا نَفَاسَتُهُ(١) * أنافعٌ ذا من الإقتار والعُدُمِ
وليس يدرون ما الحظّ الذى حُرِمُوا * — لحاهم الله — من عِلْمٍ ومن فَهَمِ

ومن قوله أيضا :

لئن كانت الدنيا أنالتْك ثروةً * فأصبحتَ ذا يُسر وقد كنت ذا عُسْرِ
لقد كشّف الإثراءُ منك خَلائقاً * من اللؤم كانت تحت سِتْرٍ من الفقر

وقال أيضا :

رحَل الرجاءُ اليك مغتربا * حُشِدَتْ عليه نوائبُ الدهرِ
ردّتْ اليك نَدامتى أملى * وثنا اليك عِنانه شكرى
وجعلتُ عَتْبَك عَتْبَ موعظة * ورجاءَ عفوك منتهى أملى

لما سعَى منصورٌ النَّمَرى بالعتّابى الى الرشيد ٱغتاظ عليه فطلبه، فستَره جعفر بن يحيى عنه مدّة وجعل يستعطفه عليه حتى ٱستلّ ما فى نفسه وأمّنه، فقال يمدح جعفر بن يحيى :

(١) حسده .

ما زلتُ فى غَمَرات المـوت مُطَرَّحًا * قد ضاق عنى فسيحُ الأرض من حِيلى
ولم تَزَل دائبـا تسعى بلطفــك لى * حتى آختلستَ حياتى من يدَىْ أَجَلى

عاد عبد الله بن طاهر و إسحاق بن إبراهيم بن مُصْعَب كلثوم بن عمرو العتّابى فى علّة آعتلّها، فقال الناس : هذه خَطْرة خطرَتْ ، فبلغ ذلك العتّابى ، فكتب الى عبـد الله بن طاهر :

قالوا الزيارةُ خَطْرَةٌ خَطَرتْ * وبِحارُ بِرّك ليس بالخَطْر
أَبْطِلْ مقالتهـم بثانيـــة * تستنفِد المعروفَ مِنْ شكرى

فلما بلغت أبياتُه عبـدَ الله بن طاهر ضحك من قوله وركب هو و إسحاق فعَاداه مرة ثانيـــة .

كانت له آمرأة من باهلة ، فلما مضى الى رأس عَيْن قالت له : هذا منصور النَّمَرى : قد أخذ الأموال فحَلّى نساءه وبنى داره وآشترى ضِيَاعا وأنت ههنا كما ترى، فأنشأ يقول :

تلوم عـلى تَرْكِ الغِنى باهليّـــةٌ * ذوى الفقر عنها كلَّ طِرْف وتالد
رأت حولها النّسوان يرفُلْن فى الثرى * مقـــلَّدة أعناقُهـا بالقـلائد
أَسَرّكِ أنى نلتُ ما نال جعفـر * من العيش أو ما نال يحيى بن خالد
وأنَّ أميرَ المؤمنين أغصَّنى * مغصهما بالمُـرْهَفات البَـوارد
رأيتُ رفيعاتِ الامور مَشُوبةً * بمستودَعات فى بطون الأسـاود
دعينى تَجِئْنى ميتتى مطمئنـةً * ولم اتجشّم هولَ تلك الموارد

لـمـا قدِم العتّابى مدينة السلام على المأمون أذِن له ، فدخل عليه وعنده إسحاق بن إبراهيم الموصلى ، وكان العتابى شيخًا جليلاً نبيلا ، فسلم فردّ عليه وأدناه وقرّبه حتى قرُب منه ، فقبّل يدَه ، ثم أمره بالجلوس فجلس ، وأقبل عليه يسائله عن حاله وهو يجيبه بلسان ذُلَق طُلَق ، فاستظرف المأمون ذلك وأقبل عليه بالمداعبة والمزاح ، فظن الشيخ أنه آستخفّ به فقال : يا أمير المؤمنين ، الإيناس قبل الإبْسَاس (١) ، فاشتبه على المأمون قوله ، فنظر الى إسحاق مستفهما

(١) الابساس : دعوة الناقة الى الحلب .

فأوما اليه وغمزه على معناه حتى فهم، فقال: ياغلام، ألف دينار، فأُتى بذلك، فوضع بين يدى العتابى وأخذوا فى الحديث، وغمز المأمونُ إسحاقَ بن إبراهيم عليه، فجعل العتّابى لا يأخذ فى شىء إلا عارضه إسحاق، فبقى العتابى متعجبا، ثمّ قال: يا أمير المؤمنين، أتأذن لى فى سؤال هـذا الشيخ عن اسمه؟ قال: نعم سَلْ، فقال لإسحاق ياشيخ، من أنت وما ٱسمك؟ قال: أنا من الناس وٱسمى كُلْ بَصَل، فتبسّم العتّابى وقال: أما أنتَ فمعروف وأما الاسم فمُنْكَر، فقال إسحاق: ما أقلّ إنصافك! أتنكر أن يكون ٱسمى كل بصل، وٱسمك كلثوم، وكلثوم من الأسماء، أو ليس البصل أطيب من الثوم؟ فقال له العتّابى: لله درّك! فما أَحْجَك، أتأذن لى يا أمير المؤمنين فى أن أصله بما وصلتَنى به؟ فقال المأمون: بل ذلك موفَّر عليك ونأمر له بمثله: فقال له إسحاق: أما إذ أقررتَ بهذه فتوهّمنى تجدْنى، فقال: ما أظنك إلا إسحاق الموصلىّ الذى يَتناهى الينا خبرُه، قال: أنا حيثُ ظننتَ، وأقبل عليه بالتحيّة والسلام، فقال المأمون — وقد طال الحديث بينهما —: أما إذ قد ٱتفقتما على المودّة فانصرفا متنادمَيْن، فانصرف العتّابى الى منزل إسحاق فأقام عنده.

قال عثمان الورّاق: رأيت العتّابى يأكل خبزا على الطريق بباب الشام، فقلت له: وَيْحَك! اما تستحيى؟ فقال لى: أرأيتَ لو كنا فى دار بها بَقَر كنت تستحيى وتحتشم أن تأكل وهى تراك؟ فقال: لا، قال: فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر، فقام فوَعَظ وقصّ ودعا حتى كثر الزّحام عليه ثم قال لهم: روى لنا غير واحد أنه من بلَغ لسانُه أرْنبةَ أنفه لم يدخل النار، فما بقى أحد إلا أخرج لسانه يومىء به نحو أرنبة أنفه ويقـدّره حتى يبلغها أم لا، فلما تفرقوا قال لى العتّابى: ألم أخبرك أنهم بقر؟

قال الفضل: رأيت العتّابى بين يدى المأمون وقد أسَنّ، فلما أراد القيام قام المأمون فأخذ بيده واعتمد الشيخ على المأمون، فمازال المأمون يُنْهِضه رويدا رويدا حتى أقلّه فنهَض.

وكتب كلثوم بن عمرو العتّابى الى صديق له يستجديه :

أما بعد — أطال الله بقاءك وجعله يمتـدّ بك الى رِضْوانه والجنّـة — فإنك كنتَ عندنا روضــة من رياض الكرَم، تبتهج النفوسُ بها، وتسـتريحُ القلوب اليها، وكنا نعفيها من النُّجْعة(١) آستبقاء لزهرتها، وشـفقةً على خضرتها، وآدّخارا لثمرتها، حتى أصابتنا سَـنَةٌ كانت عنـدى قطعة من سِنِى يوسف آشتدّ علينا كَلَبُها(٢)، وغابت قِطّتها، وكذَبتنا غيومُها، وأخلفتنا بروقُها، وفقدنا صالحَ الإخوان فيها، فانتجعتُك . وأنا بانتجاعى إياك شديدُ الشفقة عليك، مع علمى بأنك موضع الرائد(٣)، وأنك تغطّى عينَ الحاسـد . والله يعلم أنى ما أعدك إلا فى حَوْمة(٤) الأهل . وآعلم أن الكريم اذا آستحيا من إعطاء القليـل ولم يمكنه الكثير، لم يُعرف جوده ولم تَظْهر همّته . وأنا أقول فى ذلك :

اذا تكرمت عن بذل القليل ولم * تقدِر على سَعَة لم يظهر الجُود
بث النـــوالَ ولا تمنعك قِلّته * فكل ما سَدّ فقرا فهو محمـــود

قيل فشَاطَره جميعَ ماله .

---

(١) النجعة : طلب الكلأ فى موضـعه . (٢) الكلب : القحط وبلاء الشتاء ومرض يصيب الكلاب . (٣) الرائد : الطالب . (٤) الحومة هنا : الجماعة والطائفة .

٣ — دِعبِل (١)

شاعر متقدّم مطبوع هَجّاء خبيث اللسان، لم يسلَم منه أحدٌ من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نَباهة أحسن اليه أم لم يُحسن، ولا أفلت منه كبيرٌ أو صغير.

وكان دعبل من الشّيعة المشهورين بالميل الى علىّ صلوات الله عليه. وقصيدته: «مدارس آيات خَلَت من تِلاوة» من أحسن الشعر وفاخر المدائح المَقُولة فى أهل البيت عليهم السلام، وقصد بها أبا على بن موسى الرِّضا بخراسان، فأعطاه عشرة آلاف درهم من الدراهم المضروبة باسمه وخلع عليه خلْعة من ثيابه، فأعطاه بها أهل قُمّ ثلاثين الف درهم، فلم يَبِعها فقطعوا عليه الطريق فأخذوها؛ فقال لهم: إنها إنما تُراد لله عز وجل وهى محرّمة عليكم، فدفعوا اليه ثلاثين الف درهم، فحلف ألّا يبيعها أو يعطوه بعضَها ليكون فى كفنه، فأعطوْه فردَ كُمٍّ، فكان من أكفانه.

قال ابراهيم بن المهدى للمأمون قولا فى دعبل يحرّضه عليه؛ فضحك المأمون وقال: إنما تحرّضنى عليه لقوله فيك:

يا معشرَ الأجناد لا تَقْنَطوا * وارضَوْا بما كان ولا تَسخَطوا
فسوف تُعْطَوْن حُنَيْنِيَّةً (٢) * يَلْتَذّها الأَمْرَدُ والأَشْمَط
والمَعْبَديّاتُ (٣) لِقُوّادكم * لا تدخل الكيسَ ولا تُرْبَط
وهكذا يَرزق قُوّادَه * خليفةٌ مُصْحفه البَرْبَط

(١) هو دعبل بن على بن رزين من خزاعة، أصله من الكوفة وجاء بغداد بطلب من الرشيد. وهو شاعر مطبوع هجاء خبيث اللسان، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة أحسن إليه أو لم يحسن، ولا أفلت منه كبير أو صغير، فكان الناس يخافونه ويتقونه حتى المأمون فإنه هجاه هجاء شديدا واحتمل ذلك منه. توفى سنة ٢٤٦ هـ. وتجد أخباره فى الأغانى ج ١٨ ص ٢٩ وابن خلكان ج ١ ص ١٧٨ والشعر والشعراء ص ٥٣٩ والفهرست (ص ١٦١).

(٢) يريد أصواتا منسوبة الى حنين الحيرى المغنى.

(٣) يريد أصواتا منسوبة الى معبد المغنى.

قـد ختَمَ الصَّـكُّ بأرزاقكم * وصحّح العزمَ فـلا تسخَطوا
بَيْعَـةُ ابراهـيم مشـئومةٌ * يُقتَل فيها الخَلق أو يَقْحطوا

فقال له ابراهيم : فقد والله هجاك أنت يا أمير المؤمنين؛ فقال : دع هذا عنك فقد عفوت عنه فى هجائه إيّاى لقوله هذا، وضحك . ثم دخل أبو عبّاد، فلما رآه المأمون من بُعْـد قال لإبراهيم : دعبل يجسر على أبى عبّاد فى الهجاء ويُحجم عن أحد! فقال له : وكأن أبا عبّاد أبسط يدا منك يا أمير المؤمنين ؛ قال : لا ! ولكنّه حديد جاهل لا يؤمَن، وأنا أحْلُمُ وأصفح، والله ما رأيتُ أبا عباد مقبِلا إلا أضحكنى قولُ دعبل فيه :

أولى الأمورِ بضَيْعةٍ وفساد * أمرٌ يدبِّره أبـو عبّـاد
خَرِقٌ على جلسائه فكأنهم * حضَروا لمَلْحَمة ويومِ جِلاد
يَسـطو على كتّابه بِدَواته * فَمُضَمّخ بدم ونَضْح مِداد
وكأنه من دَيْرِ هِرْقِل مُفْلتٌ * حَرِد يجرّ سلاسـل الأقياد
فاشدُدْ أميرَ المؤمنين وَثاقه * فأصَحُّ منـه بقيّـة الحـدّاد

وكان «بقيّة» هذا مجنونا فى البيمارستان .

قال أبو خالد الخُزَاعى لدعبل : ويحك ! قد هجوتَ الخلفاءَ والوزراء والقوّاد ووتَرْتَ الناس جميعا، فأنت دهرَك كلّه شريدٌ طريد هارب خائف، فلو كففتَ عن هذا وصرفت هذا الشر عن نفسك! فقال : ويحك ! انى تأملتُ ما تقول فوجدت أكثر الناس لا يُنتفع بهم إلا على الرهبة ، ولا يبالَى الشاعر وإن كان مُجيدا اذا لم يُخَف شرّه ، ولَمَنْ يتّقيك على عرضه أكثر ممن يرغب اليك فى تشريفه ، وعيوبُ الناس أكثر من محاسنهم، وليس كل من شرّفتَه شَرُف، ولا كل من وصفته بالجود والمجـد والشجاعة ولم يكن ذلك فيـه انتفع بقولك، فاذا رآك أوجعتَ عِرْض غيره وفضحتَه اتّقاك وخاف من مثل ما جرى على الآخر، ويحك يا أباخالد! إن الهجاء المقذع آخَذُ بضَبْع الشاعر من المديح المضرع؛فضحك أبو خالد وقال : هذا والله مقال من لا يموت حَتْفَ أنفه .

. كان سببُ خروج دعبل من الكوفة أنه كان يتشطّر ويصحب الشُّطار، فخرج هو ورجل من أشجع فيما بين العشاء والعتمة، فجلسا على طريق رجل من الصيارفة، وكان يروح كل ليلة بكيسه الى منزله ، فلما طلع مقبلا اليهما وثبا اليه فجرحاه وأخذا ما فى كُمّه، فاذا هى ثلاث رُمّانات فى خِرْقة، ولم يكن كيسه ليلتئذ معه ، ومات الرجل مكانه ، واستتر دعبل وصاحبه وجدّ أولياء الرجل فى طلبهما وجدّ السلطانُ فى ذلك ، فطال على دعبل الاستتار فاضطر الى أن هرب من الكوفة، فما دخلها حتى لم يبق من أولياء الرجل أحد .

قال أحمد بن خالد : كنا يوما بدار صالح بن على من عبد القيس ببغداد ومعنا جماعة من أصحابنا، فسقط على سطح البيت ديك طار من دار دعبل ، فلما رأيناه قلنا : هذا صَيْدنا، فأخذناه، فقال صالح : ما نصنع به ؟ قلنا : نذبحه، فذبحناه وشويناه. وخرج دعبل فسأل عن الديك فعرف أنه سقط فى دار صالح، فطلبه منّا فجحدناه وشربنا يومنا، فلمّا كان من الغد خرج دعبل فصلّى الغداة ثم جلس على باب المسجد — وكان ذلك المسجد مجمع الناس يجتمع فيه جماعة من العلماء ويَنتابهم الناس — فجلس دعبل على باب المسجد وقال :

أَسَرَ المؤذّنَ صالحٌ وضيوفُه * أسْرَ الكَمِىّ هَفَا خلال الماقط
بعثوا عليه بَنِيهمُ وبَناتِهم * من بين ناتفة وآخر سامط
يتنازعون كأنهم قد أوثقوا * خاقان أو هزموا قبائلَ ناعط (١)
نَهَشوه فانتُزِعت له أسنانُهم * وتهشّمت أقفاؤُهم بالحائط

فكتبها الناس عنه ومَضوا ؛ فقال لى أبى، وقد رجع الى البيت : ويحكم ! ضاقت عليكم المآكل فلم تجدوا شيئا تأكلونه سوى ديك دعبل! ثم أنشدنا الشعر، وقال : لا تدع ديكا ولا دَجاجة تقدِر عليه إلا آشتريته وبعثتَ به الى دعبل وإلا وقعنا فى لسانه؛ ففعلتُ ذلك.

قال أحمد بن أبى كامل : كان دعبل ينشدنى كثيرا هِجاءً له ، فأقول له فيمن هذا ؟ فيقول ما آستحقّه أحدٌ بعينه بعد، وليس له صاحب، فاذا وَجد على رجل جعل ذلك الشعر فيه وذكر آسمه فى الشعر .

(١) قبيلة من همدان، وأصله جبل نزلوابه فنسبوا اليه .

كان دعبل يختلف الى الفضل بن العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث، وهو خرّجه وفهّمه وأدّبه، فظهر له منه جَفاء وبلغه أنه يَعيبه ويذكره وينال منه، فقال يهجوه :

يا بُؤْس للفضل لو لم يأت ما عَابَهْ * يستفرغ السّمّ من صَماء قِرضَابَهْ

ما إن يزال وفيــه العيبُ يجمعه * جهلا لأعراض أهلِ المجد عيّابهْ

إن عابنى لم يَعِبْ إلا مؤدِّبه * ونفســه عاب لما عاب أدّابهْ

فكان كالكلب ضَرّاه مكلِّبه * لغــيره فعــدا فاصطاد كلّابهْ

كان دعبل يقول : ما كانت لأحد قط عندى منّة إلا تمنّيتُ موته .

كتب دعبل الى أبى نَهْشَل بن حُمَيد الطُّوسى قوله :

إنما العيشُ فى مُنادمة الإخوا * ن لا فى الجلوس عند الكَعاب

وبصِرف كأنها ألْسُن البر * قِ اذا استعرضَتْ رقيقَ السّحاب

إن تكونوا تركتُمُ لذةَ العيـ * ـش حِذارَ العِقاب يومَ العقاب

فدعونى وما ألذّ وأهــوى * وادفعوا بى فى صدر يوم الحساب

قال محمد بن زكريا الفرغانى : سمعت دعبلا يقول فى كلام جرى «لَيْسَك» فأنكرته عليه؛ فقال : دخل زيد الخَيْـل على النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : «يا زيد ما وُصِف لى رجل إلا رأيتُه دون وصفه لَيْسَك» يريد غيرك .

قال عمرو بن مَسْعَدة : حضرتُ أبا دُلَف عند المأمون وقد قال له المأمون : أى شىء تروى لأخى خُزَاعة يا قاسم؟ فقال: وأىّ أخى خزاعة يا أمير المؤمنين؟ قال: ومَنْ تعرف فيهم شاعرا؟ فقال: أمّا من أنفُسهم فأبو الشِّيص ودعبل وابن أبى الشِّيص وداود بن أبى رزين، وأما من مواليهم فطاهر وابنه عبد الله ، فقال : ومن عسى من هؤلاء أن يُسأل عن شعره سوى دعبل ! هات أىّ شىء عندك فيه؛ فقال: وأى شىء أقول فى رجل لم يسلَم عليه أهلُ بيتــه حتى هجاهم، فقرَن إحسانَهم بالإساءة وبذْلهم بالمنع وجودهم بالبخل، حتى جعل كل حسنة منهم بإزاء سيئة منه؛ قال : حين يقول ماذا؟ قال : حين يقول فى المطّلب بن عبد الله

آبن مالك، وهو أصدق الناس له وأقربهم منه، وقد وفد اليه الى مصر فأعطاه الجزيل وولّاه، ولم يمنعه ذلك أن قال فيه :

اِضربْ نَدَى طَلْحَةِ الطَّلَحات متئدا * بلؤم مطَّلِبٍ فينا وكن حَكَما

تُخْرِجْ خُزَاعةَ من لؤم ومن كَرَم * فلا تُحِسّ لها لؤما ولا كرما

فقال المأمون : قاتله الله ! ما أغوَصَه وألطفه وأدهاه، وجعل يضحك. ثم دخل عبد الله آبن طاهر فقال : أى شيء تحفظ يا عبد الله لدعبل؟ فقال : أحفظ أبياتا له فى أهل بيت أمير المؤمنين؛ قال : هاتها ويحك ! فأنشده :

سَقْيًا ورَعْيًا لأيام الصَّبَابات * أيام أرفُل فى أثواب لذّاتى

أيام غصنى رطيبٌ من لَيانته * أصبو الى غير جاراتٍ وكَنَّات

دع عنك ذكر زمان فات مَطلبُه * وآقذف برحلك عن مَتْن الجَهَالات

وآقصِد بكل مديح أنت قائلُه * نحو الهُداة بنى بيت الكَرَامات

فقال المأمون: إنه قد وجد والله مقالا فقال،ونال ببعيد ذكرهم ما لا يناله فى وصف غيرهم.

ومن قول دعبل وفيه غناء :

أَيْنَ الشباب وأَيّةً سلكا * لا أين يُطلب ضَلّ من هَلَكا

لا تعجبى يا سَلْمَ من رجل * ضحك المشيبُ برأسه فبكى

يا ليت شعرى كيف يومُكما * يا صاحبىّ اذا دَمى سُفِكا

لا تأخذوا بظُلامتى أحدًا * قلبى وطَرْفى فى دمى آشتركا

قال إبراهيم بن المدبّر : لقيت دعبل بن على فقلت له : أنت أجْسَرُ الناس عندى وأقدمهم حيث تقول :

إنى من القوم الذين سيوفُهم * قتلَتْ أخاك وشرّفتك بمَقْعَد

رفعوا محلّك بعد طول خموله * وآستنقذوك من الحضيض الأوْهَد

وأولها :

أخذ المشيبُ من الشباب الأغيدِ * والنائباتُ من الأنام بمَرْصد

فقال : يا أبا اسحاق، أنا أحمل خَشَبتى منذ أربعين سنة، فلا أجد من يصلبنى عليها .

كان دعبل يخرج فيغيب سنين يدُور الدنيا كلها ويرجع وقد أفاد وأثرى، وكانت الشُراة والصّعاليك يلقَوْنه فلا يؤذونه ويؤاكلونه ويشاربونه ويبرّون به، وكان اذا لقيهم وضع طعامه وشرابه ودعاهم اليه ودعا بغلاميه : نفنف وشعف ، وكانا مغنيين ، فأقعدهما يغنّيان وسقاهم وشرب معهم وأنشدهم، فكانوا قد عرفوه وألِفوه لكثرة أسفاره، وكانوا يواصلونه ويصلونه . وأنشد دعبل لنفسه فى بعد أسفاره :

حلّتْ مَحَلّا يقصُر البرقُ دونه * ويعجز عنه الطيفُ أن يتجشَّما

قال البحترى : دعبل بن على أشعر عندى من مسلم بن الوليد، لأن كلام دعبل أدخل فى كلام العرب من كلام مسلم، ومذهبه أشبه بمذاهبهم؛ وكان يتعصّب له .

كان المعتصم يُبْغض دعبلا لطول لسانه. وبلغ دعبلا أنه يريد اغتياله وقتله ، فهرب الى الجبل؛ وقال يهجوه :

بَكى لشَتات الدين مكتئبٌ صبٌّ * وفاض بفَرْط الدمع من عينه غَرْبُ

وقام إمام لم يكن ذا هِداية * فليس له دين وليس له لُبّ

وما كانت الأنباءُ تأتى بمثله * يُملَّك يوما أو تدين له العُرْب

ولكن كما قال الذين تتابعوا * من السّلَف الماضين اذ عظُم الخطب

ملوك بنى العباس فى الكُتْب سبعةٌ * ولم تأتنا عن ثامن لهم كُتُب

كذلك أهلُ الكهف فى الكهف سبعةٌ * خِيارٌ اذا عُدّوا وثامنهم كَلْب

وإنى لأُعلِى كلبَهم عنك رفعةً * لأنك ذو ذَنْب وليس له ذنب

لقد ضاع مُلك الناس اذ ساس مُلكَهم * وصَيفٌ وأَشناس وقد عَظُم الكرب

وفَضْل بن مروان يُثَلِّم ثُلمةً * يظل لها الإسلام ليس له شَعْب

لما مات المعتصم قال محمد بن عبد الملك الزيات يرثيه :

قد قلتُ إذ غيّبوه وآنصرفوا * فى خير قبر لخير مدفون
لن يجبر اللهُ أمّةً فقدتْ * مثلك إلا بمثل هارون

فقال دعبل يعارضه :

قد قلتُ إذ غيّبوه وآنصرفوا * فى شرّ قبر لشر مدفون
اذهب الى النار والعذاب فما * خَلْقُك إلا من الشياطين
ما زلت حتى عقدتَ بَيْعةَ مَنْ * أضرّ بالمسلمين والدين

وقال فى ذلك وفى قيام الواثق :

الحمدُ لله لا صَبْرٌ ولا جَلَدُ * ولا عزاءٌ اذا أهلُ البَلَا رقدوا
خليفةٌ مات لم يحزَن له أحد * وآخَرٌ قام لم يفرح به أحد

ولقد أحسن فى وصف سفر سافره، فطال ذلك السفر عليه، فقال فيه :

ألم يَأْنِ للسَّفْر الذين تحمّلوا * الى وطنٍ قبل الممات رجوع
فقلت ولم أملِك سوابِقَ عَبْرة * نَطَقْن بما ضُمّت عليه ضلوع
تبيّنْ فكم دارٍ تفرّق شملُها * وشَمْلٍ شتيتٍ عاد وهو جميع
كذاك الليالى صَرْفُهنّ كما ترى * لكل أناس جَدْبةٌ ورَبيع

ثم قال : ما سافرتُ قط إلا كانت هذه الأبيات نصب عينى فى سفرى وهِجِّيرَاى ومسليتى حتى أعود .

ومن قول دعبل وفيه غناء :

سَرَى طيفُ ليلى حين آن هُبُوبُ * وقضّيت شوقا حين كاد يذوب
فلم أرَ مطروقًا يحلّ برِحلة * ولا طارقا يَقرِى المُنَى ويُثيب

ومن قوله :

لقد عجبتْ سَلْمى وذاك عجيبُ * رأت بى شيبا عجّلته خُطوبُ
وما شيّبتنى كَبْرةٌ غير أننى * بدهرٍ به رأسُ الفطيم يَشيب

وقال فى صالح بن عطية الأضجم وكان من أقبح الناس وجها، وخاطب فيها المعتصم :

قل للإمام إمامِ آل محمـــد * قول امرئ حدِبٍ عليك محامِ
أنكرت أن تفترّ عنـك صنيعةٌ * فى صالح بن عطيّة الحجّام
ليس الصنائع عنده بصنائع * لكنهن طوائلُ الإســلام
اضربْ به جيشَ العـدوّ فإنه * جيشٌ من الطاعـون والبِرْسام

قال أبو تمـام : ما زال دعبل مائلا إلى مسلم بن الوليد مقرّا بأُستاذيته، حتى ورد عليه جُرجان بجفاه مسلم، وكان فيه بخل، فهجره دعبل وكتب اليه :

أبا مخـلدٍ كنا عقيـدَى مودّة * هـوَانا وقلْبانا جميعـا معًا معا
أحوطك بالغيب الذى أنتَ حائطى * وأجزع إشـفاقا مِنَ انْ تتوجّعـا
فصيّرتنى بعـد انتكاثك متّهِما * لنفسى عليها أرْهَبُ الخلق أجمعـا
غششتَ الهوى حتى تداعت أصولُه * بنا وابتذلتَ الوصـلَ حتى تقطّعا
وأنزلتَ من بين الجوانح والحشى * ذخـيرةَ ودٍّ طالمـا قـد تمنّعـا
فلا تلحَينِّى ليس لى فيـك مطمعٌ * تخرّقتَ حـتى لم أجـد لك مرقعا
فهبْك يمينى استأكلتْ فقطعتُهـا * وجشّمتُ قلبى صـبرَه فتشجّعـا
ثم تهاجرا فما التقيا بعد ذلك .

اجرى الرشيد على دعبل رزقا سنّيا ، فكان أوّل من حرّضه على قول الشعر ، فوالله مابلغه أن الرشيد مات حتى كافأه على فعله من العطاء السنىّ والغنى بعد الفقر والرفعة بعد الخمـول بأقبح مكافأة ، وقال فيه يهجوه من قصيدة مدح بها أهلَ البيت عليهم السلام :

وليس حىٌّ من الأحياء نعلمه * من ذى يمانٍ ومن بكرٍ ومن مُضَر
إلا وهم شركـاءُ فى دمائهـمُ * كما تَشَارك أيسارٌ عـلى جُزُر
قتـلٌ وأسْرٌ وتحـريقٌ ومَنْهَبةٌ * فِعلَ الغُـزاة بأرض الروم والخزَر
أرى أميّةَ معذورين إن قتلوا * ولا أرى لبـنى العباس من عُذُر

أربعْ بِطُوس على القبر الزكىّ اذا * ما كنت تَرْبع من دِين على وطر
قبْران فى طوسَ خيرُ الناس كلهم * وقــبرُ شرِّهمُ هــذا من العِــبرَ
ماينفع الرِّجسَ من قرب الزكىّ ولا * على الزكىّ بقرب الرِّجس من ضرر
هيهات، كلّ امرىءٍ رَهْنٌ بما كسبتْ * له يداه فخُــذْ ماشئتَ أو فذَرِ

استدعى بعض بنى هاشم دعبلا وهو يتـولى للمعتصم ناحية من نواحى الشام، فقصده اليها فلم يقع منه بحسن ظن وجفاه، فكتب اليه دعبل :

دلّيتنى بغــرورٍ وعدك فى * مُتَلاطم من حَوْمة الغَــرَق
حتى إذا شمت العدوّ وقد * شُهِرَ انتقاصك شُهْرة البَلَق
أنشأت تحلف أن ودّك لى * صافٍ وحبلك غير منحذِق
وحسبتنى فَقْعًا بقَــرْقَرَة * فوطِئتَنى وَطْئًا على حَنَق
ونصبتَنى عَلَمًا على غَرَض * ترمِينى الأعداءُ بالحَــدَق
وظننتَ أرضَ الله ضَيِّقةً * عنّى وأرضُ الله لم تَضِــق
من غير ما جُرمٍ سوى ثِقةٍ * منّى بوعدك حين قلتَ ثِقِ
ومــودّةٍ تحنو عليــك بهــا * نفسى بلا مَنٍّ ولا مَلَق
فــتى سألتُك حاجةً أبدا * فاشـــددْ بها قُفْلا على غَلَق
وقَفَ الإخاءُ على شَفَا جُرُف * هارٍ فبِعْــه بَيْعَــة الخَلَق
وأعِدّ لى قُفْــلا وجامعةً * فاشدد يدىّ بهــا إلى عنقى
أعفيك ممــا لا تحبّ بها * وأسُدُّ على مذاهب الأُفُق
ما أطولَ الدنيا وأعرضَها * وأدَلّنى بمســالك الطُــرُق

دخل دعبل على عبد الله بن طاهر فأنشده وهو ببغداد :

جئتُ بلا حُرْمة ولا سببِ * إليــك إلّا بحرمة الأدَبِ
فاقضِ ذِمامى فإننى رجــلٌ * غــير مُلِحٍّ عليك فى الطَّلب

فانتقل عبد الله ودخل الحَرَم ووجّه اليه بصُرّة فيها ألف درهم ، وكتب اليه :

أعجلتنا فأتاك عاجـــلُ بِرِّنا * ولو انتظرت كثيرَه لم يقلل

فخذ القليلَ وكن كأنك لم تقُل * ونكون نحن كأننـــا لم نفعل

مات دعبل بقرية من قُرَى السُّوس ، بعث اليه مالك بن طَوْق من ضرب ظهره بعكّاز لها زُجٌّ مسموم فمات من غد .

٤ — حسين بن الضّحّاك (١)

« شاعر (٢) ظريف شديد الظّرف، ربما ٱنقطع نظيرهُ فى شعراء العصر العبّاسى كلّه ، وهو مع ظرفه وإسرافه فى المجون ، قليلُ الفحش فى اللفظ . غير مُتَهالِك على القول الآثم والألفاظ المنكَرة، لا يتخيّرها ولا يقصد اليها، وإنما يَعْرِض لها اذا ٱضطُرّ اليها ٱضطرارا وهو على ظرفه ورقّة حاشيته وحِرْصه على نَقَاء اللفظ وطُهره شاعر بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة، مجوِّد اذا فكّر، مظفّر اذا بحث، موفّق الى اللفظ المتين، والأسلوب الرّصين فى غير جفوة ولا غِلظة ، لا يعرف التكلّف فى لفظ ولا معنى، وإنما ينطلق لسانه مع سجيته ، وسجيّته سهلة مرسَلة غنيّة غزيرة المادة، لا تكاد تنضُب، ولا ينالها إعياء أو كَلال، وحياته كلها عِبَر وعظات ولكنها عبر وعظات مبتسمة ليست بالمظلمة ولا العابسة ولا بالتى تردّك وتنفّرك، وتجعل للحزن والأسى الى قلبك سبيلا، ولعلك لا تجد من شعراء هذا العصر رجلا مثله ، تقرأ أخباره فتظلّ مبتسما منذ تبتدئ الى أن تنتهى دون أن تَعْبِس أو تقطب . وربما تجاوزتَ الآبتسام الى الإغراق فى الضحك من حين الى حين، ولكنك لن تترك الآبتسام الى الحزن الشديد. وربما ٱعترضتك فى طريقك سحابة محزنة ولكن هذه السحابة رقيقة هادئة هيّنة، فهى أضعف من أن تزيل ٱبتسامتك. وكان هذا الشاعر من المعمّرين، بلغ المائة أو كاد ، وعاصر طبقاتٍ من الشعراء، وألوانا من حاشية الخلفاء ، ولكنه ظلّ محتفظا بشخصيّته الوادعة المبتسمة ، تغيّر النـاسُ وٱختلفت الظروف ، وظلّ هو واحدا

---

(١) هو مولى باهلة، ولد فى البصرة ونشأ فيها ونادم الخلفاء من بنى العباس ، وكان خليعا فاسدا وكان مع ذلك حسن التصرف فى النظم ولشعره قبول ورونق ، فهو من المتفننين وله معان جديدة فى الخمر كان أبو نواس يأخذها عنه ، ومع أن أبا نواس مات سنة ١٦٨ هـ ، والضحاك مات سنة ٢٥٠ هـ فقد تعاصرا لأن مولدهما متقارب لأن ابن الضحاك عمر كثيرا . وهو أوّل من نادم الأمين وله فيه مدائح كثيرة، وعمر عمرا طويلا حتى قارب مائة السنة ومات فى خلافة المستعين أو المنتصر. وتجد أخباره فى الأغانى (ج ٦ ص ١٧٠) وابن خلكان (ج ١ ص ١٥٤ .

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية .

لم يتغيّر. كان خليعا، بل كان يُعرف بالخليع، وكان كثيرَ المجون مُسْرفا فيه، وما أحسب أن أبا نواس سبقه الى لذّة أو برز عليــه فى مأثم، ولكنه على خلاعتــه و إسرافه فى المجون وتهالُكه على اللذات، احتفظ طول حيــاته بشىء من كرم الخلق وطهارة العنصر وجَوْدة الأصل، كأنما كانت هذه اللّذات والآثام تنزلق على نفسه وأخلاقه انزلاقا دون أن تترك فيها أثرا باقيا، و إنمــا كانت الآثار التى تتركها لياليه الساهرة، وأيامه المملوءة بالعَبَث، هذه الأشعار الجميلة الحلوة التى سأظهرك على طرف منها .

فلم يكن هذا الرجل كغيره من الشعراء الذين إنمــا كانوا يَصلون الى الخلفاء بعد الجهد والكَدّ، و بعد التلطّف وحسن الحيلة، و إنما كان متصلا بالخلفاء آتّصالا شديدا، يعاشرهم و يرافقهم ويتدخّل فى حياتهم الخاصة، وربمــا تدخّل الى أكثر ممــا ينبغى . وكان الخلفاء يبحثون عنه، ويَحْرِصون على عشرته ويبذلون فى ذلك غير قليل من الإلحاح والعطاء، وكان شعره كله أو أكثره مرآة لحياة القصر فى أيام طائفة غير قليلة من الخلفاء » .

فترى من هذا الوصف أنه شاعر أديب ظريف مطبوع، حسن التصرّف فى الشعر حلو المذهب، لشعره قَبُول ورونق صاف، وكان أبو نواس يأخذ معانيــه فى الخمر فيُغــير عليها، واذا شاع له شعر نادر فى هذا المعنى نسبه الناس الى أبى نواس، وله معان فى صفتها أبدع فيها، وهاجَى مسلمَ بن الوليد فانتصف منه، وله غزل كثير جيّد، وهو من المطبوعين الذين تخلو أشعارهم ومذاهبهم جملة من التكلّف .

قال : أنشدت أبا نواس قصيدتى التى قلتها فى الخمر وهى :

بُدِّلتَ من نَفَحات الورد بالآء (١) * ومن صَبُوحك درَّ الإبْل والشّاء

فلما انتهيتُ منها الى قولى

حتى اذا أُسْنِدت فى البيت وآحْتُضِرت * عنــد الصّبوح بَسّامين أكفاء

فُضَّت خواتمهــا فى نَعْت واصــفها * عن مثــل رَقراقــة فى جفن مَرْهاء (٢)

---

(١) الآء : ثمر شجر واحدته آءة . (٢) المرهاء : التى لا تكتحل .

فصُعق صعقة أفزعتْنى وقال : أحسنتَ والله يا أشقر، فقلت : ويلك يا حسن، إنك أفزعتَنى والله، فقال : بلى والله أنت أفزعتَنى ورُعتنى، هذا معنى من المعانى التى كان فكرى لابد أن ينتهى اليها أو أغوص عليها وأقولها، فسبقتَنى اليه وٱختلستَه منّى، وستعلم لمن يُروى ألِى أم لك؟ فكان والله كما قال، سمعت من لا يَعْلَم يرويها له :

لمـا قدم المأمون من خراسان أمر بأن يُسَـمّى له قوم من أهل الأدب ليجالسوه ويسامروه، فذُكِر له جمـاعة فيهم الحسين بن الضّحّاك، وكان من جلساء محمد المخلوع ، فلما رأى ٱسمَه قال : أليس هو الذى يقول فى محمد :

هـلا بقيتَ لسَـدّ فاقتنـا * أبدا وكان لغـيرك التَّلَفُ

فلقد خَلَفْتَ خلائفا سَلَفوا * ولسوف يُعْوِز بعدك الخَلَف

لا حاجة لى فيه، والله ولا يرانى أبدا إلا فى الطريق، ولم يعاقب الحسين على ما كان من هجائه له وتعريضه به، وٱنحدر حسين الى البصرة فأقام بها طول أيام المأمون .

قال أبو صالح بن الرشيد : دخلت يوما على المأمون ومعى بيتان للحسين بن الضحاك، فقلت : يا أمير المؤمنين، أُحب أن تسمع منى بيتين، فقال : أنشِدْهما، فأنشدتهما :

حمـــدنا الله شكرًا إذ حَبَانا * بنصرك يا أمـــير المؤمنينا

فأنت خليفـــة الرحمن حقّا * جمعت سماحة وجَمعتَ دِينا

فقال : لمن هذان البيتان ؟ فقلت : لعبدك يا أمير المؤمنين حسين بن الضحاك، قال : قد أحسن، فقلت : وله يا أمير المؤمنين أجود من هذا، فقال : وما هو؟ فأنشدته قولَه :

أَجِرْنى فإنى قد ظَمِئتُ الى الوعد * متى تُنجِز الوعدَ المؤكدَ بالعَهْـــد

أُعيذُك من خُلف الملوك وقد بدا * تَقطّع أنفاسٌ عليك من الوَجْــد

أيبخــل فَرْدُ الحسن عـنى بنائل * قليـــلٍ وقد أفردتُه بهـــوًى فَرْد

رأى اللهُ عبـــدَ الله خيرَ عبـاده * فملّكـه والله أعـــلم بالعبـــد

ألا إنمـا المأمون للنـاس عصمة * ممـــيِّزة بين الضّلالة والرشـــد

فاطرق ساعة ثم قال : ما تَطيب نفسى له بخير بعد ما قال فى أخى محمد ما قال .

ومن قوله يرثى محمدا الأمين :

أطِلْ حَزَنا وأبكِ الإمام محـــمدا * بحزن وإن خفتَ الحسام المهندا

فــلا تَمّتِ الأشياءُ بعد محمـــد * ولا زال شَمْل الملك منها مُبَــدّدا

ولا فرِح المأمونُ بالملك بعـــده * ولا زال فى الدنيا طريدا مشرَّدا

ولحسين فى محمد الأمين مَرَاثٍ كثيرة جيادٌ، وكان كثير التحقّق به والموالاة له لكثرة إفضاله عليه، وميله اليــه، وتقديمه إياه، وبلغ من جزعه عليه أنه خُولِط فكان يُنكر قتــله لمــا بلغه ويدفعه ويقول: إنه مستتر وأنه قد وقف على دُعاته فى الأمصار يدعون الى مراجعة أمره والوفاء ببيعته ضَنّا به وشفقة عليه .

ومن جيّد مراثيه إياه قوله :

سألونا أَنْ كيف نحن ؟ فقلنا * من هَوَى نجمُــه فكيف يكون؟

نحن قوم أصابنا حَدَثُ الدهـ * ـر فظَلْنا لريْبـــه نستكين

نتمــنى من الأمين إيابا * لَهْفَ نفسى وأين منّى الأمين

ومن جيّد قوله فى مراثيه إياه .

أُعَزّى يا محمـــدُ عنك نفسى * معاذ الله والأيدى الجسامِ

فهـــلّا مات قومٌ لم يمــوتوا * ودُوفع عنــك لى يومَ الحِمام

كأن الموت صادَف منك غُنْما * أو آستشفى بقربك من سَقَام

وقال أيضا يرثيه :

يا خير أسْرته وإن زَعمــوا * إنّى عليــك لَمُثبَتٌ أَسِفُ

الله يعــلم أن لى كــبدا * حَرّى عليك ومقلةً تَكِف

ولئن شَجِيتُ بما رُزِئتُ به * إنى لأُضْمِر فوق ما أَصِف

هلّا بَقِيتَ لسَـــدّ فاقتنــا * أبدا وكان لغــيرك التَّلَف

فلقد خَلَفتَ خلائفا سَلفوا * ولسوف يَعْوِز بعدك الخلف

لابات رَهْطُك بعد هفوتهم * إنى لرهطك بعدها شَنِف (١)
هَتكوا بحرمتك التى هُتِكت * حُرَم الرسول ودونها السُّجُف
وثَبَتْ أقاربُك التى خَذَلتْ * وجميعُها بالذّل معترف
لم يفعلوا بالشَّطِّ إذ حضروا * ما تفعل الغَيْرانةُ الأنُفُ
تركوا حريمَ أبيهم نَفَلا * والمُحْصَناتُ صوارِخٌ هُتُفُ
أبدت مُخَلْخَلَها على دَهَش * أبكارُهنَّ ورَنَّت النَّصَفُ
سُلِبَت مَعاجِرُهنّ (٢) واجْتُلِيت * ذاتُ النِّقاب ونُوزِع الشَّنَف
فكأنهنّ خِلالَ مُنْتَهَب * دُرٌّ تكشَّف دونَه الصَّدَف
مَلِكٌ تخوّن مُلْكَه قدَرٌ * فوَهَى وصرفُ الدهر مختلِف
هيهاتَ بعدك أن يدوم لنا * عزٌّ وأن يبقى لنا شَرَف
لا هَيَّبُوا صُحُفًا مشرَّفة * للغادرين تحتها الجَدَف
أفبَعْدَ عهد الله تقتُلُه * والقتل بعد أمانةٍ سَرَف
فستعرِفون غدا بعاقبة * عزَّ الإله فأوْرِدُوا وقِفُوا
يامن يُخَوِّن نومه أرَقٌ * هَدَتِ الشجونُ وقلبهُ لَهِف
قد كنتَ لى أملا غَنِيتُ به * فمضى وحلّ محلَّه الأَسَف
مَرِجَ النِّظام وعاد مُنْكَرُنا * عُرْفا وأُنكِر بعدك العُرُف
فالشملُ منتشِر لفقدك والـ * ـدُّنيا سُدًى والبالُ منكسف

وقال أيضا يرثيه:

اذا ذُكِر الأمينُ نَعَى الأمينا * وإن رقَد الخَلِيّ حَمَى الجُفُونا
وما بَرِحتْ منازلُ بين بُصرى * وكَلْواذَى تُهَيِّج لى شجونا
عِراصُ الملك خاويةٌ تَهادى * بها الأرواح تَنْسِجُها فنونا

(١) مبغض متنكر. (٢) جمع معجر بالكسر وهو ثوب تعتجر به المرأة أى تشده على رأسها.

تخـوّن عزَّ ساكنهـا زمانٌ * تلعّب بالقرون الأوّلينـا
فَشَتّتَ شملَهـم بعد اجتماع * وكنتُ بحسن أُلْفتهـم ضنينا
فلم أر بعـدهم حُسْنا سِـواهم * ولم تَرَهُـم عيونُ الناظرينـا
فوا أسَفَا وإن شَمَت الأعادى * وآهِ على أمـير المؤمنينـا
أضَلّ العُرفَ بعـدك مُتْبِعوه * ورُقّـه عن مطايا الراغبينا
وكنّ الى جنابك كلّ يـوم * يَرُحْنَ على السّـعود ويغتدينا
هو الجبلُ الذى هوت المعالى * لِهَـدّته وريع الصّـالحونا
ستندُب بعدك الدنيـا جِوارا * وتنـدب بعدك الدينَ المصونا
فقد ذهبت بشاشةُ كلّ شيء * وعاد الدين مطروحا مَهِينا
تعقّـد عزُّ مُتّصِـلٍ بكسرى (١) * ومِلّتــه وذَلّ المســلمونا

وقال أيضا يرثيه :

أسَفًا عليك سَلاك أقربُ قُرْبَةً * منّى وأحزانى عليــك تزيد

قال أبو العباس محمد بن يزيد الأزْدى: حسين بن الضحاك أشعر المحدّثين حيث يقول:

أىُّ ديباجـةِ حُسْنٍ * هيّجتْ لوعةَ حزنى
إذ رمانى القمـرُ الزا * هر عن فَـتْرة جفن
بأبى شمسُ نهـار * برزتْ فى يوم دَجْن
قرّبتنى بالمـنى حتـ * ى اذا ما أخلفتــنى
تركتنى بين ميعـا * د وخُلْف وتجنّ
ما أرى فىَّ من الصّبْـ * ـوة إلّا حسنَ ظنى
إنمـا دامت على الغد * ر لمـا تعرف مِــنّى
أستعيذ اللهَ من إعرا * ض من أعرضَ عنّى

(١) استحكم .

لمـا وَلِى المعتصم أمر بمكاتبته بالقدوم عليه ، فلمـا دخل وسلّم ٱستأذنه فى الإنشاد، فأذِن له ، فأنشده قولَه :

هــلّا سألتَ تــلذّذ المشتاق * ومَنَنْتَ قبــلَ فراقه بتَـلَاق
إن الرقيب ليَستريب تنفُّسًا * صُـعُدا إليك وظاهر الإقلاق
ولئن أُرِبْتُ لقد نظرتُ بمقلَة * عَبْرى عليك سَخينــة الآماق
نفسى الفــداءُ لخائفٍ مترقِّبٍ * جَعَــل الوداع إشارةً بعنـاق
إذ لا جوابَ لمُفْحَمٍ متحــيِّرٍ * إلا الدموع تُصـان بالإطراق

حتى ٱنتهى الى قوله :

خيرُ الوفود مبَشِّر بخلافـــة * خَصّتْ ببهجتهـا أبا إسحاق
وافته فى الشهر الحرام سليمةً * من كل مشكلة وكل شِقاق
أعطته صفْقتَها الضمائرُ طاعةً * قبل الأَكُفِّ بأوكَد المِيثاق
سكنَ الأنامُ الى إمام سَلامةٍ * عَفِّ الضمير مهذّب الأخلاق
فحمى رعيّتَــه ودافع دونَهـا * وأجار مُمْلِقَهـا من الإملاق

حتى أتمّها، فقال له المعتصم : ٱدْنُ منى ، فدنا منه ، فملأ فَمه جوهرا من جوهر كان بين يديه، ثم أمره بأن يخرجه من فمه ، فأخرجه وأمر بأن يُنْظَم ويدفع اليه ويخرج الى النـاس وهو فى يده، ليعلموا موقعه من رأيه ، ويعرفوا فضله ، فكان أحسن ما مُدِح به يومئذ .

ومن شعره قوله :

أمينَ الله ثِقْ بالـلـ * ـه تُعْطَ الصبر والنُّصْرَهْ
كِلِ الأمرَ الى الله * كَلاك الله ذو القُـدره
لنـا النصر بعــون الله * والكَرّة لا الفَــرّه
وللُــرّاق أعــدا * ئك يومُ السوء والدَّبْره
وكأس تلفِظ المــوت * كريهٍ طعمُهـا مُرّه

سَقونا وسـقيناهم * ولكن بهـم الحِرّه
كذاك الحرب أحيـانا * علينـا ولنـا مَرّه

ومن قوله فى غضب حظية للواثق من زيارته أخرى فى نوبتها :

غَضِبتْ أنْ زرتُ أخرى خِلْسةً * فلها العُتْـبى لَدَيْنـا والرِّضا
يا فَدَتْك النفس كانت هَفْـوةً * فاغفريها وآصفحى عمـا مضى
وآتركى العَـذْل على من قاله * وآنسُبى جَوْرى الى حكم القضا
فلقـد نبهتِنى من رَقْـدتى * وعلى قلـبى كنيران الغَضا

كان الواثق يتحظّى جارية له فماتت، فجزع عليها وترك الشراب أياما، ثم سلاها وعاد الى حاله ، فدعا الحسين ليـلة وقال له : رأيت فلانة فى النوم فليت نومى كان طال قليلا لأتمتع بلقائها، فقل فى هذا شيئا، فقال :

ليت عينَ الدهر عنا غَفَلت * ورقيبَ الليـل عنا رَقَـدا
وأقام النـوم فى مـدّته * كالذى كان وكنّا أبدا
بأبى زَوْرٌ تلفّـتُّ له * فتنفستُ اليـه الصُّـعَدا
بينما أضحـك مسرورا به * إذ تقطّعتُ عليـه كَبِدا

لمـا أعيته الحيلةُ فى رضا المأمون عنه رمى بأمره الى عمرو بن مَسْعَدَة وكتب اليه :

أنت طَوْدى من بين هذى الهضاب * وشِهابى من دون كل شهاب
أنت يا عمـرو قُوّتى وحيـاتى * ولسـانى وأنت ظُفُـرى ونابى
أتُرانى أنسى أياديَك البيـ * ـض اذا آسودّ نائل الأصحـاب
أين أخـلاقك الرضـيّة حالت * فىّ أم أين رِقـة الكتّاب؟
أنا فى ذِمّـة السحاب وأظمآ؟ * إن هذا لَوَصمـةٌ فى السحاب
قم الى سـيّد البريّة عـنى * قومـةً تَسْتجرّ حُسْنَ الخطاب
فلعـل الاله يُطـفئُ عـنّى * بك نارا علـىّ ذات آلتهاب .

فلم يزل عمرو يُلْطِف للمأمون حتى أوصله اليه وأدرّ أرزاقه .

ولما عفا المأمون عنه أمر بإحضاره، فلما حضر سلّم ، فرد عليه السلام ردًا جافيا، ثم أقبل عليه فقال : أخبرنى عنك، هل عرفتَ يوم قُتِل أخى محمد هاشمّية قُتلت أو هُتكت ؟ قال : لا، قال : فما معنى قولك :

وسِرْب ظِباء من ذؤابة هاشم * هَتَفْن بدعوى خير حى وميّت
أُرُدّ يدًا منّى اذا ما ذكرتُه * على كبد حَرّى وقلبٍ مُفَتّت
فلا بات ليلُ الشامتين بغبطةٍ * ولا بَلَغت آمالُهم ما تمنّت

فقال : يا أمير المؤمنين ، لوعة غلبتنى، وروعة فاجأتنى، ونعمة فقدتُها بعد أن غمرتنى ، وإحسان شكرته فأنطقنى ، وسيّد فقدته فأقلقنى، فإن عاقبتَ فبحقّك ، وإن عطفت فبفضلك ، فدمعت عينا المأمون وقال : قد عفوتُ عنك ، وأمرتُ بإدرار رِزْقك ، وإعطائك ما فات منه، وجعلت عقوبتك آمتناعى من آستخدامك .

ومن قوله :

وكالوردة الحمراء حَيا بأحْمَر * من الورد يمشى فى قَراطِق كالورد
له عَبَثاتٌ عند كل تحيّة * بعينيه تَستدعى الحليمَ الى الوجد
تمنّيت أن أُسقَى بكفّيه شَرْبة * تذكّرنى ما قد نَسيتُ من العهد
سقى الله دهرا لم أَبِتْ فيه ليلةً * خَليّاً ولكن من حبيبٍ على وعد

ومن قوله :

وأبأبى مُفْحَم لعزّته * قلتُ له اذ خلوتُ مكتَتِما
تُحِبّ بالله من يخصّك بالـ * ـود فما قال لا ولا نَعَما
ثم تولّى بمُقْلَتَىْ خَجِل * أراد رَجْع الجواب فاحتشما
فكنت كالمُبتغى بحيلته * بُرءًا من السُّقم فابتدا سَقَما

وقال فى هوًى له :

عالِمٌ بحبّيه * مطرِق من التّيه
يوسفُ الجمالِ وفر * عونُ فى تعدّيه

لا وحـقّ ما أنا فيـ * ـه من عطفِ أُرَجّيه
ما الحيـاةُ نافعـة * لى عـلى تأبّيـه
النعـيم يَشـغَلُه * والجمـال يُطغيـه
فهـو غيرُ مكترث * للذى ألاقيـه
تائهٌ تُزَهِّـده * فىّ رغبتى فيـه

ومن قوله فى هوى له :

إن من لا أرى وليس يَرانى * نُصْب عينى مُمَثَّل بالأمانى
بأبى مَنْ ضميره وضميرى * أبدا بالمَغيب ينتجيان
نحن شخصان إن نظرت ورو * حان اذا ما آختبرت يمترجان
فاذا ما هَممتُ بالأمر أو همّ * بشىء بدأتُه وبدانى
كان وَفْقا ما كان منـه ومنّى * فكأنى حَكَيتُهُ وحَكانى
خطَرات الجفون منّا سـواءٌ * وسـواء تحـرّكُ الأبدان

ومن قوله :

فَدَيتُ من قال لى على خَفَـره * وغَضّ من جفنه على حَوَره
سَمّـع بأشـعارك المليـحَ فما * يَنفَـكُّ شَـاد بها على وَتَره
حسبك بعضُ الذى أذعتَ ولا * حَسْبٌ لِصَبّ لم يَقْض من وَطَره
وقلتُ يا مسـتعيرَ سالفـة الـ * ـخِشْف وحُسْنِ الفُتور من نَظَره
لا تنكِرِنّ الحبيبَ من طَرَب * عَاوَد فيـك الصِّبا على كِبره

ومن قوله :

سائل بطيفك عن لَيْلِى وعن سهرى * وعن تتـابع أنفاسى وعن فِكَرى
لم يَخْـلُ قلبىَ من ذكراك إذ نظرت * عينى اليـك على صَحْوى ولا سكرى
سَقْيًا ليـومِ سرورى إذ تُنـازِعنى * صفوَ المُدامة بين الأُنس والخَفَر

وفضلُ كأسك يأتيني فأشربه * جَهْرا وتشرب كأسى غير مُستتر
وكيف أشمله لثمى وألزمه * نحرى وترفعه كفّى الى بصرى
فليت مُدّة يومى إذ مضى سلَفا * كانت ومدّة أيامى على قَدَر
حتى اذا ما آنطوت عنّا بشاشته * صِرنا جميعا كذا جارَيْن فى الحُفَر

ومن قوله لهوًى كان له :

تَعَزَّ بيأسٍ عن هواىَ فإننى * اذا آنصرفت نفسى فهيهات عن ردّى
إذا خُنتُمُ بالغيب ودّى فمالكم * تُدِلّون إدلال المقيم على العهد
ولى منك بد فاجتنبنى مَذَمّما * وان خلتَ أنى ليس لى منك مِنْ بدّ

لما ولى الواثق الخلافة أنشده حسين :

أُكاتم وجدى فما يَنكتِمْ * بمن لو شكوتُ اليه رَحِمْ
وإنى على حسن ظنّى به * لأَحْذَر إن بُحتُ أن يحتشم
ولى عند لحظته رَوْعة * تحقّق ما ظنّه المتّهم
وقد علم الناس أنّى له * محبٌّ وأحسبه قد علِم
وإنى لمُغْضٍ على لوعة * من الشوق فى كبدى تَضطَرِم
عَشيّة ودّعت عن مقلة * سَفُوحٍ وزفرةِ قلبٍ سَدِم
فما كان عند النّوى مُسْعِد * سوى العين تمزج دمعًا بِدَم
سيذكر من بان أوطانَه * ويبكى المقيمين من لم يُقِم

كتب إلى الحسن بن رجاء فى يوم شَك، وقد أمر الواثق بالإفطار، فقال :

هززْتُك للصّبوح وقد نهانى * أميرُ المؤمنين عن الصّيام
وعندى من قِيان المِصر عَشْرٌ * تَطيب بهنّ عاتِقة المدام
ومِن أمثالهن اذا آنتشَينا * ترانا نجتنى ثمر الغرام
فكن أنتَ الجواب فليس شىء * أحبّ إلىّ من حَذْف الكلام

فوردت رقعته، وقد سبقه إليه محمد بن الحارث بن بُسْخُنَّر ووجّه اليه بغلامٍ نظيف الوجه ومعــه ثلاثة غِلمة أقران حِسان الوجه، ومعهم رُقعة كتبها كما تكتب المناشير، وختمها فى أسفلها وكتب فيها يقول :

سِرْ على آسم الله يا أشـ * ـكل من غصنٍ لُجَيْنِ
فى ثلاثٍ من بَنِى الرو * م إلى دار حسيـن
أَشْخِص الكهل الى مو * لاك يا قُــرّة عينى
أَرِه العُنْف اذا آستعـ * ـصى وطالِبــه بدَيْنِ
ودَعِ اللفــظ وخاطبـ * ـه بغمز الحاجبَيْنِ
وآحذر الرَّجعة من وجـ * ـهك فى خُفَّىْ حُنَيْن

فمضى معهم .

ومن قوله لمن أعرض عنه :

تَتيــه علينا أَنْ رُزِقْتَ ملاحةً * فمهلًا علينا بعضَ تيهك يا بَدْرُ
لقد طال ما كُنّا مِلاحا وربمـا * صـدَدنا وتِهنا ثم غيّرنا الدهرُ

وله فى هوى حُجِب عنه :

ظَنَّ من لاكان ظنًّـ * ـا بحـبيبى فحَـمَاه
أَرْصَــد البابَ رقيبـ * ـن له فاكْتَنَفاه
فإذا ما آشـتاق قربى * ولقـائى منَـعَـاه
جعــل اللهُ رقيبيـ * ـه من السُّوء فِــداه
والذى أقرح فى الشـا * دن قلبى ولوَاه
كلُّ مشتاق اليــه * فمن السُّوء فِـداه
سِيَّما من حالت الأحـ * ـراس من دون مُنَـاه

أمره المتوكل بأن ينادمه ويلازمه، فلم يطق ذلك لكبر سنه ، فقال المتوكّل بعض من حضر عنده : هو يُطيق الذهاب الى القُرى والمواخير والسكر فيها ويعجز عن خدمتك؛ فبلّغه ذلك، فدفع الى أحمد بن حَمْدون أبياتا قالها وسأله إيصالها، فأوصلها الى المتوكّل، وهى :

أما فى ثمانين وُفِّيتَها * عذيرٌ وإن أنا لم أعتَذِرْ
فكيف وقد جزتُها صاعدا * مع الصاعدين بتِسْع أُخَرْ
وقد رفع الله أقلامه * عن ابن ثمانين دون البشر
سوى من أصرّ على فتنة * وألْحَد فى دينه أو كفر
وإنى لمن أُسَراء الإله فى الأرض نصْبَ صُروف القَدَر
فإن يَقْضِ لى عملا صالحا * أثاب وإن يقض شرًّا غفر
فلا تَلْحَ فى كبرٍ هَدّنى * فلا ذنب لى أن بلغت الكبر
هو الشيب حَلّ بعقْب الشباب * فمن ذا يلوم اذا ما عذر
وإنى لَفى كَنَفٍ مُغْدِق * وعزٍّ بنصرِ أبى المُنتَصِر
يُبارى الرياح بفضل السما * ح حتى تَبَلّد أو تَحْسِر
له أكّد الوحىُ ميراثَه * ومن ذا يخالف وحى السُّوَر
وما لحسود وأشباهه * ومن كذّب الحقّ إلا الحجر

فلما أوصلها شيّعها بكلام يعذره وقال : لو أطاق خدمة أمير المؤمنين لكان أسعد بها ؛ فقال المتوكل : صدقت، وأمر له بعشرين ألف درهم .

٥ — محمد بن عبد الملك الزَّيَّات[1]

كان محمد شاعرا مُجيدا لا يُقاس به أحد من الكتّاب ، وإن كان إبراهيم بن العباس مثــله فى ذلك ، فإن إبراهيم مُقِلّ وصاحب قِصار ومقَطَّعات . وكان محمد شاعرا يُطيل فيُجيد، ويأتى بالقِصار فيجيد؛ وكان بليغا حسن اللفظ اذا تكلّم واذا كتب .

ولمــا تولى محمد الوزارة آشترط ألا يلبس القَبَاء، وأن يلبس الدُّرَّاعة ويتقلّد عليها سيفا بحمائل، فأُجيب الى ذلك .

وكان يقول : الرحمةُ خَوَرٌ فى الطبيعة ، وضَعْف فى المُنَّة ، ما رحِمتُ شيئا قط؛ فكانوا يطعنون عليه فى دينه بهــذا القول، فلما وُضِــع فى التَّنُّور والحديد قال : آرحمونى ، فقالوا له : وهل رحمت شيئا قط فتُرحَم؟ هذه شهادتك على نفسك وحُكْمك عليها .

لمــا ماتت أمّ آبنه عمرو رثاها بقصيدة منها :

يقول لى الخِلّان لو زُرْتَ قبرَها * فقلتُ وهل غير الفؤاد لها قــبرُ
على حين لم أحدُث فأجهل قبرها * ولم أبلُغ السِّنّ التى معها الصــبر

ومن شعره قوله :

ما أعجب الشىءَ ترجــوه فَتُحرَمَــه * قد كنتُ أحسب أنى قد ملأت يدى
مالى اذا غِبتُ لم أُذْكَــر بصالحــة * وإن مَرِضتُ فطال السَّقمُ لم أُعَد

(١) هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة واشتهر بابن الزيات لأن جده (أبان) كان يجلب الزيت من مواضعه الى بغداد ، وكان أديبا شاعرا عالمــا بالنحو واللغة ، وله ديوان شعر ومجموعة رسائل جيدة ، وكان فى أوّل أمره من جملة الكتّاب ثم صار وزيرا للمعتصم ولآبنه الواثق . ولمــا تولى المتوكل قبض عليــه وأمر بادخاله فى تنور من حديد كان ابن الزيات أعدّه لتعذيب المصادرين وأرباب الدواوين المطالبين بالاموال وقيده بخمسة عشر رطلا من حديد ، ثم أمر باخراجه بعد أن مكث فيه أربعين يوما ، فوجدوه ميتا وذلك سنة ٢٣٣ هـ . ويجد ترجمته فى الأغانى (ج ٢٠ ص ٤٦) وابن خلكان (ج ٢ ص ٧٨) .

ومن شعره قوله :

ألم تعجب لمكتئبٍ حزينٍ * خدين صبابةٍ وحليف صبرِ
يقول اذا سألت به بخير * وكيف يكون مهجورٌ بخيرِ

وكان لمحمد بِرْذَون أشهب لم يُرَ مثلُه فَرَاهة وحُسْنا، فسعى به محمد بن خالد الى المعتصم ووصف له فراهته، فبعث اليه المعتصم فأخذه منه، فقال محمد بن عبد الملك يرثيه :

كيف العزاءُ وقد مضى لسبيله * عنا فودّعنا الأحَمّ الأشهبُ
دبَّ الوُشاةُ فأبعدوك وربما * بَعُد الفتى وهو الأحَبّ الأقرب
لله يومَ نأيت عنّيَ ظاعنا * وسُلِبتُ قربك أيّ عِلْق أُسْلَب
نَفسٌ مفرَّقَةٌ أقام فريقُها * ومضى لطِيتّه فريقٌ يُجْنَب
فالآن اذ كَمُلت أداتك كلّها * ودعا العيونَ اليك لونٌ مُعْجِب
وٱختير من سِرّ الحدائد خيرُها * لك خالصا ومن الحليّ الأغرب
وغدوتَ طَنّان اللجام كأنما * فى كل عُضو منك صَنْج يضرِب
وكأن سَرْجك إذ علاك غمامةٌ * وكأنما تحت الغمامة كوكب
ورأى عَلَيَّ بك الصديقُ جَلالةً * وغدا العدو وصدرُه يتلهّب
أنساك لا زالت اذا منيته * نفسى ولا زالت يمينى تتكب
أضمرتُ منك اليأس حين رأيتنى * وقُوَى حبالى من قُواك تُقَضَّب
ورَجَعتُ حين رجَعت منك بحسرة * لله ما فعل الأحَمّ الأشهب

ولما وثب إبراهيم بن المهدىّ على الخلافة ٱقترض من مياسير التّجار مالا، فأخذ من عبد الملك أبى محمد عشرة آلاف درهم وقال له : أنا أردّها اذا جاءنى مال، ولم يتمّ أمره، فٱستخفى ثم ظهر ورضى عنه المأمون، فطالبه الناس بأموالهم، فقال : إنما أخذتها للسلمين وأردت قضاءها من فَيْئهم، والأمْرُ الآن الى غيرى، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة خاطب فيها المأمون ومضى الى إبراهيم بن المهدى فأقرأه إياها وقال : والله لئن لم تعطنى

المـــال الذى اقترضته من أبى لأوصلنّ هذه القصيدة الى المأمون، نخاف أن يقرأها المأمون فيتـــدبّر ما قاله ، فيُوقع به، فقال له : خذ منى بعض المـــال ونجِّم علىّ بعضـــه ، ففعل؛ والقصيدة قوله :

ألم ترَ أنّ الشيءَ للشيءِ علّةٌ * تكون له كالنار تُقـدح بالزَّنْد
كذلك جرّبت الأمور وإنمـا * يدلُّك ما قد كان قبـلُ على البَعْد
وظنّى بابراهـيم أنّ مكانه * سَيَبْعث يوما مِثْـلَ أيامه النُّكْد
رأيت حُسَينا حين صارَ محمــدٌ * بغير أمانٍ فى يديْه ولا عَقْـد
فلو كان أمضى السيفَ فيه بضربة * فصـيّره بالقاع مُنْعفرَ الخَــدّ
اذا لم تكن للجُنْـد فيـه بقيـــةٌ * فقد كان ما بُلِّغْتُ من خبر الجند
هُمُ قتــلوه بعد أن قتلوا له * ثلاثين ألفا من كُهُول ومن مُرْد
وما نصروه عن يدٍ سَلفت له * ولا قتلوه يوم ذلك عن حِقد
ولكنّه الغَدْر الصُّراحُ وخِفّة الـ * ـحلوم وبُعد الرأى عن سُنَن القَصْد
فذلك يومٌ كان للنـاس عِبرةً * سيبقى بقاءَ الوَحْى فى الحجر الصَّلد
وما يوم إبراهيم إن طال عمـرُه * بأبْعد فى المكروه من يومه عندى
تذكّـر أميرَ المؤمنين مَقامَه * وأيْمانه فى الهزل منـــه وفى الجِدّ
أما والذى أمسيتَ عبـدًا خليفةً * له شرّ إيمَـان الخليفة والعبـــد
اذا هزّ أعوادَ المنابر باسْـتِه * تَغَنَّى بليـــلَى أو بِمَيّـــة أو هند
فوا الله ما من تَوْبةٍ نَزعتْ به * اليك ولا ميْــلٍ اليك ولا وُدّ
ولكنّ إخلاصَ الضمير مقـرّبٌ * إلى الله زُلْفى لا تَبِيـدُ ولا تُكْدى
أتاك بها كَرْها اليـــك بأنفــه * على رَغْمــه واستأثر اللهَ بالحمـــد
فلا تَتْركَنْ للناس موضــع شُبْهة * فإنك مجْزِىٌّ بحَسْب الذى تُسْدى
فقد غلطوا للناس فى نَصْب مِثْله * ومن ليس للمنصور بابنٍ ولا المهدى

فكيف بمن قد بايع الناسُ والتقت * ببيعته الرُّكبانُ غوْرا الى نجد
ومن سـكّ تسليمُ الخلافة سمعَـه * يُنادَى به بين السماطين من بُعْـد
وایّ امرئ سَمّى بها قط نفسَـه * ففارقها حتى يُغيَّب فى اللحـد
وتزعُم هـذى النّابتيّـة أنه * إمام لهـا فيما تُسِرّ وما تُبـدى
يقولون سُنّى وأيّةُ سُـنّة * تَمُّ بصَعْل الرأس جَوْن القفا جَعْد
وقد جعلوا رُخْص الطعام بعهده * زعيما له باليُمن والكوكب السّـعد
اذا ما رأوْا يوما غَلاءً رأيتَهـم * يحنّون تحْنانا الى ذلك العهـد
وإقبالُه فى العيـد يُوجِفُ حوْله * وَجيفَ الجيادواصطكاك القنَا الجُرْد
ورَجّالةٌ يمشـون بالبِيض قبْـلَه * وقـد تبِعوه بالقضيب و بالبُرْد
فإن قلتَ قد رام الخلافةَ قبْـلَه * فلم يُؤْتَ فيما كان حاول من جِـدّ
فلم أجْزِه إذ خيّب الله سَـعْيه * على خطأ إذ كان منه على عَمْـد
ولم أرْضَ بعـد العفو حتى رفعتُه * وللعَمّ أولى بالتّغَـمُّد والرِّفْـد
فليس سَـواءً خارِجىٌّ رَمَى به * اليك سَفَاه الراى والرأى قد يُرْدى
تَعادَتْ له من كل أَوْب عصابة * متى يُورِدوا لا يُصدِروه عن الوِرْد
ومن هو فى بيتِ الخلافة تَلْتَـقِى * به وبك الآباء فى ذِرْوة المجـد
فمولاك مولاهُ وجُندُك جُنْـدُه * وهل يَجمع القَينُ الحُسَامين فى غِمْد
وقد رابَنى من أهل بيتك أننى * رأيتُ لهم وَجْدا به أيَّمـا وَجْد
يقولون لا تَبْعَد من آبنِ مُلِمّـةٍ * صبورٍ على اللأواء ذى مِرّة جَلْد
فَدانا وهانت نفسُـه دون مُلْكنا * عليه لدى الحال التى قلّ مَنْ يَفْدى
على حينِ أعطى الناسُ صَفْقَ أكفّهم * علىَّ بن موسى بالوِلاية والعَهْـد
فما كان فينا من أبَى الضيمَ غيرُه * كريمٌ كَفَى ما فى القَبول وفى الرَّدّ
وجرّد إبراهـيم للموت نفسَـه * وأبدى سلاحا فوق ذى مَيْعة نَهْد

وأبلى ومن يبلُغ من الأمر جَهْدَه * فليس بمذموم وإن كان لم يُجْـدِ
فهذى أمور قد يَخاف ذوو النُّهى * مَغَبَّتها والله يَهْـديك للرشـد

وكانت الخلافة فى أيام الواثق تدور على إيتاخ وكاتبه سليمان بن وهب، وعلى أَشناس وكاتبه أحمد بن الخَصيب ، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة وأوصلها الى الواثق على أنها لبعض أهل العسكر، وهى :

يابن الخلائف والأملاك إن نُسبوا * حُزْت الخـلافةَ عن آبائك الأُوَل
أَجُرْت أم رقدت عيناك عن عَجَب * فيـه البريّة من خوف ومن وَهَل
ولّيتَ أربعـةً أمرَ العباد معـا * وكلُّهم حاطِبٌ فى حبل مُحْتَبِـل
هـذا سليمانُ قد ملّكت راحتَه * مشارقَ الأرض من سَهْل ومن جبل
ملّكته السِّند فالشِّحْرَيْن من عَدَن * الى الجزيرة فالأطراف من مَلَل
خلافةٌ قد حواها وحده فمَضَتْ * أحكامُه فى دماء القوم والنَّفَـل
وابن الخصيب الذى ملّكت راحته * خلافةَ الشأم والغازين والقفـل
فنيلُ مصرَ فبحرُ الشأم قـد جَرَيَا * بما أراد من الأموال والحُلَل
كأنهـم فى الذى قَسَّمتَ بينهـم * بَنُو الرشـيد زمانَ القَسْم للدُّوَل
حَوَى سليمانُ ما كان الأمينُ حوى * من الخلافة والتبليغ للأمـل
وأحمـدُ بن خصيب فى إمارته * كالقاسم بن الرشيد الجَامع السُّبل
أصبحتَ لا ناصحٌ يأتيك مسـتَترا * ولا علانيـةً خوفا من الحِيَـل
سل بيتَ مالك أين المـال تعرفه * وسل خَراجك عن أموالك الجُمَل
كم فى حُبُوسك ممن لا ذنوب لهم * أسْرَى التَّكَذّب فى الأقياد والكُبَل
سمّيت باسم الرشيد المُرتضى فبـه * تُسْمى الأمور التى تُنْجِى من الزَّلل
عِشْ فيهم مثل ما عاشت يداه معا * على البرامك بالتهـديم للقُـلَل

فلما قرأ الواثق هـذا الشعر غاظَه ، ونكب سليمانَ بن وهب وأحمـد بن الخصيب ، وأخذ منهما ومن أسبابهما ألفى ألف دينار فجعلها فى بيت المـال .

٦ — ٱبنُ البَـوَّابِ (١)

لما أُتِى المأمونُ بشعر ٱبن البوّاب الذى يقول فيه :

أيبخَل فَرْدُ الحسنِ فَرْدُ صِفَاته * علىّ وقـد أفردتُه بهوًى فَرْدِ
رأى اللهُ عبدَ الله خيرَ عبـاده * فملّكه واللهُ أعلم بالعبـد
ألا إنما المأمون للناس عِصمة * مميِّزة بين الضّلالة والرّشد

فقال المأمون : أليس هو القائل :

أَعَيْنَىّ جُودَا وٱبكِيا لِى محمـدا * ولا تَذْخَرا دمعا عليه وأَسْعِدا
فلا فرِح المأمون بالمُلك بعـده * ولا زال فى الدنيا شريدا مُطَرَّدا

واحدة بواحدة، ولم يَصِـلْه بشىء . ولما سخِط عليه قال قصيدة يمدحه بها، ودسّ مَنْ غنّاه فى بعضها لما وجد منه نشاطا، فسأل: مَنْ قائلُها، فأُخبر به، فرضِى عنه وردّه إلى رسمه من الخدمة، وهى :

هـل للمحبِّ مُعِينُ * إذ شَطّ عنـه القرينُ
فليس يبـكى لشجو الـ * ـحـزينِ إلّا الحـزينُ
يا ظاعنا غاب عنـا * غداةَ بانَ القَطِـينُ
أَبْكَى العيـونَ وكانت * به تَقَـرّ العيونـ
يأيها المأمونـ الـ * ـمبـاركُ الميمـونُ
لقد صَفَتْ بك دنيـا * للمسـلمين ودينـ
عليك نورُ جـلال * ونـور مُلْك مُبِـين

(١) هو عبد الله بن عتاب من أهل بخارى ، و جىء بجدّه و جماعة معـه رهينة الى الحجاج بن يوسف ، فنزلوا عنده بواسط ، فأقطعهم سكة بها ، فاختطوها ونزلوها طول أيام بنى أمية ، ثم انقطعوا من الدولة العباسية الى الربيع نخدموه ، وكان عبدالله بن محمد هذا يخلف الفضل بن الربيع على حجبة الخلفاء ، وكان صالح الشعر قليله وراوية لاخبار الخلفاء عالما بأمورهم .

القولُ منــك فَعــال * والظن منك يقــين
ما من يديــكَ شِمال * كلتا يديك يمــين
كأنمـا أنت فى الجــو * د والتــقى هارون
مَنْ نال من كل فضل * ما ناله المأمون
تألف النـاسَ منــه * فضــلٌ وجـود ولين
كالبــدر يبدو عليه * ســكينةٌ وسكون
فالرزق من راحتيــه * مقسّــم مضمون
وكل خَصْلة فضل * كانت فمنه تكون

ومما يغنّى فيه قوله :

أَفِقْ أيها القلب المعــذّب كم تَصْبو؟ * فلا النَّأى عن سَلْماك يُسلى ولا القربُ
أقول غَــدَاةَ آستخبرتْ مِمَّ علّتِى ؟ * من الحب كربٌ ليس يُشْــبِهه كرب
اذا أبصرتْكِ العــينُ من بُعْــد غاية * فأدخلت شكا فيــك أثبتَــك القلب
ولو أن رَكْبا يَمَّمُـوك لقَــادهم * نسيمُك حتى يَســتدلَّ بكِ الركب

أملق ابن البواب حين جَفَــاه الخليفة وعَلَت سِنّه عن الخدمة، فرحَل الى أبى دُلَف القاسِم بن عيسى ومدحه بقصيدة، فوهب له ثلاثين ألف درهم وعاد بها الى بغداد، فما نفدت حتى مات؛ وهى قوله :

طرَقَتْك صائدةُ القــلوب رَبابُ * ونَأَتْ فليس لهـا اليــك مآب
وتصرّمتْ منهـا العهود وغُلِّقتْ * من دون نَيــل طِلابها الأبواب
فلأَصْدِفَنّ عن الهــوى وطِلابه * فالحبّ فيــه بَلِيّــة وعــذاب
وأخصّ بالمدح المهذّب سيّدا * نَفَحاتُــه للمُجْتدِين رِغاب
والى أبى دُلَف رحلتُ مطيّــتى * قــد شَــفّها الإرقال(١) والإتعاب

(١) الارقال : ضرب من الخبب .

تعلو بنا قُلَلَ الجبال ودونها * مما هَوَتْ أَهْوِيَةٌ وشِعَاب
فاذا حللتُ لدى الأمير بأرضه * نلتُ المنى وتقضّتِ الآرابُ
مَلِك تأثّل عن أبيه وجده * مجْدًا يقصّر دونه الطُّلَّاب
وإذا وزَنت قديمَ ذى حَسَبٍ به * خَضَعتْ لفضل قديمه الأحساب
قوم عَلوْا أملاكَ كلّ قبيلة * فالناسُ كلّهم له أذناب
ضَربتْ عليه المكرماتُ قِبابها * فعلا العمودُ وطالت الأطناب
عَقِم النساءُ بمثله وتعطّلت * من أن تُضَمَّن مثلَه الأصلابُ

٧ — الخُـــرَيْمِىّ (١)

كان متّصلا بمحمد بن منصور بن زِيَاد كاتب البرامكة،وله فيه مدائحُ جِيَاد،ثم رثاه بعد موته، فقيل له : يا أبا يعقوب، مدائحك لآل منصور بن زياد أحسن من مراثيك وأجود؛ فقال : كنّا يومئذ نعمل على الرجاء، ونحن اليوم نعمل على الوفاء، وبينهما بون بعيد .

وهو القائل فى عينيه :

أُصْــغِى الى قائدى ليُخبرنى * إذا ٱلتقينــا عمّــن يُحيّينى
أريد أن أعْدِل السـلام وأن * أَفْصِل بين الشريف والدُّون
أسمع ما لا أرى فأَكْرَهُ أن * أُخْطِئ والسـمعُ غير مأمون
لله عيــنى التى فُجِعتُ بهـا * لو أن دهرا بهـا يُواتيــنى
لو كنتُ خُيّرت ما أخذتُ بها * تعْــميرَ نوح فى مُلك قارون
حتّى أخلّائى أن يعــودونى * وأن يُعزّوا عنّى ويبكونى

وهو القائل :

اذا مامات بعضُك فابكِ بعضًا * فإن البعض عن بعض قريبُ
يُمنّينى الطبيبُ شِــفاء عينى * وهــل غير الإله لهـا طبيب

---

(١) هو إسحاق بن حسان ويكنى أبا يعقوب، من العجم، وهو القائل :

إنى آمرؤ من سراة الصغد ألبسنى * عرق الأعاجم جلدا طيب الخبر

وكان مولى آبن خريم الذى يقال لأبيه : خريم الناعم . وهو خريم بن عمرو من بنى مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان .
وعمى أبو يعقوب الخريمى بعد ما أسنّ، وكان يقول فى ذلك شعرا، فنه قوله :

فإن تك عينى خبا نورها * فكم قبلها نورعين خبا
فلم يعــم قلبى ولكنما * أرى نورعينى إليــه سرى
فأسرج فيــه إلى نوره * سراجا من العلم يشفى العمى

وقال يذكر بغداد والفتنة التى كانت بها :

قالوا ولم يَلْعبِ الزمانُ ببغـ * ـداد وتَعْـثُرْ بها عـواثرُها
إذ هى مثلُ العروس بادِيُها * مُهَولٌ للفتى وحاضرها
جنّةُ دنيا ودارُ مَغْبَطَة * قلّ من النائبات واترُها(١)
دَرّت خُلوفُ الدنيا لساكنها * وقلّ معسورُها وعاسرُها
وآنفرجَتْ بالنعيم وآنْتَجعت * فيها بلذّاتها حواضرها
فالقومُ منها فى روضة أُنُفٍ * أشرق غِبّ القِطار زاهرها
من غَرّه العيش فى بُلَهْنِية * لو أن دنيا يدوم عامرها
دارُ ملوك رَسَت قواعدها * فيها وقرّت بها منابرها
أهلُ العلا والثَّرى وأنديَة الـ * ـفخر إذا عُدّدَتْ مفاخرها
أفراخُ نُعْمَى فى إرث مملكة * شَدّ عُراها لها أكابرها
فلم يزل والزمانُ ذو غِيَر * يَقدَح فى مُلكها أصاغرها
حتى تَساقتْ كأسا مُثَمَّلة * من فتنة لا يُقال عاثرها
وآفترقتْ بعد أُلْفة شِيَعًا * مقطوعةً بينها أواصرها
ياهل رأيتَ الأملاكَ ماصنعت * إذ لم يَزَعْها بالنصح زاجرها
أورد أملاكُنا نفوسَهمُ * هُوّةَ غَىٍّ أَعْيَت مصادرها
ما ضرّها لو وفَتْ بموثقها * وآستحكمتْ فى التُّقَى بصائرها
ولم تُسافِك دماءَ شيعتها * وتبتعل فتيةً تكابرها
وأقنعتْها الدنيا التى جُمعت * لها ورَغْبُ النفوس ضائرها
مازال حَوْضُ الأملاك [... ...] * مسجورها بالهوى وساجرها
تُبقى فُضولَ الدنيا مُكاثرةً * حتى أُبيحت كَرْها ذخائرها

(١) مفزعها وذاعرها .

تِيِبــع ما جَمَّــع الأبُوّة للـ * أبنـاء لا أُرْبِحت مَتـاجرهـا
يا هل رأيتَ الجنان زاهرةً * يروق عينَ البصــير زاهرها
وهــل رأيت القصـــورَ شارعة * تُكِنّ مثل الدُّمَى مَقـاصرها
وهل رأيتَ القُرى التي غَرَس الـ * أملاكُ مُخضَــرّةً دَسَاكرُها
محفـوفةً بالكروم والنّـخلِ والـ * رَيْحـان قد دَمِيت محـاجرها (١)
فإنهـا أصبحت خلايا من الـ * إنسانِ قد دَمِيت مَحـاجرها (١)
قَفْرًا خلاء تَعْوِى الكلابُ بهـا * يُنكِـر منهـا الرســومَ دائرها
وأصـبح البـؤسُ ما يفارقهـا * إلفًـا لهـا والســرورُ هاجرها
بزَنْدَ وَرْد واليـاسِريّة والـ * شَّـطّين حيث آنتهت معـابرها
وبالرحى والخَــيْزُرانية الـ * عُليـا التي أشــرفت قناطرها
وقَصْر عَبْــدويه عِبرةٌ وهُدًى * لكل نفس زكَـت سرائرها
فأين حرّاســها وحارسُهـا * وأين مَجبــورها وجابرها
وأين خِصيانُها وحِشــوتها * وأين ســكّانها وعامرها
أين الجَــرادية الصَّقالبُ والـ * أحبُش تعــدو هُــدْلا مَشافرها
يَنصــدِع الجنــدُ عن مواكبها * تعــدو بهـا سُرّبًا ضـوامرها
بالسِّند والهنــد والصّقالب والـ * نوبةِ شِـيبت بهـا بَرابرهـا
طيرًا أبابيــل أُرسلَت عبثـا * يقــدُم سُــودانَها أحامرها
أين الظباء الأبكار في روضة الـ * مُلك تَهـادى بهـا غَرائرها
أين غَضاراتهـا ولذّتهـا * وأين مَحبــورُها وحابرها
بالمســك والعنــبر اليمـانيّ والـ * يلنجوج مشــبوبةٌ مَجامرها
يرفُلن في الخَـزّ والمجاسـد والـ * مَوْشيّ مخطــومةً مَزامرها

(١) كذا في الطبرى في حوادث سنة ١٩٧ هـ ، طبع بلاق وطبع أوربا .

فأين رقاصها وزامرها * يجبن حيث انتهت حناجرها
تكاد أسماعهم تسل اذا * عارض عيدانها مزاهرها
أمست بجوف الحمار خالية * يسعرها بالجحيم ساعرها
كأنما أصبحت بساحتهم * عاد ومستهم صراصرها
لا تعلم النفس ما يبأيتها * من حادث الدهر أو يباكرها
تضحى وتمسى درية غرضا * حيث استقرت بها شراشرها
لأسهم الدهر وهو يرشقها * مخنطها مرة وباقرها
يابؤس بغداد دار مملكة * دارت على أهلها دوائرها
أمهلها الله ثم عاقبها * لما أحاطت بها كبائرها
بالخسف والقذف والحريق وبال * حرب التي أصبحت تساورها
كم قد رأينا من المعاصي بها * كالعاهر السوء ... ...
حلت ببغداد وهي آمنة * داهية لم تكن تحاذرها
طالعها السوء من مطالعه * وأدركت أهلها جرائرها
رق بها الدين واستخف بذي ال * فضل وعز النساك فاجرها
وخطم العبد أنف سيده * بالرغم واستعبدت مخادرها
وصار رب الجيران فاسقهم * وابتز أمر الدروب ذاعرها
من ير بغداد والجنود بها * قد ربقت حولها عساكرها
كل طحون شهباء باسلة * تسقط أحبالها زماجرها
تلقى بغى الردى أوانسها * يرهقها للقاء طاهرها
والشيخ يعدو حزما كتائبه * يقدم أعجازها يعاورها
والزهير بالقول مأسدة * مرقومة صلبة مكاسرها
كتائب الموت تحت ألوية * أبرح منصورها وناصرها

يعـلم أنـ الأقدارَ واقعـــةٌ * وقعـا على ما أحَبّ قادرها
فتلك بغـدادُ ما يَبِنّ من الـ * ـدَّلَه فى دُورها عصافرها
محفـــوفةً بالردى منطّقـــةً * بالصـــقر محصورةً جبابرها
وبينـ شَطّ الفُرات منه الى * دِجلة حيث آنتهت مَعابرها
كهادِى الشُّـــفراء نافِرُه * تركُض من حولها أشاقرها
يُحـــرقها ذا وذاك يَهـــدمها * ويَشـــتفى بالنِّهاب شاطرها
والكَرْخُ أســواقُها معـطّلة * يَستَنّ عيّـارها وعائرها
أخرجتِ الحربُ من سواقِطها * آسَادَ غِيـــلٍ غُلْبـا تُساورها
من البَـوارى تِرَاسُها ومن الـ * ـخُوص اذا آستلأَمتْ مَغافرها
تغدو الى الحربِ فى جواشِنها الـ * ـصّوف اذا ما عَدَت أساوِرها
كتائبُ الهِرْش تحت رايتـه * سَـاعَد طَـرّارَها مُقـامِرها
لا الرّزق تبـغى ولا العطاءَ ولا * يحشُرها للقـاء حاشـــرها
فى كل دَرْب وكل ناحِيـــة * خَطّـارة يَســتهِلّ خاطـــرها
بمثـــل هام الرجال من فِلَق الـ * ـصـخر يَزود المقـــلاعَ بائرها
كأنمـا فوق هامهـا عِدَف * من القطا الكُدْر هاج نافِـرها
والقومُ منـ تحتهـا لهم زَجَل * وهى تَرامَى بهـا خواطـــرها
بل هل رأيتَ السيوفَ مصْلتة * أشهَرَها فى الأســواق شاهرها
والخيـــلَ تستَنّ فى أزِقّتهـا * بالتُّرك مســنونة خناجرها
والنّفط والنـار فى طرائقـــها * وهابِيًا للدخانـ عامرها
والنّهب تعدو به الرجالُ وقـــد * أبدت خلاخيـــلَها حَـــرائرها
مُعْصَوْصِبات وسط الأزِقّة قـد * أبرزها للعيونـ ساتِرها
كلُّ رقُـــود الضّحى مخـــبّأةٌ * لم تَبْـــدُ فى أهلهـا محاجرها

بَيْضَـة خِدْر مكنونة برَزَتْ * للنـاس منشـورةً غدائرها
تعـثُر فى ثوبهـا وتُعْـجِلها * كَبَّةُ خيـل زِيعَت حوافرها
تسأل أين الطَّريق والهـةً * والنـار من خلفها تبـادرها
لم تجتَـل الشمسُ حسنَ بهجتها * حتى آجتلتهـا حَرْب تُبـاشرها
ياهْـل رأيت الثَّـكلى مُوَلوِلَةً * فى الطُّرق تسعى والجَهْد باهرها
فى إثْر نعش عليـه واحدها * فى صـدره طعنة يسـاوِرها
فرغاء تُلْقِى النِّشار من يدها (١) * يَهـزّها بالسِّنان شاجرها
تنظُر فى وجهـه وتهـتِف بالـ * ـثكل وعزِ الدمـوع خامرها
غَرْغر بالنَّفس ثم أسـلَمها * مَطـلولةً لا يُخاف ثائرها
وقد رأيتُ الفتيان فى عَرْصَة الـ * ـمَعْرك معفـورةً مَنـاخرها
كلّ فـتى مَنَّاعٌ حقيقتَـه * تَشـقَى به فى الوغى مسـاعرها
باتت عليه الكلاب تنهشُـه * مخضوبةً من دمٍ أظافرها
أما رأيتَ الخيـولَ جائلةً * بالقـوم منكوبةً دوائرها
تعثُر بالأوجُه الحسان من الـ * ـقَتْـلَى وغُلَّتْ دماً أشاعرها
يَطأْنَ أكبادَ فتيـةٍ نُجُـدٍ * يَفْـلِق هاماتهـم حـوافرها
أما رأيتَ النّسـاء تحت المجا * نيق تَعـادَى شُـعْثاً ضفـائرها
عقـائلَ القـوم والعجائزَ والـ * ـعُنّس لم تُخـتبر مَعـاصرها
يحملن قوتا من الطّحين على الـ * أكتاف معصوبةً مَعـاجرها
وذات عيش ضَـنْك ومُقْعِسة * تَشْـدَخُها صَخْـرةٌ تُعـاوِرها
تسأل عن أهلهـا وقد سُلِبت * وآبْتُزّ عن رأسها غَفـائرها
يا ليت ما والدهر ذو دُوَلٍ * تُرجى وأخرى تُخشى بوادرها

(١) كذا فى هامش النسخة الأوربية من الطبرى . وفى نسخة بولاق وأوربا (فى صلبها) :
* فرغاء ينق الشنار مريدها * وهى رواية ظاهر عليها التحريف وفساد المعنى .

هل ترجعن أرضنـا كما غنيت * وقد تساهت بنا مصايرها
من مبلغ ذا الرياستين رسا * لات تأتى للنصح شاعرها
بأن خير الولاة قد علم النـ * ـاس اذا عددت مآثرها
خليفة الله من بريته الـ * ـمأمون سائسها وجابرها
سمت اليـه آمال أمتـه * منقادة برها وفاجـرها
شاموا حيا العدل من مخايله * وأمحـرت بالتقى بصائرها
وأحمدوا منك سيرة جلت الـ * ـشك وأخرى صحت معاذرها
واستجمعت طاعة برفقك للـ * ـمأمون نجديها وغائرها
وأنت سمع فى العالمين له * ومقلة ما يكل ناظرها
فاشكر لذى العرش فضل نعمته * أوجب فضل المزيد شاكرها
واحذر فداء لك الرعية والـ * أجناد مأمورها وآمرها
لا تردن غمرة بنفسك لا * يصدر عنها بالرأى صادرها
عليك مخضاحها فلا تلج الـ * ـغمر ملتجة زواخرها
والقصد إن الطريق ذو شعب * أشأمها وعثها وجائرها
أصبحت فى أمة أوائلها * قد فارقت هديها أواخرها
وأنت سرسورها وسائسها * فهل على الحق أنت قاسرها
أدب رجالا رأيت سيرتهم * خالف حكم الكتاب سائرها
وآمدد الى الناس كف مرحمة * تسد منهم بها مفاقرها
أمكنك العدل إذ هممت به * ووافقت مده مقادرها
وأبصر الناس قصد وجههم * وملكت أمة أخايرها
تشرع أعناقنا اليك اذا الـ * سادات يوما جمت عشائرها
كم عندنا من نصيحة لك فى الله * ـه وقربى عزت زوافرها

وحرمــة قربت أواصــرها * منك وأخرى هل أنت ذاكرها
سعى رجال فى العلم مطلبهم * رائحــها باكر وباكرها
دونك غــراء كالوذيلة لا * تفقــد فى بلدة ســوائرها
لا طمعا قلتهــا ولا بطــرا * لكل نفس نفس تؤامرهــا
ســيرها الله بالنصــيحة والـ * ـخشــية فاستدمجت مرائرها
جاءتك تحكى لك الأمــور كما * ينشر بز التــجار ناشــرها
حملتهــا صاحبا أخا ثقــة * يظــل عجبا بهــا يحاضرها

ومن جيد شعره قوله :

النــاس أخلاقهم شــتى وإن جبلوا * على تشــابه أرواح وأجســاد
للخــير والشر أهل وكلوا بهمــا * كل له من دواعى نفســه هاد
منهــم خليل صــفاء ذو محافظــة * أرسى الوفاء أواخيــه بأوتاد
ومشــعر الغــدر محنى أضالعه * على سريرة غمــر غلها باد
مشاكس خدع جــم غوائله * يبدى الصفاء ويخفى ضربة الهادى
يأتيــك بالبغى فى أهل الصــفاء ولا * ينــفك يســعى بإصلاح لإفساد

ومن جيد شعر الخريمى قوله :

أضاحك ضــيفى قبــل إنزال رحله * ويخصب عنــدى والمحــل جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى * ولكنما وجه الكــريم خصيب

ومن جيد شعره قوله :

زاد معــروفك عنــدى عظما * أنه عنــدك محقــور صــغير
وتناســيه كأن لم تأته * وهو عنــد الناس مشهور كبير

وهو القائل :

وإن أشد الناس فى الحشر حسرة * لمورث مال غيره وهو كاسبه
كفى سفها بالكهل أن يتبع الصبا * وأن يأتى الأمر الذى هو عائبــه

ويُستجاد له قوله :

ودون النّـدى فى كل قلب ثَنِيّـة * لهـا مَصْعَدٌ وعر ومُنْحَدر سَهْل
وَوَدّ الفتى فى كل نيـل يُنيله * اذا ما انقضى لو أن نائله جَزْل
وأعلم عِلمـا ليس بالظن أنه * لكل أناس من ضَرائبهم شَـكْل
وأنّ أَخِلاءَ الزمان غَنـاؤهـــم * قليل اذا الإنسانُ زَلّت به النّعل
تزوّدْ من الدنيـا متاعاً لغـيرها * فقـد شَمّرتْ حَذّاء وانصرم الحبل
وهل أنتَ إلا هامَةُ اليومِ أو غَدٍ * لكل أناس من طوارقها الثّكل

وفى هذا الشعر يقول :

أبا لصُّغْد بأسٌ إذ تعيّرنى جُمْـلُ * سَفاهًا ومن أخلاق جارَتِيَ الجهل
فإن تفخرى يا جمـل أو تتجمّلى * فلا فخرَ إلا فوقه الدّين والعقـل
أرى الناس شَرْعا فى الحياة ولا يُرى * لقـبرٍ على قـبرٍ عَلاء ولا فَضْـل
وما ضَرّنى أن لم تَلِدْنى يُحابِر * ولم تَشْـتمل جَرْمٌ علىّ ولا عُكْل

وهو القائل :

ما أحسنَ الغَـيْرَةَ فى حينهـا * وأقبـحَ الغيرة فى كل حِين
من لم يزل متّهما عِرْسَـــه * مُناصِبا فيهـا لرَيْب الظنون
أوشــك أن يُغْرِيَهـا بالذى * يَخاف أن يُبرزها للعيون
حســبك من تحصينها وَضْعُها * منك إلى عِرضٍ صحيح ودين
لا تطّلع منـــك على رِيبـــةٍ * فيتبع المقرونُ حبـل القرين

٨ — عبد الله بن طاهر[1]

كان بمحلّ من علوّ المنزلة وعظَم القَدْر ولُطف مكان من الخلفاء، يُستغنَى به عن التقريظ له والدّلالة عليه ، وأمرُه فى ذلك مشهورٌ عند الخاصّة والعامّة، وله فى الأدب مع ذلك المحلّ الذى لا يُدْفع، وفى السماحة والشجاعة ما لا يقاربُهُ فيه أحدٌ .

وكان أديبا ظريفا جيّد الغناء، نسب اليه صاحب الأغانى أصواتا كثيرة أحسن فيها ونقلها أهلُ الصنعة عنه، وله شعر رائع ورسائل ظريفة، فمن شعره قوله :

نحن قومٌ تُلينُنا الحَدَقُ النُّجْـ * ـلُ على أنّنا نُلين الحديدا
طَوْعُ أيدى الظِّباء تقتادنا العِيـ * ـن ونقتاد بالطِّعان الأُسودا
نَمْلِك الصِّيد ثم تملكنا البِيـ * ـضُ المصوناتُ أعيُنًا وخدودا
نَتّقى سخطنا الأسود ونخشى * سَخَط الخِشْف حين يُبدى الصدودا
فترانا يوم الكريهة أحرا * را وفى السِّلم للغوانى عبيدا

أعطاه المأمونُ مالَ مصر لسَنَة، خَراجَها وضِياعَها ، فوهبه كلّه وفرّقه فى الناس ورجع صِفْرا من ذلك ، فغاظَ المأمونَ فعلُه ، فدخل اليه يوم مَقْدَمه ، فأنشده أبياتا قالها فى هذا المعنى ، وهى :

---

(١) هو أبو العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق كان سيدا نبيلا عالى الهمة شهما ، وكان المأمون كثير الاعتماد عليه ، حسن الالتفات اليه لذاته ورعاية لحق والده وما أسلفه من الطاعة فى خدمته ، وكان واليا على الدينور فلما خرج بابك الخرّمى على خراسان وأوقع الخوارج بأهل قرية الحمراء من أعمال نيسابور وأكثروا فيها الفساد واتصل الخبر بالمأمون بعث الى عبد الله وهو بالدينور يأمره بالخروج الى خراسان ، فخرج اليها وحارب الخوارج وقدم نيسابور فى رجب سنة ٢١٥ هـ . وكان المطر قد انقطع عنها تلك السنة ، فلما دخلها مطرت مطرا كثيرا ، فقام اليه رجل بزاز من حانوته وأنشده :

قد قحط الناس فى زمانهم * حتّى اذا جئت جئت بالدرر
غيثان فى ساعة لنا قدما * فمرحبا بالأمير والمطر

تولى الشام والعراق ومصر . وتوفى سنة ٢٣٠ هـ . وتجد ترجمته فى ابن خلكان (ج ١ ص ٣٦٩) والأغانى (ج ١١ ص ١١) .

نَفسِى فِداؤُكَ والأعناقُ خاضعةٌ * للنائبات أبيًّا غيرَ مُهتضَم
اليك أقبلتُ من أرضٍ أقمتُ بها * حَولَين بعدَك فى شَوقٍ وفى ألَم
أقفُو مساعيَك اللاتى خُصِصتَ بها * حَذوَ الشِّراك على مِثْلٍ من الأدَم
فكان فَضلِى فيها أنّى تَبَعٌ * لِمَا سَنَنتَ من الإنعام والنِّعَم
ولو وُكِلتُ الى نفسى عَنِيتُ بها * لكن بدأتَ فلم أعجِزْ ولم أُلَم

فضحك المأمون وقال : والله ما نفِستُ عليك مَكْرُمة تلتَها ، ولا أُحدُوثةً حَسُنَ عندك ذكرها ، ولكن هذا شىء اذا عَوَّدته نفسَك افتقرت، ولم تقدر على لَمِّ شَعَثك وإصلاح حالك . وزال ما كان فى نفسه .

لمّا فتح عبدُ الله مصرَ سَوَّغه المأمونُ خَراجها ، فصَعِدَ المِنبَرَ فلم يزل حتى أجازَ بها كلّها ثلاثة آلافِ ألفِ دينار أو نحوها ، فأتاه مُعَلَّى الطائى وقد أعلموه ما صنع بالناس فى الجوائز وكان عليه واجدا، فوقف بين يديه تحت المنبر فقال : أصلح الله الأمير، أنا معلَّى الطائى وقد بلغ منّى ما كان منك من جفاء وغِلَظ ، فلا يَغلُظَنَّ علىّ قلبُك، ولا يستخفنّك الذى بلغك ، أنا الذى أقول :

يا أعظمَ الناسِ عفوًا عند مَقدِرَة * وأظلمَ الناسِ عندَ الجود للمال
لو أصبحَ النيلُ يَجرِى ماؤه ذهبًا * لَمَا أشرتَ الى خَزْنٍ بمِثقال
تُغْلِى بما فيه رِقّ الحمد تملكه * وليس شىءٌ أعاضَ الحمدَ بالغالى
تَفُكّ باليُسْر كَفَّ العُسْر من زَمَنٍ * اذا استطالَ على قَومٍ بإقلال
لم تخلُ كفُّك من جُودٍ لمُختبِطٍ * ومُرْهَفٍ قاتلٍ فى رأسِ قَتّال
وما بَثَثْتَ رَعِيلَ الخيل فى بَلَدٍ * إلا عَصَفْنَ بأرزاقٍ وآجال
إن كنتُ منك على بابٍ مَنَنْتَ به * فإنّ شكرَك من قلبى على بال
ما زلتُ مُقتَضَبًا لولا مجاهرةٌ * من ألسُنٍ خُضْنَ فى صَدْرى بأقوال .

فضحك عبد الله وسُرّ بما كان منه وقال : يا أبا السَّمراء، أقرضني عشرةَ آلافِ دينار فما أمسيتُ أملكها، فأقرضَه فدفعها اليه .

كان موسى بن خاقان مع عبد الله بن طاهر بمصر، وكان نديمَه وجليسَه، وكان له مُؤْثِرا مقدِّما، فأصاب منه معروفا كثيرا وأجازه بجوائز سنيّة هناك وقبل ذلك، ثم إنه وَجَد عليه فى بعض الأمر لجفاه وظهر له منه بعض ما لم يحبّه، فرجع حينئذ الى بغداد وقال :

إنْ كان عبـدُ الله خلّانا * لا مُبْدئا عُرْفا و إحسانا

فحَسْبُنا اللهُ رَضِينـا بـه * ثم بعبـد الله مَـولانا

يعنى به المأمونَ، وغنّت فيه جاريته وسمعه المأمون، فاستحسنه ووصله و إياها، فبلغ ذلك عبدَ الله بن طاهر، فغاظه ذلك وقال : أَجَلْ! صنعنا المعروفَ الى غير أهله فضاع .

ولعبد الله ألحانٌ صاغها، فمنها ومن مختارها وصـدورها ومقدّمها لحنه فى شعر أخت عاصية فإنه صوتٌ نادر جيِّد صحيحُ العمل مُزْدَوج النغم ، بينَ لِينٍ وشِدّةٍ على رسم الحُذّاق من القُدَماء، وهو :

هلّا سَـقَيْتُمْ بنى سَهْم أَسِـيرَكُمْ * نَفْسى فداؤكِ من ذى غُلّةٍ صادى

الطاعنُ الطعنةَ النجلاءَ يتبعهـا * مُضَرَّجٌ بعـد ما جادتْ بإزْبَاد

ومن غنائه أيضا :

راحَ صَحْبِي وعاودَ القلبَ داءُ * من حبيب طِلَابُه لى عَنَـاءُ

حَسَنُ الرأى والمواعيد لا يُلْـ * ـفى لشىء مما يقول وفاءُ

مَنْ تعزّى عمن يحب فإنى * ليس لى ما حييتُ عنه عزاءُ

ما قيل فى هجاء الأمين ورثائه

قيل فى هجائه :

لم نُبَكِّيك لماذا للطَّــرَبْ * يا أبا موسى وتَرْوِيج اللَّعِبْ
ولِـتَرْك الخمس فى أوقاتها * حَرَصًا منها على ماء العنب
وَشَنِيفٍ أنا لا أبكى له * وعلى كَوْثَر لا أخشى العَطَب
لم تكن تعـرف ما حدّ الرضا * لا ولا تعرف ما حَدّ الغضب
لم تكن تَصـلُح للملك ولم * تُعطِك الطاعةَ بالملك العـرب
أيها الباكى عليه لا بَكَتْ * عين من أبكاك إلّا للعَجَب
لم نبكّيك لِما عَرّضتنا * للمَجانيق وطَـوْرا للسَّـلَب
ولقومٍ صـيّرونا أعْبُدًا * لهم يبـدو على الرأس الذّنَب
فى عذابٍ وحِصارٍ مُجْهِـدٍ * سَـدّد الطُّرقَ فلا وَجْهَ طلب
زعمـوا أنك حىٌّ حاشـر * كلّ من قدْ قال هذا قد كَذَب
ليت من قـد قاله فى وَحْدَة * من جميع ذاهبٍ حيث ذهب
أوجب اللهُ علينا قتـلَه * فاذا ما أوجب الأمرَ وجَب
كان واللّه علينا فِتنةً * غَضِبَ الله عليـه وكَتَب

وقال عبد الرحمن بن أبى الهُداهد يرثيه :

ياغَرْبُ جُودى قد بُتّ من وذَمِه * فقـد فقدنا الغـزير من دِيَمِه
ألوت بدنيـاك كفُّ نائبـة * وصرتَ مُفْضًى لنا على نِقَمه
أصبح للموت عنـدنا عَـلَم * يضحك سِنّ المنون من عَلَمه
ما ٱبستزلتْ دَرّةُ المنون على * أكرم من حَلّ فى ثرى رَحِمه
خليفــةُ الله فى بريّتــه * تقصُر أيدى الملوك عن شِيَمِه

يفترّ عن وجهه سنا قمر * ينشق عن نوره دُجى ظُلَمه
زُلزلت الأرضُ من جوانبها * اذ أُولغَ السيفُ من نجيع دَمه
مَنْ سكتت نفسُه لمَصْرعهِ * من عُمُمِ الناس أو ذَوى رَحِمه
رأيتُه مثلَ ما رآه به * حتى تذوق الأمرَّ من سَقَمه
كم قد رأينا عزيزَ مملكةٍ * يُنقَل عن أهله وعن خَدَمه
يا مَلِكا ليس بعده مَلِك * لخاتم الأنبياء فى أُمَمه
جادَ وحَىَّ الذى أقمتَ به * سَحٌّ غزير الوكيف من ديَمه
لو أحجم الموتُ عن أخى ثِقَةٍ * أُسْوِىَ فى العزّ مُسْتَوى قَدَمِه
أو ملكٍ لا ترام سطوتُه * إلا مَرامَ الشَّتيم فى أجَمه
خَلَّدك العزّ ما سَرَى سَدَف * أو قام طِفل العشىّ فى قَدَمه
أصبح مُلكٌ اذا اتّزرتَ به * يَقْرع سنَّ الشَّقاةِ من نَدَمه
أثّر ذُو العرش فى عِداك كما * أثّر فى عاده وفى إرَمه
لا يُبعد الله صَيّورةً تَليت * لخيرِ داعٍ دعاه فى حَرَمه
ما كنتُ إلا كحُلْم ذى حُلُمٍ * أُولِجَ بابَ السرور فى حُلُمه
حتى اذا أطلقتْه رَقْدتُه * عاد الى ما اعتراه من عَدَمه

وقال أيضا يرثيه :

أقول وقد دنوت من الفِرار * سُقيتَ الغيثَ ياقصر القَرارِ
رمتك يدُ الزمان بسهم عَيْن * فصرتَ مُلَوَّحا بدُخان نار
أبِنْ لى عن جميعك أين حلّوا * وأين مزارهم بعد المَزار
وأين محمدٌ وابناه مالى * أرى أطلالهم سُود الدّيار
كأن لم يُؤنَسوا بأنيس مُلك * يطول على الملوك بخير جار
إمامٌ كان فى الحَدَثان عونا * لنا والغيثُ يمنحُ بالقِطار

لقد ترك الزمانُ بنى أبيه * وقد غمرتهم سُود البحار
أضاعوا شمسهم بجَرَتْ بنحس * فصاروا فى الظلام بلا نهار
وأجلَوْا عنهم قمرا منيرا * ودَاسَتْهُمْ خيولُ بنى الشرار
ولو كانوا لهم كفؤا ومثلا * اذا ما تُوِّجوا تيجانَ عار
ألا بَانَ الأمامُ وَوَارَاه * لقد ضَرِم الحشى منّا بنار
وقالوا الخُلْد بيع فقلتُ ذُلّا * يصير بيائعيه الى صَغار
كذاك الملك يتبع أوّليه * إذا قُطِع القرار من القرار

وقال مُقَدَّس بن صَيْفى يرثيه :

خليلى ما أتتْك به الخطوبُ * فقد أعطاك طاعتَه النَّحيب
تدلّت من شماريخ المنايا * مَنَايا ما تقوم لها القلوبُ
خِلالَ مقابر البستان قبر * يُجَاور قبره أسَدٌ غريب
لقد عَظُمت مُصيبته على من * له فى كل مَكْرُمة نصيب
على أمثاله العَبَراتُ تُذْرى * وتُهتَك فى مآتمه الجُيوب
وما ٱدّخرتْ زُبيدة عنه دمعا * تُخَصّ به النسيبةُ والنّسيب
دعَوا موسى ٱبنه لبُكاء دَهرٍ * على موسى ٱبنه دخَل الحَزِيب
رأيتُ مَشَاهدَ الخلفاء منه * خَلاءً ما بساحتها مُجيب
ليَهْنِك أننى كهلٌ عليه * أذوبُ وفى الحشى كَبِد تذوب
أُصيبَ به البعيد فخَرّ حزنا * وعاين يومَهُ فيه القريب
أُنادى من بطون الأرض شخصا * يحرّكه النداء فما يُجيبُ
لئن نُعِيَت الحروبُ اليه نفسًا * لقد فُجِعت بمصرعه الحروبُ

وقال خزيمة بن الحسن يرثيه على لسان أم جعفر :

لخير إمام قام من خير عُنصُر * وأفضل سامٍ فوق أعواد منبر
لوارث علم الأولين وفهمهم * وللملك المأمون من أم جعفر
كتبتُ وعيني مُستهِلٌّ دموعُها * اليك ابن عمى من جفونى ومَحْجَرى
وقد مسّنى ضُرٌّ وذلٌّ كآبةٍ * وأرّق عينى يا ابن عمى تفكرى
وهِمتُ لما لاقيتُ بعد مصابه * فأمرى عظيم مُنكَرٌ جدّ مُنكَر
سأشكو الذى لاقيتُه بعد فقده * اليك شَكاة المستهام المُقهَّر
وأرجو لما قد مرّ بى مذ فقدتُه * فأنت لبثّى خير ربّ مُغيِّر
أتى طاهر لاطهّر الله طاهرا * فما طاهر فيما أتى بمُطَهَّر
فأخرجنى مكشوفةَ الوجه حاسرا * وأنهَبَ أموالى وأحرَق آدُرى
يَعِزّ على هارون ما قد لقيتُه * وما مرّ بى من ناقص الخَلْق أعور
فان كان ما أسدى بأمر أمرتَه * صبَرتُ لأمرٍ من قدير مُقدَّر
تذكّر أميرَ المؤمنين قرابتى * فديتُك من ذى حرمة مُتذكّر

وقال أيضا يرثيه :

سبحان ربّك ربّ العزّة الصّمَد * ماذا أُصِبْنا به فى صُبْحة الأحَد
وما أُصيب به الإسلامُ قاطبةً * من التّضعضُع فى رُكْنَيه والأوَد
مَنْ لم يُصَب بأمير المؤمنين ولم * يُصبح بمَهْلَكة والهمّ فى صُعُد
فقد أُصبتُ به حتى تبيّن فى * عقلى ودينى ودنياى وفى جسدى
يا ليلةً يَشتكى الإسلامُ مُدّتَها * والعالَمون جميعا آخرَ الأبَد
غَدرت بالملك الميمونِ طائرُه * وبالإمام وبالضّرغامة الأسَد
سارتْ اليه المنايا وهى تَرهَبُه * فواجَهَتْه بأوغاد ذوى عَدَد
بشُورَجِين وأغتامٍ يقودهم * قُرَيشُ بالبيض فى قُمْص من الزَّرَد

فصادفوه وحيدًا لا مُعين له * عليهم غائبَ الأنصار بالمَـــدَد
يجرّعوه المنايا غـيرَ مُمْتنِـع * فَرْدًا فيالك من مُسْتبسِلٍ فَـرَد
يَلْقى الوجوهَ بوجه غير مُبتـذَل * أبهى وأنْق من القُوهِيّة الجُـدُد
واحَسْرَتا وقريشٌ قـد أحاط به * والسيفُ مُرْتَعِد فى كَفّ مُرْتَعِد
فـا تحرّك بل ما زال منتصـبا * منكّسَ الرأس لم يُبدِئْ ولم يُعِـد
حتى اذا السيفُ وافى وسْطَ مَفْرِقه * أذرَتْه عنـه يداه فعـل مُتَّئِد
وقام فاعتلقتْ كفّاه لَبّتَـه * كضيغَمٍ شَـرِس مستبسِلٍ لَبِد
فاجترّه ثم أهـوى فاستقلّ به * للأرض من كَفّ ليث مُحْرَج حَرِد
فكاد يقتـله لو لم يُكاثِره * وقام منفَلِتـا منـه ولم يَكَد
هذا حديثُ أميرِ المؤمنين وما * نَقَصتُ من أمره حرفا ولم أَزِد
لا زلت أنْدُبه حتى المماتِ وإنْ * أخنى عليه الذى أخنَى على لُبَـد

وذكر عمر بن شَبة أن محمد بن أحمد الهاشمى حدّثه أن لُبَابة ابنة علىّ بن المهدى قالت البيتين الآتيين وقيل أنهما لابنة عيسى بن جعفر وكانت مُمْلَكة بمحمد :

أبكيك لا للنّعيم والأُنس * بل للمعالى والرّمح والتُّرْس
أبكى على هالكٍ فُجعتُ به * أرملَنى قبل ليـلة العُرس

هجاء يحيى[1] بن أكثم

وعدناك فى المجلد الأوّل أن نذكر مثلا من الهجاء قاله بعض الشعراء فى يحيى بن أكثم، وها هو ذا :

أَرّقه بَرْحُ الهــوى وسَــدِمُهْ * ومَــلّه الحبُّ فبات يألَمُــهْ
طورا يُعَــانيــه وطورا يَشْتُمُه * مثل الحــريق فى الحشا يُضَرِّمُهْ
ففاضتِ العينُ بدمع تَسجُمُه * نمّت عليــه كلّ شوق يكتُمُه
وباح بالحب الذى يُجَمجِمُــه * وبات والقلبُ يُسامِى هَمَّهُ
من لمحبٍ قــد تراه يرحمُــه * أصــبح بالبأســاء عارٍ أَنْعُمُهْ
طــال تَصــابيه وطال سَــقَمه * وبَلِى الجسم ورَقّت أعظُمُه
يَشهــدنى الله على من يَظلِمُه * يمنعه طعــم الكرى ويحرِمُه
واهًا له يصرِم من لا يصرِمُه * أصبح هذا الدين رَثًّا رِمَمُــه
عطّله الجَــور وطال قِــدَمُه * سَحت من الجوْر عليــه دِيَمــه
فَبَــادَ مغنى رَبْعِــه وأرسُمُــه * إلا بقــايا قــومِه وحُمَمُهْ
أوطَنَه الجــور فأضحى مَعلَمُــه * يَرود فيــه شاؤه ونَعَمُــه
من يَشْهَد الجــور فنحن نَعلَمُــه * أنوَكُ قاضٍ فى البــلاد نعلَمُــه
يقــول حقــا لا تُعَيّث ترجُمُــه * مــذ وَلِىَ الحكمَ أُبيح حَرَمُــه
وانتُهِكتْ من القضــاء حُرَمُه * واضــطربت أركانُه ودِعَمُــه
والله يَبْنِيــه ونحن نهــدِمُه * يا ليت يحيى لم يَلِده أكثَمُهْ
ولم تَطأْ أرضَ العــراق قَــدَمُه * ملعــونةٌ أخــلاقه وشِيَمُــه[2]

(١) أنظر ما كتبناه عن يحيى بن أكثم فى المجلد الأوّل (ص ٤٤٠) .
(٢) حذفنا بعد هذا البيت أربعة أبيات رأينا أنها تنافى الآداب العامة .

والله والله لقـد حَلّ دمُـه * لو أن للدِّين عمادا يدعمُـه

يعـدل عنـه الميلَ أو يقوِّمُه * لكان قد رنّ عليـه مأتمُـه

أرجو ويقضى اللهُ لا يُسَـلِّمه * من وجهـه هـذا ولكن يقصمُه

* بالسيف اذ حلت عليه نقمه *

وصف ثورة بغداد وحريقها

أما ما أصاب بغداد من سَلْبٍ ونهب وتحريق وتخريب وفتنة شعواء وقتل ودماء، فانا نترك الكلمة فى ذلك لشعراء ذلك العصر.

قال الأعمى يصف دمار الحرب :

تقطّعتِ الأرحامُ بين العشائر * وأسلَمهم أهلُ التقى والبصائر
فذاك انتقامُ الله من خَلْقه بهم * لما اجترَموه من ركوب الكبائر
فلا نحن أظهرنا من الذنب توبةً * ولا نحن أصلحنا فسادَ السرائر
ولم نستمع من واعظٍ ومذكِّر * فَينجَعَ فينا وعْظُ ناهٍ وآمر
فابكِ على الإسلام لما تقطّعت * عراه ورجّى ضرَّه كلّ كافر
فأصبح بعضُ الناس يقتل بعضَهم * فمن بين مقهورٍ عزيزٍ وقاهر
وصار رئيسُ القوم يحمل نفسه * وصار رئيسا فيهم كلُّ شاطر
فلا فاجر للبرّ يحفظ حرمة * ولا يستطيع البرّ دفعًا لفاجر
تراهم كأمثال الذئابِ رأتْ دمًا * فأمّته لا تلوى على زَجْر زاجر
وأصبح فُسّاقُ القبائل بينهم * تسلّ على أقرانها بالخناجر
فابك لِقتلَى من صديقٍ ومن أخ * كريم ومن جار شفيقٍ مجاور
ووالدةٍ تبكى بحزنٍ على ابنها * فيبكى لها من رحمةٍ كلُّ طائر
وذاتِ حليلٍ أصبحت وهى أيِّمٌ * وتبكى عليه بالدموع البوادر
تقول له قد كنتَ عِزّا وناصرا * فغُيِّب عنى اليوم عزّى وناصرى
وأبك لإحراقٍ وهدمِ منازل * وقتلٍ وإنهاب اللهى والذخائر

وإبراز ربّات الخدور حواسرا * خرجن بلا خُمْـرٍ ولا بمآزر
تَراها حَيارى ليس تعرف مَذْهَبًا * نوافرَ أمثالَ الظبـاء النوافـر
كأن لم تكن بغدادُ أحسنَ مَنْظَرا * ومَلْهًى رأته عينُ لَاهٍ وناظـر
بلى هكذا كانت فَأَذْهَب حسنَهـا * وبدّد منها الشَّمْلَ حكمُ المَقـادر
وحلّ بهم ماحلّ بالنـاس قبلهـم * فأضحَوْا أحاديثا لبَـادٍ وحاضـر
أبغـدادُ يا دارَ المـلوك ومُجْتَنَى * صروف المنـايا مسـتقرّ المنـابر
ويا جَنّـةَ الدنيـا ومطَّلَبَ الغنى * ومستنبطَ الأموال عنـد الضرائر
أبيني لنـا أين الذين عَهِدتُهم * يحلّون فى روضٍ من العيش زاهر
وأين ملوك فى المواكب تَغْتَـدى * تُشَبَّه حسـنا بالنجوم الزواهر
وأين القضـاة الحاكمون برأيهـم * لو رْدّ أمور مشـكلاتِ الأوامر
أو القـائلون النـاطقون بحكمـة * ورَصْفِ كلامٍ من خطيبٍ وشاعر
وأين مراح[1] للملوك عهِدتُهـا * مزخرفةً فيهـا صنوفُ الجواهر
تُرَشّ بمـاء المسك والورد أرضُها * يَفُوحُ بهـا من بعد ريح المَجامر
ورَوْحِ النّدامى فيــه كلّ عَشِيّة * الى كل فَيّـاض كريم العنـاصر
وأين قِيانٌ تستجيب لنغمـها * اذا هـو لبّـاها حَنينُ المزامر
وأين الملوك الغُـرُّ من آل هاشم * وأشياعهم فيها اكتفوا بالمعـاذر
يروحون فى سلطانهم وكأنهم * يروحون فى سلطان بعض العشائر
يجـادل عمـا نالهم كبراؤهم * قتـالتهمو بالكُرْه أيدى الأصاغر
فأُقسم لو أن الملوك تناصروا * لَزَلّتْ لهـا خوفًا رقابُ الجبـابر

(١) كذا فى الأصل ولعلها صروح ٠

وقال عمرو بن عبد الملك الورّاق يبكى بغداد ويهجو طاهرا ويعرّض به :

من ذا أصابكِ يا بغـداذُ بالعيْنِ * ألم تكونى زمانًا قـرّة العيْنِ
ألم يكن فيـك أقوامٌ لهم شرف * بالصّالحـات وبالمعروف يَلْقَوْنى
ألم يكن فيك قومٌ كان مسكنُهم * وكان قربُهُم زينا من الزّيْن
صاح الزمانُ بهم بالبيْن فانقرضوا * ما ذا الذى فجعتنى لوعـة البيْن
أستودعُ اللهَ قومًا ما ذكرتُهمو * ألاّ تحـدّر ماءُ العـين من عينى
كانوا ففرّقهم دهرٌ وصدّعهم * والدّهر يَصْدَع مابين الفريقيْن
كم كان لى مُسْعِد منهم على زَمَنى * كم كان منهم على المعروف من عَوْن
لله درُّ زمان كان يجمعنا * أيْن الزمانُ الذى ولّى ومن أيْن
يا من يُخَـرّب بغـدادًا ليعمرُها * أهلكتَ نفسك ما بين الطريقيْن
كانت قلوبُ جميع الناسِ واحدةً * عينا وليس يكون العيْن كالدّيْن
لما استبيتهـمُ فرّقتهـم فـرقًا * والنـاس طُرًّا جميعـا بين قلبيْن

ولبعض فتيان بغداد :

بكيتُ دمًا على بغـداد لما * فقدتُ غضارةَ العيش الأنيقِ
تبـدّلنـا همـومًا من سرور * ومن سَعَةٍ تبـدّلنا بضيق
أصابتها من الحُسّـاد عينٌ * فأفنت أهلَهـا بالمنْجنيـق
فقـومٌ أُحْرِقوا بالنـار قَسْرًا * ونائحـةٌ تنـوح عـلى غريق
وصـائحةٌ تُنـادى وَاصَـباحا * وباكيةٌ لفقْدان الشّـفيق
وحـوراءُ المـدامع ذاتُ دَلّ * مضمّخَة المجاسـد بالخَـلُوق
تفِرّ من الحريق الى انتهابٍ * ووالدُها يفـرّ الى الحـريق

ومَائِلةُ الغزالةِ مُقْلتيها * مَضاحِكها كَلألاءة البُروق
حَيَارَى كالهدايا مُبْكِرات * عليهن القلائدُ فى الحُلوق
يُنادِين الشفيقَ ولا شفيقٌ * وقد فَقَد الشفيقُ من الشفيق
وقومٌ أُخرِجوا من ظِلّ دُنيا * متاعُهمُ يُباع بكل سُوق
ومُغْتَرِبٌ قريبُ الدار مُلْقًى * بلا رأسٍ بقارعةِ الطريق
توسّط من قِتالهمُ جميعا * فما يدرون من أى الفَريق
فلا ولدٌ يُقيم على أبيه * وقد هَرَب الصّديق من صديق
ومهما أَنْسَ من شىء تولّى * فإنى ذاكر دار الرّقيق

بيان المصادر العربية والافرنجية الهامة

التى عولنا عليها فى المراجعة لكتاب عصر المأمون

نثبت لك هنا الهام من مراجع الكتاب عدا دواوين الشعراء ومعجمات اللغة التى أشرنا اليها فى مواضعها من الكتاب وهوامشه . وهى :

المصادر باللغة العربية :

تاريخ الطبرى ، طبعة مصر وليدن .

تاريخ الكامل لابن الأثير، طبعة مصر.

تاريخ مروج الذهب للمسعودى، طبعة مصر وباريس .

تاريخ اليعقوبى ، طبعة ليدن باشراف المسيو هتسما .

تاريخ أبى الفدا للملك المؤيد ، طبعة الأستانة .

تاريخ علماء الأندلس لأبى الوليد عبدالله محمد بن يوسف، طبعة أوربا .

تجارب الامم لابن مسكويه ، طبعة مصر.

تاريخ العبر والمبتدا والخبر لابن خلدون ، طبعة مصر .

الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى ، طبعة ليدن .

نظم الجوهر لابن البطريق ، طبعة أكسفورد سنة ١٦٥٩ للمستشرق ادوار بوكوك .

تاريخ دمشق لابن عساكر، مخطوط .

تاريخ المشارقة لصليبا بن يوحنا ، مخطوط .

تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، مخطوط .

تاريخ بغداد لابن طيفور (الجزء السادس طبعة أوربا) .

تاريخ التشريع الاسلامى للمرحوم الخضرى بك، طبعة مصر .

تاريخ الآداب السلطانية والدول الاسلامية لابن طباطبا ، طبعة أوربا .

تاريخ النجوم الزاهرة لابن تغريبردى ، طبعة أوربا .

البدء والتاريخ لأبى زيد البلخى ، طبعة باريس سنة ١٨٩٩ «أرنست لرو» .

الآثار الباقية للبيرونى ، طبعة ليبسك .

*

مختصر تاريخ الدول لأبي الفرج الملطي ، طبعة بيروت .
تاريخ الاسحاقي ، طبعة أوربا .
فتوح الشام للواقدي ، طبعة مصر .
نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، طبعة مصر .
ولاة مصر وقضاتها للكندي ، طبعة بيروت .
مختصر أخبار الخلفاء لابن الساعي ، طبعة مصر .
كشف الظنون لحاجي خليفة ، طبعة الأستانة وليبسك ومصر .
المستطرف للابشيهي ، طبعة بولاق .
معجم البلدان لياقوت الحموي ، طبعة ليبسك ومصر .
المزهر للسيوطي ، طبعة بولاق .
الأحكام السلطانية للماوردي ، طبعة أوربا .
أعلام الناس للاتليدي ، طبعة مصر .
كتاب المعارف لابن قتيبة ، طبعة أوربا .
معجم الأدباء لياقوت الرومي ، طبعة مصر واشراف مرجليوث .
الفهرست لابن النديم ، طبعة ليبسك .
طبقات الأمم لابن صاعد ، طبعة بيروت .
طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ، طبعة مصر .
تراجم الحكماء للقفطي ، طبعة مصر .
طبقات الأدباء لعبد الرحمن الأنباري ، طبعة مصر .
وفيات الأعيان لابن خلكان ، طبعة مصر .
فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ، طبعة مصر .
الملل والنحل للشهرستاني ، طبعة مصر .
ألف باء ليوسف البلوي ، طبعة مصر .
مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ، طبعة دار الكتب .
فتوح البلدان للبلاذري ، طبعة ليدن .
كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذاني ، طبعة ليدن .
كتاب البلدان لليعقوبي ، طبعة ليدن .
مسالك الممالك للاصطخري ، طبعة ليدن .
المسالك والممالك لابن حوقل ، طبعة ليدن .
أحسن التقاسيم للمقدسي ، طبعة ليدن .
المسالك والممالك لابن خرداذبه ، طبعة ليدن .
الأعلاق النفيسة لابن رستة ، طبعة ليدن .
حسن المحاضرة للسيوطي ، طبعة مصر .
بلوغ الأرب في أحوال العرب للألوسي طبعة بغداد .
مقدمة الياذة هوميروس تعريب البستاني طبعة مصر .

حضارة الاسلام فى دار السلام لجميل مدور، طبعة مصر .
كتاب الأغانى للاصبهانى، طبعة بولاق والساسى .
الجزء الأول من كتاب الأغانى، طبع مطبعة دار الكتب المصرية .
نهاية الأرب، طبع مطبعة دار الكتب المصرية والنسخة الفتوغرافية بالدار .
صبح الأعشى، طبع مطبعة دار الكتب المصرية .
كتاب التاج المنسوب للجاحظ، طبع مطبعة دار الكتب المصرية .
كتاب الأمالى لأبى على القالى، طبع مطبعة دار الكتب المصرية .
كتاب الكامل للمبرد، طبعة مصر .
كتاب البيان والتبيين للجاحظ، طبعة مصر .
العمدة لابن رشيق، طبعة مصر .
كتاب المحاسن والمساوى للبيهقى، طبعة فردرك شوالى .
كتاب المحاسن والاضداد للجاحظ، طبعة ليدن .
كتاب البخلاء للجاحظ، طبعة مصر .
كتاب الحيوان للجاحظ، (نسخة فتوغرافية محفوظة بدار الكتب المصرية) .
كتاب الكشكول للعاملى، طبعة مصر .
سراج الملوك للطرطوشى، طبعة مصر .
كتاب الخراج لقدامة بن جعفر، طبعة ليدن .
كتاب الخراج لأبى يوسف، طبعة بولاق .
تاريخ الوزراء المنسوب للصولى، طبعة بيروت .
أشهر مشاهير الاسلام، للمرحوم رفيق العظم بك، طبعة مصر .
كتاب نفح الطيب، طبعة مصر وأوربا .
مفاتيح العلوم للخوارزمى، طبعة مصر .
مفيد العلوم للخوارزمى، طبعة مصر .
كتاب المواهب الفتحية للمرحوم الشيخ حمزة فتح الله، طبعة مصر .
كتاب السيرة لابن هشام، طبعة مصر .
مقدمة ابن خلدون، طبعة مصر .
خطط الشام للاستاذ محمد كرد على، طبعة دمشق .
مجموعة مجلة المشرق، طبعة بيروت .
مجموعة مجلة المجمع العلمى، طبعة دمشق .
مجموعة مجلة الهلال، طبعة مصر .
مجموعة مجلة المقتطف، طبعة مصر .
بعض فصول ومباحث من المجلة الأسيوية .
حديث الأربعاء للدكتور طه حسين، طبعة مصر .

منهل الرواد فى علم الانتقاد لقسطاكى الحمصى بك، طبعة مصر .
محاضرات الأستاذ الاسكندرى المدرس بدار العلوم، طبعة مصر .
الوسيط للاستاذ الاسكندرى المدرس بدار العلوم، طبعة مصر .
أدبيات اللغة العربية للاستاذ مصطفى صادق الرافعى، طبعة مصر .
أدبيات اللغة العربية للمرحوم عاطف بركات بك وزملائه، طبعة مصر .
مهذب الأغانى للمرحوم الخضرى بك، طبعة مصر .
بلاغة العرب للدكتور أحمد ضيف، طبعة مصر .
الشعر والشعراء لابن قتيبة، طبعة ليدن .
طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى، طبعة ليدن ومصر .
كتاب الأذكياء لابن الجوزى، طبعة مصر .
العقد الفريد للملك السعيد، طبعة مصر .
العقد الفريد لابن عبد ربه، طبعة مصر .
لطائف المعارف للثعالبى، طبعة ليدن .
عيون الأخبار لابن قتيبة، طبعة دار الكتب وأوربا .
حلبة الكميت، طبعة بولاق .
خزانة الأدب لابن حجة الحموى، طبعة بولاق .
خزانة الأدب للبغدادى، طبعة بولاق .
محاضرات الفلسفة لسنتلانه بالجامعة المصرية .
محاضرات علم الفلك بالجامعة المصرية للسنيور كرلو نلينو، طبعة روما .
مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاشكبرى زاده، طبعة حيدر آباد .
محاضرات الشيخ عبد الوهاب النجار بالجامعة المصرية .
محاضرات المرحوم الشيخ محمد المهدى بالجامعة المصرية .
محاضرات الأستاذ الخضرى بك فى تاريخ الأمم الاسلامية، طبعة مصر .
محاضرات الأستاذ الخضرى بك فى تاريخ الدولة الأموية، طبعة مصر .
التمدن الاسلامى للمرحوم جورجى بك زيدان، طبعة مصر .
تاريخ آداب اللغة العربية للمرحوم جورجى بك زيدان، طبعة مصر .
طبقات ابن سعد، طبعة أوربا .
طبقات الشافعية للسبكى، طبعة مصر .
المنثور والمنظوم لابن طيفور .
رسالة بنى أمية للجاحظ، خطية .

الأوراق للصولى، خطية .
مطبوعات تذكار جيب الانجليزية وخاصة مؤلفات الأستاذين مرجليوث وبرون .
زهر الآداب للحصرى، طبعة مصر .
المشتبه فى أسماء الرجال للذهبي، طبعة أوربا .
الوافى بالوفيات للصفدى (المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٢١٩) .
أخبار أبى نواس لابن منظور، طبعة مصر .
رسائل البلغاء للأستاذ محمد كرد على، طبع مصر .
جمهرة أشعار العرب لأبى زيد، طبعة مصر .
المفضليات للضبى، طبعة مصر .
حماسة البحترى، طبعة بيروت .
الصناعتين لأبى هلال العسكرى، طبعة مصر .
الموشى لأبى الطيب، طبعة أوربا .
ديوان الحماسة لأبى تمام، طبعة مصر .
مجانى الأدب وشرحه، طبعة بيروت .
مختارات البارودى، طبعة مصر .
حياة الحيوان للدميرى، طبعة مصر .
عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي (أجزاء منه محفوظة بدار الكتب المصرية) .
الفرج بعد الشدة للتنوخى، طبعة مصر .

المصادر الافرنجية :

Histoire des Arabes par Cl. Huart: Paris.

Life of Mohamet by Sir W. Muir. (London).

The Life and Teachings of Mohammed and the Spirit of Islam by Ameer Ali. (London).

D. S. Margoliouth: Mohammed and the Rise of Islam. (London) in "Heroes of the Nations' Series".

H. Lammens: "Etudes sur les régnes des Califs Omaiyades Moawia 1er et Yasid 1er". (Beyrouth).

Library of Universal History (N. Y.).

History of Arabic Literature: Cl. Huart. (London).

A Literary History of Persia: Ed. G. Browne. (London).

A Literary History of the Arabs by R. A. Nicholson. (London).

Short History of the Saracens by Ameer Ali, (London).

The Caliphate: its rise decline and fall by Sir W. Muir. (London).

Annals of the Early Califphate by Sir W. Muir. (London).

Baghdad during the Abbasia Caliph by G. le Strange. (Oxford).

Encyclopaedia of Islam. (Luzac).

Encyclopaedia Britannica. (London).

La Grande Encyclopédie. Paris.

The Historians' History of the World by H. S. Williams. (New York).

Ency. of Religion & Ethics by I. Hastings. (London).

The History of the Declins and Fall of the Roman Empire by Gibbon. (London).

The History of Philosoply in Islam by J. de Bœr translated by Jones. (London).

Muhammedanische Studien by Ignaz Goldziher, (Halle).

Histoire des Musulmans d'Espagne Jusqu' à la Conquête de l'Andalusie par les Almoravides by R. Dozy. (London).

Development of Muslim Theology, Jurisprudence and Constitutional Theory by D. B. Macdonald. (London).

Margoliouth's Works Etc.

(مطبعة دار الكتب المصرية ٥٤٩/١٩٢٧/٢١٥٠)


Bibliotheca Alexandrina
0426670